



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

البيات الكالح

في
بِئْسَ لَوْمَةُ الْمُرَاتِبِ

لِقَوْمِ الْحِزْبِ

اشتهر به
بشير بن الخصاصية

بشير بن الخصاصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البدائع في علوم القرآن

كاتب:

محمد بن ابي بكر بن ايوب زرعى

نشرت في الطباعة:

دار المعرفة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٨	البدايع في علوم القرآن
١٨	اشاره
١٨	اشاره
٢٤	مقدمه
٢٩	مصنفات المحقق
٢٩	(١) كتاب: «بدايع التفسير»:
٣٠	(٢) كتاب: «جامع الفقه»
٣٠	(٣) كتاب: «جامع الآداب»:
٣٠	(٤) «جامع السيره»:
٣٠	(٥) «المختار من الفتاوى»:
٣١	(٦) ثم كان: «لبدايع في علوم القرآن»:
٣٧	الوقفات الثلاثة في علم علوم القرآن
٣٧	١- الوقفه الأولى في بدء كتابه و تدوين العلوم:
٤٠	٢- الوقفه الثانيه: كتابه الوحي:
٤١	٣- الوقفه الثالثه:
٤٧	فصل أول المصنفات المستقله في هذا الفن
٤٨	فصل علوم القرآن و الرد على الشبهات
٥٦	فصل في منهج ابن القيم في التفسير
٥٦	اشاره
٦٠	أهم قواعد منهج ابن القيم
٦٠	اشاره
٦٤	عرف القرآن
٧٠	فصل

٧٢	بيان تعظيمه للقرآن الكريم
٧٦	ابن القيم و التفسير العلمى
٧٩	فصل فى ترجمه الإمام ابن القيم
٧٩	اشاره
٨٣	فصل
٨٧	فصل
٨٧	اشاره
٨٨	١-«اجتماع الجيوش الإسلاميه»:
٨٨	٢-«أحكام أهل الذمه»:
٨٨	٣-«إعلام الموقعين عن رب العالمين»:
٨٩	٤-«أسماء مؤلفات ابن تيميه»:
٨٩	٥-«إغائه اللهفان من مصايد الشيطان»:
٨٩	٦-«إغائه اللهفان فى حكم طلاق الغضبان»:
٨٩	٧-«بدائع الفوائد»:
٨٩	٨-«التبيان فى أقسام القرآن»:
٩٠	٩-«تحفه الودود فى أحكام المولود»:
٩٠	١٠-«تهذيب سنن مختصر أبى داود»:
٩٠	١١-«جلاء الأفهام فى الصلاه و السلام على خير الأنام»:
٩٠	١٢-«حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»:
٩٢	١٣-«الداء و الدواء»:
٩٢	١٤-«الرساله التبوكيه»:
٩٢	١٥-«روضه المحبين و نزهه المشتاقين»:
٩٢	١٦-«الروح»:
٩٢	١٧-«زاد المعاد فى هدى خير العباد»:
٩٣	١٨-«شفاء العليل فى مسائل القضاء و القدر و الحكمه و التعليل»:
٩٣	١٩-«الصواعق المرسله على الجهميه و المعطله»:

- ٢٠- «طريق الهجرتين و باب السعادتين»: ٩٣
- ٢١- الطرق الحكيمه فى السياسه الشرعيه»: ٩٣
- ٢٢- «عده الصابرين و ذخيره الشاكرين»: ٩٣
- ٢٣- «الفروسيه»: ٩٣
- ٢٤- «الفوائد»: ٩٥
- ٢٥- «كتاب الصلاه و حكم تاركها»: ٩٥
- ٢٦- «الكافيه الشافيه فى الانتصار للفرقه الناجيه»: ٩٥
- ٢٧- «لكلام على مسأله السماع»: ٩٥
- ٢٨- «لكلم الطيب و العمل الصالح»: ٩٥
- ٢٩- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين»: ٩٥
- ٣٠- «مفتاح دار السعاده و منشور أليه العلم و الإراده»: ٩٦
- ٣١- «المنار المنيف فى الصحيح و الضعيف»: ٩٦
- ٣٢- «هدايه الحيارى فى أجوبه اليهود و النصرى»: ٩٦
- فصل [كتابين منسوبين الى ابن القيم] ٩٧
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن (١) [أو اخبار النساء] ٩٧
- اشاره ٩٧
- أولاً: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»: ٩٨
- ثانياً: إن وسائل إثبات صحه نسبه الكتاب لمؤلفه، ٩٨
- ثالثاً: محاوله تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»: ٩٩
- ضروره الوحى ١٠٦
- مكانه الوحى ١٠٦
- مراتب الوحى [النبوى] ١٠٦
- مراتب الهدايه الخاصه و العامه ١٠٧
- قلم تعبير الرؤيا ١٢٠
- اشاره ١٢٠
- و الرؤيا الصحيحه أقسام: ١٢٠

١٢٢	نزول القرآن الكريم
١٢٢	وقت نزول القرآن
١٢٢	أول ما نزل من القرآن
١٢٥	أسباب النزول
١٢٥	أمثله من أسباب النزول
١٢٥	من سورة البقره
١٢٥	من سورة آل عمران
١٢٥	من سورة النساء
١٢٥	من سورة المائده
١٢٩	من سورة المائده
١٢٩	من سورة الأنعام
١٣٠	من سورة إبراهيم
١٣٢	من سورة الأحزاب
١٣٣	المعوذتين
١٣٥	المكى و المدنى
١٣٥	مثال المكى
١٣٦	مثال المدنى
١٣٨	جمع القرآن الكريم
١٣٨	كتاب الوحى
١٣٨	اشاره
١٣٨	جمع عثمان رضى الله عنه الناس على مصحف واحد
١٣٨	اشاره
١٣٨	تحريق عثمان رضى الله عنه المصاحف
١٤٠	القراءات
١٤٠	القراءه بالأحرف السبعه و غيرها
١٤٠	الجمع بين القراءات

- ١٤١ النهى عن التنطع و الغلو فى النطق بالحرف
- ١٤٢ مثال للقراءات
- ١٤٧ فواتح السور
- ١٤٧ بيان
- ١٤٩ مقاصد السور و الآيات
- ١٤٩ اشاره
- ١٥٠ بيان بعض ما تشير إليه
- ١٥٠ دلالة السور و الآيات على الغزوات
- ١٥٠ اشاره
- ١٥٠ بعض الحكم و الغايات
- ١٦٧ الأمثال فى القرآن الكريم
- ١٦٧ قيمه المثل فى القرآن
- ١٦٧ حكمه ضرب المثل فى القرآن
- ١٦٧ أصول و قواعد من أمثال
- ١٦٩ فصل تدبر الأمثال التى وقعت فى القرآن
- ١٦٩ اشاره
- ١٧٠ مثل المقلّدين
- ١٧١ مثل المنفقين فى سبيل الله
- ١٧٣ مثل من أنفق ماله فى غير طاعة الله عزّ و جلّ
- ١٧٤ مثل فيمن انسلخ من آيات الله
- ١٧٦ و تأمل ما فى هذا المثل من الحكم و المعنى:
- ١٧٨ مثل الحياه الدنيا
- ١٧٩ مثل المؤمنين و الكافرين
- ١٧٩ المثل المائى و النارى فى حق المؤمنين
- ١٨٠ مثل فى بطلان أعمار الكفار
- ١٨١ مثل فى الكلمه الطيبه

- ١٨٤ ----- مثل الكلمه الخبيثه
- ١٨٥ ----- مثل فى تثبيت المؤمن
- ١٨٨ ----- التمثيل بالعبد المملوك
- ١٩٢ ----- فى تشبيهه من أعرض عن مثل الشرك
- ١٩٢ ----- اشاره
- ١٩٢ ----- قدره الذين يدعوههم المشركون من دون الله
- ١٩٣ ----- تمثيل أعمال الكافرين بالسراب
- ١٩٤ ----- مثل فى بيان حال الكفار
- ١٩٧ ----- مثل فى الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى
- ١٩٨ ----- مثل فى ضلال المشركين
- ١٩٨ ----- مثل الموحد و المشرك
- ١٩٩ ----- مثل المغتاب
- ٢٠٠ ----- مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به
- ٢٠٠ ----- مثل للكفار و مثلاً للمؤمنين
- ٢٠٢ ----- مثل فى تشبيهه من أعرض عن كلامه و تدبره
- ٢٠٣ ----- فصل فى الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال
- ٢٠٥ ----- المحكم و المتشابه
- ٢٠٥ ----- المحكم أصل للمتشابه
- ٢٠٥ ----- المتشابه و أنواع الإحكام
- ٢٠٥ ----- اشاره
- ٢٠٧ ----- و الإحكام له ثلاثه معان:
- ٢٠٧ ----- التحذير ممن يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنه
- ٢٠٧ ----- بيان خطأ الأخذ بالمتشابه فى رد المحكم
- ٢١٩ ----- الناسخ و المنسوخ
- ٢١٩ ----- حكمه النسخ فى القرآن
- ٢١٩ ----- اشاره

- ٢٢٠ حكم نسخ القرآن بالسنة
- ٢٢١ أمثله على النسخ
- ٢٣٢ الاستدلال في القرآن الكريم
- ٢٣٢ الاستدلال على الله تعالى
- ٢٣٤ الاستدلال بأسماء الله و صفاته
- ٢٣٥ الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ٢٣٧ من أساليب القرآن الكريم
- ٢٣٧ التحدى
- ٢٣٩ القرآن الكريم
- ٢٣٩ اشاره
- ٢٤٠ بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى
- ٢٤١ التدرج في التكليف
- ٢٤٣ العطف في القرآن الكريم
- ٢٤٣ الكلام على واو الثمانية (٢):
- ٢٤٩ تقديم بعض الكلام
- ٢٤٩ دخول الشرط على الشرط
- ٢٤٩ [صور دخول الشرط على الشرط]
- ٢٧٢ الروابط بين الجملتين
- ٢٨٨ القسم في القرآن
- ٢٨٨ من أحكام القسم
- ٢٨٩ أمثله من قسم القرآن
- ٢٩٤ ألفاظ القرآن و مقاصدها
- ٢٩٤ بيان الوجوه التي تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن
- ٢٩٥ من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ
- ٢٩٦ خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله
- ٢٩٨ من الألفاظ المكروهه

٢٩٩	بعض ألفاظ القرآن الكريم و مقاصدها
٢٩٩	اشاره
٣٠٥	فصل
٣٠٥	فصل
٣١٠	فصل
٣١١	فصل
٣١٢	فصل
٣١٤	فصل
٣١٥	فصل
٣١٦	فصل
٣١٦	فصل
٣١٧	فصل
٣١٩	فصل
٣٢٠	فصل
٣٢٠	فصل
٣٢١	فصل
٣٢١	فصل
٣٢٢	فصل
٣٢٤	فصل
٣٢٥	فصل
٣٢٦	فصل
٣٢٧	فصل
٣٢٨	فصل
٣٣٠	فصل
٣٣٠	فصل
٣٣٣	فصل

٣٣٤	فصل
٣٣٥	فصل
٣٣٧	فصل
٣٣٩	فصل
٣٤٢	فصل
٣٤٤	السلطان في القرآن
٣٤٨	السمع في القرآن
٣٤٩	الصبر في القرآن
٣٥٣	صلاة الله عز و جل على عباده في القرآن
٣٥٤	الفاجر في عرف القرآن
٣٥٤	القضاء والحكم والإرادة والكتابه
٣٤٣	تفسير القرآن و تأويله
٣٤٣	حقيقه التأويل
٣٤٣	درجات التأويل
٣٤٤	ما يدخل فيه التأويل و المجاز
٣٤٤	الأقوال في التأويل و بيان خطورته
٣٤٤	اشاره
٣٤٥	رأى الجويني في الكف عن التأويل
٣٤٥	رأى الغزالي في التأويل
٣٤٧	التأويل عدوّ كل الأديان
٣٤٨	أصناف المتأوله
٣٤٨	فتنه التأويل و بعض ما أحدثت
٣٤٩	رأى ابن رشد في التأويل
٣٧٠	مثل من أول شيئا من القرآن
٣٧١	أمثله للتأويل الفاسد
٣٧٩	التفسير بالرأى

- ٣٧٩ اشارة
- ٣٧٩ أقسام الرأى
- ٣٧٩ اشارة
- ٣٨٠ فالرأى الباطل أنواع:
- ٣٨٥ الآثار عن التابعين فى ذم الرأى
- ٣٨٨ موقف أهل الرأى من السنه
- ٣٨٨ كلام أئمه الفقهاء عن الرأى
- ٣٨٨ النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى
- ٣٩٠ من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع
- ٣٩٠ اشارة
- ٣٩٠ «عسى» من الله واجب
- ٣٩١ تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد
- ٣٩١ هل نقل من القرآن أحادا؟
- ٣٩٢ تفسير القرآن بالسنه
- ٣٩٢ اشارة
- ٣٩٩ منزله السنه من القرآن
- ٤٠٢ الكلام عن الزيادة المغيره لحكم شرعى
- ٤٠٤ فالجواب من وجوه:
- ٤٠٥ أنواع بيان الرسول صلى الله عليه و سلم
- ٤٠٩ هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟
- ٤٠٩ عوده إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخا
- ٤١٨ تخصيص القرآن بالسنه
- ٤٢٢ من تفسيرات النبى صلى الله عليه و سلم للقرآن
- ٤٢٢ اشارة
- ٤٢٢ تفسير الصحابه للقرآن و الأقوال فى الاحتجاج به
- ٤٢٣ بعض تفسير الصحابه يخالف الأحاديث

- ٤٢٥ ما أشكل على بعض الصحابه
- ٤٢٩ فضائل القرآن
- ٤٢٩ مكانه القرآن بين الكتب المنزله
- ٤٢٩ القرآن كثير الخير عظيم النفع
- ٤٢٩ القرآن كفيل بمصالح العباد فى المعاش و المعاد
- ٤٣٠ القرآن باب الله الأعظم الذى منه الدخول
- ٤٣٣ القرآن حق و صدق
- ٤٣٤ القرآن ذكر الله الأكبر
- ٤٣٥ القرآن فضل الله و رحمته
- ٤٣٥ القرآن ذكر للعباد
- ٤٣٦ القرآن تبصره للعباد
- ٤٣٧ محتوى خطاب القرآن
- ٤٣٩ فضل قارئ القرآن
- ٤٤٠ النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو
- ٤٤٠ القرآن متضمن لأدويه القلب،و علاجه من جميع أمراضه
- ٤٤٢ الآيات و السور التى يعتصم بها العبد من الشيطان
- ٤٤٥ العلاج بالقرآن
- ٤٤٥ هديه صلى الله عليه و سلم فى رقيه اللديغ بالفاتحه
- ٤٤٨ هديه صلى الله عليه و سلم فى علاج لدغه العقرب بالرقيه
- ٤٥١ فضل سوره الفاتحه
- ٤٥٣ فضل آيه الكرسي
- ٤٥٤ أجمع آيه لمكارم الأخلاق
- ٤٥٤ فضل سوره الملك
- ٤٥٤ فضل سوره الزلزله
- ٤٥٥ فضل المعوذتين
- ٤٥٥ فضل سوره الإخلاص

- ٤٥٦ ----- فضل سور:الإخلاص و الكافرون و الزلزله
- ٤٥٨ ----- ما صح من أحاديث في فضائل السور و الآيات
- ٤٥٩ ----- ما وضع في فضائل السور
- ٤٦٠ ----- آداب القرآن الكريم
- ٤٦٠ ----- سماع القرآن الكريم
- ٤٦٠ ----- السمع المستحب
- ٤٦١ ----- أدب استماع القراءة
- ٤٦١ ----- فضل سماع القرآن من الغير
- ٤٦٣ ----- المستمع للقرآن مستمع لله عز و جل
- ٤٦٣ ----- سماع الناس القرآن يوم القيامة
- ٤٦٤ ----- الشهقه عند سماع القرآن
- ٤٦٥ ----- عشق سماع القرآن
- ٤٦٥ ----- سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان
- ٤٦٦ ----- تدبر القرآن و كيفيه ذلك
- ٤٦٦ ----- اشاره
- ٤٦٨ ----- دعوه القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر
- ٤٧٦ ----- فوائد تدبر القرآن
- ٤٨١ ----- علاج المدبر عن سماع القرآن
- ٤٨٢ ----- هل الأفضل قله القراءه مع التدبر أو الكثره بدونه؟
- ٤٨٣ ----- العلم بالقرآن أفضل العلوم
- ٤٨٣ ----- تعلم قراءه القرآن
- ٤٨٤ ----- المقصود من تعلم القرآن
- ٤٨٤ ----- تحسين الصوت بالقرآن
- ٤٨٨ ----- هديه صلى الله عليه و سلم في قراءه القرآن،و استماعه و خشوعه،
- ٤٩٦ ----- البكاء عند سماع القرآن
- ٤٩٦ ----- تلاوه القرآن

٤٩٧	شروط الانتفاع بالقرآن
٤٩٩	موانع الانتفاع بالقرآن
٥٠١	أسباب تفاوت الناس في فهم القرآن
٥٠٣	كيفية تلاوه القرآن
٥٠٤	حكم قراءة الجماعة بصوت واحد
٥٠٤	في كم يختم القرآن؟
٥٠٥	دعاء ختم القرآن
٥٠٦	حكم قراءة القرآن بالفارسيه
٥٠٦	النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو
٥٠٦	حكم الموضوع لقراءة القرآن
٥٠٨	حكم قراءة الحائض القرآن و إعلال حديث المنع
٥٠٨	حكم مس المصحف للجنب و غيره
٥١٢	النهى عن المرأه في القرآن
٥١٣	حكم التسميه بأسماء القرآن
٥١٣	حكم قراءة القرآن للميت
٥١٦	شروط الواقف قراءة قرآن عند قبر
٥١٧	النهى عن قراءة القرآن في الركوع و السجود
٥١٨	سجدة القرآن
٥٢٠	سجود التلاوه في الانشقاق
٥٢١	جزاء المعرض عن القرآن
٥٢٦	المحتويات
٥٤٠	تعريف مركز

البدائع في علوم القرآن

اشاره

نام كتاب: البدائع في علوم القرآن

نويسنده: محمد بن ابى بكر بن ايوب الزرعى (ابن القيم الجوزيه)

موضوع: علوم قرآنى

تاريخ وفات مؤلف: ٧٥١ ق

زبان: عربى

تعداد جلد: ١

ناشر: دارالمعرفه

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤٢٧ / ٢٠٠٦

نوبت چاپ: دوم

ص: ١

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله تعالى، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي علمنا الله سبحانه على يديه الكتاب والحكمة.

و بعد...

لعل من الواضحات التي لا لبس فيها ما نراه الآن من اشتداد الحرب على العقيدة الموحدة لله تعالى، والشريعة المطهرة، هذه الحرب تأتي من كل مكان من الخارج، ومن الداخل، أما من الخارج فهذا أمر لا يثير كثيرا من ضيقنا بل يشحذ هممتنا، ثم لأنك لا تنتظر من عدوك خلاف ما حذرک الله منه: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَ لَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (البقره: ١٢٠).

ثم يأتي الرد القاطع بضلال هؤلاء الأعداء وأنهم ليسوا على شيء من الهدى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ .

ثم يأتي التحذير الشديد والوعيد الأكيد لكل من ظن أن في اتباعهم صلاح أو فلاح، وأن ترك بعض الدين لمظنه بعض الهدى عندهم ليس إلا تكذيبا لرب العالمين، وصدأ عن سبيله: وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ فالعلم النافع كله في دين الله تعالى، ظاهرا لا غموض فيه، بينا لا لبس فيه، إلا هو: كتاب الله تعالى و سنه نبينا صلى الله عليه وسلم.

و لعل بعض الطبيعيين يعتقد أن هؤلاء الأعداء قد يكون عندهم بعضا من حسن التيه تجاهنا، فحسم القرآن ذلك و حكم عليه بالبطلان التام حين بدأ الآيه بالنفى وَلَنْ تَرْضَى .

فيعتقد بعضنا حسن التيه تجاههم حتى و لو كانوا يأمرؤن بما يخالف الدين و ينهون عن

صريح الدين، بما نسميه الآن: بالحرب الفكرية، ويتحجبون بقوله تعالى: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المتقسطين (٨) [الممتحنه:٨].

فالله تعالى جعل من كمال دينه الإحسان إلى الخلق كلهم حتى الدواب، و هنا يبين لنا رفع الحرج عنا إن نحن عاملنا من لم يقاتلنا أو يساعد على قتالنا أو إخراجنا من ديارنا أن نعامله بالحسنى و العدل، أما الذين يجتمعون لقتالنا ماديا و معنويا لا برّ لهم و لا قسط معهم.

و يرى كل الخلق كيف يتعامل المسلم مع أهل الكتاب في بلاد الإسلام خصوصا الشرقيه منها، حيث ترى الإحسان و الفضل و حسن الجوار، بخلاف هؤلاء الذين لا يأمن المسلم على نفسه أو ماله و سطهم و هى دول تدعى الديموقراطيه و حريه الرأى.

أقول:نحن لا نحزن كثيرا إن جاء الضرر من هؤلاء الأعداء الخالص، إنما نحزن حين يأتى من أبناء جلدتنا، ممن يتحدثون بألسنتنا و قلوبهم مع عدونا.

و هذا الفريق أخطر على الإسلام من الكافر الصريح لأن هؤلاء المنافقون يحاربون الشريعه تاره بحجه تشدها، و يحاربون العقيدته بحجه تميزها و تفريقها بين الخلق، و يحاربون السلوك و الأخلاق بحجه عدم تعسير الحياه على الناس، فالفضيله عائق أمام الحريه و الإبداع و الانطلاق إلى العالميه و رضى أسيادهم علينا، و لا يهم بعد ذلك عندهم رضى الله تعالى!!

لأنهم فى البدء لا يعرفون الله تعالى و لا يقدرونه حق قدره، فأسقطوا هذا الجهل على الدين فأصبحوا يتكلمون فيه بلا علم، إنما بأفكار لها فى الغرب و الشرق، و ثمارها لأمة الإسلام حنظلا، حتى لا تقف على أرض العقيدته، و لا تستظل بظل الشريعه و لا تتحرك بنور الفضيله. فلا يبقى حصن أمامهم إلا و قد هدموه فينشأ ناشئ الفتیان منا مسخ، لا هو مسلم مستقيم و لا هو إنسان عاقل، فلا ينتفع به فى دين و لا دنيا و لا يعرف منفعتته من مضرته، بل لا يبقى له من الإسلام إلا الاسم و لا من العقل إلا القشر!!

و أعداء الله تعالى الآن لا يعرضون و لا يلمحون فى حربهم الشريعه و العقيدته، بل حرب صريحه مكشوفه.

فهم يكيلون للحدود الإسلاميه شتى ألوان الصفات التى إذا قرأها القارئ اقشعر بدنه و ظنّ فى هذه الأمه من صفات الهمجيه الكثير، فهى تقطع الرقاب، و الأيدى، و ترجم بالحجاره العشاق و أهل الحب أو تجلدتهم، و تقطع رقاب المفكر الذى يدعو إلى ترك الإسلام و الرده، لأن الاعتقاد أمر شخصى لا دخل لأحد فيه!

و أن الحفاظ على عفه البنات و ظهر النساء موروث فرعونى لا قيمه له، مع أنهم يقدسون الفراعنه و ينسبون كل فضيله لهم، و لكنه الهوى!!

إذا الحرب علانيه و المجاهره بالعداء ظاهر، و ليست سرا أو توريه!!

و المنافقون إخوانهم يسيطرون على الأقلام و الصحف، و على الإذاعات و السينما و المسارح التى كلها أبواق لتشكيل الإنسان وفق المخطط المدروس بدقه، و هى وسائل الثقافه الآن و للأسف.

و لكن!! إياك ثم إياك!! أن تظن ظن السوء بربك أو بدينك، بتسرب اليأس و القنوط إلى نفسك من النصر أو الإصلاح!!

فإن من ظنّ السوء بالخالق أن تعتقد أنه لا ينصر رسله و يعلى رسالتهم، و هو قد وعدنا بالنصر و العزه فقال سبحانه: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) [التوبه: ٣٣] و [الفتح: ٣٨] و [الصف: ٩] و كلها سور مدنيه، حتى لا- يعتقد بعضهم أن الظهور كان على أهل مكه، و دينهم الوثنى فحسب، لكن على دين أهل الكتاب و كتبهم التى حرفوها كذلك، و أهل الكتاب فى ذلك الوقت هم القوى العظمى عند البشر.

لكن تعالوا ننظر إلى الآيه السابقه لها من سوره التوبه و هى قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) [التوبه: ٣٢].

فهم يبذلون الجهد و المال لإطفاء نور الحق، و لكن كيف يطفئون نورا أذن الله له أن يشرق؟ و هو القرآن الكريم، كلام الله تعالى و روح منه، و لا حياه إلا بالروح، و من أذن الله له بالحياه كيف يمته مخلوق؟

و نور الله تعالى- أيضا- الدلالات و الحجج و البراهين على صحه توحيديه و أنه الحق، و لا- حق سواه، فهم فى شغل لتكذيب الحق، العناد و الكبر، أساس تكذبيهم.

فإذا كان يوم القيامه وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) [القصص: ٧٥].

و انظر إلى قوله تعالى بِأَفْوَاهِهِمْ لتعلم خطر صناعه الإعلام المعاصر من صحافه و إذاعه و تلفاز و دشات «و شبكات النت» و غير ذلك من شتى أنواع الدعايات التى تبث التكذيب و التضليل للصد عن سبيل الله تعالى، و نحن أولى بهذه الوسائل لنشر دين الله تعالى و هو الحق المبين.

ثم تأمل قوله تعالى وَ يَا أَبَى اللَّهِ لتعلم و تيقن أن الدين منتصر، و أن هذا الإباء فيه ما فيه من أسماء الحق تعالى و صفاته ما لا يحصى معناه إلا الله تعالى.

فكيف ينهزم هذا الدين؟ و إن تخاذل أصحابه عن نصره؟!

ثم تأمل معنى أَنْ يُتَمَّ فهو يتضمن الكمال المقصود في قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: ٣].

و هذا تم في حياته الشريفه صلى الله عليه و سلم، و يتضمن أيضا الانتشار في بقاع الأرض شرقا و غربا شمالا و جنوبا، سهلا و جبلا، و يشمل الغنى و الفقير، و القوى و الضعيف، و الرجال و النساء، كلهم يدخلون في دين الله تعالى و يكون الدين أحب إليهم من أنفسهم، يعيشون لرفعوا راياته و ينشروا أنوار الحق فيه، و تهون النفس استشهادا في سبيله و تراق الدماء محبه له.

ثم تأمل قوله تعالى في الآية (٣٣) لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ نَرَى أَوْلَا أَمَّهُمْ أسباب الظهور:

إن هذه الرساله المحمديه على الهدى التام، و التي بيانها في قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: ٩].

فهو يهدى للطريقه الأقوم، و السبيل الأعدل، و الأسدد قولا و فعلا و الأصوب حكما:

١- في العقيده: حيث التوحيد الخالص، و التنزيه التام لله تعالى، و التعظيم الكامل مع التوقير الحق الوافر له سبحانه.

٢- في الشريعه: بأقسامها من عبادات و معاملات... إلخ. حيث لا تجد شيئا منها إلا و هو صالح و مصلح للإنسان، و لو فتشت سنين عده، و أرجعت بصرك مرارا ما وقفت على شرع مثل هذا الشرع، يقود الإنسان إلى ربه بأحكم تشريع و أيسره.

٣- في الأخلاق: حيث العفه، الطهاره، و التزكيه، و الاستقامه، مما يصنع إنسانا يتحرك بنور الله إلى نور الله، فهو يتكلم بطاعته، و يفعل ما يرضى خالقه تعالى.

و مع هذا يحاسب نفسه و يظن بها الظنون، حتى لا- تحرقها نار الكبر، و لا تفتتها شهوه العجب، بل بين الخوف و الرجاء يسير و يتحرك.

و لو استعرضنا بعض المعاني في قوله تعالى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ لصنعنا مجلده ضخمه، و لكن من تأمل هذه الشريعه الغراء لوقف على صدق ما نقول (١).

ص: ١٠

إذا فهذه الرساله التي جاء بها النبي صلى الله عليه و سلم كامله الهدى فى تمام، و تامه الحق مع كمال.

وَ دِينَ الْحَقِّ هُنَا لِبَيَانِ أَنْ خِلافَهُ باطل، لا حق فيه، و إن ادعى أصحابه ذلك، و الحججه و البرهان تثبتان اشتمال دين الله على الحق و أنه لا حق إلا فى دين الله تعالى.

ثم قف و تأمل قوله تعالى لِيُظْهِرَهُ: هذا الظهور كان مع كمال الدين فى حياه النبي صلى الله عليه و سلم، حيث أظهره على أهل مكة ثم جزيره العرب من نصارى نجران و يهود المدينه، و غيرهم من الطوائف و الوفود التي أقبلت على نبي الله صلى الله عليه و سلم داخله فى دين الله تعالى أفواجا.

ثم هذا الظهور و العلو فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه و انتصاره على المرتدين و المكذبين، ثم أيام عمر و عثمان رضى الله عنهما، حيث الفتوحات شرقا و غربا، إلى الفتوحات الكبرى التي جعلت دين الله تعالى يظهر من شرق الصين إلى غرب إفريقيا و جنوبها، إلى جنوب أوروبا و غربها و شرقها إلى بلاد البلقان، إلى أوساط روسيا ثم اليابان شرق آسيا، فشبه القاره الهنديه، ثم الجزر الأندونيسيه و ما يحيط بها ثم استراليا.

ثم بعد ذلك أمريكا الشماليه و الجنوبيه... إلى حيث لا توجد بقعه على الأرض إلا و ينادى فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

و هذا الإقبال على الدين الحق و الدخول فيه تراه فى حال القوه، كما تراه عند ضعف المسلمين - كما هو الحال الآن - و لا حول و لا قوه إلا بالله.

فقد أسلم فى أمريكا وحدها بعد أحداث ١١ سبتمبر (٢٠٠١ م) عشرون ألفا (1) فضلا عن نفاذ كل ما يوجد من كتب بالمكاتب الفرنسيه و غيرها و التي تتحدث عن الإسلام.

و لو ترك الأمر للدعاه ينشرون دين الله تعالى، دون قيد أو تخويف أو حبس أو تعطيل لرأينا عجباً، و قد نرى أحيانا و نسمع ما لا يصدق عقل من إسلام أوروبيين و أمريكيين حتى أهل القبائل البسيطة فى إفريقيا.

ثم ما ذا نعم، ثم ما ذا بعد هذه المقدمه التي أرجو من الله تعالى أن يصدقنا فيها النيه... و التي ما أردت من ورائها إلا رجاء الله تعالى أن يثبتنا و إخواننا على ديننا، و يرد كيد المنافقين و المرجفين...ت.

ص: ١١

١- نشر هذا فى عده صحف عربيه و دوليه و على مواقع فى شبكه الأترنت.

أردت أخى القارئ الكريم أن نصل إلى اليقين بعظمه ديننا و صلاحه لكل زمان و مكان؛ و لكن لا بد أن نسعى لتعلمه و تعليمه، و نشره (١).

و من هذا المنطلق كان انشغالى بعلم الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى و من وقت طويل، لما خص الله به تعالى ابن القيم رحمه الله تعالى من فهم و علم و صدق.

و هنا أردت أن أضم كلامه فى كل باب من أبواب الدين مع بعضه حتى يكون كلام هذا الإمام مجموعا تحت عينيك مما يسهل البحث فى الموضوع الواحد. فكانت أول ثمار هذه الشجرة الطيبة:

مصنفات المحقق

(١) كتاب: «بدائع التفسير»:

و كان من أوائل هذا الجهد الذى أسأل الله تعالى أن يتقبله منى و ينفعنى و المسلمين به.

و هو «فى خمس مجلدات» (٢)، و قد حاولت قدر جهدى إخراج كلام الإمام ابن القيم فى التفسير مستوفيا، و جعل التفسير فى طبعته الجديده التى أقوم بها الآن أكثر رونقا و فائده للقارئ، مع إنزاله على أسطوانه لأجهزه الحاسوب (الكمبيوتر).

و هذا التفسير يجعل قارئه يكون نظره شامله دقيقه لمنهج مدرسه سلفيه كبرى فى التفسير... منذ الطبرى إلى ابن كثير فابن تيميه، لأن قواعد هذا العلم و أدواته استقاها ابن القيم رحمه الله تعالى من شيخه كما هو موضح فى مقدمه بدائع التفسير (٣).

هذا... و ترى إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى فى تفسيره ينحى منحى الترييه و السلوك و ما «يشكل» الوضع الاجتماعى بما يوافق الأخلاق الإسلاميه، فلا تكاد تمر بك آيه إلا و تحتها من ألوان الأدب العالیه، ما يجعلك تحقق من أهم معانى قوله تعالى إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (٤) بل تجزم أن تفسير ابن القيم للقرآن لا يخرج عن كونه بيانا لهذه الآيه الكريمه.

و تأمل حديثه عن تحويل القبله فى سوره البقره و الفوائد المستخلصه من غزوه بدر.

ص: ١٢

١- و تقوم بذلك بالطريقه التى تحب الناس فى ديننا لا تكرههم فيه، و تيسر على الناس لا تشدد عليهم، و أن يرى على وجوهنا البشر و السماحه لا العبس و الضيق، بما يشعر الآخرين بخلاف مقصدنا.

٢- و نحن الآن بصدد إعاده طبعه طبعه جديده تشتمل على أكثر من [٢٠٠] موضعا، مع فهرسه شامله وافيه.

٣- و سيأتى الكلام عن ذلك عند الحديث عن «بدائع فى علوم القرآن».

٤- كما سبق الإشارة إلى ذلك.

و تأمل كلامه عن قصه يوسف، و غير ذلك من المواضع المبهرة الداله على عقل راجح، و فكر مشرق، يفخر به المسلمون، و الذى لو تدبره الناس و تدارسوه لاستغنوا عن كثير من الجهالات، التى بهرت أجيالا كامله من شباب الأمه، و ليس هذا إلا بسبب جهلنا بديننا و ابتغائنا العزه فى غيره.

(٢) كتاب: «جامع الفقه»

ثم كان كتابى: «جامع الفقه» (١) و هو فى سبع مجلدات و قد اعتنى به إخوانى فى دار الوفاء، لإخراجه فى صورته مبهره من فهارس و طباعه.

و هذا الكتاب رتب وفق كتب المذهب الحنبلى، حتى يسهل الوقوف على مسائل الفقه فى يسر، مع سهوله ذلك أيضا من خلال الفهارس، و قد جعلت فى أوله باب النيه اقتداء بالإمام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه و قد لقي هذا استحسانا من كثره و افره من أهل العلم و طلابه و الحمد لله رب العالمين.

(٣) كتاب: «جامع الآداب»:

و هو فى أربع مجلدات جمعت فيه أبواب الأخلاق و السلوك، كما وضحت فى مقدمته (٢).

(٤) «جامع السيره»:

جمعت فيه السيره النبويه فى مجلد، بما يمكن القارئ من الوقف على أهم الأحداث التى تمت فى حياه النبى صلى الله عليه و سلم.

و بينت فى مقدمته ذلك، و بيان أنه مع صغر حجمه لكنه من دقائق السيره و فقهها (٣).

(٥) «المختار من الفتاوى»:

و سوف يصدر بحول الله تعالى فى مجلدين كبيرين و قد رتبته على أبواب العلم:

ص: ١٣

١- أصدرته «دار الوفاء» فى سبع مجلدات لصاحبها أخى و صديقى المحترم المهندس عاصم شلبى و هو مثال للأخوه و الرجوله جزاهم الله خيرا.

٢- و سوف يعاد تحقيقه على الصوره المثلى إن شاء الله تعالى مع إعاده بعض الترتيب، حيث خرج فى ظل أحوال حالت بينى و بين مكتبتي نسأل الله العافيه و السلامه.

٣- و اعتنت بنشرها دار الوفاء، جزاهم الله خيرا.

أولها: العقيدة، الفقه و هكذا.. و هو على صوره سؤال و جوابه.

و قد انتقيت فيه أهم المسائل التي هي أقرب إلى الواقع الآن، بحيث يصبح مرجعا يسيرا لهذه الأبواب على غرار الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى عليه، و فصلت ذلك في مقدمته (1).

(٦) ثم كان: «البدائع في علوم القرآن»:

و هو كتاب لطيف حاولت بعون الله تعالى جمع ما تكلم فيه ابن القيم رحمه الله تعالى في هذه العلم الشريف.

و جعلت هذا العمل كالمقدمه لكتايب الكبير «بدائع التفسير» بحيث يضم إليه لتكون مكتبه التفسير و علومه لهذا الإمام الجليل.

و إليك التفصيل:

١- فصل في:

أ- تعريف «علوم القرآن» من حيث التركيب:

يتكوّن هذا التركيب الإضافي من جزئين:

- «علوم» و هو المضاف.

- «القرآن» و هو المضاف إليه.

و المقصود من الجزء الأول منه و هو «علوم» و هو جمع «علم» و يقصد به:

- تلك المسائل التي يبحث عنها في هذا العلم.

أما المضاف إليه و هو «القرآن الكريم»:

فهو كلام رب العالمين الذي نزل به الروح الأمين جبريل، على قلب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و سلم بلسان عربي مبين.

- و لفظ «القرآن» مصدر مرادف للقراءه، لقوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ

ص: ١٤

١- يقوم الآن الأخوه الكرام «بدار المعرفة» بنشره هو و «البدائع في علوم القرآن».

و قال بعض أهل العلم أنه من القرء بمعنى الجمع أو من قرنت الشيء بالشيء...

إلخ (١).

و بذلك يدخل تحت هذا المعنى: علم التفسير و شروطه، و شروط المفسر، و إعجاز القرآن، و القراءات، و أسباب التنزيل، و النسخ و المنسوخ، إلى آخر تلك المباحث المتعلقة بهذا التعريف من حيث كونه مركبا إضافيا.

و أما من ناحيه معنى «علوم القرآن» كعلم، فيراد به:

تلك الأبحاث الداله على الفن المدون تحته أبحاث نزول القرآن و بدء الوحي و مكانه و زمانه، إلى آخره.

و على هذا فعلم «علوم القرآن» من ناحيه كونه مركب إضافي، أو من ناحيه كونه علما فهو العلم الذى مداره دراسه ما يتعلق بهذا الكتاب العظيم. و لن نخوض فى قضايا منطقيه مفتعله حول بعض الأبحاث المتعلقة بالتعريف و كونه للكليات لا للجزئيات فنحن نبحت الأمر على قواعده الأولى، قبل أن يخالط الماء الخبث، و دخول الريب على العقول.

٢- إذا فعلم «علوم القرآن» يندرج تحته كمّ هائل من العلوم، جعله غير واحد من أهل العلم كباب مستقل، كما سيأتى.

فهل لهذه العلوم حصر أم متجدده؟

ذهب بعض أهل العلم (٢) إلى أن علوم القرآن الكريم تبلغ (٧٧٤٥٠) سبعون ألف و سبعة آلاف و أربعمائه و خمسون علما.

يعنى: على عدد كلم القرآن مضروبه فى أربعة، لأن لكل كلمه ظهرا و بطنا، و حدا و مطالعا.

و هذا فى المفردات، أما باعتبار التراكيب و ما بينها من روابط فهى لا تحصى، و لا يعلمها إلا الله تعالى. ي.

ص: ١٥

١- انظر لسان العرب ماده قرأ، و كتاب العلم للشافعى ١٢، و الرساله ص ١٤ و مقدمه تفسير ابن عطيه (٢٨١).

٢- الإمام أبى بكر ابن العربى رحمه الله تعالى.

و ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين خاصة أرباب الإشارات، و مال له أيضا السيوطى فى الإتقان.

و المتتبع بحياد ما دَوّن مفصلا فى هذا الفن يعلم أن الأمر فيه من المبالغه ما يفوق حد العقل و الواقع.

و ليس معنى هذا أنه علم حصر و احترق لا ابل يفتح الله تعالى على عباده من الأفهام التى تستنبط و تفصل فى هذه العلوم، ما قد يكون له حظ وافر من قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)[الكهف: ١٠٩].

كما سيأتى تفصيله فى محله إن شاء الله تعالى.

٣- و حتى يتعاش القارئ الكريم مع ما ذكر، نذكر أشهر و أهم تلك العلوم التى اشتهر عن علماء هذا الفن وضعها تحت ظلاله:

١- علم بدء الوحى و كلفيته.

٢- علم معرفه المكى و المدنى.

٣- علم معرفه أول ما نزل و آخره.

٤- علم معرفه أسباب النزول.

٥- علم معرفه الناسخ و المنسوخ.

٦- علم معرفه جمع القرآن و ترتيبه.

٧- علم نقل القرآن و روايته و تحمله و كتابته.

٨- علم الوقف و الابتداء و جميع أبحاث علم القراءات.

٩- علم آداب تلاوته.

١٠- علم معرفه غريب القرآن.

١١- علم لغه القرآن و هل فيه غير العربيه.

١٢- علم المحكم و المتشابه.

١٣- علم المجمل و المبين.

١٤- علم العام و الخاص.

ص: ١٤

١٥- علم المطلق و المقيد.

١٦- علم حقيقته و مجازه.

١٧- علم إعجاز القرآن.

١٨- علم أقسام القرآن.

١٩- علم قصص القرآن.

٢٠- علم التفسير و أدوات المفسر (١).

إذا فأبحاث «علوم القرآن» لا تترك صغيره و لا كبيره تتعلق بهذا الكتاب المبارك إلا و قد أفاضت في دراسته و بحثه.

و هنا نذكر أن جل هذه الأبحاث أساسها اللغة العربية حيث هي لغة القرآن الكريم، و هي الضابط للباحث، و المتتبع لكتاب مثل الإتقان و بدقيق النظر في كل فصوله يلحظ ذلك جليا.

فكان لزاما على أهل هذا الفن - و هذا ما صنعوه يرحمهم الله تعالى - الإحاطة بعلوم هذه اللغة المباركة أفرادا و تركيبا، مع التحقيق النحوى و البلاغى و الصرفى، إلى آخر هذا الأبحاث الرئيسيه و التى تتولد منها عشرات الأبحاث الفرعيه حيث يؤدى ثماره يانعه مزينه للناظرين قريبه للطالبيين.

٤- أما الحديث عن فائده دراسته «علوم القرآن» ففى غايه البيان، و لا بأس بذكر بعضها:

فمن أهمها التسلح بأدوات صحيحه الأصل و المعنى لخوض فهم هذا القرآن الكريم.

و هذا علم التفسير ينبئك عن هذا: فلو لم يعرف المفسر ما ذكرناه آنفا من أبحاث تتعلق بهذا الفن كالنسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه... إلخ كيف يتكلم عن تفسير القرآن لو لم يقف عليها مبنى و معنى.

و هكذا لن يستطيع أحد الخوض فى غمار هذا النور و السباحه بين شطآن نهره العذب إلاى.

ص: ١٧

١- هذا ما قدرت عليه الذاكره، و بعون الله و بحمده، أنتهى الآن فى معجم «علوم القرآن»، و حيث رتبته «ألف باء» و لم أذكر فيه إلا الغالب فى تعريف المصطلح، مع الدقه فى التعريف و الإيجاز مع سهوله التناول و الأسلوب، إن شاء الله تعالى.

و قد أعد العده و هى تجهزه بهذه الفنون.

فلو أراد الكتابه أو الحديث عن تاريخ القرآن، لاحتاج إلى علم القراءات و علم تدوين القرآن و نقله و حمله و تواتره و حفاظه من الصحابه و من بعدهم و كتابه المصاحف إلى آخر تلك الأبحاث.

و الذى يريد أن يتكلم فى إعجاز القرآن، لن يجد فنا من هذه الفنون المدونه فى هذا العلم إلا و احتاج إليها، خاصه لو نظرنا إلى الإعجاز يتوسع كما يراه بعضهم.

و منه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم و سيأتى الكلام عليه فى موضعه، و الله الموفق.

و لما كان القرآن الكريم هو الكتاب الحق، و التنزيل الصدق، و هو الفرقان المبين، و الذكر الحكيم، و هو أحسن الحديث، و أصدق القول، و هو الحكمه البالغه، و الشفاء التام، و الرحمه التامه، و الهدى الكامل، و هو الصراط المستقيم، و جبل الله المتين، و هو البيان الباهر، و الروح و البصائر، و هو القول الفصل و البرهان المهيمن، و النور المنزل، و هو القرآن العظيم الكريم، المجيد، المبارك، و هو حق اليقين، و النبأ العظيم.

أقول لما كان القرآن الكريم كذلك و فوق ذلك: كان هو مفجر العلوم و منبعها، و دائره شمسها و مطلعها، أودع الله تعالى فيه علم كل شىء، و أبان فيه الحق ليتبع ضده ليجتنب، فترى صاحب كل علم حق منه يغترف، و عليه يعتمد فالأحكام يستنبطها الفقيه منه، و صاحب العقيده لا- يخرج عنه، و صاحب اللغه به يحتمى، و النحوى كان له القرآن هو الميزان ليميز بين خطأ القول من الصواب، و صاحب البلاغه هو له مرآه الحسن النظم و البيان، و صاحب التاريخ كان يضرب فى صحراء الأسطوره حتى هداه القرآن على القصص الحق و الخبر الصدق، و هو دواء القلوب لأرباب السلوك.

فقد صدق الله حين قال: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ .

فصل من القضايا التى أخذت حظا وافرا من البحث و التحقيق قضيه «نشأه العلوم» و متى كان بدء تدوينها.

و قد أفاض كثير من أهل العلم من أصحاب السير و التاريخ و التراجم بوضع كم وافر من الكتب التى تتحدث عن ذلك.

و من أهم العلوم التي كان لها حفظ وافر من ذلك التقيد:

١-علم الفقه.

٢-علم أصول الفقه.

٣-علم النحو و الصرف.

٤-علم الاعتقاد.

٥-علم قواعد الحديث.

٦-علم التفسير.

٧-علم القرآن.

و كان لكل علم منها موضع نظر كبير عند أهل العلم في بيان أول من تكلم فيه منذ عهد الصحابه رضى الله عنهم ثم التابعين...إلخ.

ثم بيان أول من دون شيئا في هذا العلوم.

فمثلا:المتأمل في تاريخ تدوين علم«أصول الفقه»لا يكاد يقف على كتاب في أصول الفقه إلا و يجد هذا الأمر إما باستفاضه أو اختصار.

و قد اشتهر عند الخاصه و العامه أن أول من وضع كتابا في أصول الفقه هو الإمام الشافعى رحمه الله تعالى (١).

أما علم«علوم القرآن»فله شأن آخر نبهته في هذه الوقفات:

الوقفات الثلاثة في علم علوم القرآن

١-الوقفه الأولى في بدء كتابه و تدوين العلوم:

-قد اشتهر أن النبي صلى الله عليه و سلم كان ينهى عن كتابه غير القرآن، كما جاء في الحديث الصحيح.

-ثم أذن صلى الله عليه و سلم بالكتابه كما في حديث أبى شاه (٢).

- ١- الإمام الكبير شيخ الإسلام الحجة، ناصر الحديث، فقيه الملة، أحد عجائب علماء الإسلام، انظر ترجمته رحمه الله تعالى و مصادرها في: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/١٠).
- ٢- انظر في النهي عن الكتابة ثم الإذن في كتابه الحديث، في بحث رائع للدكتور/محمد عجاج الخطيب في «السنه قبل التدوين» (٣٠٣) و ما بعدها.

-فكان بجوار كتاب الوحي المعظم، كان هناك كتاب للحديث الشريف، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

-ثم كان بدأ التدوين آخر القرن الأول و بدايات القرن الثانى تقريبا.

-و لما كان نزول الوحي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم هو الأساس فى بناء قواعد هذا الدين، و كانت السنه مبينه و مفسره له، و كان هدى النبى صلى الله عليه و سلم هو الأسوه الحسنه للتطبيق العملى الذى يرضى الله تعالى، كان كل ذلك كافيا للصحابه عن تدوين العلم بصورته اللاحقه بعد ذلك.

-هذا مع تتابع أنوار الوحي و النبوه، و لهما من التأثير ما لا يحيط بأسراره إلا الله تعالى، و لهذا كان الصحابه رضى الله عنهم مقدمين فى كل فضيله سابقين لكل كمال، و هذا فى جميع أنواع العلوم، و كان للقرآن الكريم حفظا و فهما و تفسيراً و إحاطه تامه بظاهره.

الحظ الوافر عندهم.

-و كانوا أعلم الخلق بالأحكام و الآداب و الاعتقاد.

-و هم مع كل هذا: الأعلى إخلاصاً، و الأطهر أفئده، و الأقوى فهما، و الأدق استنباطاً، و الأصح دليلاً، و الأسلم قولاً.

-حتى ترى جملة من كلامهم يأخذ العالم فى شرحها فى أكثر من مائه صفحه أو يزيد (١).

-حسبك ما قاله الإمام أحمد رضى الله عنه: «أصول السنه عندنا ما كان عليه أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم».

-و اتفق العلماء أن خروج البدع و المبتدعه، سببه ترك ما كان عليه أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم، و هذا تراه واضحاً لكبار علمائنا من زمن الصحابه إلى وقتنا هذا، و حيث ينبهون على خطوره هذا المنهج الذى يبحث فى الدين دون الوقوف على أحوال و أقوال الصحابه، و لله درّ الإمام مالك رحمه الله تعالى فى هذا الملحظ حيث كان عمل أهل المدينه عنده بمكان (٢).

-إذا فمع علم كثير من الصحابه رضى الله عنهم بالكتابه لم يكونوا بحاجة للتدوين كما مرّ بنا).

ص: ٢٠

١- كما صنع مثلاً ابن القيم فى شرح خطاب عمر فى إعلام المؤمنين، و هو الآن تحت الطبع بتحقيقى بحول الله و قوته.

٢- و انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميه (٢٣/١٣).

قد تكلم جمهوره من أهل العلم فى هذا الموضوع حتى أصبح سيلا جرف أمامه كل شك و ريب و شبهه، أراد بعضهم منذ العهد الأول إلى الآن أن يجرسها فى طريق المسلمين، فكان ما سبق من الله تعالى من حفظ كتابه أول و أعظم سند حيث يقول ربنا تبارك و تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩)[الحجر:٩].

- حيث شمل الحفظ: حفظه من التلاشى، و حفظه من الزيادة فيه أو النقصان منه، حيث سخر الله تعالى له من يحفظه و ينقله متواترا، حيث سلم من كل اختلاف حدث فيما سبق من كتب منزله، حين و كل حفظها إليهم.

- و تأمل الصحابه رضى الله عنهم و هم يتلونه بعد ما سمعوه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم يقرهم عليه، و إذا حدث أى خلاف حول حرف منه رجعوا إليه صلى الله عليه و سلم فبين الصواب، و أزال شبهه الخلاف فيه، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى، و كان حفاظه من الشهره بمكان، أتاح لجمهوره من الأمه لا يعلم عددها فى كل مصر أن تتوارث هذا الحفظ و النقل، و المتدبر فى كتب تراجم القراء يرى عجبا فى هذا الشأن، و كذا كتب القراءات.

- حيث يرى دقه ضبطهم، مما يحير العقول، و مما لا يقدر عليه أحد إلا عن طريق ما وصل إليه العلم الآن عن طريق الحاسوب من حيث الحصر و الإحاطه لكل حرف مخرجه و درجه تفخيمه أو ترقيقه أو مده فبأى حديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [الأعراف: ١٨٥].

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)[النساء: ٨٢].

- و ليس على ما أعتقد أن كتابا على ظهر الأرض حظى بمثل هذا المقام مثل «القرآن الكريم».

- و فى هذا خير رد على كيد أهل الكفر و النفاق: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْعَمَلُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٦) [فصلت: ٢٦].

- فمع تفننهم فى صرف شباب الأمه عن الدين باللهو و الفجور و تزين الشهوات، إلا أنك ترى تكاثر حفاظه و العاملين به، مع توافر البواعث الصارفه، و لكن: **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَفْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ** (٤٨) **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ** (٤٩)[سبأ].

فمهما كان الاستهزاء و اللغو و الصد، و تكميم الأفواه الناطقه بالحق، و الداعيه للحق، و تخويفهم و ترهيبهم، ما هي فى النهايه إلا جمعجات بلا طحين، مثل الزبد فأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [الرعد: ١٧].

٣- الوقفه الثالثه:

أ- متى نشأ مصطلح «علوم القرآن»؟

-لعلنا فى حاجه إلى التفرقه بين ظهور هذا المصطلح بتعريفه المبين فى أول هذه المقدمه، و بيان ظهوره جل مباحثه منذ العهد الأول.

-و قد تكلم كثير من الباحثين فى بدء ظهور هذا المصطلح «علوم القرآن» منهم السيوطى فى الإقتان، و الزرقانى فى «مناهل العرفان».

-و وافق الزرقانى السيوطى و كلاهما تبعاً للبلقيني فى أن أول من تحدث بهذا هو الإمام الكبير الشافعى رضى الله عنه فى حكايه (١)وردت من كتاب «تاريخ الشافعى» فى القضييه التى أثارها المبتدعه حول قولهم بخلق القرآن، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا [الكهف: ٥].

فقد جاء فيها أن الرشيد سأل الشافعى: كيف علمت يا شافعى بكتاب الله عزّ و جلّ؟...

إلى أن قال و لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد صلى الله عليه و سلم، فقال الشافعى: إن علوم القرآن كثيره، فهل تسألنى عن محكمه و متشابهه، أو عن تقديمه و تأخيره... إلخ.

و إن ثبت هذا، فيكون دره نفيسه، و يكون من فضل الله تعالى الذى لا حد له أن يجرى على لسان الشافعى هذا التركيب حتى يزيده فضلاً و شرفاً.

فهو- كما مرّ- اشتهر بوضع أول القواعد لأصول الفقه و ذلك فى كتابه الأشهر «الرساله».

و هذا لا يمنع البوح بما فى نفسى منذ زمن أن الرساله نفسها إحدى قواعد: (علوم القرآن) كما هى قواعد لعلم: «أصول الفقه».

ص: ٢٢

١- لم يسعفتنى الوقت على تحقيق سندها و صحتها، و لعل هذا استوفيه فى مقدمه «معجم علوم القرآن» إن شاء الله تعالى.

و القارئ الرشيد و الباحث الموافق، لو تتبع الرسالة (١) لوجد من بزور هذا العلم ما لا يخفى مع اشتهاار سبب كتابه هذه الرسالة نفسها.

و ذلك أن الإمام «عبد الرحمن بن مهدي» (٢) -و الذي وصفه الشافعي بقوله: «لا أعلم له نظيرا في الدنيا»- سأل الشافعي أن يضع كتابا يحوى «معانى القرآن»، يجمع قبول الأخبار فيه، و حجه الإجماع و بيان الناسخ و المنسوخ من القرآن و السنه، فوضع له كتاب الرسالة.

و هنا نلحظ قوله «معانى القرآن» فالبدء كان لخدمه القرآن حتى يفهم، و المتأمل فى «الرساله» يلمس الآتى و هى:

إن المتأمل فى أبواب الرسالة للشافعي رحمه الله تعالى يلحظ من القواعد ذات الصله الوثيقه بعلوم القرآن مثل: علم القرآن.

القرآن كله بلسان العرب.

العربى و العجمى فيه.

ترجمه القرآن.

معنى إنزاله على سبعة أحرف.

البيان فى القرآن.

المجمل و المفسر.

العلم بالقرآن و درجات الناس فيه.

العام و الظاهر فى الكتاب.

حكم النسخ.

ناسخ القرآن و منسوخه.

تخصيص الكتاب بالحديث.

العام فى القرآن و الخاص.

فلو أضفنا ذلك إلى ما سبق ذكره عن سبب تأليف الرسالة، لتجمع لدينا من القرائن ما يجعلنا نميل إلى أن أول من أظهر هذا

-
- ١- أرجو من الله زياده توفيق و إسباغ سكينه حتى أقف على تحقيق هذه المسائل بحوله و قوته تعالى.
 - ٢- الإمام الناقد الموجود، سيد الحفاظ، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٩٢/٩).

رحمه الله تعالى، وإن لم يكن أول من وضع فيه كتاباً مستقلاً.

و كما يقول الدكتور عبد المنعم النمر في معرض الحديث عن الرسالة (١): «ولا شك أن الشافعي لم يبتكر معاني القرآن، ولا القول في الإجماع، ولا النسخ و المنسوخ... ولكنه نظم ذلك و غربله متداخلاً فيه برأيه، فأضاف و أشار للقواعد المتداولة و بين ما يقبل و ما لا يقبل حسب رأيه.

فلا يعقل أن الشافعي ابتكر كل ذلك في رسالته.. ولكنه تحدث فيما يتداول بين علماء زمانه، فقبل و رفض، و أضاف و نظم، و اعتبر علماء زمانه و من بعدهم هذا أول تنظيم لعلم أصول الفقه» أ.ه.

و ذهب الشيخ أحمد شاكر مذهب الفخر الرازي: أن الرسالة أول كتاب ألف في أصول الفقه، بل و في أصول الحديث (٢).

و يقول الشيخ أحمد شاكر: و كتاب الرسالة - بل كتب الشافعي أجمع - كتب أدب و لغه و ثقافته، قبل أن تكون كتب فقه و أصول، ذلك أن الشافعي لم تهجنه عجمه، و لم تدخل على لسانه لكنه، و لم تحفظ عليه لحنه أو سقطه» أ.ه.

أضف إلى ذلك المباحث المشتركة بين أصول الفقه، و علوم القرآن نجد قرب هذا الاستنتاج من الصواب (٣).

فصل هذا من ناحيه أول ظهور لهذا المصطلح، فكيف لأول ظهور لمألف بهذا العنوان «علوم القرآن»؟

المتأمل لما سبق يلحظ أن كثيراً من علماء القرن الثاني كتبوا في أبحاث احتواها من بعد علم «علوم القرآن». و كما سبق، أن جل أبحاث «علوم القرآن» كغيرها من العلوم الشرعية كالفقه و الحديث، كانت دائره على ألسنة الصحابه رضي الله عنهم، مع اختلاف في الألفاظ تارة أو في السعه و الضيق تارة أخرى.

و قد يكون من أشهر هذه الأبحاث: ن.

ص: ٢٤

١- الاجتهاد (١١٨).

٢- مقدمه رساله.

٣- هذا مبحث عظيم الشأن أفصله إن شاء الله تعالى في معجم علوم القرآن.

مسأله الناسخ و المنسوخ.

المحكم و التشابه.

ثم القراءات.

و أسباب النزول و أماكنه.

معانى القرآن و تفسيره.

نقله و حفظه و كتابته.

رسم المصحف.

و القصص القرآنى.

و حيث إن علم «علوم القرآن» يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن، كان لزاماً أن يكون جلاً مباحثه تدور فى العصر الأول زمن نزول الوحي المبارك، ثم تناقلها التابعون عن الصحابه رضى الله عنهم و هلم جرا (١)، و إن كانت الأمانه تلزمننا تتبع تاريخ هذا العلم الشريف عند الصحابه و التابعين بأكثر من هذا، حيث يستلزم ذلك قراءه كتب السنه كلها، و كذلك كتب الآثار و غيرها مما يتيح للقارئ الوقف بصدق على بذور هذا العلم الشريف.

و كما أن أسس هذا العلم الشريف فى الكتاب العزيز، هى كذلك مبنوئه بين طيات الأحاديث المطهره.

و لعلماء القرنين الثانى و الثالث جهوداً مشكوراً فى إظهار بعض مباحثه متفرده.

نلاحظ ذلك مثلاً فى:

الناسخ و المنسوخ لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤).

الناسخ و المنسوخ لعلى بن المدينى (٣٣٤).

بيان ما ضلت فيه الزنادقه من متشابه القرآن. للإمام أحمد رضى الله عنه (٢).

بعض مؤلفات العلامة ابن قتيبه (٢٧٦ هـ) و بخاصه: تأويل مشكل القرآن، ففیه نفائس. ف.

ص: ٢٥

٢- سنحاول بعون الله تعالى أن نسرد توثيقاً لهذه المؤلفات و مدى صلتها بهذا العلم الشريف.

فصل أول المصنفات المستقلة في هذا الفن

ذهب العلامة السيوطي رحمه الله تعالى إلى أن أول مصنف في هذا العلم «الإمام بدر الدين الزركشى» بكتابه «البرهان في علوم القرآن».

و كان من قبل يذهب إلى أن أول ذلك الأمر للعلامة جلال الدين البلقاني بكتابه «مواقع العلوم من مواقع النجوم».

و ذهب العلامة الزرقاني في مناهل العرفان إلى أن أول من وضع كتابا يشمل هذا الفن هو العلامة علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠ هـ) بكتابه «البرهان في علوم القرآن» (١).

و لكن قد يرى بعض الباحثين بعد ما ذهب إليه العلامة السيوطي في قوله، و كذا ما ذهب إليه الزرقاني، لأسباب:

أولاً: أن الذهبي رحمه الله تعالى قال في ترجمه ابن المرزبان (٢) المتوفى (٣٠٧ هـ):

«وقع لي قطعه من تأليفه، و له كتاب «الحاوي في علوم القرآن».

و كذلك ذكر الذهبي في ترجمه ابن الأنباري (٣) (ت ٣٢٨ هـ) قال: صنف في «علوم القرآن و الغريب»... إلخ.

و قد ذكره بعض مترجميه بعنوان «عجائب علوم القرآن».

يتبين لنا من هذا سبق ابن المرزبان وأولاءه يليه ابن الأنباري في الكتابه المستقلة في هذا العلم باسم «علوم القرآن» و الله تعالى أعلم.

ثانياً: ما ذكره العلامة الزرقاني عن «الحوفي» عليه ملاحظه:

حيث ذكر كتاب الحوفي باسم «البرهان في علوم القرآن» و لم أقف على من ذكره بهذا الاسم غيره، حيث ذكر كل من ترجم له باسم «البرهان في تفسير القرآن».

و هو كما يقول العلامة الزرقاني يأخذ في بيان الإعراب و الناحيه النحويه و اللغويه، ثم بيان القول في المعنى و التفسير، و بيان التفاسير المأثوره و المعقوله للآيه، ثم بيان الوقف

ص: ٢٦

١- انظر الإتقان (٥/١) و مناهل العرفان (٣٤/١-٣٥).

٢- الإمام العلامة الأنباري أبو محمد محمد بن خلف بن المرزبان، انظر ترجمته و مصادرها في السير (٢٦٤/١٤).

٣- الإمام الحافظ اللغوي أبو بكر محمد بن القاسم، سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٥).

و التمام، ثم بيان القراءات إن وجدت... وهكذا.

و من هنا يتبين أنه تفسير موسع ضم أنواعا من علوم القرآن، لكن ليس مستقلا فى علوم القرآن.

و لعلنا نصيب إذا قلنا إن نضج هذا العلم و تمامه، كان على يدى العالمين الكبيرين الزركشى و السيوطى فى «البرهان» و «الإتقان»
(١).

هذا مع افتقادنا لكتب حملت هذا العنوان لكننا لم نستطع الوقوف عليها كما سبق عند ابن المرزبان، و ابن الأنبارى، و الله تعالى أعلم.

فصل علوم القرآن و الرد على الشبهات

قد لا نبالغ إذا قلنا أن علوم القرآن من أعظم حصون الشريعة، و من حوائط الصد الصلبيه القويه ضد أعداء الدين، من الكفار و المنافقين الذين يلبسون على المسلمين أمرهم و يقدحون فى دينهم (٢)، حتى وصل الحال بالمطالبه بإلغاء أبواب كامله من الدين بل و آيات من الذكر الحكيم.

أصبح الحديث عن تلك الأبواب -و التى هى من أركان الدين- كالجهد مثلا قرينه لوصم المتحدث بالإرهاب.

و هكذا يتعرض الإسلام لخطر تقطيع أركانه مثل ما حدث للأديان السابقه التى أصبحت تعبد الصور و الصلبان و النيران و الحيوانات، مع عدم تطبيق أبنائه له فى أكثر حياتهم، يظهر لنا أن الخطب جلل.

و لهذا لا بد من نشر هذه العلوم الإسلاميه، حتى يتحصن المسلم ضد هؤلاء و هؤلاء.

و تستطيع ماده «علوم القرآن» الرد الوافر على الشبهات المثاره و التى قد يقع فيها بعض المسلمين بحسن نيه و قلبه رويه.

و يتبع ذلك أهميه الوقوف على أقوال السلف فى هذا العلم و غيره من العلوم، حتى ينضبط الميزان، و يصحح القول.

ص: ٢٧

١- لعل الله تعالى يسير زياده تفصيل فى هذه المسأله فى معجم علوم القرآن.

٢- و هذا قد ظهر جليا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر (٢٠٠١) و الذى دمرت فيها بعض المباني بأمرىكا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى:

ولهذا كان معرفه أقوالهم فى العلم و الدين و أعمالهم خيرا و أنفع من معرفه المتأخرين و أعمالهم فى جميع علوم الدين و أعماله، كالتفسير، و أصول الدين، و فروعه، و الزهد، و العباده، و الأخلاق، و الجهاد، و غير ذلك، فإنهم أفضل ممن بعدهم - كما دلّ عليه الكتاب و السنه - فالافتداء بهم خير من الافتداء بمن بعدهم، و معرفه إجماعهم و نزاعهم فى العلم و الدين خير و أنفع من معرفه ما يذكر من إجماع غيرهم و نزاعهم.

و أيضا: فلم يبق مسأله فى الدين إلا و قد تكلم فيها السلف (١).

و كلام ابن تيميه رحمه الله تعالى فى غايه الضبط، حيث ترى الآن بعض من يتصدى لصعود جبل العلم و الفتوى و الدعوه، و زاده ليس سوى الضجيج و الادعاء و التعالم و لعل غرضه الشهره و المال.

حتى ترى و تسمع هذا الكم من الكتب و الشرائط لا تسمع فيها إلا صراخا و كتبا ملئت كلاما لا يساوى مداده، و لا حول و لا قوه إلا بالله العلى العظيم.

و من الأمثله على ذلك الكلام فى بعض القضايا التى لعل من المفيد الإشاره إلى بعضها:

(١) نزول القرآن الكريم لا - خلاف بين سلفنا الصالح رضى الله عنهم على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم.

و كلام الله صفه من صفاته، يجب وصفه بكل صفات الجمال و الجلال، و الحكمه.

و منذ ظهور البدع و الفرق و هى تحاول جاهده تغير هذا الاعتقاد فى القرآن، و تحويل المتفق عليه إلى متنازع فيه، فرأينا كلامهم على كون القرآن كلام الله النفسى، و كونه مخلوقا (٢)، هذا حتى تنزع هيبه القرآن من القلوب و هيمنه القرآن على الكتب، و تقديم العمل بالقرآن على ما يزينه الشيطان فى صور شتى تحت رايات شتى بأسماء شتى، حتى يتشتت العقل المسلم، و يضطرب سلوكه ب.

ص: ٢٨

١- مجموع الفتاوى (١٣/٢٤-٢٥).

٢- و لعلماء الإسلام منذ الصحابه مرورا بالتابعين ثم عصر الإمام أحمد، مرورا بابن القيم إلى عصرنا هذا ردودا منثوره و مجموعته فى مئات الكتب.

و يستوهم بعضنا إن ظن أن كثيرا من القضايا التي هزمها السلف قد اندثرت، بل كثير منها يطل بين الفينه و الفينه.

فنى من يدعو إلى كون القرآن نسا لغويا يحتمل كل الإسقاطات التي يتحملها أى نص من وضع بشرى.

و يسمى ذلك «بالوعى العلمى» متهما كل السابقين بأنهم أصحاب الفكر الرجعى، باستنادهم إلى التراث، لأن نشر مثل هذا الوعى العلمى-فى زعمه-يسحب البساط من تحت أقدام هذه القوه المنتفعه بالوضع الاجتماعى المتردى.

و يجعل من تهذيب العلوم الإسلاميه للناشئه ضربا من ضروب الارتزاق على أكتاف ناشئه جهلاء، و سيلا من سبل الشهره.

ثم يضع لنا أسسا لصلاحيه الأعمال المتقرب بها إلى الله تعالى حيث يكون أولها الموضوعيه التي يعرفها المتخصصون....هكذا (١)!!

و هذه كما ترى «عينه» مما تفيض به أقلام هؤلاء المغرورين، و لعله لم يصب من يريد عزل الدرس الدينى عن الواقع الإسلامى، و تجريد الفكر المحرك للدعوه من هذه القضايا، و بالتالى تفرغ الدعوه كلها من الدافع فتهون عليها النتائج.

بل استخدام هذه العلوم الشرعيه خير وسيله-و الله أعلم-يرد على كل صاحب هوى يقده تاره فى الفقه، و أخرى فى أصوله، و ثالثه فى التفسير، و رابعه فى اللغه و النحو و الصرف، و هلم جرا.

و ما وضع علماء سلفنا هذه العلوم إلا للدفاع عن الدين، و لا معنى لقولهم «غربلوهم بالعلم» فى مواجهه المبدعه، إلا باستخدام هذه العلوم حيث التسلح بالفهم الصحيح بالدليل الصحيح حتى يدحض الله تعالى الباطل، و سنرى مثالا لذلك.

فصل سوف يرى القارئ علاج ابن القيم لكثير من الشبهات بالاستناد على علوم القرآن الكريم. حيث ناقش-رحمه الله تعالى-:

ص: ٢٩

١- و هذه من مدرسه قديمه دائما ما ترى خلف أسوارها أعناق المستشرقين الذين يخرجون تلاميذ نجباء فى ضلالهم، أغبياء فى درسهم، و ينسون أنهم دائما صدى صوت. و هناك قائمه طويله بأسماء هؤلاء سنخرجها قريبا، تصرىحا لا تلميحا.

-قضية النسخ، حيث أشبعها بحثا و بيان حكمتها، و معنى النسخ عند سلفنا الصالح، و الفرق بين معناه عند المتقدمين و المتأخرين.
-و كذلك مسائل المتشابهة فى القرآن، و بيان معناه الصحيح عند المتقدمين، بخلاف كثير من المتأخرين الذين جعلوه مطيه لنفى الصفات أو تأويلها أو تحريفها أو تعطيلها.

-و يعرج على القصص القرآنى و بيان حكمته و استخراج العبر و القواعد النافعة، التى هى صراط مستقيم للباحث عن الحق.

-ثم قضية الإعجاز العلمى فى القرآن (١)، و تظهر أهميه هذه المسألة فى وقتنا الحالى حيث انتشر هذا الأمر بين الموافق الداعى له و الذى جعله من أهم أسباب الإقبال على الإسلام فى الغرب.

حتى بالغ بعضهم و جعل جميع الآيات القرآنيه المتكلمه عن الطبيعه و الكون، ذات تفسير عصرى متاح.

و أسقط جميع ما وصل إليه العلم على هذه الآيات.

و فى المقابل نرى فريقا أنكر ذلك أشد الإنكار، و منعه منعاً باتا.

و كعاده الأمة المسلمه التى جعلها الله سبحانه و سطا، نرى فريقا يتوسط فى الأمر فليس الأمر عنده ممنوعا و ليس مطلقا (٢)، بل له ضوابط قويه و شديده حتى لا- يتحول الكلام عن القرآن الكريم- كتاب الهدايه و البصائر- إلى كتاب فى الكيمياء أو الطبيعه أو الفلك. و نحن نذهب مذهبهم هذا حيث إن الآيات ذات الإشارات الكونيه فيها من أسباب الهدايهم.

ص: ٣٠

١- ألفت نظر القارئ الكريم أننى ناقشت هذه القضية و السابق لها باستفاضه لكن لظروف الطبع، أجلت وضعها هنا، و سترى كل ذلك- إن شاء الله- مبينا بالأدله و المناقشه العلميه فى كتابى «معجم علوم القرآن الكريم» و كذلك مناقشه أكثر من عشره كتب تكلمت عن القرآن و علومه و فيها ما فيها من الأخطاء.

٢- من المكثرين الآن الدكتور/ زغلول النجار، و هو مع جوده قوله، لكن نرى كثيرا من المتخصصين مثله يرفض كثيرا من قوله. و كذلك د/ أحمد شوقى إبراهيم، يفسر كثيرا من آيات القرآن بنفس المنهج و إن لم يكن مستفيضا كالأول، بل و يخطئ كثيرا من أقوال السلف فى التفسير و يتهمهم بالجهل، و هو نفسه فسّر قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ يقول: هذا ليس مطلق النفى، بل يفيد أن بعض الأبصار تدركه منها نبينا صلى الله عليه و سلم (إذاعه القرآن الكريم فى مصر صباح ٢٠٠٠/١٠/٧)، و هذا لم يذهب إليه أحد من أهل التفسير، و لعله اختلط عليه الفرق بين الإدراك و النظر إليه سبحانه و تعالى، و أن أهل السنه متفقون على الرؤيه كما هو معلوم.

ما لا يحصى، وإليه يشير كثير من المفسرين والعلماء إلى قوله تعالى في أول ما نزل: إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) وما فيها من إشارات.

وقد يلحظ كثير من الباحثين مدى تحميل قضيه إعجاز القرآن، وما لا تحتمله الأدلة القرآنية ذاتها.

وليس من المفيد الحرص على التوسع في هذا الباب من أبواب إعجاز القرآن، لترغيب غير المسلمين - وبخاصة الغربيين - في الإسلام.

فإن معرفه الأخلاق في القرآن و تطبيق النبي صلى الله عليه و سلم و تأدبه بهذه الآداب كفيل بدخول الناس أفواجا في دين الله تعالى.

و هذا ما سطره التاريخ عن السيره النبويه و حياه الصحابه رضى الله تعالى عنهم.

نعم قد يقول القائل: «لكل مقام مقال» و مقام اليوم العلم و بخاصه العلم التجريبي من طب و فلك.. إلخ.

و نحن نتفق معه تماما، و لكن متى كان مقام الأخلاق غائبا لزم هنا أن يبدأ به، و ما نراه من انحسار الأخلاق - حتى بين - بعض المسلمين - ناهيك عن الغرب و الشرق، لحرى بنا أن نبدأ به. فالناس في الغرب في حاجه ماسه و ملحه لمعرفة التوحيد و العبادات و الأخلاق، على أن يكون الإعجاز العلمى مدخلا من مداخل الحوار، ثم الكلام عن الإعجاز العلمى يفترق على أمور يصعب حصرها، لأنها علوم غير محدوده، و نظرياتها متجدده كل يوم و بعضها كل ساعه.

فالحديث عن ذكر الخلق و تكوين الجنين في القرآن، و مقارنته بما جاء في الطب الحديث، يختلف عن الكلام عن نهايه الشمس و القمر، بمقياس العلم مقارنه بما ورد في القرآن الكريم.

فالمثال الأول مسلم به، حتى لينبهر به الباحث الغربى و يسلم بدقته.

لكن المثال الثانى يختلف عليه علماء المسلمين أنفسهم (١) و لا - نذهب بعيدا إذا قلنا إن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كان يفسر كثيرا من الآيات تفسيراً عضويًا قائمًا على الطبى.

ص: ٣١

١- قد ذهب الدكتور زغلول النجار مذهباً في تفسير «إذا الشمس كورت» و كيفية النهايه. فما لبث أن اعترضه دكتور صبرى الدمرداش عليه كما في جريده الأخبار (١٣/٩/٢٠٠٢) و سوف نزيد الأمر بحثاً في معجم علوم القرآن إن شاء الله تعالى.

و الطبعه، كما فى شرحه لقوله تعالى وَ فى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)[الذاريات] و كيف لم نضع ما قاله ضمن كتابنا «بدائع التفسير» و ذلك بعد عرضه على طائفه من أهل الطب و العلوم الطبيعىه. و ليس هذا بقدرح، فهو رحمه الله تعالى يتبّه بما قاله على هدف وضعه نصب عينيه فى كل كتبه ألا و هو تعريف العبد بالمعبود و المخلوق بالخالق سبحانه و تعالى، و هذا باب من أبواب المحبه للخالق سبحانه، و من أسرار بدء أول نزول القرآن سوره إقرأ (١) و انظر الفصل الآتى بعنوان: «منهج ابن القيم فى التفسير و موقفه من التفسير العلمى» و الله تعالى أعلم.

و أيضا من المسائل التى أشبعها ابن القيم بحثا: مسأله التأويل، فسترى كيف صنع التأويل بالنصوص. و كيف قوّم ابن القيم المعوج من معنى التأويل عند بعضهم، و كيف أبان وجهه الحق فى رد التأويل الباطل لآيات الصفات، و تبيانه الفرق بين التأويل الصحيح و الباطل و معناه عند السلف الصالح (٢).ه!

ص: ٣٢

١- انظر التحرير و التنوير لابن عاشور (٣٠/٤٣٤)، و انظر «بدائع التفسير» (١/٩٧-٩٩)

٢- و قد وقفت على كتاب «تأويل ما أشكل على المفسرين» لمحمد عبد المنعم مراد (صحفى و كاتب مصرى) - و هو كما يرى القارئ عنوان هائل ضخيم، تحتاج دلالتة لعمل فريق من العلماء سنوات طوال. يدعى صاحبه أنه أراح الإشكال عن أخطاء وقع فيها المفسرون و أتوا بما لا- يليق بكتاب الله تعالى و هذا جهد مشكور و نيه حسنه. و لا دخل لنا بالنيه و هنا، لكن كلامنا عن هذا الجهد: فصاحبه أورد فى أول الأمر (ص ٧): فهو يزيل الإشكال بذكر التأويل الصحيح للآيه مستعينا بأحسن طرق التفسير ألا و هى تفسير القرآن بالقرآن، ثم يورد الآيه رقم (١٠٢) من سوره البقره، يتبعها بآيات رقم (١٧٢) الأعراف، (١٠١) التوبه، (٨٧) الحجر، (٧) الإسراء... إلخ. هذه الآيات فما ذا يفهم القارئ؟! تأتى الإجابة ص (١٩١-٢١٨) ناقلا كلام المفسرين دون ذكر المصدر ثم رد العلامة د/أبو شهبه و استشهاده بكلام ابن كثير فى بطلان ما أورده المفسرون فى الآيه رقم (١٠٢) من سوره البقره. و هكذا فى سائر الآيات، فهو لم يأت بجديد سوى النقل. ثم يذكر تفسير الإمام الطبرى للآيه (٢٧) من سوره إبراهيم يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... الآيه ثم يعقبها بقوله: إن العلماء بهذا التفسير (يقصد تفسيرهم الثبات فى الآخره بالثبات فى القبر عند السؤال) - يضعون على الناس جمال المثل الذى ضربه الله سبحانه و تعالى فى قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً الآيات (٢٤-٢٧). و لم يبين لنا جمال المثل و سر إنكاره أقوال المفسرين. لكننا لا يخفى علينا السر، فهو صاحب كتاب «عذاب القبر افتراء على الله و رسوله!!». فهو يرى أن عذاب القبر لم يشر إليه القرآن من قريب أو بعيد، تصریحا أو تلمیحا فأصبح من الواجب على كل مسلم أن ينفى عن كتاب الله ما ليس فيه، و أن يطهر العقیده الواضحه الجلیه مما ليس فيها» ص (٣) و نقول له ليس معنى تفسير آيه بقول ما أن هذا القول من القرآن حتى ننفیه عن كتاب الله!

-ثم يحدثنا ابن القيم رحمه الله تعالى عن المجاز و مذهبه فيه...

إلى آخر تلك الأبحاث البديعه الجيده،و كما أشرت مرارا و تكرارا إلى الرغبه فى بيان كثير من هذه المسائل التى كثر الحديث عنها مؤخرا،و المتعلقه بالقرآن الكريم و علومه،لأننا نعلم يقينا أنه الحصن الحصين لنا،و لكننى لم أشأ الإطاله لظروف الطبع ثم لمشاغل الوقت التى نسأل الله السلامه منها.

(٢) و أما تطهير العقيده الواضحه الجليه مما ليس فيها!!هل هذا يمكن إلا بالوقوف على صحيح السنه،و إذا صح الحديث فهو الفقه و هو العقيده!!

ثم يورد المؤلف مباحث كثيره تحت عناوين مثل:

-قصه النبي آدم عليه السلام

-كم لبثتم.

-إنك لا تسمع الموتى.

-البرزخ...إلخ.

ثم يرد على ابن كثير تفسيره لقوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ أَي:أشده ألما و أعظمه نكالا...و هذه الآيه أصل كبير فى استدلال أهل السنه على عذاب البرزخ فى القبور... (٧٤)فهو ينكر كيف يستشهد بالآيه المكيه على عذاب القبر فى البرزخ،لأنه ورد ذكره فى المدينة!! و هذا الاعتراض لا يحتاج لرد؟!

و هو ينكر أشد الإنكار على من يصدق أن النبي صَلَّى الله عليه و سلم يظل خمسه عشر عاما لا يعرف عن عذاب القبر شيئا حتى تأتى يهوديه تعلمنا ذلك؟!

و هذا رد عقلى يصادم العقل نفسه و النقل نفسه!!

فالغيب لا دخل للعقل فيه شيء إلا الإيمان!

و أما النقل فطالما صح السند،يبحث بعد ذلك فى المعنى و عدم التعارض و الجمع بين الأدله إلى تلك المسائل العلميه!!

أما أن نرد الصحيح لأن العقل لا يقبله فهذا مذهب ليس بجديد على من لم يفهم معنى الإيمان!!

ثم يختم كتابه بقوله:«و عذاب القبر لا يستحق الجدل،لأن أمره هين،و ذلك لأن من عذب فى قبره، فإن مصيره جهنم و ساءت مصيرا!!!»هكذا!!!يحلل الكاتب و يهون الأمر،و نقول له ليس أمر عذاب القبر بهين،و اتفق أهل السنه على أن من عذب فى قبره

إنما يعذب بمقدار و ليس شرطا أن يكون مصيره النار!!

و لا أجد غير قول الإمام الشافعي أهديه لهذا الكاتب لعله يهدئ و يتأمل حين يخط قلمًا عن دين الله تعالى: يقول الشافعي: «و من تكلف ما جهل و ما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب-و إن وافقه من حيث لا يعرف-غير محموده و الله أعلم، و كان بخطئه غير معذور، و إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ و الصواب فيه. أه و الله تعالى أعلم.

ص: ٣٣

و إليك أولا هذه الدرره من كلام ابن القيم حتى نبني هذا الفصل على قاعده من كلامه:

فى بيان معنى تيسير القرآن للذكر و بيان معنى التفسير أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما فى الصدور و هدى و رحمه للمؤمنين، و لذلك كانت معانيه أشرف المعاني، و ألفاظه أفصح الألفاظ و أبينها، و أعظمها مطابقيه لمعانيها المراده منها كما وصف سبحانه به كتابه فى قوله: **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا** [الفرقان: ٣٣].

فالحق هو المعنى و المدلول الذى تضمنه الكتاب، و التفسير الأحسن هو الألفاظ الداله على ذلك الحق فهى تفسيره و بيانه.

و التفسير أصله فى الظهور و البيان، و باقيه فى الاشتقاق الأكبر: الإسفار؛ و منه أسفر الفجر إذا أضاء و وضح، و منه السفر لبروز المسافر من البيوت و ظهوره، و منه السفر الذى يتضمن إظهار ما فيه من العلم و بيانه. فلا بد من أن يكون التفسير مطابقا للمفسر مفهما له، و كلما كان فهم المعنى منه أوضح و أبين كان التفسير أكمل و أحسن. و لهذا لا تجد كلاما أحسن تفسيريا و لا أتم بيانا من كلام الله سبحانه، و لهذا سماه سبحانه بيانا و أخبر أنه يسره للذكر؛ و تيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثانى: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره و نواهيه للامتثال.

و معلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن يسرا له؛ بل كان معسرا عليه.

فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعانى، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، و هو مناف للتيسير (١).

١- لمعرفه منهج المفسر أهميه عظيمه (٢)، شغلت كثيرا من أهل العلم، فهذا يكتب عن

ص: ٣٤

١- إعلام الموقعين (٣٣٢/١).

٢- أردت ختم هذا الفصل من مقدمه كتابي «بدائع التفسير» حتى تصحيح مقدمه «بدائع علوم القرآن» كالمقدمه الواحده للعميلين فى طبعه التفسير الجديد.

منهج الطبري، وذاك عن القرطبي... إلخ، وقد اتسع المقام في هذا الباب و هو أمر جيد خاصة و هو يعتبر مفتاح لأي تفسير.

و من فوائد هذه المناهج و هي كثيره:

معرفه مدرسه المؤلف الفقيهه و مدى تحرره في فهم النص و تقيده بالمذهب إن كان من أصحابه.

ثم معرفه الجانب العقدي عنده، و إن كان من أهل السنه أم من غيرهم و لما ذا؟ و معرفه أيضا مدى تأثر المؤلف بغيره من أهل العلم و إضافاته عليهم و تعقيباته مما قد يكون للقارئ رأيا راجحا في مسأله ما و بيان مرجوح في أخرى. إلى غير ذلك من الفوائد الجمه المسطوره في غير هذه العجاله اليسيره إنما توسع في بيانها بتفصيل كثير من العلماء كفضيله العلامه الدكتور/محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه العظيم «التفسير و المفسرون»، و من المعاصرين البارع الدكتور/فهد الرومي في كتابه الشيق الفائق القيمه «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» و غيرهم من أهل العلم.

٢- و يتوقف ذلك- معرفه المنهج- من الوقوف على تفسير ما، ثم النظر في مقدمه صاحبه، فهي غالبا تكون بالإضافه لكونها مفتاح الكتاب بلوره لمنهج المؤلف و إبرازا لأهم عناصره، خصوصا لو اشترط المفسر ذلك.

و هذه المقدمات توفر كثيرا من العناء في هذا الشأن كمقدمه ابن جرير الطبري، أو القرطبي أو ابن كثير و مقدمه العلامه الطاهر بن عاشور في التحرير و التنوير.

فهذه المقدمات عظيمه الفائده طريق سهل غالبا في الوقوف على منهج المفسر، بالإضافه إلى دراسه تفسيره، و استخراج الباحث من بطون سطوره و خبايا حروفه كثيرا مما لم يذكره المؤلف في مقدمه تفسيره، و هو مكمل لمعرفه منهجه، بل قد لا تكون مبالغه إذا قلنا إن المقدمه لا تفي أبدا لمعرفه المنهج، بل لا بد من الولوج و الغوص في بحر المؤلف لاستخراج الدرر الكامنه، فالباب لا يفي لمعرفه المنزل إنما هو للدخول و الاستدلال على العنوان.

٣- لكن الأمر يختلف مع عالمنا الكبير ابن القيم، فهو أولا- لم يضع تفسيرا مستقلا كما بينت من قبل، فضلا أنه لم يضع مقدمه للتفسير كما صنع شيخ الإسلام ابن تيميه رضی الله عنه، يستطيع بها الباحث معرفه نقاط أساسيه في بيان منهجه. مثل ما كتبه رحمه الله تعالى في (بيان أحسن طرق التفسير) (١١٠/١) من دقائق التفسير فهي أسس هامه للمنهج الصائب الموفق،

و مع صغرهما فقد حوت النفائس، و أمتعت النفوس، و هذا نلحظه أيضا من خلال ما سطره قلمه رحمه الله تعالى على آيات الذكر الحكيم.

و مما لا ينازع فيه تأثير ابن القيم بشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى، تأثير المتبع المدقق لا المقلد. و بالتالي يندرج هذا التأثير فى التأليف كما هو فى الفكر، مع الفارق بين الشيخين الذى ينزل كلا منهما منزلته. و أيضا طريقته فى التفسير مع توحيد المنبع.

٤- و بتتبع ما سطره الإمام ابن القيم خلال كتبه عن آيات الذكر الحكيم إيضا و تفسيراً قد نتمكن من الوقوف على أهم هذه الأسس و المبادئ الأساسية لمنهجه قدر الاستطاعة.

و قد تقدم فى باب من كتب عن ابن القيم من المعاصرين ما سطره غير واحد منهم عن منهج ابن القيم، كالدكتور البقرى و المتولى و غيرهم، و أفرد له الأستاذ محمد أحمد السنباطى مؤلفاً مستقلاً هو «منهج ابن القيم فى التفسير» و استند على ما جمع من قبل فيما عرف ب«التفسير القيم».

٥- يتكون كتاب الأستاذ السنباطى من ثلاثة أبواب:

الباب الأول: التعريف بابن القيم و هو مكوّن من:

الفصل الأول: ترجمته و وفاته و نشاطه العلمى.

الفصل الثانى: البيئه العلميه حول ابن القيم.

الباب الثانى: مكوّن من:

الفصل الأول: المدرسه الحنبلية السلفيه و منهجها.

الفصل الثانى: الصراع الفكرى بين المدرسه مع المذاهب الأخرى فى مشكلتى الصفات و الأفعال.

الباب الثالث: منهج ابن القيم فى التفسير مكوّن من تمهيد فى التعريف بالتفسير القيم ص (٨١).

الفصل الأول: منهجه حول الوحده الموضوعيه للسوره، نماذج من الفاتحه و المعوذتين، ثم مقارنة بينه و بين شيخه فى طريقه التفسير (٨٨).

ثم ذكر من تأثر بابن القيم فى طريقته فى التفسير كالإمام محمد عبده، و رشيد رضا رحمهما الله تعالى، و الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى، و الشيخ محمد محمد المدنى، و الدكتور محمد عبد الله دراز، و الشيخ أبو الأعلى المودودى رحمهم الله تعالى، هذا ما قرره

الأستاذ السنباطى.

الفصل الثانى: تصدير ابن القيم النص القرآنى كأصل للمعانى و أولويه تفسيره بالنص.

المبدأ الأول: العوده بالنص القرآنى إلى معناه المستعمل فى العصر الأول.

المبدأ الثانى: تفسير القرآن بالقرآن و بالسنة و أقوال الصحابه.

الفصل الثالث: منهجه فى التعرض للنحويات و البلاغيات و القراءات.

المبدأ الأول: عبادته بإبراز ما يتضمنه النص القرآنى من أسرار بلاغيه.

المبدأ الثانى: اهتمامه بالقراءات و عنايته بالنحويات التى ترتبط بها المعانى.

الفصل الرابع: منهجه فى تفسير آيات الصفات و الأفعال.

الفصل الخامس: موقفه من الإسرائيليات.

هذا ملخص ما سطره الأستاذ السنباطى عن منهج ابن القيم فى التفسير، و يهمنى الباب الثالث (٨١-١٥٦).

ص: ٣٧

أولاً: القواعد:

١- تفسير القرآن بالقرآن.

٢- تفسير القرآن بالسنة المطهرة.

٣- تفسير القرآن بتتبع أقوال الصحابة.

٤- النظر فى أقوال التابعين مع ترجيح أصح الأقوال.

٥- النظر اللغوى و البلاغى للآيه القرآنيه.

ثانياً: هذه القواعد-أو هذا المنهج- هو منهج أهل السنة فى التأليف عامه و التفسير خاصه، و هى القواعد التى لخصها و نقحها غير واحد من العلماء فى مقدمه تفاسيرهم، بدءاً بابن جرير الطبرى، ثم شدّ يده عليها ابن تيميه رحمه الله فى مقدمته المشهوره، و من ثمّ نهجها ابن كثير، و غيره من العلماء و هى السمه البارزه لعلماء المدرسه السلفيه منذ العهد الأول مرورا بعالمها المبجل سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، و قدّس روحه، و جعلنا و إياه من أهل رحمته و فردوس جنته.

ثم هلم جرا إلى عصرنا الحاضر، كل من تمسك بمنهج أهل السنة تراه لا يخرج مداد قلمه إلا و يبنى على قواعد هذه المدرسه، و لما لا، و الله تعالى يقول: أَلَمْ نَأَسَسْ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) [التوبه: ١٠٩].

و كتبهم-خاصه شيخ الإسلام و تلميذه-خير شاهد على ذلك، بل أهم ما يؤكّدون عليه النظر فى تفسير القرآن بالقرآن، و لهذا ابن القيم رحمه الله تعالى: «و تفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير» التبيان فى أقسام القرآن (١٨٧).

ثالثاً: ليس معنى هذا المنهج أن ابن القيم يأتى أولاً- فى تفسير الآيه بأختها من القرآن ثم يفسرها من السنه إلخ... ليس بهذا الأسلوب الذى نراه عند كثير ممن وضع تفسيراً للقرآن، لكن هذا منهج بالاستقراء تراه بارزا فى مؤلفاته «فابن القيم رحمه الله تعالى يبرز

الأدلة من الكتاب و السنه، و يستنبط الأحكام الشرعيه منها بأسلوب سهل مبسط خال من التعقيد بنوعيه اللفظي و المعنوي، متطلباً نشر التشريع و بث التوحيد، ردًا إلى الله و رسوله، و إلى أن يرد الناس منابع الشريعة الأولى خاليه من كل و ضر، خالصه من كل شائبه» (١) و لو وضعنا هذا المنهج أساساً للدعوه الآن لاستطاع المخلصون بعون الله تعالى أن يعودوا بالأمه إلى نفس المنابع الطاهره الطيبه، و يخرجوها من حالتها البائسه التعسه. إذا ابن القيم هدفه العوده إلى المنابع: الأول كتاب الله و سنه رسوله صلى الله عليه و سلم، و ما كان عليه الصحابه الكرام و أئمه التابعين الأعلام، فهل طبق ذلك في التفسير؟ نعم... و هذا هو:

رابعاً: لو نظرنا إلى السور التي نكاد نقف على تفسير شبه كامل لها مثل الفاتحه و العنكبوت، و هناك عدد لا بأس به من سورهِ القيامه إلى آخر التفسير خاصه الفلق و الناس. نرى أن ابن القيم يذهب إلى التفسير الموضوعي للسوره، أي: «إبراز الوحده الموضوعيه المتكامله للسوره القرآنيه، تلك الوحده التي تربط بين أركان السوره بعضها إلى بعض، لتخدم الأهداف التي أنزلت من أجلها، و التي يمكن أن تكون أساساً لفهم آياتها» (٢). فلو نظرنا في تفسيره لسوره القيامه (٧١/٥):

١- لنراه يبدأ ببيان ما في الإقسام في قوله تعالى: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَ لاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) من معان كثبوت الجزاء و مستحق الجزاء، و أن ذلك يتضمن إثبات الرساله و القرآن و المعاد، ثم يقول: «و هو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة و يقررها أبلغ تقرير (لما)؟ يقول: «لحاجه النفوس إلى معرفتها و الإيمان بها» فهو رحمه الله تعالى يخلص إلى نتیجه هي الفيصل بين الكفر و الإيمان، و بين الحق و الباطل. فنفس لا تؤمن بالجزاء و لا تثبت الرساله و القرآن و المعاد كيف يكون حالها؟ بل و لو تدبر أحد آيات ذم الكفر و الكافرين و أهل العناد أجمعين لرأيت إفسادهم في الأرض برا و بحرا مبنيًا على إنكارهم هذه الأمور الضروريه يقول تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا - إلى قوله - وَ لَتَضَعِي إِلَيْهِ أَفْئِدَهُنَّ.

ص: ٣٩

١- بكر أبو زيد (٨٦)، و الوضر: و سَخِ الدَّسَمِ و اللبِن. و ليتأمل القارئ هذه الفقره جيدا من كلام الشيخ بكر، و يعجب للذين لا يزالون يصرون على أن يؤلفوا لمجرد التأليف و يكتبوا لمجرد التصدر دون اعتبار جماهير المسلمين التي يجب جذبها للعمل في الصف الإسلامي لا مجرد المشاهده، كما سبق بيان التنبيه على ذلك.

٢- منهج ابن القيم في التفسير (٨٤)، و ضرب الأستاذ السباطي لذلك مثلا بالفاتحه و المعوذتين.

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ [الأنعام: ١١٢-١١٣] أو يقول تعالى في وصف أهل النار: وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)...إلى قوله تعالى ذكره: كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)[المدثر: ٤٦-٥٣] فهذا في حق من لم يؤمن بالآخرة، بالجزاء والحساب. ونظائره كثيرة فيمن لم يؤمن بالرسالة والقرآن، وبمقدار إفساد من لم يؤمن بذلك، ترى خلافه عند المؤمنين بالبعث، والحساب، والرسالة، والنبى، والقرآن، واستقامته، صلاحاً وإصلاحاً، عقيدة وسلوكاً وخلقاً.

٢- فأنت ترى ابن القيم يضع القرآن حيث يجب أن يوضع، منهاجا شاملا تاما كاملا لحياه الإنسان، لسعاده الدنيا والآخرة، ثم يبدأ بعد ذلك فى تفسير أهميه هذا القسم، وأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالإقسام به فى غير آيه منها وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهَقُّ هُوَ قَلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقُّ... [يونس: ٥٣].

٣- ثم يبين المراد بالنفس اللوامة ناظرا فى نظائر القرآن، و فاحصا لأقوال الصحابه والترجيح بين ذلك، و بيان اللوم المحمود و المذموم، ثم بيان الإنكار على المنكر للجمع و الحساب، ثم الترجيح بين الأقوال فى معنى بلى قادرين على أن نسوى بنانه (٤) [القيامة]:

٤[و بيان القدره فى خلق اليد، و بيان إعجازها، ثم يبين أثر عدم الإيمان بالآخرة فى الإنسان يقول: «ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان، و إصراره على المعصيه و الفجور، و أنه لا يرعوى و لا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه، و يعثه حيا، بل هو مرید للفجور فيفجر فى الحال، و يريد الفجور فى غد و ما بعده، و هذا ضد الذى يخاف الله و الدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه، و لا يقلع فى الحال و لا- يعزم فى المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، و هذا ضد التائب المنيب» ثم تبه سبحانه على الحامل له على ذلك، هو استبعاده ليوم القيامة...إلخ. و هذا هو عين المراد من القرآن: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) [الإسراء]. فمراد القرآن ببيان السبيل و المنهج لمن شاء أن يستقيم، ثم يستمر التفسير على هذا النحو، نظرا فى القرآن و السنه، تدبرا و فهما، ثم ترجيحا و لأقوال الصحابه و التابعين، و اختيار الأنسب و الأوفق لمراد القرآن الكريم.

و هو يدفعك لذلك و يحثك بقوه فيقول عند الكلام عن الآيه: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَازِرَةٌ (٢٣)[القيامة].

يقول: «و أنت إذا أجزت هذه الآيه من تحريفها عن موضعها...وجدتها مناديه نداء صريحا، أن الله سبحانه و تعالى يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، و إن أبيت إلا تحريفها الذى

يسميه المحرفون تأويلا... وهذا الذى أفسد الدين و الدنيا..-ثم يقول:-..فاسمع الآن أيها السنى تفسير النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه و التابعين و أئمة الإسلام لهذه الآيه...اه.

فهو ينادى عليك ببيان المنهج الصائب فى التفسير فالتزمه.

و مع هذا ينقد و يرجح بين أقوال السلف شأنه شأن العلماء المتبعين بنظر، لا بتقليد مضل، انظر مثلا(١١٦/٥)«بدائع التفسير»من سوره النازعات و(١١٨/٥)هام جدا فى بيان المتوسعين فى نقل التفسير و نقدهم.

٤-و ينظر خلال ذلك فى علاقه الألفاظ و نسقها فى إظهار المعنى، يقول مثلا:«فلفظ «يفجر» اقتضت «أمامه» بلا واسطه حرف، و لا اسم موصول، فأعطيت ما تضمنته لفظا، و اقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف و الموصول، فأعطته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظا و معنى و الله أعلم»(٧٦/٥).

فابن القيم ينظر إلى اللفظ و دوره فى المعنى: لأنه ليس فى القرآن لفظه مهمله (بدائع الفوائد: ٢/٢٢٩).

فاللغه هنا لخدمه القرآن الذى نزل بها، لا لإخراج القرآن عن المراد منه، حتى يضع بعضهم تفاسير فيها كل شىء إلا التفسير. فابن القيم يسخر اللغه تسخيرا بارعا شيقا صحيحا لخدمه القرآن، فهو ليس المستكثر الممل حتى ليخيل للقارئ أن القرآن إنما كتاب للنحو، و الصرف، و علوم البلاغه، و دقائق و خفايا القضايا المتعلقة بذلك لا غير، و لا هو المقل حتى يظن بعده عن هذا العلم. «و ربما توارت شهره ابن القيم بأنه لغوى؛ لأن اللغه فى ذاتها لم تكن قصد ابن القيم، و إنما الدرر القرآنى بما فيه من موضوعات دخل بعضها فيما يسمى ب«علم الكلام» كان مقصد ابن القيم من أبحاثه اللغويه، فدراسته للغه دراسه مجالها التطبيقى هو النصوص القرآنيه و الأحاديث النبويه..» (١).

ص: ٤١

١- «ابن القيم اللغوى» للبقرى (٥٩).

و هنا يضع ابن القيم رحمه الله تعالى قاعده أصيله و عظيمه عند التعامل مع القرآن الكريم، يقول: «...و ينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه، و هو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عزّ و جلّ و يفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، فيكون الكلام بدله معنى ما. فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية و يعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، و يفهم من ذلك التركيب أى معنى اتفق، و هذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، و إن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى فى سياق آخر، و كلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن مثل قول بعضهم فى قراءه من قرأ: وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء: ١] بالجر أنه قسم، و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: وَ صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقره: ٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور فى «به» و نظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا و أوهى بكثير، بل للقرآن عرف خاص و معان معهوده لا يناسبه تفسيره بغيرها و لا يجوز تفسيره بغير عرفه، و المعهود من معانيه، فإن نسبه معانيه إلى المعانى كنسبه ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ و أجلها و أفصحها و لها من الفصاحة أعلى مراتبها التى يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعانى و أعظمها و أفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التى لا تليق به، بل غيرها أعظم منها و أجل و أفخم فلا يجوز حمله على المعانى القاصره بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، فتدبر هذه القاعده، و لتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها فى معرفه ضعف كثير من أقوال المفسرين و زيفها، و تقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه...» (٢٧/٣-٢٨) بدائع الفوائد.

و يقول أيضا فى معرض بيان معنى الآية رقم (٢٧-٢٨) من الأنعام: «و قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية و ما أوردوا، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عيلا، و معناها أجل و أعظم مما فسروا به، و لم يتفطنوا لوجه الإضراب ب«بل»، و لا للأمر الذى بدا لهم و كانوا يخفونه، و ظنوا أن الذى بدا لهم العذاب.

فلما لم يروا ذلك ملتثما مع قوله: ما كانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ قدروا مضافا محذوفا و هو خبر(ما

كانوا يخفون من قبل)، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه..» عده الصابرين (١٨٥).

بل تراه يذم من أعرض عن النحو فلم يفهم التفسير يقول: «...و أنه لم يقدر المعنى حق قدره، فلا لصناعه النحو وفق، ولا لفهم التفسير رزق...» بدائع الفوائد (١/١٣٣)، و انظر أيضا (١/٢٠٦).

و سيأتي مزيد في بيان تعظيمه للقرآن و أدوات تفسيره عند الكلام عن الإسرائيليات، إن شاء الله تعالى.

فليتدبر المسلم مقدار عظم هذه النصيحة و لا يحيد عنها، و ينظر في كتاب الله بها ثم ينتظر مدد الله و فيضه.

٥- و هنا نقف على نتيجة هامه هي نظر ابن القيم في القرآن نظره المصلح المربي المتبصر، فهو لا تكاد تمر عليه آيه أو يمر بها إلا استخراج منها قواعد هامه لإصلاح الفرد و الجماعه، و يؤكد على علاقتين هامتين ضروريتين:

(١) علاقه العبد بربه سبحانه و تعالى.

(٢) علاقه العباد بعضهم مع بعض.

أما علاقه العبد بربه فأكاد أجزم أن مدار كتب ابن القيم عليها قامت، و لها دعت، و انظر إلى أى آيه يظن القارئ أنها بعيدة عن ذلك، تراه يستنبط منها ما ينفع العبد في علاقته مع ربه، انظره مثلا عند كلامه على آيات الربا في سورة البقره فضلا على فتوحات الله عليه في سورة الفاتحه، و هذا أظن التأكيد عليه من نافله القول.

أما علاقه العبد بغيره من أفراد البشر مسلمين كانوا أم كفارا، فتراه يخرج من الآيات ما به يستقيم حال الفرد و حال المجتمع بتنوع أفراده، و تأمل ما سطره في «تحفه الودود» أو في «أحكام أهل الذمه» مثلا جليًا لذلك، يندفع به ما يراد أن يلصق بالمسلمين الآن من اتهامات بالدمويه و القتل لا- غير. و يا ليت الأمر جاء من الأعداء فقط لقل الخطب، إنما هي فتنه تبثها أقلام مأجوره و أفواه مطعومه، و عقول مسقاها من نبع واحد إلا هو النفاق، و لكن يتكلمون بألسنتنا و من جلدتنا.

٦- تفسير الصحابه رضى الله عنهم:

أولا: منزله الصحابه رضى الله عنهم من المكانه بما لا يحتاج لبيان، فهم من الشأن و الرفعه لا يعلو عليهم أحد سوى الأنبياء عليهم السلام. و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يخرجون عن قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (٦٩) [النساء] فهم الجامعه الإسلاميه حقا و الجماعه المؤمنه الأولى الذين تربوا على يد خير الناس صلى الله عليه و سلم.

أولاً: منزله الصحابه رضى الله عنهم من المكانه بما لا يحتاج لبيان، فهم من الشأن و الرفعه لا يعلو عليهم أحد سوى الأنبياء عليهم السلام. و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يخرجون عن قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدُقِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا (٦٩)[النساء] فهم الجامعه الإسلاميه حقا و الجماعه المؤمنه الأولى الذين تربوا على يد خير الناس صلى الله عليه و سلم.

و قد اهتم إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى أيما اهتمام بأمر اتباع الصحابه، بل بيان وجوب ذلك في أكثر من موضع من كتبه أهمها ما ذكره في «إعلام الموقعين» (١٥٥/٤).

و بيان الدلاله على اتباعهم مطلقا مجتمعين و منفردين، و الرد على من خالف ذلك. و هذا ما أدين به لرب العالمين و لا نحيد عنه إلى يوم الدين، فإن الصحابه رضى الله عنهم خير الناس و أتقاهم و أعلمهم بعد رسول رب العالمين صلى الله عليه و سلم.

«و قد نهج ابن القيم رحمه الله تعالى في مسائل العلم منهج الاسترواح و التطلب من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و من سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم الذى لا ينطق عن الهوى، فإن لم يجد أخذ بأزمه أقوال الصحابه رضى الله عنهم: لأنهم أبر الأمة قلوبا و أعمقها ديناً، و أصحابها فهو ما.

و هذه صفه بارزه و سمه ظاهره في جميع مباحثه في العقائد و الأحكام، و لهذا أفاض رحمه الله تعالى بالاستدلال لهذا الأصل و وجوب الأخذ به و العمل بموجبه..» (١) و هذا الفصل في وجوب اتباع الصحابه رضى الله عنهم يعرض عليه بالنواجذ فقد لا تجده في غير مكانه.

ثانياً: موقف ابن القيم من تفسير الصحابه رضى الله عنهم. بعد أن عرفنا مكانتهم في مصنفاته العقديه و الفقهيه، نرى فيما استطعنا جمعه من تفسيره أنه رحمه الله تعالى يجعل هذا من الأصول العظيمه في التفسير، و إليك بعض الشذرات.

يقول مثلاً في «التبيان في أقسام القرآن» (٢٢٩):

«الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) قال: المطهرون الملائكه، و هذا عند طائفه من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم (٢): تفسير الصحابه عندنا في حكم المرفوع، و من لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابه، و الصحابه أعلم الأمة بتفسير القرآن و يجب الرجوع إلى تفسيرهم» فهنا أوجب الرجوع إلى تفسيرهم كما أوجب -فيما سبق- اتباعهم و طاعتهم. ف.

ص: ٤٤

١- بكر أبو زيد (١٩).

٢- راجع ص (٣٠٠) من سورة الأعراف.

و قال فى موضع آخر من طريق الهجرتين (٣٥٦) فى الحديث عن أصحاب الأعراف:

«و آثار الصحابه فى ذلك المعتمده».

و يقول رحمه الله تعالى فى تفسير معنى اللهو من الآيه (٣) سورة لقمان: «و صح عن ابن عمر رضى الله عنها أيضا أنه الغناء»-ثم ذكر قولى الحاكم-ثم قال: «و هذا و إن كان فيه نظر-قول الحاكم أن تفسيرهم فى حكم المرفوع-فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأئمه بمراد الله عزّ و جلّ من كتابه فعليهم نزل، و هم أول من خوطب به من الأئمه، و قد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله عليه و سلم علما و عملا، و هم العرب الفصحاء على الحقيقه، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل...» بدائع التفسير (٣/٤٠٥).

و هو يجمع بين أقوالهم، و بين أن أكثر اختلافهم فى التفسير اختلاف تنوع، راجع (١٠٥٥/١) المرسلات.

٧-و يقول رحمه الله تعالى:

«و قد اختلف فى تفسير الصحابى هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين:

الأول اختيار أبى عبد الله الحاكم. و الثانى هو الصواب، و لا نقول على رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لم نعلم أنه قاله» اه.

و قد قال الحاكم أيضا فى مستدرکه (٢/٢٥٨): «ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى و التنزيل عند الشيخين حديث مسند» و لم يعقب الذهبى بشىء، إذا ابن القيم يصوب أن تفسيرهم موقوف، و لكن يوجب اتباعهم فيه؛ لأنهم أعلم الأئمه بتفسير القرآن كلام الرحمن، و إن كان المقام لا يسع هنا الترجيح بين أقوال أهل العلم فى هذه المسأله، و لكنى أظن أن تخريج هذه المسأله مبنى على أن النبى صلى الله عليه و سلم هل تناول تفسير القرآن كله للصحابه أم لا؟ لأن النبى صلى الله عليه و سلم إن تناول تفسير القرآن كله لهم، فلا شك أن ما قالوه يكون مرفوعا، و ما صح سنده يكون العمده. و الله أعلم.

و فى المسأله قولان أحدهما بالإيجاب، و الآخر بالنفى، و قد ناقش ذلك الدكتور/ محمد الذهبى رحمه الله تعالى فى كتابه الهام «التفسير و المفسرون» (١/٥٠). و اتهم الفريقين بالغلو (١/٥٣)، و توسط بين القولين بأن النبى صلى الله عليه و سلم بين الكثير من معانى القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، و لم يبين كل معانى القرآن، و ذكر قول ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير (١/٢٥) قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، و تفسير لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير تعرفه العلماء، و تفسير لا يعلمه إلا الله» (١/٥٥).

و جعل الدكتور/الذهبي على رأس القائلين بأن الرسول صلى الله عليه و سلم تناول بيان القرآن كله ابن تيميه رحمه الله تعالى التفسير و المفسرون(٥١/١)، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه و سلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه، قوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤] يتناول هذا و هذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن-كعثمان بن عفان و عبد الله بن مسعود و غيرهما-أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن و العمل جميعا، و لهذا كانوا يبكون مده فى حفظ السوره، و أيضا فالعاده تمنع أن يقرأ أقوام كتابا فى فن من العلم كالطب و الحساب و لا يستشروه فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم، و به نجاتهم و سعادتهم، و قيام دينهم و دنياهم؟! و لهذا كان نزاع الصحابه فى القرآن قليلا جدًا، و هو و إن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابه فهو قليل بالنسبه إلى من بعدهم...» دقائق التفسير (٩٠/١-٩١).

و انظر مقدمه القرطبي لتفسيره: باب كيفية التعلم و الفقه... (٣٤/١).

٨- ثم المتتبع لتراجم القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، كعبد الله ابن مسعود، و سالم و معاذ و أبى بن كعب، و غيرهم كعبد الله بن عباس رضى الله عنهم، ثم التابعين و أشهرهم مجاهد -أقول-: «المتتبع لتراجمهم يلمس مقدار ما أخذوه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كتلقى ابن مسعود رضى الله عنه سبعين سوره من فمى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلا يبعد أن يسألوه ليتعلموا و يتفقهوا و هذا كثير يصعب حصره، و إنما المتتبع لتفاسير السلف الأوائل يراه واضحا، فهل يعقل أن يسألوه صلى الله عليه و سلم عن النعيم فى قوله تعالى: ثُمَّ لَتَسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) [التكاثر: ٨] ثم يتركون السؤال عن غيرها مما خطره أكبر و معناه أهم، كالأحكام و العقائد، و انظر عده الصابرين (١٩٠). انظر فتح البارى (٦٦٣/٨) فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم.

و انظر فصل فى أحسن طرق التفسير لابن تيميه رحمه الله تعالى (١١٠/١-١١١) دقائق التفسير. و يقول ابن تيميه رحمه الله تعالى: «و كذلك الصحابه و التابعون فسروا جميع القرآن، فكانوا يقولون: إن العلماء يعلمون تفسيره و ما أريد به، و إن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه...» درء تعارض العقل و النقل (٢٠٧/١).

و تفسير ابن جرير، و عبد الرزاق، و غيرهم من الأوائل، دال على كثرة ما نقلوه فى التفسير عن خير أمه أخرجت للناس: صحابه رسولنا صلى الله عليه و سلم، و انظر مقدمه ابن كثير لتفسيره (٣/١).

٩- وإنى أتبع قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى أن الرسول صلى الله عليه و سلم بين القرآن للصحابه، و أن الصحابه و التابعين فسروا القرآن كله.

فإذا لا عجب أن نرى استحضار ابن القيم لآراء الصحابه رضى الله عنهم عن تفسيره، و هو لا ينقل فقط، بل يرجح و ينقح بين آرائهم، مثلا انظر تفسيره لمعنى «اللمم» الآية (٣٢: النجم) فى (١٤/ ٣٠١) من بدائع التفسير، و ينقد من يخالف أقوالهم و بشده كما عند تفسيره «للطائر» من قوله تعالى الآية (١٣) الإسراء. يقول: «هذه طريقه لكم معروفه فى تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها فى الجسم و الطبع و العقل و هذا لا يعرفه أهل اللغه و هو خلاف حقيقه اللفظ و ما فسره به أعلم الأمه بالقرآن، و لا يعرف ما قلموه عن أحد من سلف الأمه...» (شفاء العليل:

٦١) و هذا سيصادف القارئ كثيرا و إذا ثبت النقل عنهم فإنك تراه لا يحيد عن قولهم رضى الله عنهم.

مسأله لقد اعترانى كثير من التحير فى مسأله «تفسير النبى صلى الله عليه و سلم» من ناحيه كيف يصح شىء عن النبى صلى الله عليه و سلم ثم يعدل بعض المفسرين عنه أو ذكر ما يعارضه، حتى و لم يتفق معنا بعض الباحثين فى تفسير النبى صلى الله عليه و سلم للقرآن، لكن لا يخرج الأمر عن بيان المجمل فى الكتاب، كالصلوات و هيئاتها مثلا.

فكل ما ورد عنه فى هذا الباب تفسير للقرآن، فالسنه مفسره للقرآن و مبينه و موضحه له.

و مما يؤيد ذلك ما صح عن الصحابه رضى الله عنهم فى طريقه تعلمهم للقرآن على يد النبى صلى الله عليه و سلم حيث ذكر غير واحد من الصحابه كابن مسعود و عثمان بن عفان و زيد و ابن عمر، كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل، فتعلموا القرآن و الإيمان معا، علما و عملا.

و لكن لا يشترط لصحة ما ذكرنا أن الصحابه سألوا النبى صلى الله عليه و سلم عن كل كلمه من القرآن، لأنهم أهل اللسان الذى نزل به، و أفهامهم أنقى الفهوم و أصفى أفئده، فلم يكونوا بحاجه لمثل هذا التفصيل، مع ورود ما يشبهه عنهم مثل بيانه صلى الله عليه و سلم معنى الظلم فى الآية (٨٢) من الأنعام. و هكذا.

لكن اعتراضنا على من صح عنده كلام النبى صلى الله عليه و سلم، ثم يعدل عنه، و ليس هذا إلا كصنيع بعض الفقهاء فى ترك السنه لأقوال شيخهم، و هذا فصلناه فى كتاب «جامع الفقه» (١). ه.

ص: ٤٧

١- و سوف أضع بابا فى موضوع تفسير النبى صلى الله عليه و سلم ضمن «معجم علوم القرآن» بحول الله و قوته.

موقف ابن القيم من الإسرائيليات:

١٠- للعلماء موقف مما روى من أقاويل أهل الكتاب، يقفون به موقف الاحتياط والحذر و غالباً الرفض، وذلك مبناه على قوله صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، و من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» عن ابن عمر و(صحيح الجامع: ٢٨٣٤).

و لهذا يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «...هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا تؤمن به ولا تكذبه و يجوز حكايته لما تقدم، و غالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني..» (تفسير ابن كثير ٣/١)، ثم ضرب أمثله لذلك، كأسماء أصحاب الكهف و كلبهم، و نوع الشجرة التي أكل منها آدم... إلخ.

و يذكر كثير من المفسرين ذلك ظناً أن هذا من العلم النفيس، فحشوا كتبهم به و هو غث و غش فصرفوا المسلمين عن مقاصد الكتاب الهادي المنير، إلى (خزعلات) و أباطيل أهل الكتاب، و غفلوا أن الله تعالى إنما سكت عن أسماء كثير من الأماكن و الأشخاص ليعلمنا أنها ليست مقاصد الكتاب العزيز، فما الذي يفيد في تعيين اسم ذي القرنين، و موطنه، و أماكن رحلاته، ثم تراهم يقفون عند هذا، و يغفلون عن قاعده هامه من قواعد صلاح الأمم و استقامه الحياه قاعده العدل و الإحسان و انتقاد الظلم، كما في قوله تعالى: قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنصِّحُ فِيهِمْ حُسِينًا (٨٦) قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسَيْنِ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) [الكهف] فلا يعطون لمثل هذه الآيه النفيسه ما تستحقه؛ لأن ذلك على خلاف هوى الطغاه و الجبابره و حسبنا الله و نعم الوكيل.

و هنا نقف على جوهره ثمينه من جواهر العلم النفيس لابن كثير- و لم لا- و هو ممن أزهروا أثمر ببستان شيخ الإسلام ابن تيميه و تلميذه ابن القيم- يقول ابن كثير في أحسن ما

يكون في عرض الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها، و يبطل الباطل، و تذكر فائده الخلاف و ثمرته لئلا يطول النزاع و الخلاف فيما لا فائده تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

«..فأما من حكى خلافا في مسأله و لم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكى الخلاف و يطلقه و لا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، و كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائده تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا و يرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان و تكبر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور.

و الله الموفق للصواب» (تفسير ابن كثير: ٣/١).

هذه القاعده الهامه تراها واضحه عند ابن القيم رحمه الله تعالى، فهو لا يذكر الأقوال كثيرا، و لا يسرد الآراء عجبا، بل يرجح ما به يقع القارئ على الصواب و يسهل العمل به.

فلا يترك القارئ متحيرا، مدعيا أن له حق الاختيار.

١١- ولهذا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى يعرض تماما عن ذكر الإسرائيليات، فهو يعلم مقدار ما أفسدت هذه الآفات في عقائد المسلمين و رغبتها في تحويل الإسلام إلى رهبانية و قصص و حكايات لصرفهم عن المقصد الأسمى: إلا هو العلم الصحيح النافع مع العمل الصائب. و قد ضرب الأستاذ السنباطي مثلا لإعراض ابن القيم بتفسير آيات آداب الضيافة من سورة الذاريات (٢٤-٢٥) و ما دار بين الملائكة و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

(منهج ابن القيم: ١٥٤).

و ينقد ابن القيم بشده من يعتمد الإسرائيليات في احتجاجه دون التفات لمعارضه لأصول الدين أو للصحيح من الآثار، يقول في معرض قبول التوبه و عوده العبد بعدها خيرا مما كان: (...فإذا أثمرت له التوبه هذه المحبه و رجع بها إلى طاعته التي كان عليها أولا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب و الوسيله، و هذا بخلاف ما يظن من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنه لا- يعود الود الذي كان له من قبل الجنابه، و احتجوا في ذلك بأثر إسرائيلي مكذوب أن الله قال لداود عليه السلام: «يا داود أما الذنب فقد غفرناه و أما الود فلا- يعود». و هذا كذب قطعاً... (طريق الهجرتين: ٢١٦-٢١٧). بل نرى ابن القيم يعرض بالكلية عن ذكر ما فيه مساس و عدم صون للكتاب الكريم، أو ما يشوب سير أنبياء الله صلوات الله و سلامه عليهم مما قد لا يحذر منه كثير من المؤلفين (كحاطب ليل) يقول في بيان قوله تعالى ذكره: وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا... [الأحزاب: ٣٦]: «أخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه و قضاء رسوله صلى الله عليه و سلم، و من تخير بعد ذلك، فقد ضل ضلالا بعيدا. و أما زعم بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه و سلم حق قدره، أنه ابتلى في شأن زينب بنت جحش، و أنه رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب» فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، و صنف بعضهم كتابا في العشق و ذكر فيه عشق الأنبياء و ذكر هذه الواقعة. و هذا من جهل هذا القائل بالقرآن و بالرسول و تحميلة كلام الله ما لا يتحملة و نسبته رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ما برأه الله منه...» (بدائع التفسير: ٣/٣٢٥-٣٢٦) فأنت ترى موضع الكتاب المعظم عند ابن القيم

و مكانه النبي المكرم صلى الله عليه و سلم بل لو عدنا و نظرنا في تكمله آيات سورة القيامة بل و غيرها من السور ترى تردد عبارته «و من أسرار الآيه كذا» و هذا من أسرار القرآن» راجع مثلا سورة القيامة (٧٩/٥).

و يقول أيضا: «...فتبارك من أودع كلامه من الحكم و الأسرار و العلوم ما يشهد أنه كلام الله، و أن مخلوقا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدا» (بدائع الفوائد: ٧٤/١).

و منه أيضا (١١٧/١): «...و هذا باب قد فتحه الله لي و لك فلجه و انظر إلى أسرار الكتاب و عجائبه و موارد ألفاظه جمعا و أفرادا و تقديما و تأخيرا إلى غير ذلك من أسرار...».

و منه (١١٩/١): «...فمثل هذا الفصل يعرض عليه بالنواجذ و تثني عليه الخناصر فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، و الله الموفق للصواب» و يرد بشده و قوه على من ينتصر لقاعده نحويه على حساب القرآن «...فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارا لقاعده نحويه، هدم مائه أمثالها أسهل من تحريف معنى آيه» (بدائع الفوائد: ٤٥/١) و أخيرا ينقد ابن القيم من يطوع إلى بدعته خلافا لما عليه السلف يقول: «و نحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى و سلف الأمة في الطائر، فأورنا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، و كل طائفه من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها و ضلالها و تفسره بمذاهبها و آرائها و القرآن برىء من ذلك و بالله التوفيق» (شفاء العليل: ٦١).

و هذا قليل من كثير مما يؤكد على تعظيم الإمام للقرآن و الذود عن تفسيره بغير وجه صحيح.

و هو مع هذا يرد و يناقش، لا يقلد رأى أحد مهما كان، فهو يعلم أن كل أحد يؤخذ منه و يرد، إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم.

راجع مثلا: كلامه عن آيه النذرية (١٧٢) الأعراف أو كلامه عن الشك من الآيه (٩٤) سورة يونس أو معنى الصراط الآيه (٥٦) من سورة هود.

و مقصده رحمه الله تعالى في كل هذا الوصول للحق بطريق الحق، و الله حسبه، و كل يؤخذ منه و يرد إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم و أصحابه و سلم، فرحمه الله تعالى و أثابه فوق نيته.

فصل هذه نظره متعلقه بالأبحاث العلميه و الكونيه و الطبيه و غيرها من العلوم التجريبيه مما تكلم عن بعضها ابن القيم رحمه الله تعالى و فيها بعض التأملات:

أولاً: القرآن الكريم كلام رب العالمين المنزل على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كتاب هداية و بيان، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام: صراط الله المستقيم. و القرآن مليء بالحث على التفكير و التدبر و النظر في السموات و الأرض و فيما خلق الله من جبال و أنهار و بحار و أشجار و كواكب و نجوم إلى سائر مخلوقات الله تعالى جامده أو حيه. و في أيام الذين خلوا من قبل. و هذا يكاد لا تخلو منه سوره من السور و إن غلب ذلك على السور المكيه كالأنعام و النحل و غيرها، مثلاً: يقول الله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات] أو كقوله: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) [الغاشية] إلى كثير من الآيات التي تكلم عنها جمع من العلماء بما عرف بال تفسير العلمي.

يقول العلامة الدكتور/محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في معنى التفسير العلمي:

نريد بالتفسير العلمي: «التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلميه في عبارات القرآن، و يجتهد في استخراج مختلف العلوم و الآراء الفلسفيه منها» «التفسير و المفسرون» (٢/٤٥٤).

و للحديث عن التفسير العلمي في القرآن، و موقف المؤيدين منه و المعارضين، مقام ليس هنا، و إلاّ- طال المقال عن ضروره الحال. و من أحسن من كتب و جمع و حلل الآراء في هذه المسأله- مع الاختصار أيضاً- فضيله الأستاذ الدكتور/فهد الرومي في كتابه الممتع البديع «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» في الفصل الثالث «المنهج العلمي التجريبي في التفسير» (٢/٥٤٥-٧٠٢) و قد رجح المؤلف حفظه الله بين الآراء بأقوال جيده و نظرات ثاقبه (٢/٦٠٢) و أرى- و الله أعلم- حسن ما ذهب إليه، و هو عدم رفض و إنكار التفسير العلمي بشرط ضروريه للخوض فيه. ثم يقول بعد ذكره هذه الشروط: «أقول: لا رفض للتفسير العلمي مطلقاً، و لا- تأييد و تسليم له مطلقين، بل جمعاً بين حقيقتين: حقيقه قرآنيه ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، و حقيقه علميه ثابتة بالتجربه و المشاهده القطعيتين، و من هنا كنا متفقين كما أسلفنا على أن القرآن الكريم لم و لن يصادم حقيقه علميه، و إنما يقع التصادم عند ما ندعى حقيقه علميه في الكون و هي ليست حقيقه علميه، أو ندعى حقيقه قرآنيه، و هي ليست حقيقه قرآنيه» (٢/٦٠٣). و قد تبّه الأستاذ المؤلف للفرق بين أمرين هاميين و هما: «التفسير العلمي» و «الإعجاز العلمي». أما أولهما فهو مثار البحث و المناقشه، و أما ثانيهما فأحسبه أمراً مسلماً لا جدال فيه و لا إشكال (٢/٦٠٠) اهـ.

و هي تفرقه و إن كانت لا تنكر، لكنها قد تخفى على أجيال يلبس عليها دينها و يشوش فكرها بحجه لا مكان للدين في الحقل العلمى و المعملى المعاصر، و تفهيمهم أن الدين هو عبادات داخل المسجد فقط و لا علاقة له بالدنيا، و لا مكان له بالخارج، و هو لحيه كته و قميص قصير و مسبحه طويله... فهو -عندهم- «دروشه» فأكثر منها إن شئت أودع.

ففصلوا بين الدين و الدنيا، بين القرآن و السنه، و الحكم و واقع الناس. فالإعجاز العلمى كان و لا يزال و سوف يستمر إلى ميراث الله الأرض و من عليها «ذلكم أن كتابا أنزل قبل أربعة عشر قرنا من الزمان و عرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونيه كخلق السموات و الأرض و خلق الإنسان... و مع ذلك كله لم يسقط العلم كلمه من كلماته و لم يصادم جزئيه من جزئياته، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازا علميا للقرآن. هذه النتيجة المتولده على أن القرآن لم و لن يصادم حقيقه علميه لم أر بين علماء المسلمين من أنكرها لا فى القديم و لا فى الحديث، و كل ما يثار من ضجه و ما يسطر فى الصحف ما هو إلا عن التفسير العلمى لا عن الإعجاز العلمى» (٢/٦٠٠-٦٠١) المصدر نفسه.

فالله عزّ و جلّ لا تخفى عليه خافيه، و لا يكون إلا ما أراد و قدر و قضى، فهو خالق كل صانع و صنعته فهو أنزل القرآن و علمه، و خلق الإنسان و عقله، و قرآنه هو الدال عليه سبحانه، و هو كتابه المقروء و الكون كتابه المنظور.

فهذا كتاب بيان و هدى يدللك أن الكون له خالق واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

و نبهنا فى القرآن على ما فى كثير من الكون من آيات يراها الناس بين الحين و الآخر ليزدادوا إيمانا و تسليما حين يرون إعجاز القرآن العلمى، و هذا ينفع المؤمنين مع إيمانهم و تصديقهم أصلا بالقرآن، و إلا فأكثر هذه الإعجازات العلميه أظهرت على أيدي غير مؤمنين فلم تنفعهم شيئا و كانت حجه عليهم لا لهم. فالعبره بالإيمان و التصديق أن القرآن حق، ثم تأتى الآيات الكونيه لئرى فى أنفسنا و الآفاق ما يزيدنا إيمانا و يتبين لنا أنه الحق. و الله أعلم و به أوّمن و له أسلم و أسأله أن يتوفانى على ما توفى عليه عباده الصالحين.

ثانيا: «ابن القيم و التفسير العلمى» بعد بيان الفرق بين التفسير العلمى، و الإعجاز العلمى للقرآن، نستطيع أن نقف -بعون الله- على موقف ابن القيم رحمه الله تعالى من الأمرين و هو ما يأتى فى الكلام على منهجه رحمه الله تعالى.

بيننا من قبل فى الفصل ص (٥٢) الفرق بين التفسير العلمى و الإعجاز العلمى، و أن الإعجاز العلمى موجود إلى قيام الساعة، أما تفسير القرآن تفسيراً علمياً فمرفوض و التبع لمؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى و التى منها تم جمع تفسيره يلحظ الآتى:

أولاً: إن ابن القيم رحمه الله تعالى يحث المسلمين على التفكير و التدبر و النظر فى الكون و إلى ما خلق الله من شىء، ليزدادوا إيماناً و تسليماً. و هذا واضح فى جلّ كتبه خاصة «مفتاح دار السعادة» الذى لا نظير له. فهو يتكلم عن صنع الإنسان و بديع صنعه و الكلام على أعضاء الإنسان عضواً عضواً، ثم ينتقل إلى الكلام عن سائر المخلوقات من شمس و قمر و نجوم و كواكب و اختلاف الليل و النهار، ثم الحيوانات و الحشرات إلى سائر المخلوقات، و فى كل هذا يذكر الحكمة فى الخلق و الإعجاز فى الصنع.

ثانياً: يضع ابن القيم رحمه الله فرقاً بيننا فى النظر فى الآيات و أنه نوعان:

الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر فىرى مثلاً- زرقه السماء و نجومها و علومها وسعتها، و هذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات و ليس هو المقصود بالأمر.

و الثانى: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فى أقطارها و ملكوتها و بين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته و عظمته و جلاله و مجده... فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقاً لهيبته، خاشعاً لعظمته، عان لعزته، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين سجده لا- يرفع رأسه منها إلى يوم المزيّد، فهذا سفر القلب و هو فى وطنه و داره و محل ملكه و هذا من أعظم آيات الله و عجائب صنعه...» (مفتاح دار السعادة: ٢١٧).

ثم يسرد بعد ذلك ابن القيم سائر المخلوقات ثم يتكلم عن الحكمة فى خلقها و عجب صنعتها و قدره تديرها. يذكر الأرض مثلاً و ما فيها من أرزاق للعباد، فظهرها وطن لهم و بطنها وطن لهم بعد موتهم... إلخ. مستشهداً فى ذلك بالآيات القرآنية، و أحياناً كثيرة بالأحاديث النبوية؛ فيتكلم بتوسع تارة و بإيجاز أخرى، و هو فى كل هذا حاد للأرواح إلى بلاد الأفراح، متزوداً للمعاد بهدى خير العباد، متسلحاً ببدايع الفوائد، سائراً فى طريق

أعلام الموقعين عن رب العالمين، يخطو على مدارج السالكين، بمفتاح دار السعادة، مغيثا للهفان مؤنسا للسائر في طريق الهجرتين
مرسلا على أعداء السنه صواعق مرسله (١). رحمه الله تعالى. و لو تتبعنا ما ذكره لطال المقام فانظر مفتاح دار السعادة ففيه البيان.

و يقول رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: سَيُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ [فصلت: ٥٣] «أى أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد أن يريهم من
آياته المشهوده ما يبين لهم أن آياته المتلوه حق...» الفوائد ص (٢٣).

ثالثا: هل الكلام على هذه الآيات و ما فيها من علوم كونه، يعتبر هذا تفسيراً علمياً أم بيانا للإعجاز العلمى فى القرآن؟

بالنظر إلى ما رجحه كثير من أهل العلم المحققين برفض التفسير العلمى للقرآن بدءاً من السابقين أمثال الشاطبى رحمه الله تعالى
فى الموافقات (٧٩/٢-٨٠) و انتهاء بالدكتور الذهبى رحمه الله تعالى (٢/٤٦٩) نقرر أن ابن القيم لا يفسر الآيات تفسيراً علمياً
بمفهوم أصحابه، لقيام هذه العلوم على نظريات لا قرار لها و لا بقاء، قد تكون اليوم صائبه و غدا طائشه، بل بعض هذه النظريات
تهدم كثيراً من سابقتها مع اشتهاها و استمرارها مده، كنظريه النسبيه «لاينشتين» (EINSTEIN) و غيرها من النظريات العلميه
فى شتى المجالات و كيف هدمت سابقتها، و فربط تفسير الآيات بمثل هذا عين الخطأ.

لكن لو ذهبنا إلى أن ابن القيم قد أشار إلى الإعجاز العلمى فى القرآن فى سائر الآيات التى فسرنا غيره تفسيراً علمياً، لو ذهبنا
لذلك فقد- و الله أعلم- وفقنا.

مثال: تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: وَ فِي الْمَأْرُضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ (٢١)
[الذاريات]. فى ما يقرب من أربعين فصلاً، و أكثر من (١٢٠) صفحته فى «التبيان فى أقسام القرآن» من (٢٩٤-٤٢٢) عن بديع صنع الله
تعالى فى الأرض، ثم الإنسان، تكلم عن الأذنين و سر شقهما فى جانبى الوجه و الأنف و اللسان و الأسنان...

و عن الحمل و تفاوت مدته و عن الجنين و أحواله ثم سائر أعضاء الإنسان، و فائده كل عضو و خصائصه و بعض خصائصه
التشريحيه و هو يحسن فى أحيان كثيره، لكن يخالفه الطب الحديث الدقيق فى كثير مما تكلم هو عنه. و أقول خالفه الطب- لا
خالف الطب- لأنه متقدم و هذا التقدم الطبى حديث فقد يتحدث عن الطحال مثلاً بخلاف ما وصل إليه العلمى.

ص: ٥٥

الآن؛ لأنه يتكلم عنه بما وصله من علم من أطباء عصره و هذا مشهور عند المسلمين فى تلك القرون و قبلها أيضا، فهو لا يلام و لكن يشكر سعيه و يحمد فعله، و يثاب من فضل الله على قدر نيته، و هى حسنه إن شاء الله تعالى. و هو فى هذا على خلاف من يحارب الإسلام الآن مدعيا مخالفته للتقدم و المدنيه و الحضاره. و التقدم عندهم خروج عن الالتزام، و المدنيه مسيره أخلاق الغرب، و الحضاره حضاره الفراعنه، حتى يعتزون بها و يتحمسون لها أكثر من تحمسهم لدينهم الإسلام، هذا إن كانوا أصلا مؤمنين به.

الخلاصه: إننا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى- و هو المدافع حتى النهايه عن القرآن و عن التشريع كما سبق بيانه مرارا- ينأى بنفسه عن ربط القرآن بتطورات العلم من نظريات أو اختراعات. إنما يبين إعجاز القرآن كلام الرحمن فى تعليم الإنسان ما لم يعلم، و ها هو الإنسان يلمس ذلك الآن، شهد بذلك العدو المعاند قبل الصديق المساند. و الله أعلم.

و هذه قضيه كبيره- كمسلم- أميل إلى ما مال إليه علماء الأمه كالشاطبي متبعا إياهم فى تنزيه القرآن عن هذا الأمر.

١- الإمام الشيخ المفسر اللغوى، الفقيه الأصولى، العارف، الموسوعى، شيخ الإسلام، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكى زين الدين الزرعى ثم الدمشقى الحنبلى الشهير بابن قيم الجوزيه. من ص (١٧) «ابن القيم» لبكر أبو زيد.

ولد رحمه الله تعالى سنه (٦٩١هـ) وتوفى رحمه الله تعالى سنه (٧٥١هـ) (١).

٢- نشأ رحمه الله تعالى فى بيت علم و دين، فأبوه -رحمهما الله تعالى- شيخ صالح عابد، كان قيم المدرسه الجوزيه، و من الصالحين الزاهدين.

أخذ ابن القيم عن أبيه الفرائض، و وجوده بجوار أبيه فى جو المدرسه الجوزيه يسمع و يرى الأقوال و الأخلاق الحميده من أهل العلم؛ كان له عظيم الأثر فى تخلقه بمكارم الأخلاق، و التعبّد الصحيح و الزهد القويم، مع ما أكرمه الله به من فراسه نادره و فطنه و ذكاء، مع ما عاصره من صفات و أخلاق العلماء لا شك نتج عنها مزيج فكرى و سلوكى على درجه كبيره من السمو و النبيل.

يقول ابن رجب من «الذيل» (٢/٤٤٨): «كان رحمه الله تعالى ذا عباده و تهجد، و طول صلاه إلى الغايه القصوى، و تأله و لهج بالذكر، و شغف بالمحبه و الإنابه و الاستغفار، و الافتقار إلى الله تعالى، و الانكسار له، و الاطراح بين يديه على عتبه عبوديته، لم أشاهد مثله فى ذلك» اه. و بمثل هذا -أخى القارئ- ينشأ العلماء الربانيون فما كان نتيجة هذا السلوك مع الله تعالى، يقول ابن رجب -تلميذه- «و لا رأيت أوسع منه علما، و لا أعرف بمعانى القرآن و السنه و حقائق الإيمان منه، و ليس هو المعصوم، و لكن لم أر فى معناه مثله...» اه.

ص: ٥٧

١- ليست هذه ترجمه بالمعنى المشاع، إنما هى قطعات و ثمار من حياته المباركه، تكوّن صورته موضحة للقارئ عن ابن القيم رحمه الله تعالى.

٣- و يقول صديقه و تلميذه ابن كثير رحمه الله تعالى: «...سمع الحديث و اشتغل بالعلم، و برع في علوم متعدده، و لا سيما علم التفسير و الحديث و الأصلين، و لما دعا الشيخ تقي الدين ابن تيميه من الديار المصريه في سنه ثنتي عشره و سبعمائه لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علما جمًا، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدا في بابه في فنون كثيره، مع كثره الطلب ليلا و نهارا، و كثره الابتهاج، و كان حسن القراءه و الخلق، كثير التودد لا يحسد أحدا و لا يؤذيه، و لا يستعيبه، و لا يحقد على أحد، و كنت من أصحاب الناس له و أحب الناس إليه، و لا- أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عباده منه، و كانت له طريقه في الصلاه، يطيلها جدًا، و يمد ركوعها و سجودها، و يلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا- يرجع و لا- ينزع عن ذلك، رحمه الله تعالى) اه. البدايه و النهايه (٦٥٧/٧).

ما شاء الله... رأيت أخى القارئ ثمره التربيه المستقيمه و النشأه القويمه: علم نافع، و سلوك صالح، و خلق عال، و سمت حسن، فجعل الله له ذكرا حسنا، و سيره عطره، و هكذا يجب أن يكون طالب العلم على هذا النهج الذى به تستقيم الحياه، غير منهج الأدعياء المحرفين للحق، تحت مسمى «يسر الإسلام» و لا- يقصدون إلا الترخص الجاف، و تضييع أمر الله بمنع نشره و إقامته، و هكذا... فلا عجب إذا أن يلوم من هذا حاله على الشباب تمسكه بالدين و الخلق المستقيم، و هل رأيت من تاريخ الإسلام من أفتى «بالنقاب» مثلا ليس من الإسلام؟! إي و الله هكذا!!! اهل رأيت من يحارب المتمسك و يترك المتفلة المتهتك، فأصبح دعاه التوحيد و الاستقامه متشددين مترمتين متطرفين في نظرهم و لبسوا على الناس دينهم بكذبهم هذا!! و لله الأمر من قبل و من بعد [الروم: ٤]، و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون [يوسف: ٢١].

و إذا لم نقارن بين أخلاق علماء الأمه الصالحين و سيرتهم العطره- أمثال عالمنا ابن القيم رحمه الله- و بين بعض علماء العصر؛ فلا فائده من ترجمتهم، أو ذكر سيرتهم و الله أعلم.

٤- أما مشايخه- رحمهم الله- فكثيرون، نحيلك توفيراً لوقتك لكتاب الأستاذ العلامة الشيخ «بكر أبو زيد» حفظه الله تعالى «ابن القيم حياته و آثاره و موارده» (١٦١-١٨٣).

٥- و لكن لا يطيب الكلام عن مشايخه أو يحسن ذلك دون ذكر الإمام الكبير المجدد شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد السلام... ابن تيميه رضی الله عنه.

فقد لازمه إلى وفاته رحمهما الله تعالى، و أثر ابن تيميه في ابن القيم رحمهما الله تعالى كأثر الماء في البذر، و الشمس في النباتات، و قد لا أبالغ إن قلت: و الروح في الجسد،

و هذا ظاهر واضح عند كل من ترجم له رحمه الله تعالى.

و شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى له أثر عظيم على الأمه كلها فى وقته،فهو المحارب بسيفه و قلمه و لسانه و بعد وقته بعلمه الذى ما زال ينتفع به،و لكن...الكلام عن ابن تيميه رحمه الله تعالى كتحصيل حاصل،فإننى أستحى أن أترجم له.

و لكن....هل تميّز ابن القيم بشىء عن شيخه أم كان له كالظل؟!.

لا- شك أن شجره ابن تيميه أثمرت ثمارا يانعها،أحلاها و أصفها ابن القيم رحمه الله تعالى،و مع هذا فقد برزت شخصيه ابن القيم الاجتهاديه و التأليفه بلا شك متفرده متميزه.

يقول العلامة بكر أبو زيد:«فقد اجتهد و أبدع و خالف شيخه فى أشياء،و لا يمنع الحب اتباع الحق»من ص(١٣٩-١٥٦).فأنت ترى فى علاقه هذين الإمامين التواضع و الحب و البذل من جانب شيخ الإسلام،و الوفاء و الإخلاص من جانب ابن القيم.

تلمس هذا فى كثره ذكر ابن القيم شيخ الإسلام بقوله كثيرا:«قال لى شيخ الإسلام كذا...،و حكى لى كذا...و سألته عن كذا».

فيا لها من صحبه مباركه و زماله نافعه.

و قد ذكره أكثر من «٥٠٠»مره فى كتبه،تبعث ذلك أثناء الفهرسه.

و انظر«١٣٤»بكر أبو زيد،و يقول الشيخ بكر:«فلا غرو أن يجد ابن تيميه الأستاذ الوفاء من تلميذه رحمه الله تعالى و تحمله معه المحن و الأذى»المصدر نفسه(١٣٦).

٦-و من المناسب عند الكلام عن هذين الإمامين ذكر بعض ما لقيه من أعدائهم،فمنهجهما القائم على الكتاب و السنه منهج سلف الأمه،لا بدّ أن يجلب عليهما عدااء المقلده و المتعصبه و الجهله،فتعرضا للأذى:تاره بالحبس،و تاره بالنفى،و كان نصر الله حليفهما.

و ما زال منهجها له أعداؤه من الطائفه نفسها،و ما زال الله ينصرهما بنشر علمهما و بثه بين الناس،و يكفى أن تقارن بين ما نفع الله به الناس من كتبهم و علمهم،و ما أفسد الآخرون بمداد أقلامهم فى إفساد العقائد و الشرائع و الأخلاق؛فيتبين لك بهذه المقارنه أى الفريقين أحق بالاتباع و الذكر الحسن.

٧-من علامات الخير بطالب العلم أن يوفق فى مشايخه و يرزق علماء أتقياء من أهل السنه و الجماعه،ثم يكرمه الله تعالى بغرس حسن يعلمهم من علمه فتستمر الأرض فى

الإنبات و الزرع فى الإثمار، فلا يخلو بذلك مكان و لا زمان من قائم بأمر الله تعالى.

و هكذا الحال مع عالمنا ابن القيم رحمه الله تعالى فشيخه ابن تيميه، و هو شيخه الكبير و أستاذه الأول، فكان ما كان من حال ابن القيم.

و قد لازم ابن القيم شيخ الإسلام «سبعه عشر عاما» و كان ابن القيم حينئذ فى الواحد و العشرين تقريبا. و كان سنه عند وفاه شيخه رحمه الله تعالى «ثمانيه و ثلاثين» و عاش بعده «ثلاثا و عشرين سنه».

و أيضا من أساتذته:

١- العلامة إسماعيل أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفراء الحرانى، الفقيه الحنبلى الإمام الزاهد، شيخ المذهب توفى سنه (٧٢٩هـ) قرأ عليه الفقه، كما فى الدرر الكامنه (٤٠١/٣)، و ترجمته فى ذيل طبقات الحنابله (٤٠٨/٢).

٢- سليمان تقي الدين أبو الفضل بن حمزه بن أحمد بن عمر... بن قدامه المقدسى قاضى القضاة و مسند الشام، سمع الحديث، توفى سنه (٧١٥هـ) الدرر الكامنه (٤٠٠/٣) و ترجمته فى الذيل (٣٦٤/٢).

و أكرمه الله بتلامذه نجباء أعلام، منهم:

١- الإمام الحافظ إسماعيل عماد الدين أبو الفداء بن عمر بن كثير القرشى الشافعى، صاحب الشيخ و كان من أحبابه، و نقل عنه فى تفسيره، مثلا عند الآيه رقم (٣٥ و ٣٦) من البقره، و العجيب أن صاحب كتاب «ابن كثير و منهجه فى التفسير» لم يشر إلى ابن القيم ضمن شيوخ ابن كثير، أو حتى أقرانه، انظر ص (٤٦-٦٩)، و توفى ابن كثير سنه (٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى (١).

٢- الإمام العلامة الشيخ ابن رجب عبد الرحمن زين الدين أبو الفرج بن أحمد...

الحنبلى يقول ابن رجب: «لازمته قبل موته، و أخذ العلم عنه خلق كثير من حياه شيخه و إلى أن مات، و انتفعوا به، و كان الفضلاء يعظمونه، و يتلمذون له، كابن عبد الهادى و غيره، توفى رحمه الله (٧٨٥هـ) (٢)».

ص: ٦٠

١- انظر كتاب الأستاذ العلامة بكر أبو زيد (١٣٩) و ما بعدها و انظر أشهر مشايخه فى كتاب العلامة بكر أبو زيد (١٦١-١٧٨). فى الدرر الكامنه (٣٧٣/١)، و شذرات الذهب (٢٣١/٦)، و البدايه و النهايه (٦٥٧/٧).

٢- شذرات الذهب (٣٣٩/٦)، و انظر كوكبه من تلامذته ذكرهم العلامة الشيخ «بكر أبو زيد» (١٧٩-١٨٣).

١- إن الكتاب و الشيخ بالنسبه للعالم و طالب العلم هما الماء و الهواء، لا غنى عنهما، فهو مفهوم لا يشبع، فالكتاب كروحه، إن فارقه كان كالميت، فهو رفيقه و أنيسه و معلمه، فلطالب العلم جناحان: المشايخ و الكتب فبهما يحلق في سماء العلم و المعرفة، و يسبح في بحورهما و يغوص في أعماقهما.

و الكتاب و المكتبه لهما تاريخ كبير عند المسلمين فلا تجد أمه من الأمم صنفت فيها ما صنفته علماء المسلمين في شتى فروع العلم، المتعلق بالشريعة أو حتى التطبيقى (الطب، هندسه، فلک... إلخ. و لا تخلو ترجمه عالم من ذكر مكتبته غالباً (١).

نعم، الكتاب وحده لا يصنع عالماً فاهماً مجرباً إنما وحده يصنع صحافياً، و هذا ذمه العلماء.

فلا بد من التلقى عن المشايخ، هذا حتمى، و لكن التلقى دون المذاكره و المراجعة و البحث و التنقيب فى الكتب سرعان ما ينضب منبعه، و يجف عطاؤه، و يذبل زرعه، فالكتاب و قود العقل، و نور القلب، و موقظ الفكر. فهو البدايه و النهايه و العبره و التجربه و التاريخ...

٢- قال الإمام الكبير ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: «سئل أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى عن دواء للحفظ فقال: «إدمان النظر فى الكتب». (جامع بيان العلم و فضله: ٥٨٣).

و أنشد أبو عبد الله بن الأعرابى «صاحب الغريب» حين عاتبه أبو أيوب أحمد بن محمد أبى شجاع عن تأخره من زيارته و ادعائه أن عنده جلساء من الأعراب، و ليس بين يديه شىء إلا الكتب يطالعها، فقال ابن الأعرابى:

ص: ٦١

١- و انظر بحثاً مفيداً فى الكتب و المكتبات عند المسلمين فى كتاب «تاريخ الكتاب» تأليف د/ ألكسندر ستيتشفيتش. (١/٢٣٣-٢٥٠)، مترجم -سلسله عالم المعرفة- الكويت.

لنا جلساء ما نملّ حديثهم ألباء مأمونون غيبا و مشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى و عقلا و تأديبا و رأيا مسددا

بلا فتنة تخشى و لا سوء عشره و لا نتقى منهم لسانا و لا يدا

فإن قلت أموات فما كنت كاذبا و إن قلت أحياء فلست مفندا (١)

يقول ابن جماعه: «ينبغي لطالب العلم أن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكن شراءه، وإلا- فإجاره أو عاريه: لأنها آله التحصيل» (٢).

٣- من هذا الباب كان حرص إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى عظيما في اقتناء الكتب، فمع ما تلقاه من العلماء و مصاحبته شيخ الإسلام، يبين أثر الكتاب في عمله، فهو يشكو في أكثر من موضع بعده عن كتبه، و يبين أن هذا كتبه في سفر مرتحلا عنها، انظر مثلا آخر تفسير سورة الكافرون. و لله دره حين ألف «زاد المعاد» من خمسة أجزاء و هو في سفره سافرها.

فهو شديد الصحبه للعلماء، شديد الصحبه للكتاب، و انظر إلى أول معرفته بشيخ الإسلام، و قد كان وقتها ابن القيم تجاوز العشرين بقليل- و هو سن التأهل و الفتوى و التأليف- كيف حمل قبل هذا اللقاء من فكر تبين خطؤه يقول عن هذه المرحلة:

يا قوم و الله العظيم نصيحه من مشفق و أخ لكم معوان

جربت هذا كله و وقعت من تلك الشباك و كنت ذا طيران

حتى أتاح لي الإله بفضلته من ليس تجزيه يدي و لساني

حبر أتى من أرض حران فيا أهلا بمن قد جاء من حران (٣)

ثم توالى فتح الله عليه بتلك الصحبه المباركه، يقول ابن كثير: «و اقتنى من الكتب ما لا يتهاى لغيره تحصيل عشره من كتب السلف و الخلف» (٤).

و هذا يلاحظ في تتبع مصادره الوفيره، يقول الشيخ بكر أبو زيد: «كتابه «اجتماع الجيوش» يقع في خمس و ثلاثين و مائه صحيفه ينقل من أكثر من مائه كتاب، و «أحكام أهل ٧»

ص: ٦٢

١- المصدر نفسه (٥٨٠).

٢- تذكره السامع و المتكلم (١٦٤).

٣- النونية (١/٣٣٠).

الذمه»نحو من ثلاثين كتابا و«الروح» كذلك...و هكذا»(بتصرف من «ابن القيم حياته، آثاره و موارد»ص ٤١).

فلا-عجب إذا حين نرى هذا الإبداع و ذاك الإشعاع من مؤلفاته،فهى مائده حوت من صنوف الطيبات:لأنها نبتت من حلال
(١).د.

ص: ٤٣

١- انظر فى ترجمته رحمه الله تعالى: -البدايه و النهايه،لابن كثير(٤٥٧/٧).-الدرر الكامنه،لابن حجر(٤٠٠/٣).-ذيل طبقات الحنابله،لابن رجب(٤٤٧/٢).-بغيه الوعاه،للسيوطى(٤٢/١).-ابن القيم حياته و آثاره،للعلامه بكر أبو زيد.

مؤلفات ابن القيم مرتبه على الحروف

من المعلوم أن ابن القيم من المكثرين من التأليف، وقد أخطأ بعض المترجمين أو الوراقين في نسبه بعض ما ليس من كتبه إليه. وهذا إن كان عن قصد، فهو جريمه، و خيانه للأمه. حتى قد ترى نسبه مؤلفين متناقضين لعالم واحد. وقد يكون لتقارب الزمن، أو الأسلوب، أو الاسم سبب لهذا اللبس في أحيان كثيره.

و لابن القيم رحمه الله تعالى «ثمانيه و تسعون» مؤلفا (1)، وقد وضع الشيخ «بكر» اثنتى عشره نقطه هامه و ضروريه لدراسه مؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى و هى:

١- ذكرها مرتبه على الحروف.

٢- تحرير اسم الكتاب كاملا.

٣- الإشاره إلى أوهام النقله فى ذلك.

٤- الإشاره إلى عبث الوراقين و نحوهم.

٥- الإشاره إلى موضع ذكره عند المؤلفين السابقين.

٦- الإشاره إلى المطبوع ذكره فى مؤلفات ابن القيم.

٧- الإشاره إلى المطبوع منها مع بيان بعض الطبعات المعتمده.

٨- الإشاره إلى أماكن النسخ الخطيه لما لم يطبع منها.

٩- جعل رقما متسلسلا لكتبه ليفيد المجموع العددى لها خاليه من المكرر و المنسوب خطأ.

١٠- إذا تكرر الكتاب ذكر كل اسم فى حرفه المناسب له.

ص: ٦٤

١- كما بين ذلك فضيله الشيخ «بكر أبو زيد» فى كتابه «ابن القيم حياته...» ما بين ص (١٩٩-٣٠٩). و لهذا أحيل القراء الكرام إلى هذا المبحث، تجنبنا للإطاله و التكرار، و أكتفى هنا بذكر ما وصلنا من كتبه الصحيحه النسبه إليه. و أنه مره أخرى أنه لا يستغنى باحث، أو قارئ عما كتبه الشيخ «بكر أبو زيد» عن هذا الإمام العلم.

١١- إذا تحقق من نسبة الكتاب خطأ فلا يدخله في الرقم التسلسلي بل يميزه بعلامه.

١٢- بيان المباحث التي كان ابن القيم يتمنى لو أفردتها بمؤلف مستقل..

و لهذا فقد اقتصر على ذكر ما وصلنا من مؤلفاته رحمه الله تعالى، و من أراد مزيدا عن حصر مؤلفاته و غيرها من الأمور فليرجع إلى كتاب الأستاذ «بكر أبو زيد». و قد ذكرت مؤلفاته المطبوعه مسلسله على حروف المعجم، مع بيان المطبوع منها و التعليق على الطبعات قدر المستطاع و بالله التوفيق.

١- «اجتماع الجيوش الإسلامية»:

طبع في الهند سنة (١٣١٤ هـ) و صور في دار الفكر سنة (١٤٠١ هـ) و هذه هي التي اعتمدت عليها في جمعي التفسير. ثم وصلتني نسخه جديده طبع الرياض لسنة (١٤٠٨ هـ) بتحقيق الدكتور/عواد عبد الله المعثق. و هي تعد من أحسن كتبه المطبوعه تحقيقا و إخراجا.

فقد طبعت على ثلاث نسخ بالإضافة إلى المطبوعه، و هذا أمر عظيم في التحقيق. و قد قدم لها المحقق مقدمه جيده في بيان موقف ابن القيم من الفرق، و هو الجزء الأول، ثم تحقيق الكتاب في الجزء الثاني و قد حزن كثيرا لعدم حصولي على هذه النسخه في بدايه العمل، خاصة أن الكتب التي جمعت التفسير هي عندي منذ أكثر من عشر سنوات. و لكن هذا العمل الجيد من الدكتور/عواد يمكن أن يختصر فيخرج القسم الأول لكتاب مستقل، ثم الثاني و هو «الكتاب» في جزء آخر مع اختصار كثير من التراجم. و قد استفدت منها بقدر اتساع الوقت و سوف أعتمدها إن شاء الله تعالى في الطبعة الثانيه للتفسير.

- ذكره العلامة «بكر أبو زيد» ص (٢٠١).

٢- «أحكام أهل الذمه»:

طبع سنة (١٤٠١ هـ) في مجلدين، دار القلم. بتحقيق د/صبحي الصالح رحمه الله تعالى و قد توفي الدكتور المحقق في المحرم من سنة (١٤٠٧ هـ) و هي طبعه جيده جدا لكن تحتاج إلى تخريج للأحاديث بشكل دقيق. و هي التي اعتمدها في عملي.

- عند «بكر أبو زيد» ص (٢٠١).

* أخبار النساء. (انظر آخر الباب).

٣- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»:

و قد طبع في مكتبه الكليات الأزهرية سنة (١٣٨٨ هـ) بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

و هي تكاد تكون خاليه من التصحيفات لكنها خاليه أيضا من التخريجات، و طبع أيضا في إحدى مكتبات مصر تصويرا على طبعه الشيخ/عبد الرحمن الوكيل. و هي مليئه بالتصحييف و السقط، و قد صححت فيها أكثر من مائتين من الأخطاء. و هنا يجدر التنبيه على خطوره إعادته طبع الكتب دون إضافته جديد عليها من تحقيق، و تخريج، فضلا أن تطبع بعيوبها، و هي تحت الطبع الآن.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٠٩).

٤- «أسماء مؤلفات ابن تيميه»:

و هي طبعه دمشق، لسنة (١٣٧٢ هـ) بتحقيق الأستاذ/صلاح الدين المنجد.

-ذكره «بكر أبو زيد» ص (٢٠٨).

٥- «إغائه اللهفان من مصاديد الشيطان»:

اعتمدت على طبعه السنه المحمديه لسنة (١٣٥٨ هـ) بتحقيق الشيخ/حامد الفقى رحمه الله تعالى. و هي طبعه جيده غير مستوفاه تخريج الأحاديث. و قد طبعه المكتب الإسلامى / بيروت فى جزءين و هي جيده جدا.

-ذكره «بكر أبو زيد» ص (٢١٨).

٦- «إغائه اللهفان فى حكم طلاق الغضبان»:

طبع «الكليات الأزهرية» سنة (١٣٩٦ هـ) بتصحيح و تخريج العلامة/محمد جمال الدين القاسمى.

-ذكره الشيخ «بكر أبو زيد» ص (٢٢٠).

٧- «بدائع الفوائد»:

و هو من أهم و أعظم كتب ابن القيم، طبع «المطبعة المنيرية» بتصحيح الشيخ منير الدمشقى رحمه الله تعالى، و قد راجع أصوله على غير نسخه بعد عرضها على جماعه من أهل العلم و الفهم و الذكاء (٢١٨/٤).

-عند «بكر أبو زيد» (٢٢٢).

٨- «التبيان فى أقسام القرآن»:

طبع «دار المعرفة» بتحقيق الشيخ حامد الفقى، و هي طبعه جيده و لكن ككثير من كتب

ابن القيم تحتاج لإعاده تحقيق.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٢٥).

و هذا الكتاب القيم يصلح لدراسه منهج ابن القيم فى التفسير لاحتوائه كله على تفسيرات لآيات من سور شتى فهو كالتفسير المستقل، و قد ضمناه بدائع التفسير.

٩- «تحفه الودود فى أحكام المولود»:

طبع «دار الريان للتراث» بتحقيق د/عبد الغفار سليمان، و هى جيدة، و أتمدها فى التفسير.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٢٩).

«التفسير القيم»:

سبق و وضحت أن هذا الكتاب ليس من تأليفه رحمه الله تعالى.

١٠- «تهذيب سنن مختصر أبى داود»:

طبع «السنه المحمديه» سنه (١٣٦٨ هـ) بتحقيق الشيخ/حامد الفقى و مشاركته العلامة أحمد شاكى فى الأجزاء الثلاثه الأول، و قد حققته و يطبع الآن.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٣٤).

١١- «جلاء الأفهام فى الصلاه و السلام على خير الأنام»:

طبع «المطبعه المنيريه» سنه (١٣٥٧ هـ) و صورت عليها طبعه «دار الطباعه المحمديه» و هى التى وقعت فى يدي أولاً- و هى بتحقيق «الشيخ طه يوسف شاهين» و هى مسروقه حرفياً عن الطبعه المنيريه كلمه كلمه، و لم تزد عن المنيريه إلا فى التصحيح و التحريف، و هذا مما يؤسف له. ثم أمدنى بعض الأصدقاء بطبعه حديثه جيده بتحقيق «محيى الدين مستو» و لكن تحتاج لتخريج أدق.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٣٦).

١٢- «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»:

طبع مكتبه القرآن سنه (١٤٠٨ هـ) و هى المعتمده، و أيضا طبعه «مكتبه المتنبي» و الأخيره رديئه جدا ثم وقع لى طبعه «الأستاذان يوسف على بدوى، و محيى الدين مستو» و هى جيده.

ذكرها «بكر أبو زيد» (٢٣٩).

١٣- «الداء و الدواء»:

طبع «مكتبه المدنى» بتحقيق الدكتور/محمد جميل غازى رحمه الله تعالى (١) و هى خاليه غالبا من التصحيف، لكن لم تخرج أحاديثها كالعاده، و قد طبع أيضا تحت اسم «الجواب الكافى...».

-عند «بكر أبو زيد» (٢٤٤).

١٤- «الرساله التبوكيه»:

طبع «مكتبه التوعيه» سنه (١٤٠٨ هـ). و هى جيده.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٥٠).

١٥- «روضه المحبين و نزهه المشتاقين»:

طبع «مكتبه التراث» دون تحقيق.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٤٢).

١٦- «الروح»:

طبع «دار الندوه الجديده» دون تحقيق. و قد وصلنى محققا فى جزءين من عمل د/بسام العموش، مكتبه ابن تيميه، الرياض، و هى جيده، و لكن أدخل مقدمته (١٦٦/١) كأنها من أصل الكتاب دون إشاره إلى بدايه الكتاب (١٦٧/١). مع عدم الفهرسه للجزء الأول و هو مع ذلك اعتمد على مخطوطات جيده.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٥٣).

١٧- «زاد المعاد فى هدى خير العباد»:

طبع بتحقيق الأستاذين شعيب و عبد القادر الأرنؤوط فى «خمسه أجزاء» و هى أجود ما أخرج من كتب ابن القيم.

-عند «بكر أبو زيد» (٦٢٠).

ص: ٦٨

١- كان من كبار الدعاة و أسلم على يديه الكثير، و قاد مركز التوحيد بالعزیز بالله بمنطقه الزيتون بالقاهره حتى وفاته، و كان فصيحا بليغا متواضعا، أخذت عنه أشياء فى الدعوه و علوم القرآن و التفسير، و له ترجمه جيده فى كتاب العلامه محمد المجذوب (علماء و مفكرون عرفتهم) (١٧٦/٣)، و كانت حياته بين (١٩٣٦-١٩٨٨ م).

١٨- «شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعليل»:

تصوير دار المعرفه-بيروت-سنه (١٣٩٨ هـ)دون تحقيق، و هي مصوره على الطبعه الأولى للطبعه الحسينيه لسنه (١٣٢٣ هـ)، و نصفه الأول على مخطوطه العلامه الأوسى، و النصف الثانى على مخطوطه دار الكتب المصريه كما ورد فى آخر الكتاب (٣٠٧).

-عند «بكر أبو زيد» (٢٦٦).

١٩- «الصواعق المرسله على الجهميه و المعطله»:

طبع «دار العاصمه» الرياض (١٤٠٨ هـ)بتحقيق الشيخ على بن محمد، فى أربعة أجزاء فى طبعه جيده. و قد عقد مقارنه بين الكتاب الأصيلى و بين مختصره للموصلى (١١٧/١)، و أن الكتاب لم يصلنا كاملاً، و يدل على ذلك كلامه عن الطاغوت الثالث و الرابع فى المختصر، و هذا مما لم يصلنا.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٨٤).

٢٠- «طريق الهجرتين و باب السعادتين»:

طبع «المكتبه السلفيه» سنه (١٤٠٠ هـ)الطبعه الثالثه بإشراف الأستاذ/محب الدين الخطيب. و هي دون تحقيق، و هي المعتمده من أعماله.

و قد طبع فى دار ابن القيم سنه (١٤٠٩ هـ)على الطبعه الأولى، و امتازت بالتحقيقات.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٧٢).

٢١- «الطرق الحكيمه فى السياسه الشرعيه»:

طبع مكتبه المدنى سنه (١٩٨٥ م).بتحقيق الشيخ الدكتور/محمد جميل غازى رحمه الله تعالى، و هي خاليه من التخريج.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٧٤).

٢٢- «عده الصابرين و ذخيرته الشاكرين»:

طبع «دار ابن كثير» دمشق، الثانيه (١٤٠٧ هـ) و هي جيده لكنها غير محققه.

-«بكر أبو زيد» (٢٧٤).

٢٣- «الفروسيه»:

طبع دار الصحابه-مصر-سنه (١٤١١ هـ) و هي جيده و قد طبع بأسماء أخرى.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٨٠).

ص: ٦٩

٢٤- «الفوائد»:

طبع المكتبة القيمه بمصر-سنة (١٤٠٠ هـ)، و هي تحتاج لتخريج و تحقيق جديدين.

-«بكر أبو زيد»(٢٨٤).

*الفوائد المشوق(أنظر آخر هذا الباب).

٢٥- «كتاب الصلاة و حكم ناركها»:

طبع المكتب الإسلامى/بيروت سنة (١٤٠١ هـ).الأولى بتحقيق/تيسير زعتر، و قد أجاد فى إخراجها.

-عند«بكر أبو زيد»(٢٤٣).

٢٦- «الكافيه الشافيه فى الانتصار للفرقه الناجيه»:

و هي المعروفه بالقصيده النونيه، طبع دار الفاروق الحديثه مصر، و هي كثيره التحريف.

-عند«بكر أبو زيد»(٢٨٧)،

٢٧- «الكلام على مسأله السماع»:

طبع «دار العاصمه»الرياض سنة (١٤٠٩ هـ)الطبعه الأولى، تحقيق راشد عبد العزيز الحميد.

-عند«بكر أبو زيد»(٢٤٢).

٢٨- «الكلم الطيب و العمل الصالح»:

و هو المعروف باسم«الوابل الصيب...» طبع دار الريان/بيروت سنة ١٤٠٨ هـ. و طبع المكتبة السلفيه/القاهره ثم طبع «دار البيان»/بتحقيق الأرناءوط، و هي أجودهم.

-عند«بكر أبو زيد»(٢٩٣).

٢٩- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين»:

و هو من أمتع كتب ابن القيم، و ينبغى الاهتمام بتدريسه خاصه للنشء، لمعرفة السلوك القويم و الطريق الصحيح و المثمر للسائرين إلى الله تعالى. و هو ملئ بالنقد العلمى الدقيق المنصف للمؤلف، فهو لم يجامل الهوى أو يتحامل عليه. طبع «السنة المحمديه» سنة (١٣٧٥ هـ)بتحقيق الشيخ/حامد الفقى رحمه الله تعالى و إليه يرجع الفضل -بعد الله- لإظهار

كتب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، وراجع كلامى على طريقتى فى التحقيق عند مبحث «التفسير القيم». وقد كنت بدأت فى تخريجه منذ سبع سنوات و توقفت بسبب العمل فى التفسير و لعل الله ييسر إخراجاه.

-عند «بكر أبو زيد» (٢٩٥).

٣٠- «مفتاح دار السعادة و منشور ألويه العلم و الإراده»:

طبع مكتبه حميد و سنه (١٣٩٩ هـ) بتصحيح محمود حسن ربيع، و للأسف أنه أسوأ الكتب إخراجا من ناحيه التحقيق أو التخريج مع أهميته العظمى، و فوائده الجزيله.

-عند «بكر أبو زيد» (٣٠٠)، و قد طبع بتحقيق أخى على حسن عبد الحميد، طبعه جيده، لدار ابن عفان.

٣١- «المنار المنيف فى الصحيح و الضعيف»:

طبع «مكتبه المطبوعات الإسلاميه /سوريه سنه (١٤٠٣ هـ) بتحقيق الشيخ/عبد الفتاح أبو غده، و هى جيده جدا.

-عند «بكر أبو زيد» (٣٠٣).

٣٢- «هدايه الحيارى فى أجوبه اليهود و النصارى»:

طبع المكتبه القيمه سنه (١٤٠٧ هـ) الرابعه.

-عند «بكر أبو زيد» (٣٠٨).

هذا ما وصلنا من كتبه رحمه الله تعالى و هى «اثنان و ثلاثون كتابا» من «ثمانيه و تسعين» كما ذكر العلامه بكر أبو زيد (٣٠٩).

إشاره

لقد شكك كثير من أهل العلم في نسبة كتابين إلى ابن القيم:

الأول: أخبار النساء. وقد أنكر أو تردد كثير من أهل العلم نسبتة لابن القيم منهم:

١- الأستاذ المحقق محمد منير الدمشقي، الذي له من الفضل الكثير في نشر كتب علوم الشريعة السمحه.

٢- الأستاذ عبد الغنى عبد الخالق.

٣- الأستاذ أحمد عبيد.

٤- و الزركلى.

٥- والعلامه «بكر أبو زيد» وقد فصل ذلك تفصيلا في كتابه الممتع «ابن قيم الجوزيه حياته، آثاره، موارده» (٢٠٢-٢٠٨) بما يغنى عن ذكره هنا إلا اختصارا و بتصرف.

يقول الأستاذ «بكر أبو زيد»: (و لا- يسعنا هنا بعد هذا، و بعد الدراسه و الفحص لماده الكتاب إلا- التقرير بأن كتاب «أخبار النساء» المذكور ليس لابن القيم لأمر:

١- بالتبع لم يذكره أحد من المترجمين في مسرد كتبه.

٢- أنه لم يشر إليه في شيء من كتبه لا سيما «روضه المحبين» مع اشتراك المناسبه و هي: شأن النساء.

٣- عدم إشارته فيه لأحد من شيوخه أو كتبه كعادته غالبا.

٤- غرابه الأسلوب: الوضع، و الطريقه، و المنهج في هذا الكتاب، و بعد ذلك على سلوك ابن القيم في التأليف). اه.

ثم بين فضيله الشيخ منشأ هذا الوهم و الخطأ إلى عبث الوراقين أو الوهم و الغلط في الخلط بين ابن قيم الجوزيه و بين ابن الجوزى. و مع هذا يشكك أيضا فضيله الشيخ في نسبه

الكتاب إلى ابن الجوزى نفسه و الفرق بينه و بين أحكام النساء، و لكن هل يختلف الأمر بالنسبة للفوائد المشوق؟ و أحاول جاهدا بيان الصواب فى هذه القضية إن شاء الله تعالى و به التوفيق:

أولا: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»:

١- اسم الكتاب: «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان».

٢- موضوعه: معرفه ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان، و أصناف البديع، و فنون البلاغه و عيون الفصاحه. أى: هو كتاب بلاغى فى المقام الأول. يحتوى الكتاب على مائتين و ستين صفحه، عدا الفهرس.

٣- طبع هذا الكتاب لأول مره بتصحيح الأستاذ بدر الدين النعسانى و عنه ذكره الأستاذ حامد الفقى و الأستاذ أحمد عبيد (١).

ثانيا: إن وسائل إثبات صحه نسبه الكتاب لمؤلفه،

هى عديده نذكر منها:

١- أن يذكر المؤلف مؤلفاته فى ثنايا كتبه، و قد ذكر ابن القيم (٢٢) كتابا لنفسه (٢)، و هذا على الغالب، و إلا فانتفائه لا ينفى صحه النسبه من طرق أخرى.

٢- أن يذكر مؤلفاته مترجموه خاصه تلامذته المعاصرين له أو القريبين من عصره و بتتبع ذلك يمكن الوقوف على صحه النسبه إليه غالبا (٣).

٣- إيلاف أسلوب المؤلف، من حيث استناده على الكتاب و السنه فى الاستدلال و كذا اللغه، و أى فنون اللغه يغلب على أسلوبه، و مدى تعصبه أو تجرده لمذهبه الفقهى، و مقدار وضوح عقيدته المؤلف و طريقته، كخطا من نسب «دفع شبه التشبيه» لابن القيم، و هو لابن الجوزى. و أيضا موارد المؤلف فى عموم كتبه له دور هام، إلى غير ذلك من الأدوات و الأساليب المرجحه لصحه أو بطلان النسبه.

ص: ٧٣

١- «ابن القيم» لبكر أبو زيد (٢٩٠).

٢- المصدر نفسه (١٩٧).

٣- و قد وفق فضيله الشيخ «بكر» للوقوف على ذلك بالنسبه لمؤلفات ابن القيم بقدر يشكر عليه، فقد ذكر من ترجم له و ما ذكره من كتب، فوقف على (٩٨) مؤلفا له كما مرّ من قبل.

١- لم يشر ابن القيم قط «للفوائد المشوق» بالاسم، أو بالإشارة إلى موضوعه و هو حرى بذلك لشغفه و تطلعه لإنشاء تفسير بديع للقرآن الكريم كما مرّ في مقدمه، و هو كتاب لو صحت نسبته إليه لكان عجباً من علوم القرآن.

٢- لم يشر أحد من المترجمين لابن القيم خاصه معاصريه و تلامذته كالصفدى، أو ابن رجب مثلاً، و انظر تفصيل ذلك في كتاب «بكر أبو زيد» (١٨٩-١٩٤) فقد ذكر سته عشر مترجماً له من الصفدى ت (٧٦٣ هـ) إلى ابن بدران ت (١٣٤٦ هـ) لم يذكر أحدهم «الفوائد المشوق» ضمن كتبه.

٣- يقول الأستاذ بكر أبو زيد (٢٩٠) «...الفوائد المشوق... طبع لأول مره بتصحيح الأستاذ محمد بدر الدين النعساني و عنه ذكره الأستاذ حامد الفقى و الأستاذ أحمد عبيد و قال بعد ذكره له: «و ذكر في «كشف الظنون» كتاباً اسمه «الإيجاز» و لعله هذا).

و قد قال عن الإيجاز: ص (٢٢١): «الإيجاز»: لم أر من ذكره قبل صاحب «كشف الظنون» (٢٠٦/١).

و تبعه البغدادي في «هديه العارفين» (١٥٨/٢) «و لم أره عند غيرهما» اه. و هذا كله في بحث صحه أو بطلان نسبه الكتاب من ناحيه «السند» إلى ابن القيم، ثم إليك المزيد و هو هام جدا و عليه مدار الأمر.

٤- و قد كان أن دعاني أخى و حيبى فى اللّهم «عبد الرحمن فوده» المدرس المساعد بكلية دار العلوم لسماع مناقشه رساله الدكتوراه لأخ كريم هو «زكريا سعيد على» و كانت المفاجأه أن رساله عنوانها «بلاغه القرآن عند المفسرين حتى نهايه القرن السادس» (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) - و قد كنت قاربت الانتهاء من تحقيق أكثر من نصف الكتاب - و قد تضمنت رسالته دراسه مبدعه حول كتاب «الفوائد المشوق» نلخصها فيما يلى:

- ذهب الباحث إلى نقض نسبه الكتاب لابن القيم من ناحيه السند قريبا مما ذهبت إليه (١).

ص: ٧٤

١- قد حاولت الحصول على نسخه من رساله فلم أستطع، لمدته عام كامل، ثم وقفت عليها فى مكتبه الكليه المذكوره وقفه سريعه لم تمكنى من دراسه البحث جيدا، حتى تفضل الأستاذ الباحث مشكورا بإرسال نسخه منها أعدها للطبع و سماها «المقدمه فى علم البيان» مقدمه تفسير ابن النقيب، و هذه تحتوى على النصف الأول من الكتاب المتعلق ب «ما يتعلق بالمعاني من المبالغه» و هو إلى القسم الرابع و العشرين من أقسامه.

ب- من ناحيه المتن ابتدأ الباحث رده صحه هذه النسبه بذكر قضيه «المجاز» عند ابن القيم، و أنه في مقام العداء له و وصفه (كما مختصر الصواعق) بأنه الطاغوت الثالث الذى وضعه الجهميه (٢٨٤) و هذا لم يصلنا مع «الصواعق» المطبوع و «الهجوم الضارى» من ابن القيم على مسأله تقسيم الكلام إلى حقيقه و مجاز و هو مما يتنافى تماما مع ما ذكر فى «الفوائد المشوق». الذى أخذ حجما ضخما من ص (٩-٨٧) اه. و هذا هام جدا من ناحيه مخالفه المنهجين تماما لما يقطع ببطلان هذا التقسيم و بين ما يثبته و يدل عليه بهذه السعه كما فى الفوائد المشوق. و هذا كما مرّ من الأسباب النافيه لصحه نسبه كتاب يخالف محتواه العقدى لمؤلف على النقيض من هذه العقيدته.

ج- يقول الباحث «و مما لفت نظرى فى الكتاب الموسوم بالفوائد المشوق عند ذكره للزمخشري أنه يتبع ذلك بصيغه الترحم عليه: رحمه الله و هذا مما لا يمكن أن يصدر عن واحد مثل ابن القيم السلفى المعتقد... خاصة بالنسبه لواحد من رأس المعتزله- و هم عنده- من فرق المبتدعه و الضلاله.

و هذا الترحم يشعر فى كلام السابقين شيئا من الحب و الوفاء فى نفس المترحم على المترحم عليه» ص (٨) باختصار يسير.

و هذه الفقره بعينها من أضعف نقاط البحث، و كنت أرجو أن يغض طرف قلمه عن مثل هذا، و تنزيه ابن القيم عن هذا الخلق، مع وقوفنا فى خندق واحد معه رحمه الله تعالى، ضد المعتزله و أمثالهم فيما خالفوا فيه أهل السنه. فقد ذكر ابن القيم الزمخشري فى أكثر من خمس عشر موضعا فى المجموع من تفسيره «بدائع التفسير» مثل: (٢٦١/١ و ٢٧٧ و ٣١٠ و ٣٧٨ و ٣٧٨ و ٤٢٨) و (٢٩٧/٢ و ٢٢٣ و ٣١١) و (٢٧/٣ و ١١١) إلخ.

و فى كثير منها ينقل قولاً له مع تقدير رأيه أو ما ذهب إليه ثم قد ذكر ابن القيم كثيرا من علماء الأئمه دون ذكر الترحم فهذا ليس شرطا أو قييدا.

و انظر موضع ترجمته فى السير (١٥١/٢٠) يقول الذهبى: «الزمخشري العلامة، كبير المعتزله،... صاحب الكشاف... رحل، و سمع، و حج، و جاور و تخرج به أئمه... أثنى عليه أبو السعادات بن الشجرى... و كان داعيه إلى الاعتزال، الله يسامحه» اه. هكذا يكون الإنصاف. و الله أعلم.

ثم أحيل أخى الباحث إلى كتاب الأستاذ الدكتور علامه محمد محمد أبو موسى حفظه الله تعالى: «البلاغه القرآنيه فى تفسير الزمخشري» ص (٣٠). ثم سائر الكتاب. و انظر أيضا

من ص (٦٣) و موقف الزمخشري من أهل السنه و تعقيب ورد الشيخ الجليل «أبو موسى».

د-استشهاد صاحب «الفوائد المشوق»بعده أحاديث لا يخفى و منها عن ابن القيم و هو صاحب «المنار المنيف» و هذه الأحاديث بين الضعيف و الموضوع و لن نتعرض للأحاديث الضعيفه، حيث إن من أهل العلم من يجيز الاحتجاج بها، أما المكذوبه فهو زور و بهتان... كقوله: «إياكم و خضراء الدمن...» و قوله: «المعده بيت الداء...» فهو من كلام الحارث بن كلده، و لا يصح رفعه. أما قوله: «خضراء الدمن» فقد قال الألباني:

«ضعيف جدا...». و قوله: «أصحابي كالنجوم...» موضوع فهذا مما لا يفوت ابن القيم معرفته... من (٩-١١)هـ. و هذا من الباحث نظر جيد، و مّمّن نّبه على هذا الأمر-أى هذه العله فى دفع صحه نسبه الكتاب-فضيله الشيخ «بكر» فى كتابه ص (٢٩١).

ثم يصل الباحث إلى أهم النقاط التي رجحت عندي صحه ما ذهب إليه فى نفي صحه نسبه هذا الكتاب لابن القيم، ثم-و هذا هام جدا-بيان صاحب هذا العمل الممتع.

ه-يقول الباحث: (و لمعرفة ذلك هداني الله للإجابة عن السؤال من خيط رفيع جدا، و هو عنوان القسم «الحادى و العشرين» من أقسام فنون المعانى (١٣٦) جعل صاحب الفوائد المشوق عنوانه «الاحتجاج النظرى» و قال فيه: و بعض أهل هذا الشأن يسميه «المذهب الكلامى»... إلخ، و تذكرت أن هذا الكلام قد مرّ بى من قبل فى تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى (ت ٧٤٥هـ) عند قوله تعالى: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ... [آل عمران:

١٥٤] يقول أبو حيان: «هذا النوع عند علماء البيان يسمى «الاحتجاج النظرى» و هو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول...» إلخ.

و قد حاولت معرفه من استخدم مصطلح الاحتجاج النظرى من علماء البيان، فلم أعثر على ذكره إلا لدى شيخ أبى حيان «ابن النقيب» كما نص السيوطى.

يقول: و سمّاه ابن النقيب «الاحتجاج النظرى» كما فى شرح عقود الجمان فى علم البيان للسيوطى ص (١٢٣).

و هنا طرقتى السؤال: إذا لم يكن أحد غير ابن النقيب استخدم مصطلح «الاحتجاج النظرى» فلم لا يكون الكتاب المسمى بالفوائد المشوق هو نفسه كتاب «ابن النقيب»؟ و بتتبع ما وصلت إليه يدي من كتب البلاغه التي بين أيدينا اليوم فلم أجد فى واحد منها إطلاق تسميه «الاحتجاج النظرى» على «المذهب الكلامى» إلا فى «الفوائد المشوق».

و-يقول الباحث: «... فلما ذا إذا لا يكون هذا الكتاب إلا مقدمه ابن النقيب فى علم

البيان، والتي ذكرها أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط عند حديثه عن الوجه الثالث من الوجوه التي يكون كلام الله عزّ وجلّ هو «وجه الفصاحة والبلاغة» ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع، وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد بن سليمان النقيب، وذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير... البحر (٢/٢٢٧):.

ز- ثم يقول الباحث ص (١٤): (...قال أبو حيان: وفي قوله: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [البقرة: ٢٠٦] نوع من البديع يسمى «التميم» وهو إرداف الكلام بكلمه ترفع عنه اللبس وتقربه للفهم... البحر المحيط (٢/١١٧) وهذا التعريف يتطابق مع ما في الفوائد المشوق ص (٩٠).

و هذا التعريف للتميم لم أجده في واحد من كتب البلاغة التي بين أيدينا إلا في الكتاب و في تفسير البحر المحيط).

ح- يقول الباحث (١٥): «و من التقارب الكبير بين ما في البحر المحيط و بين ما في «الفوائد المشوق» ما ذكره أبو حيان عند قوله تعالى: وَ قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ... [غافر: ٢٨ - ٢٩] قال أبو حيان: وقال صاحب التحرير و التحبير: هذا نوع من أنواع علم البيان تسميه علماءنا «استدراج المخاطب» البحر المحيط (٧/٤٦١-٤٦٢) و قابل بالفوائد المشوق (٢١٣-٢١٤) و صاحب التحرير و التحبير- هذا- هو نفسه شيخ أبي حيان (ابن النقيب) و التحرير و التحبير تفسيره الكبير للقرآن و اسمه «التحرير و التحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير» (كشف الظنون: ١/٣٥٨)، و هذا التشابه الكبير بين ما في تفسير البحر المحيط و كتاب «الفوائد المشوق» و انفراد صاحب هذا الكتاب بمصطلح «الاحتجاج النظري» جعلني أطمئن بعض الاطمئنان إلى ما هجست به نفسى أن ما بين يدي من كتاب «الفوائد المشوق» هو نفسه مقدمه شيخ أبي حيان (ابن النقيب) (١).

ط- يقول الباحث (١٧): «غير أن هذا لم يكن كافيا عندي للوصول إلى درجه اليقين».

ص: ٧٧

١- و قد ذكر غير واحد هذه المقدمه بالإضافة لأبي حيان، منهم الزركشى، يقول عند حديثه عن «معرفة كون اللفظ و التركيب أحسن و أفصح» يقول الزركشى: «و يؤخذ ذلك من علم البيان و البديع، و قد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، و أجمعها ما جمعه الشيخ شمس الدين محمد ابن النقيب في مجلدين، في مقدمه تفسيره... البرهان في علوم القرآن (١/٣١١). و ذكرها أيضا ابن السبكي في مصادره في تأليف «عروس الأفراح» (١/٣١١).

فعدت ألتمس ذكر «ابن النقيب» و من نقل عنه لعلّي أجد فيه ما يشفى. و قد كان بحمد الله و توفيقه، و هو ما وقع من نص عند السيوطى فى حديثه عن «التوريه» من فنون البديع.

يقول السيوطى «حكى بعضهم فى التوريه قولاً نادراً فقال: هى أن يعلق المتكلم لفظه من الكلام بمعنى، ثم يرددها بعينها، و يعلقها بمعنى آخر، نحو مثل ما أُوتى رُسُلُ اللهَ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: ١٢٤] فجاء بلفظ الجلاله مضافاً إليه، ثم جاء به مبتدأ مثل قوله: أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ [التوبه: ١٠٨] الأول: متعلق ب(تقوم)، و الثانى: خبر رجال. كذا أورده الأندلسى نقلاً عن ابن النقيب فى تفسيره...».

(قلت:- السيوطى-الظاهر أن هذا القول تصحف على ناقله، فإن هذا هو النوع المسمى ب«الترديد» السابق فى الإطناب فتحرف على الناقل «الترديد» ب«التوريه» ثم رأيت فى «المصباح» لابن مالك التمثيل بالآيه الأولى للترديد فصح ما قلته (اه. شرح عقود الجمان (١١٥)).

و هذا ما علقت بهامش نسختى على الفوائد المشوق، فرحم الله السيوطى فقد شفى نفسى بكلامه هذا).

ى-يقول الباحث: «...و بالبحث تبين أن مراد السيوطى «بالأندلسى»-هنا-أبا جعفر الأندلسى، و أن هذا النص موجود بالفعل فى شرحه على بديعه رفيقه ابن جابر الشهيره ب«بديعه العميان»، فتطلبت هذا الشرح المعروف ب«الحله الشيرا فى مدح خير الورى» و جدت له عده نسخ مخطوطه بدار الكتب المصريه، و عثرت بتوفيق الله على ما نقله السيوطى منها. و ثبت لى أن الأندلسى هذا هو أبو جعفر الأندلسى أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى الغرناطى (ت ٧٧٩هـ).

و بعد أن ساق أبو جعفر حد «التوريه» المشهور من «أنها إطلاق لفظ له معنيان: قريب و بعيد، و المراد البعيد»، قال: «و هذا الذى قررناه فى حد التوريه هو الذى درج عليه الناس، و قد ذكر ابن النقيب فى مقدمه تفسيره قولاً نادراً فى التوريه فقال: «التوريه أن يعلق المتكلم لفظه من الكلام بمعنى ثم يرددها بعينها و يعلقها بمعنى آخر... و ذلك نحو قوله: حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ... الآيه» الحله الشيرا فى مدح خير الورى ورقه (١٥٢) مخطوط بدار الكتب المصريه: ٢٨٢ بلاغه (١). ن.

ص: ٧٨

١- قلت: و قد طبع شرح الحله فى مؤسسه الثقافه-الإسكندريه باسم «طراز الحله و شفاء الغله» بتحقيق د. /رجاء السيد الجوهري الأستاذه المساعده للأدب بكلية التربيه جده «م.ع.س»، و هذا النص فى المطبوع برقم (٤٤٨)، و هذه المسأله أوضح أسباب نسبه الكتاب لابن النقيب، و هذا لا شك قاطع لقول كل خطيب، و هو أقرب لليقين.

و هذا النص الذى سقته يزيد فائده على نص السيوطى السابق أنه قرر أن ذلك القول فى مقدمه تفسير ابن النقيب، فأصبح شبه متقرر عندى أن ما بين يدى من مطبوعه «الفوائد المشوق» ما هى إلا مقدمه الشيخ ابن النقيب و هذا القول النادر الذى نسبه أبو جعفر الأندلسى إلى ابن النقيب فى تعريف التوريه فى الحقيقه ليس إلا- نتاج تحريف ناسخ مقدمه ابن النقيب، و الصواب كما ذهب إليه السيوطى أنه «الترديد» لا «التوريه» فهذا حده المعروف به فى كتب علماء البلاغه (١) و أنه تصحيف على الناسخ من «الترديد» إلى «التوريه» و هذا يكشف لنا عن أن هذا التصحيف فى أصل مقدمه ابن النقيب المخطوط كان قديما جدا من زمن أبى جعفر الأندلسى، و هو تصحيف «مبارك» له من الفضل على فى توثيق نسبه هذا الكتاب ما له!! اه. من ص ١٨-١٩).

١١- ثم اعتمد الباحث أيضا على أن ما ذكره المؤلف للفوائد المشوق كمقدمه لتفسيره، و التصريح بغرضه من الكتاب و هو «إثبات ما وقع فى الكتاب العزيز من فنون الفصاحه و عيون البلاغه...» إلخ راجع الفوائد المشوق (٢٢٥، ٤٦، ٧٨، ٥٧، ٥٠). كل هذا يقوى عندى أن هذا مقدمه بين يدى تفسير للقرآن الكريم، و من كل ما سبق أجدنى مطمئنا إلى أن ما نشر تحت عنوان «الفوائد المشوق» أو «كنوز العرفان» المنسوب لابن القيم هو فى حقيقته مقدمه الشيخ «ابن القيم» فى علوم البلاغه و التى جعلها أمام تفسيره الكبير للقرآن الكريم اه (٢).

و أخيرا....

هذا.. أخى المسلم.. جهدى القليل الذى أسأل الله تعالى البركه فيه بقبوله، يرفع به درجاتى.

و البركه فيه بالانتفاع به، و العمل به. ث.

ص: ٧٩

١- انظر: تحرير التحبير: (٢٥٣)، و بدائع القرآن: (٩٦)، و البرهان فى علوم القرآن (٣٠١/٣)، و الإتقان (٢٧٠/٣).

٢- انتهى ما ذكره الباحث و لا تستطل هذا النقل فهو هام بل ضرورى للفصل فى هذا النزاع، ثم حاولت قدر الاستطاعه نقله كاملا باختصار غير مخل لتعم الفائده لمن لم يتحصل على نسخه من كتاب الأخ الباحث.

و أشهد الله تعالى، ما صنعت هذا العمل و ما سبق و ما لحق إن شاء الله تعالى إلا جبا في الله تعالى و رسوله صلى الله عليه و سلم و سلف الأئمة الصالحين. راجيا أن يكون لبنة صحيحة في بناء عظيم قام عليه كبارنا الأوائل، جعلنا الله تعالى دعاه بناء لا دعاه هدم، و كل رجاء أن تنالني دعوه بالعفو و العافيه. و لا شك أن هناك زلات، أرجو تنبيهي عليها. و هناك هنات أرجو الدعاء لي بالمغفرة و التوبه.

سبحانك الله و بحمدك لا إله إلا أنت.

رب اغفر لي و لوالدي و للمؤمنين.

رب بارك في أهل بيتي و زهور عمري نعمه ربي:

«فاطمه و مريم و سلمى».

و الحمد لله رب العالمين.

و كتبه أبو الزهراء: يسرى السيد محمد الكولى بالهرم.

هاتف: ٠١٠١٣٣٤٠٨٠ - أول رجب سنه ١٤٢٣ سبتمبر سنه ٢٠٠٢.

ص: ٨٠

لا- بد من الوحي الذي به الحياه الحقيقيه الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياه الفانيه المنقضييه، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي و الرحمه و الألفاف و الموارد الربانيه و التنزلات الإلهيه، و ما به قوام العالم العلوي و السفلي من أعظم أنواع الرزق (١).

مراتب الوحي [النبوي]

مراتب الوحي مراتب عديده:

إحداها: الرؤيا الصادقه، و كانت مبدأ وحيه صلى الله عليه و سلم، و كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (٢) الطبراني في الكبير (١٩٤/٨) (٧٦٩٤)، و قال الهيثمي في المجمع (٧٤/٤): «فيه قدامه بن زائده بن قدامه، و لم أجد من ترجمه، و بقيه رجاله ثقات». و الحديث حسنه الألباني (٣).

الثانيه: ما كان يلقيه الملك في روعه و قلبه من غير أن يراه، كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله و أجمعوا في الطلب، و لا- يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصيه الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» (٣).

الثالثه: أنه (كان يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له (٤)، و في هذه المرتبه كان يراه الصحابه أحيانا.

الرابعه: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، و كان أشده عليه، فيتلبس به الملك

ص: ٨١

١- بدائع الفوائد (١١٨/١).

٢- رواه البخاري

٣- في بدء الوحي، باب: (٣)، و مسلم (٢٥٢/١٦٠) في الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

٤- مسلم (١/٨) في الإيمان، باب: بيان الإيمان و الإسلام و الإحسان، و وجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه و تعالى.

حتى إن جبينه ليتفصد عرفاً في اليوم الشديد البرد، و حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها (١) البخارى (٤٥٩٢) فى التفسير، باب: لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [النساء: ٩٥]. (٢). و لقد جاءه الوحي مره كذلك، و فخذة على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها (٢).

الخامسه: أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، و هنا وقع له مرتين كما ذكر الله فى سوره النجم [النجم: ١٣، ٧]. (٣).

السادسه: ما أوحاه الله و هو فوق السموات ليله المعراج من فرض الصلاه و غيرها.

السابعه: كلام الله له منه إليه واسطه ملك، كما كلم الله موسى بن عمران (٤)، و هذه المرتبه هى ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن، و ثبوتها لنبينا (هو فى حديث الإسراء؟).

و قد زاد بعضهم مرتبه ثامنه، و هى تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، هذا على مذهب من يقول: إنه صلى الله عليه و سلم رأى ربه تبارك و تعالى (٥)؟.

مراتب الهدايه الخاصه و العامه

و الفرق بين الإلهام و الوحي و التحديث

المرتبه الأولى: مرتبه تكليم الله عز و جل لعبده يقظته بلا- واسطه، بل منه إليه. و هذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله و سلامه على نبينا و عليه، قال الله تعالى: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] فذكر فى أول الآيه وحيه إلى نوح و النبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. و هذا يدل على أن التكليم الذى حصل له أخص من مطلق الوحي الذى ذكر فى أول الآيه. ثم أكدته بالمصدر الحقيقى الذى هو مصدر «كلم» و هو «التكليم» رفعا لما يتوهمه المعطله و الجهميه و المعتزله و غيرهم من أنه إلهام، أو إشاره، أو تعريف للمعنى النفسى بشىء غير التكليم؟ فأكدته بالمصدر المفيد تحقيق النسبه و رفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً

ص: ٨٢

١- البخارى

٢- فى بدء الوحي، باب: (٢)، و مسلم (٨٦/٢٣٣٣) فى الفضائل، باب: عرق النبى صلى الله عليه و سلم فى البرد و حين يأتيه الوحي.

٣- مسلم (٢٨٧/١٧٧) فى الإيمان، باب: معنى قول الله عز و جل: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَى [النجم: ١٣].

٤- يشير المصنف إلى قوله تعالى: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء].

٥- زاد المعاد (١/٧٧-٨٠).

بأى طرق وصل. و لكن لا- تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا- حقيقه الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادته، يريدون حقيقه الإرادة. و يقال: أراد الجدار، و لا يقال:

إرادته، لأنه مجاز غير حقيقه، هذا كلامه. و قال تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَتُحَدِّثُكَ [الأعراف: ١٤٣] و هذا التكليم غير التكليم الأول الذى أرسله به إلى فرعون. و فى هذا التكليم الثانى سأل النظر، لا فى الأول و فيه أعطى الألواح، و كان عن مواعده من الله له. و التكليم الأول لم يكن عن مواعده، و فيه قال الله له: يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي [الأعراف: ١٤٤] أى بتكليمى لك بإجماع السلف.

و قد أخبر- سبحانه- فى كتابه: أنه ناداه و ناجاه. فالنداء من بعد، و النجاء من قرب.

تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء. و قال له أبوه آدم فى حاجته: «أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه، و خط لك التوراه بيده؟» (١). و كذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه. و كذلك فى حديث الإسراء فى رؤيه موسى فى السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الروايه (٢). قال: «و ذلك بتفضيله بكلام الله»، و لو كان التكليم الذى حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى هذه الأحاديث معنى، و لا كان يسمى «كليم الرحمن». و قال تعالى: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا- وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء [الشورى: ٥١] ففرق بين تكليم الوحي، و التكليم بإرسال الرسول، و التكليم من وراء حجاب.

فصل المرتبه الثانيه: مرتبه الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء ١٦٣] و قال: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا- وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ آيَهُ [الشورى: ٥١] فجعل الوحي فى هذه الآيه قسما من أقسام التكليم، و جعله فى آيه النساء قسيما للتكليم، و ذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطه، و قسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعدده.

و الوحي فى اللغه: هو الإعلام السريع الخفى، و يقال فى فعله: وحي، و أوحى، قال رؤبه: ت.

ص: ٨٣

١- البخارى (٦٦١٤) فى القدر، باب: تحاج آدم و موسى عند الله، و مسلم (١٣/٢٦٥٢) فى القدر، باب: حجاج آدم و موسى عليهما السلام.

٢- البخارى (٣٤٩) فى الصلاه، باب: كيف فرضت الصلوات فى الإسراء، و مسلم (٢٥٩/١٦٢) فى الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى السموات و فرض الصلوات.

فصل المرتبه الثالثه:إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى،فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصه بالأنبياء،لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلا،يراه عيانا و يخاطبه.و قد يراه على صورته التى خلق عليها.و قد يدخل فيه الملك،و يوحى إليه ما يوحيه،ثم يفصم عنه، أى يقلع،و الثلاثه حصلت لنبينا صلى الله عليه و سلم (1)البخارى(3689) فى فضائل الصحابه،باب:مناقب عمر بن الخطاب،و مسلم(23/2398)فى فضائل الصحابه،باب:من فضائل عمر رضى الله عنه.(2).

فصل المرتبه الرابعه:مرتبه التحديث.و هذه دون مرتبه الوحي الخاص،و تكون دون مرتبه الصديقين،كما كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه،كما قال النبى صلى الله عليه و سلم:«إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون،فإن يكن فى هذه الأمة فعمربن الخطاب» (2).

و سمعت شيخ الإسلام تقى الدين.ابن تيميه-رحمه الله-يقول:جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا.و علق وجودهم فى هذه الأمة ب«إن»الشرطيه مع أنها أفضل الأمم،تضم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم،و استغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها و رسالته،فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث و لا ملهم،و لا صاحب كشف و لا منام،فهذا التعليق لكمال الأمة و استغنائها لا لنقصها.

و المحدث:هو الذى يحدث فى سره و قلبه بالشىء،فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا:و الصديق أكمل من المحدث،لأنه استغنى بكمال صديقيته و متابعتة عن التحديث و الإلهام و الكشف،فإنه قد سلم قلبه كله و سره و ظاهره و باطنه للرسول،فاستغنى به عما منه (3)م.

ص: ٨٤

١- البخارى

٢- فى بدء الوحي،باب:(2)،(3215)فى بدء الخلق،باب:ذكر الملائكه،و مسلم (87/2333)فى الفضائل،باب:عرق النبى صلى الله عليه و سلم فى البرد و حين يأتيه الوحي.

٣- لعل مراده:فاستغنى الصديق بما جاء به النبى صلى الله عليه و سلم من الوحي عما منه هو من التحديث و الله تعالى أعلم.

قال: و كان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، تضبط رده، فعلم أن مرتبه الصديقيه فوق مرتبه التحديث.

قال: و أما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات و الجهالات: «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، و لكن عمّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندا الحديث إلى من يعلم أنه حدثه به، و ذلك كذب. قال: و محدث الأمه لم يكن يقول ذلك، و لا تفوّه به يوما من الدهر، و قد أعاده الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوما «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا، امحه، و اكتب:

هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابا فمن الله، و إن كان خطأ فمن عمر، و الله و رسوله منه برىء» و قال في الكلاله: «أقول فيها برأبي، فإن يكن صوابا فمن الله، و إن يكن خطأ فمني و من الشيطان»، فهذا قول المحدث بشهاده الرسول صلى الله عليه و سلم، و أنت ترى الاتحادي و الحلولي و الإباحي الشطاح، و السماعي مجاهر بالقحه و الفريه، يقول: «حدثني قلبي عن ربي».

فانظر إلى ما بين القائلين و المرتبتين و القولين و الحالين، و أعط كل ذي حقّ حقه، و لا تجعل الزغل و الخالص شيئا واحدا.

فصل المرتبه الخامسه: مرتبه الإفهام معناه، قال الله تعالى: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فذكر هذين النبيين الكريمين، و أثنى عليهما بالعلم و الحكم. و خص سليمان بالفهم في هذه الوقعه المعينه. و قال على بن أبي طالب و قد سئل: «هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس؟» فقال: «لا، و الذي فلق الحبه و برأ النسمه، إلا فهما يؤتياه الله عبدا في كتابه، و ما في هذه الصحيفه. و كان فيها العقل - و هو الديات - و فكاك الأسير، و ألا يقتل مسلم بكافر».

و في كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضى الله عنه: «و الفهم الفهم فيما أدلى إليك» فالفهم نعمه من الله على عبده، و نور يقذفه الله في قلبه يعرف به، و يدرك ما لا يدركه غيره و لا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، و فهم أصل معناه.

فالفهم عن الله و رسوله عنوان الصديقيه، و منشور الولايه النبويه، و فيه تفاوت مراتب

العلماء، حتى عدّ ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر و من حضر من أهل بدر و غيرهم عن سوره إذا جاء نَصِيرُ
اللَّهِ وَ الْفَتْحِ و ما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه و إعلامه بحضور أجله» (١)، و موافقه عمر
له على ذلك، و خفائه عن غيرهما من الصحابه، و ابن عباس إذ ذاك أحدتهم سنا، و أين تجد في هذه السوره الإعلام بأجله، لو لا
الفهم الخاص؟ و يدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، و لا يقع الاستغناء
بالنصوص في حقه مثال الذين يظنون النقص بالشريعة، و أما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

فصل المرتبه السادسه: مرتبه البيان العام. و هو تبين الحق و تمييزه من الباطل بأداته و شواهده و أعلامه، بحيث يصير مشهودا
للقلب، كشهود العين للمريثات.

و هذه المرتبه هي حجه الله على خلقه، التي لا يعذب أحدا و لا يضلّه إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) [التوبه: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبه منه لهم، حين بين
لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، و لم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، و ما أضل الله - سبحانه - أحدا قط إلا بعد هذا البيان.

و إذا عرفت هذا عرفت سر القدر، و زالت عنك شكوك كثيره، و شبهات في هذا الباب، و علمت حكمه الله في إضلاله من
يضلّه من عباده. و القرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: ٥]، وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد، و الثانى: كفر طبع، و قوله: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه و تحققوه، بأن قلب أفئدتهم و أبصارهم
فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

و قال تعالى: وَ أَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت: ١٧] فهذا هدى بعد البيان و الدلاله، و هو شرط لا
موجب، فإنه إن يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كماله.

ص: ٨٦

١- أخرجه البخارى فى التفسير.

و هذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعه المتلوه، و بيان بالآيات المشهوده المرئيه، و كلاهما أدله و آيات على توحيد الله و أسمائه و صفاته و كماله، و صدق ما أخبرت به رسله عنه، و لهذا يدعو عباده بآياته المتلوه إلى التفكر فى آياته المشهوده و يحضهم على التفكر فى هذه و هذه. و هذا البيان هو الذى بعثت به الرسل، و جعل إليهم و إلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء، قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٤) [إبراهيم] فالرسل تبين، و الله هو الذى يضل من يشاء و يهدى من يشاء بعزته و حكمته.

فصل المرتبه السابعه: البيان الخاص، و هو البيان المستلزم للهدايه الخاصه. و هو بيان تقارنه العنايه و التوفيق و الاجتباء، و قطع أسباب الخذلان و موادها عن القلب، فلا تتخلف عن الهدايه البته. قال تعالى فى هذه المرتبه: **إِنْ تَخَرَّصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** [النحل: ٣٧] و قال: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** [القصص: ٥٦] فالبيان الأول شرط، و هذا موجب.

فصل المرتبه الثامنه: مرتبه الإسماع. قال الله تعالى: **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ** (٢٣) [الأنفال]، و قال تعالى: **وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَا الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ (٢٠) وَ لَا الظُّلُّ وَ لَا الْحُرُورُ (٢١) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْمَمَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)** [فاطر: ١٩-٢٣]، و هذا الإسماع أخص من إسماع الحجه و التبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، و به قامت الحجه عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، و هذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ و معنى، و له نسبه إلى الأذن و القلب و تعلق بهما. فسماع لفظه حظ الآذان، و سماع حقيقه معناه و مقصوده حظ القلب، فإنه - سبحانه - نفى عن الكفار سماع المقصود و المراد الذى هو حظ القلب، و أثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله تعالى: **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** [الأنبياء: ٢-٣]، و هذا السماع لا يفيد السماع إلا قيام الحجه عليه، أو تمكنه منها. و أما مقصود السماع و ثمرته و المطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب

و غفلته و إعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: ما ذا قال آناً أو لثبك الذين طبع الله على قلوبهم [محمد: ١٦].

و الفرق بين هذه المرتبة و مرتبه الإلهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن و مرتبه الإلهام أعم. فهي أخص من مرتبه الفهم من هذا الوجه، و مرتبه الفهم أخص من وجه آخر، و هي أنها تتعلق بالمعنى المراد و لوازمه و تعلقاته و إشارات، و مرتبه السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب و يترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، و سماع القلب، و سماع القبول و الإجابة.

فصل المرتبه التاسعه: مرتبه الإلهام. قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا [الشمس: ٧-٨]، و قال النبي لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: «اللهم ألهمني رشدي، و قني شر نفسي» (١).

و قد جعل صاحب المنازل بين: «الإلهام» هو مقام المحدثين. قال: و هو فوق مقام الفراسه، لأن الفراسه ربما وقعت نادره، و استصعبت على صاحبها وقتاً، أو استعصت عليه، و الإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

قلت: التحديث أخص من الإلهام، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبي (قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» (٢) يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص، هو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ [القصص:

٧]، و قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي [المائدة: ١١١] و إما من غير المكلفين، كقوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام.

فصل قال: و هو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيًا قاطعاً مقروناً بسماع. إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن).

ص: ٨٨

١- الترمذي (٣٤٨٣) في الدعوات، باب: (٧٠) و قال: «غريب».

٢- سبق تخريجه ص (٥) رقم (٢).

فليس كل خبر نبأ، و هو نبأ خبر عن غيب معظم.

و يريد بالوحى و الإلهام: الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطه سمع، أو هو الإعلام بلا واسطه.

قلت: أما حصوله لغير الأنبياء، و هو الذى خص به موسى، إذ كان المخاطب هو الحق عزّ و جلّ.

و أما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع، فهو من أحد وجوه ثلاثه لا رابع لها. أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكه تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكى عاد إليه خطاب الملك. و هو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، و هو نادر بالنسبه إلى عموم المؤمنين.

و الثانى: خطاب يلتقى فى قلبه يخاطب به الملك و روحه، كما فى الحديث المشهور:

«إن للملك لمة بقلب ابن آدم، و للشيطان لمة. فلمه الملك: إيعاد بالخير، و تصديق بالوعد، و لمة الشيطان: إيعاد بالشر و تكذيب بالوعد» (١)، ثم قرأ: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقره: ٢٦٨]. قيل فى تفسيرها: قوّوا قلوبهم، و بشروهم بالنصر. و قيل: احضروا معهم للقتال، و القولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، و ثبتوا قلوبهم.

و من هذا الخطاب: واعظ الله عزّ و جلّ فى قلوب عباده المؤمنين، كما فى جامع الترمذى و مسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله تعالى ضرب مثلا:

صراطا مستقيما، و على كنفتى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحه، و على الأبواب ستور مرخاه، و داع يدعو على رأس الصراط، و داع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم:

الإسلام، و السوران: حدود الله، و الأبواب المفتحه: محارم الله، فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر، و الداعى على رأس الصراط: كتاب الله، و الداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن» (٢)، فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام من.

ص: ٨٩

١- الترمذى (٢٩٨٨) فى تفسير القرآن، باب: و من سوره البقره، و قال: «حسن غريب» و ضعفه الألبانى، و رواه النسائى فى الكبرى (١١٠٥١) فى التفسير.

٢- الترمذى (٢٢٩٥) فى الأمثال، ما جاء فى مثل الله تعالى لعباده، و صححه الألبانى. - رواه الإمام أحمد (١٦٩٧٦) فى مسند الشاميين.

و أما وقوعه بغير واسطه:فمما لم يتبين بعد،و الجزم فيه بنفى أو إثبات موقوف على الدليل،و الله أعلم.

فصل النوع الثانى من الخطاب المسموع:خطاب الهواتف من الجان،و قد يكون المخاطب جنيا مؤمنا صالحا،و قد يكون شيطانا.و هذا أيضا نوعان:

أحدهما:أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه.

و الثانى:أن يلقى فى قلبه عند ما يللم به.و منه وعده و تمنيته حين يعد الإنسى و يمينه، و يأمره و ينهاه، كما قال تعالى: يَعِدُّهُمْ وَ يُمَيِّنُهُمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)[النساء]، و قال: الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ [البقره:٢٦٨]،و للقلب من هذا الخطاب نصيب،و للأذن أيضا منه نصيب،و العصمه منتفيه إلا عن الرسل و مجموع الأمه.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحمانى، أو ملكى؟بأى برهان؟أو بأى دليل؟ و الشيطان يقذف فى النفس وحيه.و يلقى فى السمع خطابه،فيقول المغرور المخدوع:«قيل لى،و خوطبت»صدقت،لكن الشأن فى القائل لك و المخاطب.و قد قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لغيلان بن سلمه-و هو من الصحابه-لما طلق نساءه،و قسم ماله بين بنيه:«إنى لأظن الشيطان-فيما يسترق من السمع-سمع بموتك،فقذفه فى نفسك»فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟.

فصل النوع الثالث:خطاب حالى،تكون بدايته من النفس،و عوده إليها فيتوهمه من خارج، و إنما هو من نفسه،منها بدأ و إليها يعود.

و هذا كثيرا ما يعرض للسالك،فيغلط فيه،و يعتقد أنه خطاب من الله،كلمه به منه إليه.

و سبب غلظه:أن اللطيفه المدركه من الإنسان إذا صفت بالرياضه،و انقطعت علقها من الشواغل الكثيفه:صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح و القلب على البدن،و مصير الحكم لها.فتنصرف عنايه النفس و القلب إلى تجريد المعانى التى هى متصله بهما،و تشتد عنايه الروح بها،و تصير فى محل تلك العلائق و الشواغل،فتملأ القلب.فتصرف تلك المعانى إلى المنطق و الخطاب القلبي الروحي بحكم العاده،و يتفق تجرد الروح،فتتشكل تلك

المعاني للقه السامعه بشكل الأصوات المسموعه، و للقه الباصره بشكل الأشخاص المرئيه، فيرى صورها، و يسمع الخطاب، و كله فى نفسه ليس فى الخارج منه شىء. و يحلف أنه رأى و سمع، و صدق. لكن رأى و سمع فى الخارج، أو فى نفسه؟ و يتفق ضعف التمييز، و قله العلم، و استيلاء تلك المعاني على الروح، و تجردها عن الشواغل.

فهذه الوجوه الثلاثه هى وجوه الخطاب، و من سمع نفسه غيرها فإنما هو غرور، و خدع و تلبيس، و هذا الموضع مقطع القول، و هو من أجل المواضع لمن حققه و فهمه، و الله الموفق للصواب.

فصل قال: «الدرجه الثانيه: إلهام يقع عيانا. و علامه صحته: أنه لا يخرق سترًا، و لا يجاوز حداً، و لا يخطئ أبداً».

الفرق بين هذا و بين الإلهام فى الدرجه الأولى: أن ذلك علم شبيه بالضرورى الذى لا يمكن دفعه عن القلب. و هذا معاينه و مكاشفه. فهو فوقه فى الدرجه، و أتم منه ظهورًا، و نسبته إلى القلب نسبه المرئى إلى العين، و ذكر له ثلاث علامات:

إحداهما: «أنه لا- يخرق سترًا» أى صاحبه إذا كوشف بحال غير المستور عنه لا يخرق ستره و يكشفه، خيرا كان أو شرا، أو أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس، بل يستر نفسه، و يستر من كوشف بحاله.

الثانيه: «أنه لا يجاوز حداً» يحتمل وجهين:

احداهما: أنه لا يتجاوز به إلى ارتكاب المعاصى، و تجاوز حدود الله، مثل الكهان، و أصحاب الكشف الشيطانى.

الثانى: أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعيه، مثل أن يتحسس به على العورات التى نهى الله عن التجسس عليها و تتبعها، فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الكشف، فهو شيطانى لا رحمانى.

الثالثه: أنه لا يخطئ إلا نادرا، بخلاف الشيطان، فإن خطاه كثير، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لابن صائد: «ما ترى؟» قال: أرى صادقا و كاذبا. قال: «لبس عليك» (1)، فالكشف الشيطانى لا بد أن يكذب، و لا يستمر صدقه البته. د.

ص: ٩١

١- أخرجه مسلم (٨٧/٢٩٢٥) فى الفتن و أشرط الساعه، باب: «ذكر ابن صياد»، و الترمذى (٢٢٤٧) فى الفتن، باب: ما جاء فى ذكر ابن صائد.

فصل قال «الدرجة الثالثة: إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً، وينطلق عن عين الأزل محضاً، و الإلهام غايه تمتنع الإشارة إليها».

عين التحقيق عنده هي الفناء في شهود الحقيقة، بحيث يضمحل كل ما سواها في ذلك الشهود، و تعود الرسوم أعداما محضه، فالإلهام في هذه الدرجة يجلو هذا العين للملهم صرفاً، بحيث لا يمازجها شيء من إدراك العقول و لا الحواس، فإن كان هناك إدراك عقلي أو حسي لم يتمحض جلاء عين الحقيقة. و الناطق عن هذا الكشف: أن كل الخلق عنه في حجاب. و عندهم: أن العلم و العقل و الحال حجب عليه، و أن خطاب الخلق إنما يكون على لسان الحجاب، و أنهم لا يفهمون لغه ما وراء الحجاب من المعنى المحجوب، فلذلك تمتنع الإشارة إليه، و العبارة عنه. فإن الإشارة و العبارة إنما يتعلقان بالمحسوس و المعقول، و هذا أمر وراء الحس و العقل.

و حاصل هذا الإلهام: أنه إلهام ترتفع معه الوسائط و تضمحل و تعدم، لكن في الشهود لا في الوجود. و أما الاتحاديه، القائلون بوحده الوجود: فإنهم يجعلون ذلك اضمحلالاً و عدماً في الوجود، و يجعلون صاحب المنازل منهم، و هو برىء منهم عقلاً و دينا و حالاً و معرفه، و الله أعلم.

فصل المرتبه العاشره من مراتب الهدايه: الرؤيا الصادقه. و هي من أجزاء النبوه، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «الرؤيا الصادقه جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوه» (١).

و قد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقه، و ذلك نصف سنه، ثم انتقل إلى وحي اليقظه مدته ثلاث و عشرين سنه، من حين بعث إلى أن توفي -صلوات الله و سلامه عليه- فنسبه مدته الوحي في المنام من ذلك: جزء من ستة و أربعين جزءاً. و هذا حسن، لو لا ما جاء في الروايه الأخرى الصحيحه: «إنها جزء من سبعين جزءاً» (٢). هـ.

ص: ٩٢

١- البخارى (٦٩٨٨) في التعبير، باب: الرؤيا الصالحه جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوه، و مسلم (٦/٢٢٦٣) في أول الرؤيا، و أبو داود (٥٠١٨) في الأدب، باب: ما جاء في الرؤيا.

٢- رواه مسلم (٤٢٠٥) في الرؤيا من حديث ابن عمر رضى الله عنهما و ابن ماجه (٣٨٨٧) و راجع: فتح البارى (١٢/ ٣٨٠) ففيه فوائد قيمه.

و قد قيل فى الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة و أربعين، و رؤيا عموم المؤمنين الصادقه من سبعين، و الله أعلم.

و الرؤيا: مبدأ الوحي، و صدقها بحسب صدق الرائي. و أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا، و هى عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطف، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم (١). و ذلك لبعده العهد بالنبوه و آثارها، فيتعرض المؤمنون بالرؤيا. و أما فى زمن قوه نور النبوه: ففى ظهور نورها و قوته ما يغنى عن الرؤيا.

و نظير هذه الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابه، و لم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوه إيمانهم، و احتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. و قد نص أحمد على هذا المعنى. و قال عباده بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام»، و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم: «لم يبق من النبوه إلا المبشرات» قيل: و ما المبشرات، يا رسول الله؟ قال:

«الرؤيا الصالحه، يراها المؤمن أو ترى له» (٢). و إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم لأصحابه لما أروا ليله القدر فى العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريرا فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان» (٣).

و الرؤيا كالكشف، منها رحمانى، و منها نفسانى، و منها شيطانى. و قال النبى صلى الله عليه و سلم:

«الرؤيا ثلاثه: رؤيا من الله، و رؤيا تحزين من الشيطان، و رؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظه، فيراه فى المنام».

و الذى هو من أسباب الهدايه: هو الرؤيا التى من الله خاصه.

و رؤيا الأنبياء و حى، فإنها معصومه من الشيطان، و هذا باتفاق الأمه، و لهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - بالرؤيا.

و أما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته و إلا لم يعمل بها. ا.

ص: ٩٣

١- مسلم (٢٢٦٣/٦) فى أول الرؤيا، و أحمد (٢/٢٦٩)، و قال الشيخ أحمد شاكر (٧٦٣٠): «إسناده صحيح».

٢- مسلم (٢٠٧/٤٧٩) فى الصلاه، باب: النهى عن قراءه القرآن فى الركوع و السجود، و أبو داود (٨٧٦) فى الصلاه، باب: فى الدعاء فى الركوع و السجود.

٣- البخارى (١١٥٨) فى التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى، مسلم (٢٠٧/١١٦٥) فى الصيام، باب: فضل ليله القدر، و الحث على طلبها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقه، أو تواطأت؟.

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا- تكون إلا مطابقه له، منبهه عليه، أو منبهه على اندراج قضيه خاصه فى حكمه لم يعرف الرأى اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. و من أراد أن تصدق رؤياه فليتحجر الصدق و أكل الحلال، و المحافظه على الأمر و النهى، و لينم على طهاره كامله مستقبل القبله، و يذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

و أصدق الرؤيا رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهى، و اقتراب الرحمه و المغفره، و سكون الشياطين. و عكسه رؤيا العتمه، عند انتشار الشياطين و الأرواح الشيطانيه. و قال عباده بن الصامت رضى الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام».

و للرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد فى أمثال تناسبه و تشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. و قال مالك: «الرؤيا من الوحي وحي» و زجر عن تفسيرها بلا علم. و قال:

«أ تتلاعب بوحي الله؟».

و لذكر الرؤيا و أحكامها و تفاصيلها و طرق تأويلها مظان مخصوصه بها، يخرجها ذكرها عن المقصود. و الله أعلم (١).

مسأله فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده؟

قيل: بلى، قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب منه إليه بلا- واسطه، كموسى. و منهم من كلمه على لسان رسوله الملكى، و هم الأنبياء. و كلم الله سائر الناس على ألسنه رسله، فأنزل عليهم كلامه الذى بلغته رسله عنه (٢).

ص: ٩٤

١- مدارج السالكين (٣٧/١-٥٢).

٢- مدارج السالكين (٢٦/١).

قلم التعبير: هو كاتب وحى المنام، و تفسيره، و تعبيره، و ما أريد منه، و هو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى، كاشف له، و هو من الأقلام التى تصلح للدنيا و الدين، و هو يعتمد طهاره صاحبه و نزاهته، و أمانته، و تحريه للصدق، و الطرائق الحميده، و المناهج السديده، مع علم راسخ، و صفاء باطن، و حس مؤيد بالنور الإلهى، و معرفه بأحوال الخلق و هيأتهم و سيرهم و هو من أطف الأقلام، و أعمها جولانا، و أوسعها تصرفا، و أشدها تشبثا بسائر الموجودات: علويها و سفليها، و بالماضى و الحال و المستقبل، فتصرف هذا القلم فى المنام هو محل ولايته و كرسى مملكته و سلطانه (١).

بيان إن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس و صوره الاعتقاد، بل كثير من مرأى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق، و غير المطابق.

فإن الرؤيا على ثلاثه أنواع: رؤيا من الله، و رؤيا من الشيطان، و رؤيا من حديث النفس.

و الرؤيا الصحيحه أقسام:

منها: إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد، و هو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام، كما قال عباده بن الصامت و غيره.

و منها: مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها.

و منها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله و أقاربه و أصحابه و غيرهم.

و منها: عروج روحه إلى الله سبحانه، و خطابها له.

و منها: دخول روحه إلى الجنة، و مشاهدتها، و غير ذلك. فالتقاء أرواح الأحياء و الموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحه التى هى

عند الناس من جنس المحسوسات (٢).

ص: ٩٥

١- التبيان (٢١٠/٢١١).

٢- الروح (٢١٠-٢١١).

بيان إن العبد إذا نفذ فيها (١)، و كمل اطلاعه، جاء بالعجائب. و قد شاهدنا نحن و غيرنا من ذلك أموراً عجيبة، يحكم فيها المعبر بأحكام متلازمه صادقه، سريعه و بطيئه، و يقول سامعها: هذه علم غيب. و إنما هي معرفه ما غاب من غيره بأسباب انفراد هو بعلمها، و خفيت على غيره، و الشارع صلوات الله عليه حرم من تعاطى ذلك ما مضرت راجحه على منفعتة، أو ما لا منفعة فيه، أو ما يخشى على صاحبه أن يجره إلى الشرك، و حرم بذل المال في ذلك، و حرم أخذه به، صيانته للأئمه عما يفسد عليها الإيمان أو يخدشه، بخلاف علم عباره الرؤيا، فإنه حق لا باطل، لأن الرؤيا مستنده إلى الوحي المنامي، و هي جزء من أجزاء النبوه، و لهذا كلما كان الرائي أصدق، كانت رؤياه أصدق، و كلما كان المعبر أصدق و أبر و أعلم، كان تعبيره أصح، بخلاف الكاهن و المنجم و أضرابهما ممن لهم مدد من إخوانهم من الشياطين، فإن صناعتهم لا تصح. من صادق و لا بار، و لا متقيد بالشريعة بل هم أشبه بالسحره الذين كلما كان أحدهم أكذب و أفجر، و أبعد عن الله و رسوله و دينه، كان السحر معه أقوى و أشد تأثيراً، بخلاف علم الشرع و الحق، فإن صاحبه كلما كان أبر و أصدق و أدين، كان علمه به و نفوذه فيه أقوى، و بالله التوفيق (٢).

ص: ٩٦

١- أي الرؤيا.

٢- زاد المعاد (٥/٧٨٩).

نزول القرآن الكريم

وقت نزول القرآن

لما كمل لرسول الله صلى الله عليه و سلم أربعون، أشرق عليه نور النبوه، و أكرمه الله تعالى برسالته، و بعثه إلى خلقه، و اختصه بكرامته و جعله أمينه بينه و بين عباده. و لا- خلافاً أن مبعثه صلى الله عليه و سلم كان يوم الاثنين، و اختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضمين من ربيع الأول، سنة إحدى و أربعين من عام الفيل، هذا قول الأ-كثرين. و قيل: بل كان ذلك في رمضان، و احتج هؤلاء بقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ [البقره: ١٨٥]، قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته، أنزل عليه القرآن، و على هذا ذهب جماعه، منهم يحيى الصرصرى، حيث يقول في نونيته:

و أتت عليه أربعون فأشرق شمس النبوه منه في رمضان.

و الأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحده في ليله القدر إلى بيت العزه، ثم أنزل منجماً بحسب الوقائع في ثلاث و عشرين سنة.

و قالت طائفة: أنزل فيه القرآن، أى في شأنه و تعظيمه، و فرض صومه. و قيل: كان ابتداء المبعث في شهر رمضان (١).

أول ما نزل من القرآن

و أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من أمر النبوه الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (١). قيل: و كان ذلك ستة أشهر، و مده النبوه ثلاث و عشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوه، و الله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوه، فجاءه الملك، و هو بغار حراء، و كان يحب الخلوه فيه، فأول ما أنزل عليه: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (٢) [العلق]. هذا قول عائشه و الجمهور.

ص: ٩٧

١- أخرجه البخارى (٣) في بدء الوحي، و مسلم (٢٥٢/١٦٠) في الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

٢- زاد المعاد (٧٨، ٧٧/١).

و قال جابر: أول ما أنزل عليه: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١).

و الصحيح قول عائشه لوجه:

أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإندار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً، ثم بالإندار بما قرأه ثانياً.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: أول ما أنزل من القرآن يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قول جابر، و عائشه أخبرت عن خبره صلى الله عليه و سلم عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذى احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً قبل نزول يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، فإنه قال: «فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء، فرجعت إلى أهلى فقلت: زملونى دثرونى، فأنزل الله: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، و قد أخبر أن الملك الذى جاءه بحراء أنزل عليه: إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)، فدل حديث جابر على تأخر نزول يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، و الحجة فى روايته، لا فى رأيه، و الله أعلم (١).

فصل أول ما أوحى إليه ربه تبارك و تعالى: أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، و ذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسه، و لم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) [المدثر] فنبأه بقوله: (اقرأ)، و أرسله ب (يا أيها المدثر)، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين (٢).

فصل و أقام ثلاث سنين يدعو إلى الله - سبحانه - مستخفياً، ثم نزل عليه: فَاصْبِرْ لِمَا تُؤْمَرُ وَ اعْرِضْ عَنِ الْمُنْشَرِكِينَ (٩٤) [الحجر]، فأعلن صلى الله عليه و سلم بالدعوة، و جاهر قومه بالعداوة، و اشتد الأذى عليه، و على المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرتين (٣).

ص: ٩٨

١- زاد المعاد (٨٥، ٨٤).

٢- زاد المعاد (١، ١٥٨).

٣- زاد المعاد (١، ٨٦).

مثال لأوقات النزول وقت نزول فرض الحج لما نزل فرض الحج، بآدر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الحج من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر، و أما قوله تعالى: وَ أَتَمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ [البقره: ١٩٦]، فإنها و إن نزلت سنة ست عام الحديبيه، فليس فيها فرضيه الحج، و إنما فيها الأمر بإتمامه، و إتمام العمره بعد الشروع فيهما، و ذلك لا يقتضى وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعه، أو العاشره؟ قيل: لأن صدر سوره آل عمران نزل عام الوفود، و فيه قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه و سلم، و صالحهم على أداء الجزيه، و الجزيه إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، و فيها نزل صدر (سوره آل عمران)، و ناظر أهل الكتاب، و دعاهم إلى التوحيد، و المبايله. و يدل عليه أن أهل مكه وجدوا فى نفوسهم على ما فاتهم من التجاره من المشركين لما أنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا [التوبه: ٢٨]، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزيه.

و نزول هذه الآيات و المناداه بها، إنما كان فى سنة تسع، و بعث الصديق يؤذن بذلك فى مكه فى موسم الحج، و أردفه بعلى رضى الله عنه، و هذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف، و الله أعلم (١).

وقت نزول سوره براءه [ثبت] أنه صلى الله عليه و سلم لم يأخذ من أحد من الكفار جزيه إلا- بعد نزول سوره (براءه) فى السنه الثامنه من الهجره، فلما نزلت آيه الجزيه، أخذها من المجوس، و أخذها من أهل الكتاب، و أخذها من النصارى (٢).

ص: ٩٩

١- زاد المعاد (١٠٢، ١٠١/٢).

٢- زاد المعاد (١٥١/٣).

أسباب النزول

أمثله من أسباب النزول

من سورة البقره

لما نزل التشديد في أكل مال اليتيم، عزلوا طعامهم عن طعام الأيتام و شرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى: **وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ** [البقره: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامهم و شرابهم بشرابهم (١).

من سورة آل عمران

و كان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آيه من آل عمران، أولها: **وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** [آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة (٢).

من سورة النساء

في «الصحيحين» عن عائشه رضی الله عنها في قوله: **وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** [النساء: ١٢٨]، أنزلت في المرأة تكون عند الرجل فتطول صحبتها، فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني و أمسكني، و أنت في حل من النفقه على و القسم لي، فذلك قوله: **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ** [النساء: ١٢٨] (٣) (٤).

من سورة المائد

قال ابن سعد: و في هذه الغزوه (٥) سقط عقد لعائشه، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آيه التيمم (٦).

ص: ١٠٠

١- إعلام الموقعين (٤٩٦، ٤/٤٩٥) و انظر سنن النسائي (٣٦١٠) و أحمد (٢٨٤٥).

٢- زاد المعاد (٢١١/٣).

٣- البخارى (٥٢٠٦) في النكاح، باب: **وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** [النساء: ١٢٨]، و مسلم (١٣/٣٠٢١) في أول التفسير.

٤- زاد المعاد (١٥٠/٥).

٥- أى غزوه المريسيع، و انظر الطبقات لابن سعد (٦٥/٢).

٦- المائدة: (٦) و هو المشهور في سبب نزول الآية و ذكره غير واحد من المحققين.

و ذكر الطبراني في «معجمه» من حديث محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشه قالت: و لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبي صلى الله عليه و سلم في غزاه أخرى، فسقط أيضا عقدي حتى حبس التماسه الناس، و لقيت من أبي بكر ما شاء الله، و قال لي: يا بني، في كل سفر تكونين عناء و بلاء، و ليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصه في التيمم (١). و هذا يدل على أن قصه العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوه، و هو الظاهر، و لكن فيها كانت قصه الإفك بسبب فقد العقد و التماسه، فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى، و نحن نشير إلى قصه الإفك.

و ذلك أن عائشه رضی الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه و سلم معه في هذه الغزوه بقرعه أصابتها، و كانت تلك عادته مع نساءه، فلما رجعوا من الغزوه، نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشه لحاجتها، ثم رجعت، ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هو دجها، فظنوها فيه، فحملوا اليهودج، و لا ينكرون خفته، لأنها رضی الله عنها كانت فتية السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها، و أيضا، فإن النفر لما تساعدوا على حمل اليهودج، لم ينكروا خفته، و لو كان الذي حملة واحدا أو اثنين، لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشه إلى منازلهم، و قد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع و لا - مجيب، فقعدت في المنزل، و ظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها، و الله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا - بقول صفوان بن المعطل: إنا لله و إنا إليه راجعون، ووجه رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان صفوان قد عرس في أخريات الجيش، لأنه كان كثير النوم - كما جاء عنه في الصحيح «صحيح أبي حاتم» و في «السنن» - فلما رآها عرفها، و كان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، و أناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، و ما كلمها كلمه واحده، و لم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها، و قد نزل الجيش في نحر الظهيره، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كل منهم بشاكلته و ما يليق به، و وجد الخبيث - عدو الله - ابن أبي متنفسا، فتنفس من كرب النفاق و الحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، و يستوشيه، و يشيعه، و يذيعه، و يجمعه، و يفرقه، و كان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة، أفاض أهل الإفك في الحديث، و رسول الله صلى الله عليه و سلم ساكت لا يتكلم، ثم استشار).

ص: ١٠١

أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليّ رضي الله عنه أن يفارقها، و يأخذ غيرها تلويحا لا- تصرّحا، و أشار عليه أسامه و غيره بإمساكها، و ألا- يلتفت إلى كلام الأعداء فعليّ لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك و الريه إلى اليقين لتخلص رسول الله صلى الله عليه و سلم من الهم و الغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء، و أسامه لما علم حب رسول الله صلى الله عليه و سلم لها و لأبيها، و علم من عفتها و براءتها، و حصانتها و ديانتها ما هي فوق ذلك، و أعظم منه، و عرف من كرامه رسول الله صلى الله عليه و سلم على ربه و منزلته عنده، و دفاعه عنه، أنه لا يجعل ربه بيته و حبيته من النساء، و بنت صديقه بالمنزله التي أنزلها بها أرباب الإفك، و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أكرم على ربه، و أعز عليه من أن يجعل تحته امرأه بغيا، و علم أن الصديقه حبيبه رسول الله صلى الله عليه و سلم أكرم على ربه أن يبتليها بالفاحشه، و هي تحت رسوله، و من قويت معرفته لله و معرفته لرسوله و قدره عند الله في قلبه، قال كما قال أبو أيوب و غيره من سادات الصحابه، لما سمعوا ذلك: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ [النور: ١٦].

و تأمل ما في تسبيحهم لله، و تنزيههم لهم في هذا المقام من المعرفه به، و تنزيهه عما لا يليق به، أن يجعل لرسوله و خليله و أكرم الخلق عليه امرأه حبيته بغيا، فمن ظن به سبحانه هذا الظن، فقد ظن به ظن السوء، و عرف أهل المعرفه بالله و رسوله أن المرأه الخبيثه لا- تليق إلا- بمثلها، كما قال تعالى: أَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ [النور: ٢٦]، فقطعوا قطعا لا- يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم، و فريه ظاهره.

فإن قيل: فما بال رسول الله صلى الله عليه و سلم توقف في أمرها، و سأل عنها، و بحث، و استشار، و هو أعرف بالله، و بمنزلته عنده، و بما يليق به، و هلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابه؟

فالجواب أن هذا من تمام الحكم الباهره التي جعل الله هذه القصة سببها لها، و امتحانا و ابتلاء لرسوله صلى الله عليه و سلم، و لجميع الأمم إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواما، و يضع بها آخرين، و يزيد الله الذين اهتدوا هدى و إيمانا، و لا- يزيد الظالمين إلا- خسارا، و اقتضى تمام الامتحان و الابتلاء أن حبس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم الوحي شهرا في شأنها، لا يوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها و قضاهها، و تظهر على أكمل الوجوه، و يزداد المؤمنون الصادقون إيمانا و ثباتا على العدل و الصدق، و حسن الظن بالله و رسوله، و أهل بيته، و الصديقين من عباده، و يزداد المنافقون إفكا و نفاقا، و يظهر لرسوله و للمؤمنين سرائرهم، و تتم العبوديه المراده من الصديقه و أوبئها، و تتم نعمه الله عليهم، و لتشتد الفاقه و الرغبه منها

و من أبويها، و الافتقار إلى الله و الذلّ له، و حسن الظن به، و الرجاء له، و لينقطع رجاؤها من المخلوقين، و تياس من حصول النصره و الفرج على يد أحد من الخلق، و لهذا و فت هذا المقام حقه، لما قال لها أبوها: قومي إليه، و قد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: و الله لا أقوم إليه، و لا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

أيضا: فكان من حكمه حبس الوحي شهرا، أن القضية محصت و تمحضت، و استشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، و تطلعت إلى ذلك غايه التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أهل بيته، و الصديق و أهله، و أصحابه و المؤمنون، فورد عليهم و رود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع و أطفه، و سروا به أتم السرور، و حصل لهم به غايه الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقه الحال من أول وهله، و أنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم و أضعافها بل أضعاف أضعافها.

و أيضا: فإن الله - سبحانه - أحب أن يظهر منزله رسوله و أهل بيته عنده، و كرامتهم عليه، و أن يخرج رسوله عن هذه القضية، و يتولى هو بنفسه الدفاع و المنافحه عنه، و الرد على أعدائه، و ذمهم و عيبهم بأمر لا يكون فيه عمل، و لا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولى لذلك، الثائر لرسوله و أهل بيته.

و أيضا، فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان هو المقصود بالأذى، و التي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، و لم يظن بها سوءا قط، و حاشاه، و حاشاها، و لذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي، و الله ما علمت على أهلي إلا خيرا، و لقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، و ما كان يدخل على أهلي إلا معي» (1)، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءه الصديقه أكثر مما عند المؤمنين، و لكن لكمال صبره و ثباته، و رفقته، و حسن ظنه بربه، و ثقته به، و في مقام الصبر و الثبات، و حسن الظن بالله حقه، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه، و سرّ قلبه، و عظم قدره، و ظهر لأمته احتفال ربه به، و اعتناؤه بشأنه.

و لما جاء الوحي ببراءتها، أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بمن صرح بالإفك، فحدوا ثمانين ثمانين.

ص: ١٠٣

١- البخارى (٤١٤١) فى المغازى، باب: حديث الإفك، و مسلم (٥٦/٢٧٧٠) فى التوبه، باب: فى حديث الإفك و قبول توبه القاذف.

و لم يحد الخبيث عبد الله بن أبي، مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها و كفاره، و الخبيث ليس أهلاً لذلك، و قد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فكيفه ذلك عن الحد، و قيل: بل كان يستوشى الحديث و يجمعه و يحيكه، و يخرج في قلب من لا ينسب إليه، و قيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار، أو بالبينة، و هو لم يقر بالقذف، و لا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، و لم يشهدوا عليه، و لم يكن يذكره بين المؤمنين (١).

قد ثبت في صحيح مسلم: أن النبي صلى الله عليه و سلم بعث أناساً لطلب قواده أضلتها عائشه، فحضرت الصلاة، فصلوا بغير وضوء، فأتوا النبي صلى الله عليه و سلم فذكروا ذلك له، فنزلت آية التيمم (٢)(٣).

من سورة المائدة

و عن طرق ابن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، آيه تقرأونها في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت و نعلم ذلك اليوم الذى نزلت فيه، لا تخذناه عيداً. قال: أى آيه؟ قال: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: ٣]. فقال عمر بن الخطاب: إني لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، و المكان الذى نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم بعرفه يوم الجمعة، و نحن واقفون معه بعرفه (٤)(٥).

من سورة الأنعام

لما علم بعض علماء أهل الكتاب أن الإيمان بموسى لا يتم مع التكذيب بمحمد أبداً، كفر بالجميع، و قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، كما قال تعالى: وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) [الأنعام]، قال سعيد بن جبیر: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف

ص: ١٠٤

١- زاد المعاد (٣/٢٥٨).

٢- مسلم (١٠٩/٣٦٧) في الحيض، باب: التيمم.

٣- تهذيب السنن (١/٤٨).

٤- رواه البخارى (٤٣) في الإيمان، و مسلم (٥٣٣٢) في التفسير.

٥- زاد المعاد (١/٦٢).

يخاصم النبي صلى الله عليه و سلم، فقال له النبي صلى الله عليه و سلم: «أنشدك بالذى أنزل التوراه على موسى، أما تجد في التوراه أن الله يبغض الحبر السمين؟» (١) و كان حبرا سمينا، فغضب عدو الله و قال: و الله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك و لا موسى؟ فقال: و الله ما أنزل الله على بشر من شيء. فأنزل الله عز و جل: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ الْآيَةِ [النساء: ١٥٣] (٢).

و جاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك و لا- على موسى و لا- على عيسى و لا على أحد شيئا، ما أنزل على بشر من شيء، فحل رسول الله صلى الله عليه و سلم حوته، و جعل يقول: «و لا على أحد» (٣).

و ذهب جماعه-منهم مجاهد-إلى أن الآيه نزلت في مشركى قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرساله، و كذبوا بالرسول، و أما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوه موسى و عيسى.

و هذا اختيار ابن جرير، قال: و هو أولى الأقاويل بالصواب، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود، و لم يجز لهم ذكر يكون هذا به متصلا، مع ما في الخبر عن من أخبر الله عنه من هذه الآيه من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئا من الكتب، و ليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم، و موسى، و زبور داود، و الخبر من أول السوره إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبده الأوثان، و قوله: وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَوْصُولٌ بِهِ غَيْرُ مَفْصُولٌ عَنْهُ، قلت:

و يقوى قوله أن السوره مكيه، فهى خبر عن زنادقه العرب المنكرين لأصل النبوه (٤).

من سوره إبراهيم

قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْمَآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم] قد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأله: «من ربك و ما دينك و من نبيك؟» (٥).

و في الصحيح عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «إن العبد إذا وضع في قبره

ص: ١٠٥

١- ابن جرير (١٧٧/٧)، و الدر المنثور (٢٩/٣).

٢- تفسير ابن جرير (٦/٦)، و الدر المنثور (٢٣٨/٢).

٣- ابن جرير (١٧٧/٧).

٤- هدايه الحيارى (٢٧٧، ٢٧٦).

٥- البخارى (١٢٨٠) في الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، و مسلم (٥١١٧) في الجنة و صفه نعيم أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

و تولى عنه أصحابه، إنه لسمع قرع نعالهم» (١)، و ذكر الحديث. زاد البخارى: «و أما المنافق و الكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت و لا تليت، و يضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحه يسمعا من يليه إلا الثقلين». هكذا فى البخارى: «و أما المنافق و الكافر» بالواو. و قد تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه ابن ماجه و الإمام أحمد: كنا فى جنازه مع النبى صلى الله عليه و سلم فقال: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تتلى فى قبورها، فإذا الإنسان دفن و تولى عنه أصحابه جاء ملك و فى يده مطراق فأقعدته فقال: ما تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله. فيقول له: صدقت، فيفتح له باب إلى النار، فيقول: هذا منزلك لو كفرت بربك، و أما الكافر و المنافق فيقول له: ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول لا أدري، فيقال: لا دريت و لا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعه يسمعه خلق الله إلا الثقلين». فقال بعض الصحابة:

يا رسول الله، ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا- هيل عند ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يَبْتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَ يُفَعِّلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم] (٢).

و فى حديث البراء بن عازب الطويل: «و أما الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة و انقطع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح»، و ذكر الحديث إلى أن قال: «ثم تعاد روحه فى جسده فى قبره»، و ذكر الحديث، و فى لفظ: «فإذا كان كافرا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه». فذكر الحديث إلى قوله: «ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان: بأسوا أسمائه، فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه، قال: يرمى به من السماء، ثم قرأ قوله تعالى: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [الحج]. قال: «فتعاد روحه فى جسده و يأتيه ملكان شديدا الانتهاز، فيجلسانه و ينتهرانه، فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه، لا- أدري. فيقولان: لا- دريت، فيقولان: ما هذا النبى الذى بعث فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون ذلك، لا أدري. فيقولان له: لا دريت».

ص: ١٠٦

١- البخارى (١٢٥٢) فى الجنائز، و مسلم (٥١١٢) فى الجنة و صفه نعيم أهلها.

٢- رواه الإمام أحمد (٣٣٦٧)، و قال الهيثمى فى المجمع (٥٠/٣): «رجاله رجال الصحيح».

و ذلك قوله تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم] و ذكر الحديث (١)(٢).

من سورة الأحزاب

و قد ثبت في «صحيح مسلم»: عن عائشه رضی اللہ عنہا قالت: جاءت سهله بنت سهيل إلى النبي صلى اللہ عليه و سلم، فقالت: يا رسول اللہ، إنى أرى فى وجه أبى حذيفه من دخول سالم و هو حليفه، فقال النبي صلى اللہ عليه و سلم: «أرضعيه تحرمى عليه» (٣).

و فى روايه له عنها قالت: جاءت سهله بنت سهيل إلى رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم، فقالت: يا رسول اللہ، إنى أرى فى وجه أبى حذيفه من دخول سالم و هو حليفه، فقال النبي صلى اللہ عليه و سلم: «أرضعيه»، فقالت: و كيف أرضعه و هو رجل كبير؟ فتبسم رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم، و قال: «قد علمت أنه كبير» (٤).

و فى لفظ لمسلم: أن أم سلمه رضی اللہ عنہا قالت لعائشه رضی اللہ عنہا: إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذى ما أحب أن يدخل على، فقالت عائشه رضی اللہ عنہا: أما لك فى رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم أسوه؟ إن امرأه أبى حذيفه قالت: يا رسول اللہ، إن سالما يدخل على و هو رجل، و فى نفس أبى حذيفه منه شىء، فقال رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم: «أرضعيه حتى يدخل عليك» (٥).

و ساقه أبو داود فى سننه (٦) سياقه تامه مطوله، فرواه من حديث الزهرى، عن عروه، عن عائشه و أم سلمه رضی اللہ عنہما أن أبا حذيفه بن عتبه بن ربيعه بن عبد شمس كان تبنى سالما، و أنكحه ابنه أخيه هند بن الوليد بن عتبه، و هو مولى لامرأه من الأنصار، كما تبنى رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم زيدا، و كان تبنى رجلا فى الجاهليه دعاه الناس إليه، و ورث ميراثه، حتى أنزل اللہ تعالى مع ذلك: أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ [الأحزاب: ٥]، فردوا إلى آبائهم فمن لم يعلم له أب كان مولى و أخا فى الدين، فجاءت سهله بنت سهيل بن عمرو القرشى، ثم العامرى - و هى امرأه أبى حذيفه - فقالت: يا رسول اللہ:

إنا كنا نرى سالما ولدا، و كان يأوى معى و مع أبى حذيفه فى بيت واحد، و يرانى فضلا،

ص: ١٠٧

١- رواه أحمد (٢٨٧/٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (٥٣/٣): «رجاله رجال الصحيح» و راجع أحكام الجنائز للألبانى (١٥٦).

٢- الروح (٨٤، ٨٥).

٣- مسلم (٢٩-٢٦/١٤٥٣) فى الرضاع، باب: رضاعه الكبير.

٤- السابق.

٥- مسلم (٢٩/١٤٥٣) فى الرضاع، باب: رضاعه الكبير.

٦- أبو داود (٢٠٦١) فى النكاح، باب: فيمن حرم به.

وقد أنزل الله تعالى فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرضعيه» فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزله ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشه رضيت الله عنها تأمر بنات إخوتها، وبنات أخواتها أن يرضعن من أحببت عائشه رضيت الله عنها أن يراها ويدخل عليها، وإن كان كبيراً، خمس رضعات، ثم يدخل عليها، وأبت ذلك أم سلمه و سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخلن عليهن أحداً بتلك الرضاعة من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشه: والله ما ندرى لعلها كانت رخصه من النبي صلى الله عليه وسلم لسالم دون الناس (١).

المعوذتين

قال ابن عباس وعائشه: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدنا إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطه رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعده أسنان من مشطه فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وتولى ذلك ليبيد بن الأعصم - رجل من اليهود - فنزلت هاتان السورتان فيه (٢).

قال البغوي: وقيل كانت مغرزه بالدبر، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين، وهما أحد عشر آية: سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقده، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من عقال. قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاثه أيام، فنزلت المعوذتان (٣).

ما نزل من القرآن بموافقه عمر رضي الله عنه قد كان أحدهم (٤) يرى الرأي، فينزل القرآن بموافقه، كما رأى عمر في أسرى بدر أن تضرب أعناقهم، فنزل القرآن بموافقه، ورأى أن تحجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقه، ورأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فنزل القرآن بموافقه، وقال لنساء النبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن في الغيره عليه: عسى ربُّه إن طلقكُنَّ أن يُبدلَهُ أزواجاً خيراً منكُنَّ مُسَلِّماتٍ مُؤْمِناتٍ [التحریم: ٥]، فنزل القرآن بموافقه، ولما توفي عبد الله بن أبي قحافه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه، فقام عمر، فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله، إنه منافق. فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم،

ص: ١٠٨

١- مسلم (٢٩/١٤٥٣) في الرضاع، باب: رضاعه الكبير.

٢- ذكره ابن كثير مطولاً - في تفسيره عن الثعلبي، وقال ابن كثير: هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابه، وفي بعض نكاهه شديده... تفسير ابن كثير (٥٣٨/٨) لكن قصه سحره صلى الله عليه وسلم ثابتة صحيحة، في البخاري وغيره، كما سيأتي.

٣- بدائع الفوائد (٢/٢٢٤).

٤- أي الصحابه رضي الله عنهم.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ [التوبه: ٨٤] (١)(٢).

و كذلك: من فراسته التي تفرد بها عن الأمة أنه قال: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [البقره: ١٢٥]

و قال: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجن؟ فنزلت آيه الحجاب.

و اجتمع على رسول الله صلى الله عليه و سلم نساؤه في الغيره، فقال لهن عمر: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك.

و شاوره رسول الله صلى الله عليه و سلم، في أسارى يوم بدر، فأشار بقتلهم، و نزل القرآن بموافقتة (٣).

ص: ١٠٩

١- البخارى (١٣٦٦) فى الجنائز، باب: ما يكره من الصلاه على المنافقين، و الترمذى (٣٠٩٧) فى تفسير القرآن، باب: و من سوره التوبه، و النسائى (١٩٦٦) فى الجنائز، باب: الصلاه على المنافقين.

٢- إعلام الموقعين (١/١٢٠).

٣- الطرق الحكيمه (٣٣).

عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأنعام: ١٢١]

هذا الحديث له علة:

إحداهما: أن عطاء بن السائب اضطرب فيه، فمره وصله، و مره أرسله.

الثانية: أن عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره، و اختلف في الاحتجاج بحديثه، و إنما أخرج له البخارى مقرونا بأبى بشر.

الثالثة: أن فيه عمران بن عيينه، أخو سفيان بن عيينه، قال أبو حاتم الرازى: لا يحتج بحديثه فإنه يأتى بالمناكير.

الرابعة: أن سورة الأنعام مكيه باتفاق، و مجيء اليهود إلى صلى الله عليه وسلم و مجادلتهم إياه إنما كان بعد قدومه المدينة، و أما مكة فإنما كان جداله مع المشركين عباد الأصنام (١).

و منها: قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) [يس].

قال أنس و ابن عباس فى روايه عكرمه: نزلت فى بنى سلمه، أرادوا أن ينتقلوا إلى اقرب المسجد، و كانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا.

و احتج أرباب هذا القول بما فى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى، قال:

كانت بنو سلمه فى ناحيه المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ [يس: ١٢].

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بنى سلمه دياركم تكتب آثاركم» (٢) و قد روى مسلم فى

ص: ١١٠

١- تهذيب السنن (١١٣/٤).

٢- صحيح الترمذى (٣٤٥٦) فى تفسير القرآن، باب: و من سورة يس، و قال: «حسن غريب»، و ابن ماجه (٧٨٥).

صحيحه نحوه من حديث جابر و أنس (١).

و فى هذا القول نظر، فإن سورة يس مكيه، وقصه بنى سلمه بالمدينه، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنيه (٢)، و أحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة و دلت عليها و ذكروا بها عندها، إما من النبى صلى الله عليه و سلم و إما من جبريل فأطلق على ذلك النزول.

و لعل هذا مراد من قال فى نظائر ذلك: نزلت مرتين. و المقصود أن خطاهم إلى المسجد من آثارهم التى يكتبها الله لهم. قال عمر بن الخطاب: لو كان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. و قال مسروق: ما خطا رجل خطوه إلا كتبت له حسنه أو سيئه (٣).

و كذلك و أما قوله: إنه صلى الله عليه و سلم كتب إلى نجران: باسم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب فلا أظن ذلك محفوظاً، و قد كتب إلى هرقل «بسم الله الرحمن الرحيم»، و هذه كانت سنته فى كتبه إلى الملوك، و قد وقع فى هذه الروايه هذا، و قال ذلك قبل أن ينزل عليه: طس تلك آيات القرآن و كتاب مبين (١) [النمل]. و ذلك غلط على غلط، فإن هذه السوره مكيه باتفاق (٤).

فصل

مثال المدنى

فلما استقر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينه، و أيدته الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، و ألف بين قلوبهم بعد العداوه و الإحن التى كانت بينهم، فمنعته أنصار الله و كتبه الإسلام من الأسود و الأحمر، و بذلوا نفوسهم دونه، و قدموا محبته على محبه الآباء و الأبناء و الأزواج، و كان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب و اليهود عن قوس واحده. و شمروا لهم عن ساق العداوه و المحاربه، و صاحوا بهم من كل جانب، و الله سبحانه يأمرهم بالصبر و العفو و الصفح حتى قويت الشوكه، و اشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ فى القتال، و لم يفرضه عليهم، فقال تعالى: أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) [الحج].

ص: ١١١

١- مسلم (٢٨٠/٦٦٥) فى المساجد و مواضع الصلاه، باب: فضل كثره الخطا إلى المساجد.

٢- قال القرطبي: «هى مكيه بإجماع، إلا أن فرقه قالت: إن قول الله تعالى: وَ نَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارُهُمْ مدنيه، (٥٤٤٥/٦) و انظر بدائع التفسير (٤٦٧/٣).

٣- شفاء العليل (١١٧/١١٦/١).

٤- زاد المعاد (٦٤٢/٣).

و قد قالت طائفه: إن هذا الإذن كان بمكه، و السوره مكيه (١).

و هذا غلط لوجوه: أحدها: أن الله لم يأذن بمكه لهم فى القتال، و لا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكه.

الثانى: أن سياق الآيه يدل على أن الإذن بعد الهجره، و إخراجهم من ديارهم، فإنه قال: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ [الحج: ٤٠]، و هؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: هَذَانِ خَضَمَانٍ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ [الحج: ١٩]. نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم فى آخرها بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، و الخطاب بذلك كله مدنى، فأما الخطاب: يَا أَيُّهَا النَّاسُ فمشارك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد، و غيره. و لا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجره، فأما جهاد الحجه، فأمر به فى مكه بقوله: فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ أَى: بِالْقُرْآنِ جِهَاداً كَبِيراً [الفرقان: ٥٢]، فهذه سوره مكيه، و الجهاد فيها هو التبليغ، و جهاد الحجه، و أما الجهاد المأمور به فى سوره الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى فى «مستدركه» (٢) من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من مكه، قال أبو بكر:

أخرجوا نبيهم، إنا لله و إنا إليه راجعون، ليهلكن، فأنزل الله عز و جل: أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا [الحج: ٣٩]، و هى أول آيه نزلت فى القتال. و إسناده على شرط «الصحيحين»، و سياق السوره يدل على أن فيها المكى و المدنى، فإن قصه إلقاء الشيطان فى أمنيته الرسول مكيه، و الله أعلم (٣).

ص: ١١٢

١- قال القرطبى رحمه الله تعالى: «و هى مكيه سوى ثلاث آيات: من قوله تعالى: هَذَانِ خَضَمَانٍ إِلَى تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتِ [الحج: ١٩]- [٢١]، قاله ابن عباس و مجاهد. و عن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله تعالى: عَذَابَ الْحَرِيقِ [الحج: ٢٤]. و قال ابن عباس و الضحاك أيضا هى مدنيه- و قاله قتاده أيضا - إلا أربع آيات: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَى قَوْلِهِ: عَذَابُ يَوْمِ عَقِيمٍ فهن مكيات. و عد النقاش ما نزل بالمدينه عشر آيات و قال الجمهور السوره مختلطه، منها مكى و منها مدنى و هذا هو الأرجح؛ لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن يا أَيُّهَا النَّاسُ مكيه، و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مدنيه. أ.ه. تفسير القرطبى (٤٣٩٣/٥). انظر كتابى: بدائع التفسير (٢١١/٣).

٢- الحاكم فى المستدرك (٧/٣)، و قال: «صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه».

٣- زاد المعاد (٧١، ٧٠/١).

كتاب الوحي للنبي صلى الله عليه و سلم: أبو بكر، و عمر، و عثمان، و علي، و الزبير، و عامر بن فهيره، و عمرو بن العاص، و أبي بن كعب، و عبد الله بن الأرقم، و ثابت بن قيس بن شماس، و حنظله بن الربيع الأسيدي، و المغيره بن شعبه، و عبد الله بن رواحه، و خالد بن الوليد، و خالد بن سعيد بن العاص، و قيل: إنه أول من كتب له، و معاويه بن أبي سفيان، و زيد بن ثابت، و كان ألزمهم لهذا الشأن، و أخصهم به (١).

جمع عثمان رضى الله عنه الناس على مصحف واحد

جمع عثمان رضى الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التى أطلق لها رسول الله صلى الله عليه و سلم القراءة بها لما كان ذلك مصلحه، فلما خاف الصحابه رضى الله عنهم على الأمه أن يختلفوا فى القرآن و رأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم و أبعد من وقوع الاختلاف، ففعلوا ذلك، و منعوا الناس من القراءة بغيره (٢).

فائده جمع عثمان رضى الله عنه الأمه على حرف واحد من الأحرف السبعة، لئلا يكون اختلافهم فيها ذريعه إلى اختلافهم فى القرآن، و وافقه على ذلك الصحابه رضى الله عنهم (٣).

تحريق عثمان رضى الله عنه المصاحف

و جمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعيه

قال ابن عقيل فى «الفنون»: جرى فى جواز العمل فى السلطنه بالسياسه الشرعيه: أنه هو الحزم، و لا يخلو من القول به إمام.

١- زاد المعاد (١/١١٧).

٢- الطرق الحكميه (٢١).

٣- إغاثه اللهفان (١/٣٦٨).

فقال الشافعي: لا سياسه إلا ما وافق الشرع.

فقال ابن عقيل: السياسه ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، و أبعد عن الفساد، و إن لم يضعه الرسول صلى الله عليه و سلم و لا نزل به وحى.

فإن أردت بقولك: «إلا ما وافق الشرع» أى: لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح.

و إن أردت: لا سياسه إلا ما نطق به الشرع، فغلط و تغليط للصحابه.

فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل و التمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن.

و لو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف، فإنه كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحه الأمه (1).

ص: ١١٤

١- الطرق الحكيمه (١٤،١٥).

القراءة بالأحرف السبعة وغيرها

لا يجب على الإنسان التقييد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق، بل إذا وافقت القراءة رسم المصحف الإمام، وصحت في العرييه، و صح سندها، جازت القراءة بها و صحت الصلاة بها اتفاقاً، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان و قد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابه بعده جازت القراءة بها و لم تبطل بها، على أصح الأقوال (١).

الجمع بين القراءات

و كذلك (٢): أن صاحبها ينبغي أن يستحب للمصلى و التالى أن يجمع بين القراءات المتنوعه فى التلاوه فى الصلاة و خارجها، قالوا: و معلوم أن المسلمين متفقون على أنه لا يستحب ذلك للقارئ فى الصلاة و لا خارجها إذا قرأ قراءة عباده و تدبر، و إنما يفعل ذلك القراء أحياناً ليمتحن بذلك حفظ القارئ لأنواع القراءات، و إحاطته بها و استحضاره إياها، و التمكن من استحضارها عند طلبها، فذلك تمرين و تدريب لا تعبد مستحب لكل تال و قارئ، و مع هذا ففى ذلك للناس كلام ليس هذا موضعه، بل المشروع فى حق التالى أن يقرأ بأى حرف شاء، و إن شاء أن يقرأ بهذا مره و بهذا مره جاز ذلك، و كذلك الداعى إذا قال: «ظلمت نفسى ظلماً كثيراً» مره، و مره قال «كبيراً» جاز ذلك. و كذلك الداعى إذا صلى على النبى صلى الله عليه و سلم مره بلفظ هذا الحديث، و مره بلفظ الآخر، و كذلك إذا تشهد، فإن شاء تشهد بتشهد ابن مسعود، و إن شاء بتشهد ابن عباس، و إن شاء بتشهد ابن عمر، و إن شاء بتشهد عائشه رضى الله عنهم أجمعين. و كذلك فى الاستفتاح إن شاء استفتح بحديث على، و إن شاء بحديث أبى هريره، و إن شاء باستفتاح عمر، و إن شاء فعل هذا مره و هذا مره و هذا مره، و كذلك إذا رفع رأسه من الركوع إن شاء قال: «اللهم ربنا لك الحمد»، و إن شاء قال: «ربنا لك الحمد»، و إن شاء قال: «ربنا و لك الحمد». و لا يستحب لأحد أن يجمع بين ذلك كله.

ص: ١١٥

١- إعلام الموقعين (٣٢٧/٤).

٢- فى الرد على بعض المتأخرين من القائلين باستحباب الجمع بين القراءات.

وقد احتج غير واحد من الأئمة، منهم الشافعي -رحمه الله تعالى- على جواز الأنواع المأثوره في التشهدات و نحوها بالحديث الذي رواه أصحاب الصحيح و السنن و غيرهم عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» (١). فجوز النبي صلى الله عليه و سلم القراءه بكل حرف من تلك الأحرف، و أخبر أنه شاف كاف، و معلوم أن المشروع في ذلك أن يقرأ بتلك الأحرف على سبيل البدل لا على سبيل الجمع، كما كان الصحابه يفعلون (٢).

النهى عن التنطع و الغلو في النطق بالحرف

قال محمد بن قتيبه في «مشكل القرآن»: «و قد كان الناس يقرءون القرآن بلغاتهم، ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار و أبناء العجم ليس لهم طبع اللغه، و لا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف. و زلوا فأخلوا، و منهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، و قربه من القلوب بالدين. فلم أر فيمن تتبعت في وجوه قراءته أكثر تخليطاً و لا -أشد اضطراباً منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره. ثم يؤصل أصلاً و يخالف إلى غيره بغير علمه، و يختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيله الضعيفه، هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب و أهل الحجاز، بإفراطه في المد و الهمز و الإشباع، و إفحاشه في الإضجاع و الإدغام، و حمله المتعلمين على المذهب الصعب، و تعسيره على الأمة ما يسره الله تعالى، و توضيقه ما فسحه.

و من العجب أنه يقرئ الناس بهذه المذاهب، و يكره الصلاه بها. ففي أى موضع يستعمل هذه القراءه، إن كانت الصلاه لا تجوز بها؟ و كان ابن عيينه يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه، أو ائتم بإمام يقرأ بقراءته أن يعيد، و وافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين، منهم بشر بن الحارث، و الإمام أحمد بن حنبل، و قد شغف بقراءته عوام الناس و سوقتهم. و ليس ذلك إلا لما يرونه من مشقتها و صعوبتها، و طول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها. فإذا رأوه قد اختلف في أم الكتاب عشرًا، و في مائه آيه شهرًا، و في السبع الطوال حولًا، و رأوه عند قراءته مائل الشدقين، دار الوريدين، راسح الجبين، توهموا أن ذلك لفضله في القراءه و حذقه بها» (٣).

ص: ١١٦

- ١- البخارى (٤٩٩٢) في فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف، و مسلم (٢٧٠/٨١٨) في المسافرين، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، و بيان معناه.
- ٢- جلاء الأفهام (١٩٠-١٩١).
- ٣- تأويل مشكل القرآن (٥٩-٦٠) و أشار محققه إلى أنه يقصد حمزه بن حبيب الزيات، و قد قال الذهبي: الإمام القدوه شيخ القراءه، قال الثورى: ما قرأ حمزه حرفاً إلا بأثر، السير (٩١/٧).

و ليس هكذا كانت قراءه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا- خيار السلف و لا التابعين، و لا القراء العالمين، بل كانت سهله رسله.

و قال الخليل في «الجامع» عن أبي عبد الله، أنه قال: لا- أحب قراءه فلان، يعنى هذا الذى أشار إليه ابن قتيبه، و كرهها كراهيه شديده، و جعل يعجب من قراءته، و قال: لا يعجبني، فإن كان رجل يقبل منك فانها.

و حكى عن ابن المبارك، عن الربيع بن أنس، أنه نهاه عنها.

و قال الفضل بن زياد: إن رجلا قال لأبي عبد الله: فما أترك من قراءته؟ قال: الإدغام و الكسر، ليس يعرف فى لغه من لغات العرب.

و سأله عبد الله- ابنه- عنها، فقال: أكره الكسر الشديد و الإضجاع.

و قال فى موضع آخر: إن لم يدغم و لم يضحج ذلك الإضجاع فلا بأس به.

و سأله الحسن بن محمد بن الحارث: أكره أن يتعلم الرجل تلك القراءه؟ قال: أكرهه أشد كراهه، إنما هى قراءه محدثه، و كرهها شديدا حتى غضب.

و روى عنه ابن سنيد أنه سئل عنها، فقال: أكرهها أشد الكراهه. قيل له: ما تكره منها؟ قال: هى قراءه محدثه، ما قرأ بها أحد.

و روى جعفر بن محمد عنه أنه سئل عنها فكرهها، و قال: كرهها ابن إدريس و أراه قال:

و عبد الرحمن بن مهدي. و قال: ما أدري إيش هذه القراءه؟ ثم قال: و قراءتهم ليست تشبه كلام العرب.

و قال عبد الرحمن بن مهدي: لو صليت خلف من يقرأ بها لأعدت الصلاة.

و نص أحمد- رحمه الله- على أنه يعيد، و عنه روايه أخرى: أنه لا يعيد.

و المقصود: أن الأئمه كرهوا التنطع و الغلو فى النطق بالحرف.

و من تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله و سلم، و إقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع و التشدق و الوسوسه فى إخراج الحروف ليس من سنته (1).

مثال للقراءات

قال الله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا [الفرقان: ١٨].

و فيها قراءتان: أشهرهما: (تتخذ) بفتح النون و كسر الخاء، على البناء للفاعل، و هي قراءه السبعه.

و الثانيه: (تتخذ) بضم النون و فتح الخاء، على البناء للمفعول و هي قراءه الحسن و يزيد بن القعقاع.

و على كل واحده من القراءتين إشكال (١):

فأما قراءه الجمهور، فإن الله - سبحانه - إنما سألهم: هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم و أهوائهم؟ و كيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني أولياء، حتى يقولوا: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء [الفرقان: ١٨]، و إنما سألهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك، أم هم أشركوا من قبل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، و إنما هم آثروه و ارتضوه، أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما قال في الآية الأخرى عنها: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ [القصص: ٦٣].

فلما رأى أصحاب القراءه الأخرى ذلك فروا إلى بناء الفعل للمفعول. و قالوا: الجواب يصح على ذلك، و يطابق. إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نعبد و نتخذ آلهه فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، و لا يحسن منا؟

و لكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، و هو قوله: مِنْ أَوْلِيَاءَ، فإن زياده «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل، و ما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي وارداً على شيء مخصوص، فإنه لا يحسن زياده «من» فيه، و هم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوى المشركين: أنهم أمرهم بالشرك، فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا - تحسن منهم، و لا - يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا؟ فكان الجواب على هذا: أن تقرأ: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ أولياء من دونك، أو من دونك أولياء.

فأجاب أصحاب القراءه الأولى بوجه:

أحدها: أن المعنى: ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، و نتخذ غيرك ولياً و معبوداً.

ص: ١١٨

١- انظر المحتسب لابن جنى (١١٩/٢-١٢٠) و بدائع التفسير (٢٨٥/٣).

فكيف ندعو أحدا إلى عبادتنا؟ أى إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عباده غير الله تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ وهذا جواب القراء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدرج يصير جوابا للسؤال الظاهر، وهو أن من عبد شيئا فقد تولاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليا للعابد. يدل على هذا قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ [سبأ: ٤١، ٤٠] فدل على أن العابد يصير وليا للمعبود.

و يصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغى لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، وأن نتخذ من دونك وليا يعبدنا، وهذا بسط لقول ابن عباس فى هذه الآية.

قال: يقولون: ما توليناهم، ولا- أحببنا عبادتهم. قال: ويحتمل أن يكون قولهم: ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء [الفرقان: ١٨] أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم. أى نحن و هم عبيدك، ولا ينبغى لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء. ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرا: ما كان ينبغى لى أن أفعل مثل هذا، أى أنت مثلى عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلى أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ: (تتخذ) بضم النون: وهذه القراءه أقرب فى التأويل.

لكن قال الزجاج: هذه القراءه خطأ، لأنك تقول: ما اتخذت من أحد وليا، ولا يجوز: ما اتخذت أحدا من ولى، لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفى واحدا من معنى جميع.

تقول: ما من أحد قائما، و ما من رجل محبا لما يضره، و لا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

قال: و لا وجه عندنا لهذا البته، و لو جاز هذا لجاز فى: فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) [الحاقه]: ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحت هذه القراءه.

قال صاحب النظم: العله فى سقوط هذه القراءه: أن «من» لا- تدخل إلا- على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من»، كقوله: ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه [مريم: ٣٥]، فقوله من ولد لا مفعول دونه سواه، و لو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من» لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد.

و صحح آخرون هذه القراءه لفظا و معنى، و أجروها على قواعد العربيه.

قالوا: و قد قرأ بها من لا- يرتاب فى فصاحته، فقرأ بها زيد بن ثابت، و أبو الدرداء، و أبو جعفر، و مجاهد، و نصر بن علقمه، و مكحول، و زيد بن على، و أبو رجاء، و الحسن،

و حفص بن حميد، و محمد بن علي، علي خلاف عن بعض هؤلاء. ذكر ذلك أبو الفتح ابن جني. ثم وجهها بأن يكون «من أولياء» في موضع الحال، أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. و دخلت «من» زائده لمكان النفي. كقولك: اتخذت زيدا وكيلا، فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدا من وكيلا. و كذلك أعطيته درهما.

و ما أعطيته من درهم. و هذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول.

و نظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك متاقلا، فإذا أكدت، قلت: من متاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظا و معنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءه الجمهور أحسن و أبلغ في المعنى المقصود، و البراءه مما لا- يليق بهم، فإنهم على قراءه الضمّ: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، و على قراءه الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، و لا يحسن منهم أن يتخذوا وليا من دونه، بل أنت وحدك و لنا و معبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ و هذا المعنى أجل من الأول و أكبر، فتأمل.

و المقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، و من عبد من دون الله من أوليائه، و أما كونه من الأصنام فليس بظاهر (١).

ص: ١٢٠

دلالات فواتح السور و عظم شأنها

قوله تعالى: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) [القلم]: الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب-سبحانه-بعض السور، وهي أحاديه، وثنائية، وثلاثيه، ورباعيه، وخماسيه، ولم تتجاوز الخمسه، ولم تذكر قط في أول سورة إلا- وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخبرا عنه، ما خلا سورتين: سورة «كهيعص» و«ن». كقوله: الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ [البقره]، الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ [آل عمران]، المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ [الأعراف] الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) [الرعد] وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، و عظم قدرها، وجلالتها، إذ هي مباني كلامه و كتبه، التي تكلم سبحانه بها، و أنزلها على رسله، و هدى بها عباده، و عرفهم بواسطتها نفسه، و أسماءه، و صفاته، و أفعاله، و أمره، و نهيته، و وعيده، و وعده، و عرفهم بها الخير و الشر، و الحسن، و القبيح، و أقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم، بأسهل طريق، و قله كلفه و مشقه، و أوصله إلى المقصود، و أدله عليه. و هذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. و لهذا عاب-سبحانه-على من عبد إلها لا يتكلم، و امتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، و كمال إحسانه و إنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل و النهار، و الشمس و القمر، و السماء و النجوم، و غيرها من المخلوقات.

فهي داله أظهر دلالة على وحدانيته و قدرته، و حكمته و كماله، و كلامه، و صدق رسله.

و قد جمع-سبحانه-بين الأمرين-أعنى القرآن و نطق اللسان-و جعل تعليمهما من تمام نعمته و امتنانه. كما قال: الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [الرحمن: ١-٤]، فهذه الحروف علم القرآن، و بها علم البيان، و بها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، و بها أنزل كتبه، و بها أرسل رسله، و بها جمعت العلوم و حفظت، و بها

انتظمت مصالح العباده فى المعاش و المعاد، و بها يتميز الحق من الباطل، و الصحيح من الفاسد، و بها جمعت أشتات العلوم، و بها أمكن تنقلها فى الأذهان، و كم جلب بها من نعمه، و دفع بها من نقمه؟ و أقيمت بها من عثره، و أقيمت بها من حرمه، و هدى بها من ضلاله، و أقيم بها من حق، و هدم بها من باطل؟ فأياته سبحانه فى تعليم البيان كآياته فى خلق الإنسان. و لو لا عجائب صنع الله، ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم و لا عصب.

فسبحان من هذا صنعه فى هواء يخرج من قصبه الرئه، فينضم فى الحلقوم، و يفرش فى أقصى الحلق، و وسطه، و آخره، و أعلاه، و أسفله، و على وسط اللسان و أطرافه و بين الثنايا، و فى الشفتين، و الخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف، فألهم- سبحانه- الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هى كلمات قائمه بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، فإذا هى كلام دال على أنواع المعانى، أمرا و نهيا، و خبرا، و استخبارا و نفايا، و إثباتا، و إقرارا، و إنكارا، و تصديقا، و تكذيبا، و إيجابا، و استحبابا، و سؤالا، و جوارا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه و نشره، و وجيزه، و مطوله، على اختلاف لغات الخلائق (١).

كل ذلك صنعته تبارك و تعالى، فى هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، فى مجاز قد هيئت، و أعدت لتقطيعه و تفصيله، ثم تأليفه و توصيله، فتبارك الله رب العالمين، و أحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق.

و أما الحرف الذى به تكون المخلوقات فشأنه أعلى، و أجل.

و إذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية و أدله الوحدانية، فهى داله على كمال قدرته سبحانه، و كمال علمه، و كمال حكمته، و كمال رحمته، و عنايته بخلقه، و لطفه و إحسانه. و إذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ و المعاد، و الخلق و الأمر، و التوحيد و الرساله، فهى من أظهر أدله شهاده أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله، و أن القرآن كلام الله، تكلم به حقا و أنزله على رسوله و حيا، و بلغه كما أوحى إليه صدقا، و لا تهمل الفكره فى كل سوره افتتحت بهذه الحروف، و اشتمالها على آيات هذه المطالب و تقريرها، و بالله التوفيق (٢).

ص: ١٢٢

١- أصبح البحث فى هذا الأمر علما مستقلا من علوم اللغه تبحث فى علم الأصوات الذى بدوره يبحث فى الصوت الإنسانى و مخارجه و بيان الصامت و المتحرك و أصوات العله و البر و التقييم إلخ... و من أشهر علمائه فى عصرنا الدكتور رمضان عبد التواب رحمه الله تعالى، انظر له «المدخل إلى علم اللغه».

٢- التبيان (٢٠٣-٢٠٦).

تأمل سر الم كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزه، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف و مخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق و اللسان و الشفتين. و ترتيب (1) في التنزيل من البدايه إلى الوسط إلى النهايه.

فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا فيصير منها تسعة و عشرون حرفا عليها مدار كلام الأمم الأولين و الآخرين، مع تضمناها سرا عجيبا، و هو أن للألف البدايه و اللام التوسط، و الميم النهايه، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البدايه و النهايه و الواسطه بينهما، و كل سوره استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتمله على بدء الخلق و نهايته و توسطه فمشتمله على تخليق العالم و غايته و على التوسط بين البدايه و النهايه من التشريع و الأوامر، فتأمل ذلك من البقره، و آل عمران، و تنزيل السجده، و سوره الروم.

و تأمل اقتران الطاء بالسين و الهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها، و هي الجهر و الشده و الاستعلاء و الإطباق و [الإصمات] (2)، و السين مهموس رخو مستقل صفيرى منفتح فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين و الهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

و تأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السوره مبنيه على كلمه ذلك الحروف فمن ذلك «ق»، و السوره مبنيه على الكلمات القافيه (3) من ذكر القرآن، و ذكر الخلق، و تكرير القول و مراجعته مرارا، و القرب من ابن آدم، و تلقى الملكين قول العبد،

ص: ١٢٣

١- لعلها: و ترتيبها

٢- ذكر المؤلف أربعة، و الإصمات خامس هذه الصفات، إلى جانب صفه القلقله.

٣- التي تشتمل على حرف «القاف»، و ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله على الغالب، و ليس مطردا و الله أعلم.

و ذكر الرقيب، و ذكر السائق و القرين، و الإلقاء في جهنم، و التقديم بالوعيد، و ذكر المتقين، و ذكر القلب و القرون و التنقيب في البلاد، و ذكر القيل مرتين، و تشقق الأرض و إلقاء الرواسي فيها و بسوق النخل و الرزق، و ذكر القوم و حقوق الوعيد، و لو لم يكن إلا- تكرر القول و المحاوره، و سر آخر و هو: أن كل معاني هذه السوره مناسبه لما في حرف القاف من الشده و الجهر و العلو و الانفتاح.

و إذا أردت زياده إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سوره «ص» من الخصومات المتعدده فأولها خصومه الكفار مع النبي صلى الله عليه و سلم. و قولهم: أَجْعَلُ اللَّاهَةَ إِلَهًا وَاِحْدًا [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملائه الأعلی فی العلم، و هو الدرجات و الكفارات، ثم مخاصمه إبليس و اعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيا في شأن بنیه و حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السوره غير «ص» و بسوره «ق» غير حرفها، و هذه قطره من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، و الله أعلم (١).

بيان بعض ما تشير إليه

دلالة الآيات و السور

دلالة السور و الآيات على الغزوات

إشارة

سوره الأنفال (سوره بدر)، و في أحد آخر سوره (آل عمران) من قوله:

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَ اللَّهُ سَيَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) [آل عمران: ١٢١] إلى قبيل آخرها بيسير، و في قصه الخندق، و قريظه، و خيبر صدر سوره (الأحزاب)، و سوره (الحشر) في بنى النضير، و في قصه الحديدية و خيبر سوره (الفتح) و أشير فيها إلى الفتح، و ذكر الفتح صريحا في سوره (النصر).

بعض الحكم و الغايات

في وقعه أحد من خلال سوره آل عمران

و بيان مطابقه أسباب النزول للواقع

قد أشار الله- سبحانه و تعالى- إلى أمهاتها و أصولها في سوره «آل عمران»، حيث

ص: ١٢٤

افتتح القصة بقوله: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبه المعصية، والفشل و التنازع، و أن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبه معصيتهم للرسول، و تنازعهم، و فشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا و يقظه، و تحرزا من أسباب الخذلان.

و منها: أن حكمه الله و سنته فى رسله و أتباعهم، جرت بأن يدالوا مره، و يدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبه، فإنهم لو انتصروا دائما، دخل معهم المؤمنون و غيرهم، و لم يتميز الصادق من غيره، و لو انتصر عليهم دائما، لم يحصل المقصود من البعثه، و الرساله، فاقترضت حكمه الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليميز من يتبعهم و يطيعهم للحق و ما جاءوا به، ممن يتبعهم على الظهور و الغلبه خاصه.

و منها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبى سفيان: هل قاتلتموه؟ قال:

نعم. قال: كيف الحرب بينكم و بينه؟ قال: سجال، يدال علينا المره، و ندال عليه الأخرى.

قال: كذلك الرسل تبلى، ثم تكون لهم العاقبه (١).

و منها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، و طار لهم الصيت، دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقترضت حكمه الله عز و جل أن سبب لعباده محنه ميزت بين المؤمن و المنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم فى هذه الغزوه، و تكلموا بما كانوا يكتمونونه، و ظهرت مخبآتهم، و عاد تلويحهم تصريحا، و انقسم الناس إلى كافر، و مؤمن، و منافق، انقساما ظاهرا، و عرف المؤمنون أن لهم عدوا فى نفس دورهم، و هم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، و تحرروا منهم. قال الله تعالى: مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُدْرَأَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِّنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تَوَلَّوْا

ص: ١٢٥

١- أخرجه البخارى (٧) فى بدء الوحي، و مسلم (٧٤/١٧٧٣) فى الجهاد، باب: كتاب النبى إلى هرقل.

وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) [آل عمران: ١٧٩] أى: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذى يميز به بين هؤلاء و هؤلاء، فإنهم متميزون فى غيبه و علمه، و هو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذى هو غيب شهاده. و قوله: وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ اسْتَدْرَاكٌ لِمَا نَفَاهُ مِنْ اِطْلَاعِ خَلْقِهِ عَلَى الْغَيْبِ، سَوَى الرِّسْلِ، فَإِنَّهُ يَطَّلِعُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْبِهِ، كَمَا قَالَ: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَّسُولٍ [الجن: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم و سعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به و أيقنتم، فلکم أعظم الأجر و الكرامه.

و منها: استخراج عبوديه أوليائه و حزه فى السراء و الضراء، و فيما يحبون و ما يكرهون، و فى حال ظفرهم و ظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة و العبوديه فيما يحبون و ما يكرهون، فهم عبيده حقا، و ليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء و النعمه و العافيه.

و منها: أنه سبحانه لو نصرهم دائما، و أظفرهم بعدوهم فى كل موطن، و جعل لهم التمكين و القهر لأعدائهم أبدا، لظغت نفوسهم، و شمخت و ارتفعت، فلو بسط لهم النصر و الظفر، لكنوا فى الحال التى يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء و الضراء، و الشده و الرخاء، و القبض و البسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

و منها: أنه إذا امتحنهم بالغلبه، و الكسره، و الهزيمه، ذلوا و انكسروا، و خضعوا، فاستوجبوا منه العز و النصر، فإن خلعه النصر إنما تكون مع ولايه الذل و الانكسار، قال تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [آل عمران: ١٢٣] و قال: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا [التوبه: ٢٥]، فهو- سبحانه- إذا أراد أن يعز عبده، و يجبره، و ينصره، كسره أولا، و يكون جبره له و نصره على مقدار ذله و انكساره.

و منها: أنه- سبحانه- هيا لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، و لم يكونوا بالغيبها إلا بالبلاء و المحنه، فقيض لهم الأسباب التى توصلهم إليها من ابتلائه و امتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحه التى هى من جمله أسباب وصولهم إليها.

و منها: أن النفوس تكتسب من العافيه الدائمه و النصر و الغنى طغيانا و ركونا إلى العاجله، و ذلك مرض يعوقها عن جدها فى سيرها إلى الله و الدار الآخره، فإذا أراد بها ربها

و مالکها و راحمها کرامته، قیض لها من الابتلاء و الامتحان ما یكون دواء لذلك المرض العائق عن السیر الحثیث إلیه، فیکون ذلك البلاء و المحنة بمنزله الطیب یسقی العلیل الدواء الکریه، و یقطع منه العروق المؤلمه لاستخراج الأدواء منه و لو ترکه لغلبته الأدواء حتی یكون فیها هلاکة.

و منها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أولیائه، و الشهداء هم خواصه و المقربون من عبادته، و لیس بعد درجه الصدیقیه إلا الشهادة، و هو سبحانه یحب أن یتخذ من عبادته شهداء، تراق دماؤهم فی محبته و مرضاته، و یؤثرون رضاه و محابه علی نفوسهم، و لا سبیل إلی نیل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضیه إلیها من تسلیط العدو.

و منها: أن الله- سبحانه- إذا أراد أن یهلك أعداءه و یحققهم، قیض لهم الأسباب الی یستوجبون بها هلاکهم و محققهم، و من أعظمها- بعد كفرهم- بغیهم، و طغیانهم، و مبالغتهم فی أذى أولیائه، و محاربتهم، و قتالهم، و التسلط علیهم، فیتحصن بذلك أولیاءه من ذنوبهم و عیوبهم، و یزداد بذلك أعداؤه من أسباب محققهم و هلاکهم. و قد ذکر سبحانه و تعالی ذلك فی قوله: **وَ لَا تَهْنُؤا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْمَاعِلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳۹)** **إِنْ يَمْسَسِ كُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تَلَمَّكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۱۴۰)** **وَ لِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمَحَقَ الْكَافِرِينَ (۱۴۱)** [آل عمران]، فجمع لهم فی هذا الخطاب بین تشجیعهم و تقویة نفوسهم، و إحياء عزائمهم و هممهم، و بین حسن التسلیه، و ذکر الحكم الباهره الی اقتضت إداله الكفار علیهم فقال:

إِنْ يَمْسَسِ كُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ [آل عمران: ۱۴۰]، فما بالکم تهنون و تضعفون عند القرح و الألم، فقد أصابهم ذلك فی سبیل الشیطان، و أنتم أصبتم فی سبیلی و ابتغاء مرضاتی.

ثم أخبر أنه یداول أيام هذه الحیاه الدنیا بین الناس، و أنها عرض حاضر، یقسمها دولا بین أولیائه و أعدائه بخلاف الآخرة، فإن عزها و نصرها و رجاءها خالص للذین آمنوا.

ثم ذکر حکمه أخرى، و هی أن یتمیز المؤمنون من المنافقین، فیعلمهم علم رؤیه و مشاهدته بعد أن كانوا معلومین فی غیبه، و ذلك العلم الغیبی لا یترتب علیه ثواب و لا عقاب، و إنما یترتب الثواب و العقاب علی المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا فی الحس.

ثم ذکر حکمه أخرى، و هی اتخاذها- سبحانه- منهم شهداء، فإنه یحب الشهداء من عبادته، و قد أعد لهم أعلى المنازل و أفضلها، و قد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ینیلهم درجه

الشهادة. و قوله: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: ١٤٠]، تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته و بغضه للمنافقين الذى انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه، و لم يتخذ منهم شهداء لأنه لم يحبهم، فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين فى ذلك اليوم، و ما أعطاه من استشهاد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أولياءه و حزبه.

ثم ذكر حكمه أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، و هو تمحيص الذين آمنوا، و هو تنقيتهم و تخليصهم من الذنوب، و من آفات النفوس، و أيضا فإنه خلصهم و محصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، و تمحيص ممن كان يظهر أنه منهم، و هو عدوهم.

ثم ذكر حكمه أخرى، و هى محق الكافرين بطغيانهم، و بغيهم، و عدوانهم، ثم أنكر عليهم حسابهم، و ظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد فى سبيله، و الصبر على أذى أعدائه، و إن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه و حسبه، فقال:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمِ الصَّابِرِينَ [آل عمران: ١٤٢]، أى: و لما يقع الواقع المعلوم، لا- على مجرد العلم، فإن الله لا- يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونهم و يودون لقاءه، فقال: وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [١٤٣].

قال ابن عباس: و لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامه، رغبوا فى الشهاده، فتمنوا قتالا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، و سببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى:

وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [آل عمران: ١٤٣].

و منها: أن وقع أحد كانت مقدمه و إرھاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه و سلم، فثبتهم، و وبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه و توحيده و يموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، و هو حى لا يموت، فلو مات محمد أو قتل، لا ينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، و ما جاء به، فكل نفس ذائقه الموت، و ما بعث محمد صلى الله عليه و سلم ليخلد لا- هو و لا- هم، بل ليموتوا على الإسلام و التوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء مات رسول الله صلى الله عليه و سلم أو بقى، و لهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم من دينه لما صرخ الشيطان: إن محمدا قد قتل، فقال: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [آل عمران: ١٤٤] أو الشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمه، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، و حكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ارتد من ارتد على عقبيه، و ثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله و أعزهم و ظفرهم بأعدائهم، و جعل العاقبه لهم.

و منها: أن وقع أحد كانت مقدمه و إرھاصا بين يدى موت رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم، فثبتهم، و وبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم، أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه و توحيدہ و يموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، و هو حى لا يموت، فلو مات محمد أو قتل، لا ينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، و ما جاء به، فكل نفس ذائقه الموت، و ما بعث محمد صلى اللہ عليه و سلم ليخلد لا- هو و لا- هم، بل ليموتوا على الإسلام و التوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء مات رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم أو بقى، و لهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم من دينه لما صرخ الشيطان: إن محمدا قد قتل، فقال: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) [آل عمران] أو الشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمه، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، و حكم هذا الخطاب يوم مات رسول اللہ صلى اللہ عليه و سلم، و ارتد من ارتد على عقبيه، و ثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم اللہ و أعزهم و ظفرهم بأعدائهم، و جعل العاقبه لهم.

ثم أخبر- سبحانه- أنه جعل لكل نفس أجلا- لا- بد أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيرد الناس كلهم حوض المنايا موردا واحدا، و إن تنوعت أسبابه، و يصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى، فريق فى الجنة و فريق فى السعير، ثم أخبر- سبحانه- أن جماعه كثيره من أنبيائه قتلوا و قتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقى منهم لما أصابهم فى سبيله، و ما ضعفوا و ما استكانوا، و ما وهنوا عند القتل، و لا- ضعفوا، و لا- استكانوا، بل تلقوا الشهاده بالقوه و العزيمه و الإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذله، بل استشهدوا أعزه كراما مقبلين غير مدبرين، و الصحيح: أن الآيه تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر- سبحانه- عما استنصرت به الأنبياء و أممهم على قومهم من اعترافهم و توبتهم و استغفارهم و سؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، و أن ينصرهم على أعدائهم، فقال: وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ ثَبِّتْ أقدامَنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَ حَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) [آل عمران]. لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، و أن الشيطان إنما يستزلهم و يهزمهم بها، و أنها نوعان: تقصير فى حق أو تجاوز لحد، و أن النصره منوطه بالطاعه، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا فى أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك و تعالى إن لم يثبت أقدامهم و ينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، و نصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، و أنه إن لم يثبت أقدامهم و ينصرهم لم يثبتوا و لم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما:

مقام المقتضى، و هو التوحيد و الالتجاء إليه- سبحانه، و مقام إزاله المانع من النصره، و هو الذنوب و الإسراف.

ثم حذرهم- سبحانه- من طاعه عدوهم، و أخبر أنهم أن أطاعوهم خسروا الدنيا و الآخره، و فى ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا و ظفروا يوم أحد.

ثم أخبر- سبحانه- أنه مولى المؤمنين، و هو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الرعب الذى يمنعهم من الهجوم عليهم،

و الإقدام على حربهم، و أنه يؤيد حربه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، و ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله، و على قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شىء خوفا و رعبا، و الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن و الهدى و الفلاح، و المشرك له الخوف و الضلال و الشقاء.

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى نصرتهم على عدوهم، و هو الصادق الوعد، و أنهم لو استمروا على الطاعة، و لزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، و لكن انخلعوا عن الطاعة، و فارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمه الطاعة، ففارقتهم النصره، فصرفهم عن عدوهم عقوبه و ابتلاء و تعريفا لهم بسوء عواقب المعصيه، و حسن عاقبه الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، و أنه ذو فضل على عباده المؤمنين. قيل للحسن:

كيف يعفوا عنهم، و قد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، و مثلوا بهم، و نالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لو لا - عفوه عنهم، لاستأصلهم، و لكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم.

-ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مصعدين، أى: جادين فى الهرب و الذهاب فى الأرض، أو صاعدين فى الجبل لا يلوون على أحد من نبيهم و لا أصحابهم، و الرسول يدعوهم فى آخرهم: إلى عباد الله، أنا رسول الله، فأتابهم بهذا الهرب و الفرار، غمًا بعد غم: غم الهزيمة و الكسره، و غم صرخه الشيطان فيهم بأن محمدا قد قتل.

و قيل: جازاكم غما بما غمتمت رسوله بفراركم عنه، و أسلمتموه إلى عدوه، فالغم الذى حصل لكم جزاء على الغم الذى أوقعتموه بنبيه (١)، و القول الأول أظهر لوجه:

أحدها: أن قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ [آل عمران:

١٥٣] تنبيه على حكمه هذا الغم بعد الغم، و هو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، و على ما أصابهم من الهزيمة و الجراح، فنسوا بذلك السبب، و هذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر.

الثانى: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمه، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التى أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد قتل، ثم غم.

ص: ١٣٠

١- هذا القول و إن كان من لطائف الفهم، إلا أنه بعيد، خاصة أن الصحابه رضى الله عنهم لم يكن منهم ذلك عن عمد، و لكن بدر منهم ما يبدر من البشر فى مثل هذه الحاله، و الله أعلم.

ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمين اثنين خاصه، بل غما متتابعاً لتمام الابتلاء و الامتحان.

الثالث: أن قوله: «بغم»، من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى:

أثابكم غمًا متصلًا بغم، جزاء على ما وقع منهم من الهروب و إسلامهم نبيهم صلى الله عليه و سلم و أصحابه، و ترك استجابتهم له و هو يدعوهم، و مخالفتهم له فى لزوم مركزهم، و تنازعهم فى الأمر، و فشلهم، و كل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصصه، فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابها و موجباتها، و لو لا أن تداركها بعفوه، لكان أمراً آخر، و من لطفه بهم، و رأفته، و رحمته، أن هذه الأمور التى صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، و هى من بقايا النفوس التى تمنع من النصره المستقره، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجهما من القوه إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهه، فعلموا حينئذ أن التوبه منها و الاحتراز من أمثالها، و دفعها بأضدادها أمر متعين، لا يتم لهم الفلاح و النصره الدائمه المستقره إلا به، فكانوا أشد حذراً بعدها، و معرفه بالأبواب التى دخل عليهم منها:

و ربّما صحّت الأجسام بالعلل (١)

ثم إنه تداركهم - سبحانه - برحمته، و خفف عنهم ذلك الغم، و غيبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمناً منه و رحمه، و النعاس فى الحرب علامه النصره و الأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، و أخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس، فهو ممن أهمته نفسه لا دينه و لا نبيه و لا أصحابه، و أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهليه، و قد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، و أن أمره يضمحل، و أنه يسلمه للقتل، و قد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه و قدره، و لا حكمه له فيه، ففسر بإنكار الحكمه، و إنكار القدر، و إنكار أن يتم أمر رسوله و يظهره على الدين كله، و هذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون و المشركون به سبحانه و تعالى فى «سوره الفتح»، حيث يقول: وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) [الفتح]، و إنما كان هذا ظن السوء، و ظن الجاهليه المنسوب إلى أهل الجهل، و ظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، و صفاته العليا، و ذاته المبرأه من كل عيب و سوء، بخلاف ما يليق بحكمته و حمده، و تفرد به الربوبيه

ص: ١٣١

١- عجز بيت للمتنبى، و صدره: لعلّ عتبك محمود عواقبه

و الإلهيه، و ما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه، بكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم و لا يخذلهم، و لجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، و لا يتم أمره، و لا يؤيده و يؤيد حربه، و يعليهم، و يظفرهم بأعدائه و يظهرهم عليهم، و أنه لا ينصر دينه و كتابه، و أنه يدلل الشرك على التوحيد، و الباطل على الحق إداله مستقره يضمحل معها التوحيد و الحق اضمحل لا يقوم بعده أبدا، فقد ظن بالله ظن السوء، و نسبه إلى خلاف ما يليق بكماله و جلاله، و صفاته و نعوته، فإن حمده و عزته، و حكمته و إلهيته تأبى ذلك، و تأبى أن يذل حربه و جنده، و أن تكون النصرة المستقره، و الظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، و لا- عرف أسمائه و لا- عرف صفاته و كماله، و كذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه و قدره، فما عرفه، و لا- عرف ربوبيته و ملكه و عظمته، و كذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك و غيره لحكمه بالغه، و غايه محموده يستحق الحمد عليها، و أن ذلك إنما صدر عن مشيئه مجردة عن حكمه، و غايه مطلوبه هى أحب إليه من فوتها، و أن تلك الأسباب المكروهه المفضيه إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمه لإفضائها إلى ما يجب، و إن كانت مكروهه له، فما قدرها سدى، و لا- أنشأها عبثا، و لا خلقها باطلا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار [ص: ٢٧]، و أكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم و فيما يفعله بغيرهم، و لا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، و عرف أسمائه و صفاته، و عرف موجب حمده و حكمته، فمن قنط من رحمته، و آيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء.

و من جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم و إخلاصهم، و يسوى بينهم و بين أعدائه، فقد ظن بهم ظن السوء.

و من ظن به أن يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر و النهى، و لا- يرسل إليهم رسله، و لا- ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب و العقاب فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، و المسىء بإساءته، و يبين لخلقه حقيقه ما اختلفوا فيه، و يظهر للعالمين كلهم صدقه و صدق رسله، و أن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره، و يبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه، و لا اختيار له، و لا قدره، و لا

إرادته في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداء الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه، ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين. و ينعم من استنفد عمره في عداوته و عداوه رسله و دينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، و كلا الأمرين عنده في الحسن سواء، و لا يعرف امتناع أحدهما و وقوع الآخر إلا بخبر صادق و إلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما و حسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه أخبر عن نفسه و صفاته و أفعاله بما ظاهره باطل، و تشبيهه، و تمثيله، و ترك الحق، لم يخبر به، و إنما رمز إليه رموزا بعيدة، و أشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، و صرح دائما بالتشبيه و التمثيل و الباطل، و أراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم و قواهم و أفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، و تأويله على غير تأويله، و يتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه، و التأويلات التي هي بالألغاز و الأحاجي أشبه منها بالكشف و البيان، و أحالهم في معرفه أسمائه و صفاته على عقولهم و آرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم و لغتهم، مع قدرته على أي يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، و يريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى و البيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو و سلفه، فقد ظن بقدرته العجز، و إن قال:

إنه قادر و لم يبين، و عدل عن البيان، و عن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، و الاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته و رحمته ظن السوء، و ظن أنه هو و سلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله و رسوله، و أن الهدى و الحق في كلامهم و عباراتهم، و أما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، و التمثيل، و الضلال، و ظاهر كلام المتهوكين (1) الحيارى، هو الهدى و الحق، و هذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، و من الظانين به غير الحق ظن الجاهليه.

و من ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء و لا يقدر على إيجاده و تكوينه، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، و لا يوصف حينئذ بالقدره.

ص: ١٣٣

١- التهود: كالتهود، و هو إتيان الأمور بلا رؤيه.

على الفعل، ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا، فقد به ظن السوء.

و من ظن به أنه لا يسمع و لا يبصر، و لا يعلم الموجودات، و لا عدد السموات و الأرض، و لا النجوم، و لا بنى آدم و حركاتهم و أفعالهم، و لا يعلم شيئا من الموجودات فى الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن أنه لا سمع له، و لا بصر، و لا علم له، و لا إرادته، و لا كلام يقول به، و أنه لم يكلم أحدا من الخلق، و لا يتكلم أبدا، و لا قال و لا يقول، و لا له أمر و لا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه، و أن نسبه ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، و إلى الأمكنه التى يرغب عن ذكرها، و أنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه.

و من ظن به أنه يحب الكفر، و الفسوق، و العصيان، و يحب الفساد كما يحب الإيمان، و البر، و الطاعة، و الإصلاح، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه لا يحب و لا يرضى، و لا يغضب و لا يسخط، و لا يوالى و لا يعادى، و لا يقرب من أحد من خلقه، و لا يقرب منه أحد، و أن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين و أوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصه الصواب بكبيره واحده تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى النار أبد الآبدين بتلك الكبيره، و يحبط بها جميع طاعاته و يخلده فى العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفه عين، و قد استنفد ساعات عمره فى مساخطه و معاداه رسله و دينه، فقد ظن به ظن السوء.

و بالجمله فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه و وصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، و وصفته به رسله، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن أن له ولدا، أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه و بين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، و يتوسلون بهم إليه، و يجعلونهم وسائط بينهم و بينه، فيدعونهم، و يحبونهم كحبه، و يخافونهم و يرجعونهم، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه.

و من ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته و مخالفته، كما يناله بطاعته و التقرب إليه، فقد ظن

به خلاف حكمته و خلاف موجب أسمائه و صفاته، و هو من ظن السوء.

و من ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه، أو من فعل لأجله شيئاً لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه يغضب على عبده، و يعاقبه و يحرمه بغير جرم، و لا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، و محض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

و من ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة و الرهبة، و تضرع إليه، و سأله و استعان به، و توكل عليه أنه يخيبه و لا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، و ظن به خلاف ما هو أهله.

و من ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، و سأله ذلك فى دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته و حمده، و خلاف ما هو أهله و ما لا يفعله.

و من ظن به أنه إذا أغضبه، و أسخطه، و أوضع فى معاصيه، ثم اتخذ من دونه ولياً، و دعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً، أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، و يخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، و ذلك زياده فى بعده من الله، و فى عذابه.

و من ظن به أنه يسلط على رسوله محمد صلى الله عليه و سلم أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً فى حياته و فى مماته، و ابتلاء بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه، و ظلموا أهل بيته، و سلبوهم حقهم، و أذلوهم، و كانت العزة و الغلبة و القهر لأعدائه و أعدائهم دائماً من غير جرم و لا ذنب لأوليائه، و أهل الحق، و هو يرى قهرهم لهم، و غضبهم إياهم حقهم، و تبديلهم دين نبيهم، و هو يقدر على نصره أوليائه و حزبه و جنده، و لا ينصرهم و لا يديلمهم، بل يدل أعداءهم عليهم أبدأ، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته و لا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه فى حفرته، تسلم أمته عليه و عليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه، سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم، و يجعل لهم الدوله و الظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون فى قدرته، أو فى حكمته و حمده، و ذلك من ظن السوء به، و لا ريب أن الرب الذى فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، و كان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، و استجاروا من الرضاء بالنار. فقالوا: لم يكن هذا بمشيئته الله، و لا له قدره على دفعه و نصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، و لا هى داخله تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس و الثنويه بربهم، و كل مبطل، و كافر، و مبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، و أنه أولى بالنصر و الظفر، و العلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل

كلهم-إلا- من شاء الله- يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ و أنه يستحق فوق ما أعطاه الله، و لسان حاله يقول: ظلمنى ربى، و معنى ما أستحقه، و نفسه تشهد عليه بذلك، و هو بلسانه ينكره و لا يتجاسر على التصريح به، و من فتش نفسه، و تغلغل فى معرفه دفاثنها و طواياها، رأى ذلك فيها كما منا كمون النار فى الزناد، فاقدح زناد من شئت بينك شراره عما فى زناده، و لو فتشت من فتشته، لرأيت عنه تعباً على القدر و ملامه له، و اقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، و أنه كان ينبغى أن يكون كذا و كذا، فمستقل و مستكثر، و فتش نفسك، هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمه و إلا فإنى لا إخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، و ليتب إلى الله تعالى و ليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، و ليظن السوء بنفسه التى هى مأوى كل سوء، و منبع كل شر، المركبه على الجهل و الظلم، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، و أعدل العادلين، و أرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذى له الغنى التام، و الحمد التام، و الحكمة التامه، و المنزه عن كل سوء فى ذاته و صفاته، و أفعاله و أسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، و صفاته كذلك، و أفعاله كذلك، كلها حكمه و مصلحه، و رحمه و عدل، و أسماؤه كلها حسنى.

و المقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل، و هو قولهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ [آل عمران: ١٥٤]، و قولهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا [آل عمران: ١٥٤]، فليس مقصودهم بالكلمه الأولى و الثانیه إثبات القدر، و رد الأمر كله إلى الله، و لو كان ذلك مقصودهم بالكلمه الأولى لما ذموا عليه، و لما حسن الرد عليه بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ [آل عمران: ١٥٤]، و لا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهليه، و لهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، و ظنهم أن الأمر لو كان إليهم، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، و لكان النصر و الظفر لهم، فأكذبهم الله عز و جل فى هذا الظن الذى هو ظن الجاهليه، و هو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فلا يكون إلا ما سبق به قضاءه و قدره، و جرى به علمه و كتابه السابق، و ما شاء الله كان و لا- بد، شاء الناس أم أبوا، و ما لم يشأ لم يكن، شاء الناس أم لم يشأ، و ما جرى عليكم من الهزيمة و القتل، فبأمره الكونى الذى لا سبيل إلى

دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كتب القتل على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد، سواء كان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالا لقول القدرية النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

فصل ثم أخبر- سبحانه- عن حكمه أخرى في هذا التقدير، هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان و النفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا و تسليما، و المنافق و من في قلبه مرض، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه و لسانه.

ثم ذكر حكمه أخرى: و هو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، و هو تخليصه و تنقيته و تهذيبه، فإن القلوب يخالطها بغلبات الطباع، و ميل النفوس، و حكم العادة، و تزين الشيطان، و استيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان و الإسلام و البر و التقوى، فلو تركت في عافيه دائمه مستمره، لم تتخلص من هذه المخالطه، و لم تتمحص منه، فاقتضت حكمه العزيز أن قيض لها من المحن و البلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته و تنقيته من جسده، و إلا خيف عليه من الفساد و الهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسر و الهزيمه، و قتل من قتل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم و تأييدهم و ظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمه التامه في هذا و هذا.

ثم أخبر- سبحانه و تعالى- عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، و أنه بسبب كسبهم و ذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جندا عليهم، ازداد بها عدوهم قوه، فإن الأعمال جند للعبد و جند عليه، و لا بد فللعبد كل وقت سر به من نفسه تهزمه، أو تنصره، فهو يمد عدوه فأعمال العبد تسوقه قسرا إلى مقتضاها من الخير و الشر، و العبد لا يشعر، أو يشعر و يتعامى، ففرار الإنسان من عدوه، و هو يطيقه إنما هو جند من عمله، بعثه له الشيطان و استرله به.

ثم أخبر- سبحانه- أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق و لا شك، و إنما كان عارضا، عفا الله عنه، فعادت شجاعه الإيمان و ثباته إلى مركزها و نصابها، ثم كرر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، و بسبب أعمالهم، فقال:

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) [آل عمران]. و ذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك من السور المكيه، فقال:

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) [الشورى]، وقال: ما أصابك من حسنِه فمن الله و ما أصابك من سيئه فمن نفسك [النساء: ٧٩]، فالحسنه و السيئه هاهنا:

النعمة و المصيبة، فالنعمة من الله من بها عليك، و المصيبة إنما نشأت من قبل نفسك و عملك، فالأول فضله، و الثانى عدله، و العبد يتقلب بين فضله و عدله، جار عليه فضله، ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه و ختم الآيه الأولى بقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ بعد قوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إعلاما لهم بعموم قدرته مع عدله، و أنه عادل قادر، و فى ذلك إثبات القدر و السبب، فذكر السبب، و أضافه إلى نفوسهم، و ذكر عموم القدره و أضافها إلى نفسه، فالأول ينفى الجبر، و الثانى ينفى القول بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله:

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) [التكوير].

و فى ذكر قدرته هاهنا نكته لطيفه، و هى أن هذا الأمر بيده و تحت قدرته، و أنه هو الذى لو شاء لصرف عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، و لا تتكلوا على سواه، و كشف هذا المعنى و أوضحه كل الإيضاح بقوله: وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ [آل عمران: ١٦٦] و هو الإذن الكونى القدرى، لا الشرعى الدينى كقوله فى السحر: وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقره: ١٠٢].

ثم أخبر عن حكمه هذا التقدير، و هى أن يعلم المؤمن من المنافقين علم عيان و رؤيه يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزا ظاهرا، و كان من حكمه هذا التقدير تكلم المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، و سمعوا رد الله عليهم و جوابه لهم، و عرفوا مؤدى النفاق و ما يؤول إليه، و كيف يحرم صاحبه سعادته الدنيا و الآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا و الآخرة، فله كم من حكمه فى ضمن هذه القصة بالغه، و نعمه على المؤمنين سابغه، و كم فيها من تحذير و تخويف و إرشاد و تنبيه، و تعريف بأسباب الخير و الشر و ما لهما و عاقبتهما.

ثم عزى نبيه و أولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزیه، و ألطفها و أدهاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) [آل عمران]، فجمع لهم الحياه الدائمة منزله القرب منه، و أنهم عنده، و جريان الرزق المستمر عليهم، و فرحهم بما آتاهم من فضله، و هو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا، و استبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته و كرامته. و ذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنه بما هو من أعظم مننه و نعمه عليهم، التى إن قابلوا بها كل محنه تنالهم

و بليه، تلاشت في جنب هذه المنه و النعمه، و لم يبق لها أثر البته، و هي: منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، و يزيكهم، و يعلمهم الكتاب و الحكمة، و ينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، و من الشقاء إلى الفلاح، و من الظلمه إلى النور، و من الجهل إلى العلم. فكل بليه و محنه تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمر يسير جدا في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبه من عند أنفسهم، ليحذروا، و أنها بقضائه و قدره ليؤخروا و يتكلموا، و لا يخافوا غيره، و أخبرهم بما لهم فيها من الحكم، لئلا يتهموه في قضائه و قدره، و ليتعرف إليهم بأنواع أسمائه و صفاته، و سألهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرا، و أعظم خطرا مما فاتهم من النصر و الغنيمه، و عزاهم عن قتالهم بما نالوه من ثوابه و كرامته، لينافسوهم فيه، و لا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهله، و كما ينبغي لكرم وجهه، و عز جلاله (١).

باب منه:

قال الله تعالى: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧].

قلت: اعتقد جماعه أن المراد بالآيه: سلب فعل الرسول صلى الله عليه و سلم عنه، و إضافته إلى الرب تعالى. و جعلوا ذلك أصلا في الجبر، و إبطال نسبه الأفعال إلى العباد. و تحقيق نسبتها إلى الرب وحده، و هذا غلط منهم في فهم القرآن. فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال. فيقال: ما صليت إذ صليت، و ما صمت إذ صمت، و ما ضحيت إذ ضحيت، و لا فعلت كل فعل إذ فعلته، و لكن الله فعل ذلك. فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد - طاعتهم و معاصيهم - إذ لا فرق. فإن خصوه بالرسول صلى الله عليه و سلم وحده و أفعاله جميعا، أو رميه وحده: تناقضا، فهؤلاء لم يوقفوا لفهم ما أريد بالآيه.

و بعد، فهذه الآيه نزلت (٢) في شأن رميه صلى الله عليه و سلم المشركين يوم بدر بقبضه من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، و معلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه صلى الله عليه و سلم مبدأ الرمي، و هو الحذف، و من الله سبحانه و تعالى نهايته، و هو الإيصال، فأضافح.

ص: ١٣٩

١- زاد المعاد (٣/٢١٨-٢٤٤).

٢- ذكر ذلك ابن إسحاق (٢/٤٦) و الطبراني في الكبير (٣/٢٠٣) من حديث حكيم ابن حزام رضى الله عنه، و قال الهيثمي «إسناده حسن» (٦/٨٤) و رواه في الكبير أيضا (١١/٢٨٥) و قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

إليه رمى الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمى الإيصال الذي هو نهايته.

و نظير هذا: قوله في الآيه نفسها: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ [الأنفال: ١٧]، ثم قال: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى فَأَخْبِرْهُ: هو وحده هو الذى تفرد بقتلهم، و لم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم، و لم يكن ذلك من رسوله. و لكن وجه الإشاره بالآيه: أنه- سبحانه- أقام أسبابا ظاهره، كدفع المشركين، و تولى دفعهم، و إهلاكهم بأسباب باطنه غير الأسباب التى تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة و القتل و النصره مضافا إليه و به، و هو خير الناصرين.

ص: ١٤٠

الأمثال في القرآن الكريم

قيمه المثل في القرآن

قد أخبر الله - سبحانه - أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه، وأمر باستماع أمثاله، ودعا عباده إلى تعقلها و التفكير فيها، والاعتبار بها، وهذا هو المقصود بها (١).

حكمه ضرب المثل في القرآن

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورته المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل كنسبه المحسوس إلى الحس وقد تأتي أمثال القرآن مشتمله على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر، أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، والله أعلم (٢).

أصول وقواعد من أمثال

القرآن الكريم لعلم التعبير

أمثال القرآن كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن حسن الاستدلال بها، وكذلك من فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، وأصول التعبير الصحيحه إنما أخذت من مشكاه القرآن، فالسفينه: تعبر بالنجاه لقوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْبَحَ الْسَّفِينَةَ [العنكبوت: ١٥] وتعبر بالتجاره، والخشب بالمنافقين، والحجاره بقساوه القلب، والبيض بالنساء واللباس أيضا بهن، وشرب الماء بالفتنه، وأكل لحم الرجل بغيبته، والمفاتيح بالكسب والخزائن والأموال.

والفتح يعبر مره بالدعاء و مره بالنصر. و كما لملك يرى في محلّه لا عاده له بدخولها يعبر بإذلال أهلها و فسادها، والحبل يعبر بالعهد و الحق و العضد، و النعاس قد يعبر بالأمن.

ص: ١٤١

١- إعلام الموقعين (٢٥٢/١).

٢- بدائع الفوائد (٩/٤).

و البقل و البصل و الثوم و العدس، يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئاً أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجه أو دار.

و المرض يعبر بالنفاق و الشك و شهوه الزنا، و الطفل الرضيع يعبر بالعدو لقوله تعالى:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا [القصص: ٨]. و النكاح بالبناء.

و الرماد بالعمل الباطل لقوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ [إبراهيم: ١٨].

و النور يعبر بالهدى، و الظلمه بالضلال، و من هاهنا قال عمر بن الخطاب لحابس ابن سعد الطائي و قد ولاه القضاء، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنى رأيت الشمس و القمر يقتلان، و النجوم بينهما نصفين، فقال عمر: مع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس، قال: كنت مع الآيه المحوه، اذهب فلست تعمل لى عملاً، و لا تقتل إلا فى لبس من الأمر، فقتل يوم صفين.

و قيل لعابر: رأيت الشمس و القمر دخلا فى جوفى، فقال تموت، و احتج بقوله تعالى:

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (٧) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) [القيامة].

و قال رجل لابن سيرين: رأيت معى أربعة أرغفه خبز، فطلعت الشمس، فقال: تموت إلى أربعة أيام، ثم قرأ قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) [الفرقان]، و أخذ هذا التأويل أنه حمل رزق أربعة أيام، و قال له آخر: رأيت كيسى مملوءاً أرضه فقال: أنت ميت، ثم قرأ:

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ [سبأ: ١٤].

و النخلة: تدل على الرجل المسلم و على الكلمه الطيبه، و الحنظله: تدل على ضد ذلك.

و الصنم: يدل على العبد السوء الذى لا ينفع. و البستان: يدل على العمل، و احتراقه:

يدل على حبوته لما تقدم فى أمثال القرآن.

و من رأى أنه ينقض غزلاً أو ثوبا ليعيده مره ثانيه، فإنه ينقض عهداً، و ينكثه. و المشى سوياً فى طريق مستقيم، يدل على استقامته على الصراط المستقيم. و الأخذ فى بنيات الطريق يدل على عدوله عنه إلى ما خالفه. و إذا عرضت له طريقتان ذات يمين و ذات شمال، فسلك أحدهما، فإنه من أهلها، و ظهور عوره الإنسان له ذنب يرتكبه و يفتضح به، و هروبه و فراره من شىء نجاه و ظفر.

و غرقه فى الماء: فتنه فى دينه و دنياه. و تعلقه بحبل بين السماء و الأرض: تمسكه بكتاب

اللّه و عهده و اعتصامه بحبله، فإن انقطع به فارق العصمه، إلا أن يكون ولي أمرا، فإنه قد يقتل أو يموت (١).

فصل تدبر الأمثال التي وقعت في القرآن

إشارة

تدبر الأمثال التي وقعت في القرآن (٢)

إنّ ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون: تشبيه شىء بشىء في حكمه، و تقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، و اعتبار أحدهما بالآخر كقوله تعالى في حق المنافقين: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا- يَزْجَعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعِيدٌ وَ بَرَقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ [البقره: ١٧- ١٩]، إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقره: ٢٠]، فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلا- نارياء، و مثلا- مائيا لما في النار و الماء من الإضاءة و الإشراق و الحياه، فإن النار مائه النور، و الماء مائه الحياه، و قد جعل الله- سبحانه- الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا لحياه القلوب و استنارتها، و لهذا سماه: روحا و نورا و جعل قابليه أحياء في النور، و من لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات.

و أخبر عن حال المنافقين بالنسبه إلى حظهم من الوحي، و أنهم بمنزله من استوقد نارا لتضىء له و ينتفع بها، و هذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به و انتفعوا به و آمنوا به، و خالطوا المسلمين، و لكن لما لم يكن لصحبتهم مائه من قلوبهم من نور الإسلام طفى عنهم، و ذهب الله بنورهم و لم يقل بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة و الإحراق، و تركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر، ثم عمى، و عرف ثم أنكر، و دخل في الإسلام، ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع له.

و لهذا قال: فَهُمْ لَا- يَزْجَعُونَ [البقره: ١٨]، ثم ذكر حالهم بالنسبه إلى المثل المائي فشبهم بأصحاب صيب، و هو المطر الذي يصب، أى: ينزل من السماء فيه ظلمات و رعد و برق، فلضعف بصائرهم و عقولهم، اشتدت عليهم زواجر القرآن و وعيده و تهديده و أوامره و نواهيه و خطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمه و رعد و برق،

ص: ١٤٣

١- إعلام الموقعين (١/٢٥٠-٢٥٢).

٢- رتبت هذه الأمثلة المباركه وفق ترتيب سور القرآن العظيم.

فلضعفه و خوره جعل إصبعيه فى أذنيه و غمض عينيه خشيه من صاعقه تصيبه.

و قد شاهدنا نحن و غيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهميه و المبتدعه إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات و أحاديث الصفات المنافيه لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَوَّتْ مِنْ قَسْوَرِهِ (٥١)[المدثر].

و يقول مخنتهم: سدوا عنا هذا الباب، اقرءوا شيئا غير هذا، و ترى قلوبهم موليه، و هم يجمعون لثقل معرفه الرب- سبحانه و تعالى- و أسمائه و صفاته على عقولهم و قلوبهم.

و كذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد، و تليت عليهم النصوص المبطله لشركهم اشمأزت قلوبهم، و ثقلت عليهم، و لو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا، و لذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ثقل ذلك عنهم جدا، و أنكرته قلوبهم، و هذا كله شبه ظاهر و مثل محقق من إخوانهم من المنافقين فى المثل الذى ضربه لهم بالماء، فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

مثل المقلدين

و منها قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا - دُعَاءَ وَ نِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) [البقره]، فتضمن هذا المثل ناعقا: أى مصوتا بالغنم و غيرها، و منعوقا به، و هو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، و هو الداعى للصنم، و الصنم هو المنعوق به المدعو، و إن حال الكافر فى دعائه كحال من ينطق بما لا يسمعه.

هذا قول طائفه منهم: عبد الرحمن بن زيد و غيره.

و استشكل صاحب «الكشاف» (١) و جماعه معه هذا القول، و قالوا: قوله: إِلَّا دُعَاءَ وَ نِدَاءَ لَا يساعده عليه، لأن الأصنام لا تسمع دعاء، و لا نداء، و قد أوجب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبه:

أحدها: أن «إلا» زائده، و المعنى بما لا يسمع دعاء و نداء، قالوا: و قد ذكر ذلك الأصمعى فى قول الشاعر:

حراجيج ما تنفك إلا مناخه (٢)

ص: ١٤٤

١- الزمخشري فى تفسيره (١٠٧/١).

٢- الحراجيج: النوق، و الشعر لذى الرمه فى وصف إبل، و شطره: على الخسف أو نرمى بها بلدا قفرا

أى ما تنفك مناخه، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزداد فى الكلام.

الجواب الثانى: أن التشبيه وقع فى مطلق الدعاء، لا فى خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء فى دعائهم آلهتهم التى لا تفقه دعاءهم كمثل الناقب بغنمه فلا ينتفع بنعيقه بشىء، غير أنه هو فى دعاء و نداء، وكذلك المشرك ليس له من دعائه و عبادته إلا العناء، وقيل: المعنى: و مثل الذين كفروا كالبهائم التى لا تفقه ما يقول الراعى أكثر من الصوت، فالراعى هو داعى الكفار، و الكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه (١): «المعنى: و مثلك يا محمد، و مثل الذين كفروا كمثل الناقب و المنعوق به. و على قوله: فيكون المعنى: و مثل الذين كفروا و داعيهم كمثل الغنم و الناقب بها». و لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، و أن تجعله من التشبيه المفرق (٢)، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار فى عدم فقههم و انتفاعهم بالغنم التى ينقب بها الراعى، فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرى الذى هو الدعاء و النداء، و إن جعلته من التشبيه المفرق، فالذين كفروا بمنزلة البهائم، و دعاء داعيهم إلى الطريق و الهدى بمنزلة الذى ينقب بها، و دعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النقب، و إدراكهم مجرد الدعاء و النداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناقب، و الله أعلم.

مثل المنفقين فى سبيل الله

و منها قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِثَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) [البقره]، شبه- سبحانه- نفقه المنفق فى سبيله سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر، كمن بذر بذرا، فأنبثت كل حبه منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبله على مائة حبه، و الله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق و إيمانه و إخلاصه و إحسانه و نفع نفقته و قدرها و وقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان و الإخلاص، و التثبيت عند النفقة، و هو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، و سمحت به نفسه، و خرج من قلبه خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراج غير جزع و لا- هلع، و لا- متعبه نفسه ترجف يده، و فؤاده، و يتفاوت بحسب نفع الإنفاق و مصارفه بموقعه، و بحسب طيب المنفق و زكاته.

ص: ١٤٥

١- الكتاب، لسيبويه (٢١٢/١) بالفاظ متقاربة.

٢- هو التشبيه الذى وجه الشبه فيه صورته منزعه من متعدد و يسمى التمثيلى، و المركب عكسه.

و تحت هذا المثل من الفقه أنه- سبحانه- شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا- لغيره باذر ماله في أرض زكيه، فمغله بحسب بذره، و طيب أرضه، و تعاهد البذر بالسقى، و نفى الدغل و النبات الغريب عنه. فإذا اجتمعت هذه الأمور و لم تحرق الزرع نار، و لا لحقته جائحه، جاء أمثال الجبل. و كان مثله كمثل جنه بربوه، و هى المكان المرتفع الذى تكون الجنه فيه نصب الشمس و الريح، فتربى الأشجار هناك أتم تربيته، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع، فرواها و نماها، فأآتت أكلها ضعفى ما يؤتبه غيرها بسبب ذلك الوايل، فإن لم يصبها وابل، فطل: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل، و ينمى عليه، مع أن فى ذكر نوعى الوايل و الطل إشارة إلى نوعى الإنفاق الكثير و القليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، و منهم من يكون إنفاقه طلا، و الله لا يضع مثقال ذره.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله، و يبطل حسناته كان بمنزله رجل له جنه من نخيل و أعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات، و أصابه الكبر، و له ذريه ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

فإن كان يوم استيفاء الأعمال، و إحراز الأجور وجد هذا العامل عمله، قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنه، فحسرتة حينئذ أشد من حسره هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه فى الحسره لسلب النعمه عند شده الحاجه إليها مع عظم قدرها و منفعتها، و الذى ذهب عنه قد أصابه الكبر و الضعف، فهو أحوج ما كان إلى نعمته، و مع هذا فله ذريه ضعفاء لا- يقدرون على نفعه و القيام بمصالحه، بل هم فى عياله، فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه و ضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه و الثمر، و سلطان ثمره أجل الفواكه و أنفعها. و هو ثمر النخيل و الأعناب، فمغله يقوم بكفايته و كفايه ذريته، فأصبح يوما، و قد وجدته محترقا كله كالصريم، فأى حسره أعظم من حسرتة.

قال ابن عباس: هذا مثل الذى يختم له بالفساد فى آخر عمره.

و قال مجاهد: هذا مثل المفرط فى طاعه الله حتى يموت.

و قال السدى: هذا مثل المرائى فى نفقته الذى ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه.

و سأل عمر بن الخطاب الصحابه يوما عن هذه الآيه، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، و قال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا بن أخى، و لا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلا لعمل، قال: «لأى عمل؟ قال:

لرجل غنى يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله كلها (1).

قال الحسن: هذا مثل قل و الله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، و كثر صيبانه أفقر ما كان إلى جنته، و إن أحدكم و الله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

فإن عرض لهذا الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن و الأذى و الرياء، فالرياء يمنع انعقادها سببا للثواب، و المن و الأذى يبطل الثواب الذى كانت سببا له، فمثل صاحبها و بطلان عمله كمثل صفوان، و هو الحجر الأملس عليه تراب فأصابه وابل، هو المطر الشديد، فتركه صلدا لا شىء عليه.

و تأمل أجزاء هذا المثل البليغ و انطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمه القرآن و جلالته، فإن الحجر فى مقابله قلب هذا المرائى و الممان و المؤذى، فقلبه فى قسوته عن الإيمان و الإخلاص و الإحسان بمنزله الحجر، و العمل الذى عمله لغير الله بمنزله التراب الذى على ذلك الحجر، ففسوه ما تحته و صلابته تمنعه من النبات و الثبات عند نزول الوابل فليس له ماده متصله بالذى يقبل الماء، و ينبت الكلاء، و كذلك قلب المرائى ليس له ثبات عند وابل الأمر و النهى و القضاء و القدر، فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذى كان عليه، فبرز من تحته حجر صلد لا نبات فيه، و هذا مثل ضربه الله -سبحانه- لعمل المرائى و نفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شىء منه أحوج ما كان إليه، و بالله التوفيق.

مثل من أنفق ماله فى غير طاعة الله عزّ و جلّ

من أنفق ماله فى غير طاعة الله عزّ و جلّ

و منها قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لا -أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ

ص: ١٤٧

قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفَسِيَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) [آل عمران]، هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته و مرضاته، فشبهه- سبحانه- ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم و المفاجر، و كسب الثناء و حسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، و ما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله و اتباع رسله، بالزرع الذى زرعه صاحبه يرجو نفعه و خيره، فأصابته ريح شديده البرد جدا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع و الثمار، فأهلك ذلك الزرع و أبيضته.

و اختلف في الصر، فقيل: البرد الشديد، و قيل: النار، قاله ابن عباس.

قال ابن الأنباري: و إنما و صفت النار بأنها صر لتصيرتها عند الالتهاب.

و قيل: الصر: الصوت الذى يصحب الريح من شده هبوبها.

و الأقوال الثلاثة متلازمه، فهو برد شديد محرق بييسه للحرث، كما تحرقه النار، و فيه صوت شديد: و فى قوله: أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم: هو ظلمهم، فهو الذى سلط عليهم الريح المذكوره، حتى أهلكت زرعهم و أبيضته، فظلمهم هو الريح التى أهلكت أعمالهم، و نفقاتهم، و أتلفتها.

مثل فيمن انسلخ من آيات الله

فيمن انسلخ من آيات الله

و منها قوله تعالى: وَ أَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) [الأعراف]، فشبهه- سبحانه- من آتاه كتابه، و علمه العلم الذى منعه غيره، فترك العمل به، و اتبع هواه، و أثر سخط الله على رضاه، و دنياه على آخرته، و المخلوق على الخالق، بالكلب الذى هو من أخبث الحيوانات و أوضعها قدرا و أخسها نفسا.

و همته لا- تتعدى بطنه، و أشدها شرها و حرصا، و من حرصه أنه لا- يمشى إلا و خطمه فى الأرض، يتشمم و يستروح حرصا و شرها، و لا- يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، و إذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، و هو من أمهن الحيوانات، و أحملها للهوان، و أرضاها بالدنيا، و الجيف القذره المروحه (١) أحب إليه من اللحم الطرى، و العذره أحب

ص: ١٤٨

١- راح الشىء، و أروح: أنتن.

إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميته تكفى مائه كلب لم يدع كلبا واحدا يتناول منها شيئا إلا- هو عليه وقهره، لحرصه وبخله و شرهه، و من عجيب أمره و حرصه أنه إذا رأى ذا هيئه رثه، و ثياب دنيه، و حال رزيه نبجه، و حمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له و منازعته قوته، و إذا رأى ذا هيئه حسنه و ثياب جميله و رئاسه وضع له خطمه بالأرض، و خضع له، و لم يرفع إليه رأسه.

و فى تشبيه من آثر الدنيا و عاجلها على الله و الدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب فى حال لهثه سر بديع: و هو أن هذا الذى حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته، و اتباعه هواه إنما كان لشده لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله، و الدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، و لهفه: نظير لهف الكلب الدائم، و اللهف و اللهث شقيقان، و أخوان فى اللفظ و المعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. فهو مثل الذى يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع (١).

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر، و ترك اللهث، و هكذا الذى انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، و ترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قله صبره عنها، و هذا يلهث من قله صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرا عن الماء، و إذا عطش أكل الثرى من العطش، و إن كان فيه صبر على الجوع، و على كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا، يلهث قائما و قاعدا و ماشيا و واقفا، و ذلك لشده حرصه، فحراره الحرص فى كبده و توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه: شده الحرص، و حراره الشهوه فى قلبه توجب له دوام اللهف فإن حملت عليه بالموعظه و النصيحة، فهو يلهف، و إن تركته و لم تعظه، فهو يلهف.

قال مجاهد: و ذلك مثل الذى أوتى الكتاب و لم يعمل به.

و قال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، و إن تركته لم يهد إلى خير، كالكلب إن كان رابضا لهث، و إن طرد لهث.

و قال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعى أو لم يدع، و عظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك.

و قال عطاء: ينبج إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه).

ص: ١٤٩

وقال أبو محمد بن قتيبة: «كل شيء يلهث وإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، و حال الراحة، و حال الصحة، و حال المرض و العطش» (١) فضربه الله مثلا- لمن كذب بآياته، و قال: إن وعظته فهو ضال، و إن تركته فهو ضال كالكلب، إن طردته لهث و إن تركته على حاله لهث.

و نظيره قوله سبحانه: وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) [الأعراف].

و تأمل ما في هذا المثل من الحكم و المعنى:

فمنها: قوله: آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، فأخبر- سبحانه- أنه هو الذى آتاه آياته، فإنها نعمه، و الله هو الذى أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه.

ثم قال: فانسلخ منها، أى خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، و فارقها فراق الجلد يسلم عن اللحم، و لم يقل: فسلخناه منها، لأنه هو الذى تسبب إلى انسلخه منها باتباع هواه.

و منها: قوله: سبحانه فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ أى لحقه و أدركه، كما قال فى قوم فرعون:

فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) [الشعراء]، و كان محفوظا محروسا بآيات الله محمى الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئا إلا على غره و خطفه، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذى يعرفون الحق، و يعلمون بخلافه كعلماء السوء.

و منها: أنه- سبحانه- قال: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، فأخبر- سبحانه- أن الرفعه عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، و إنما هى باتباع الحق و إيثاره، و قصد مرضاه الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، و لم يرفعه الله بعلمه، و لم ينفعه به، فنعود بالله من علم لا ينفع.

و أخبر- سبحانه- أنه هو الذى يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، و إن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا- يرفع أحد به رأسا، فإن الخافض الرافع- سبحانه- خفضه و لم يرفعه.

و المعنى: لو شئنا فضلناه و شرفناه، و رفعا قدره و منزلته بالآيات التى آتيناه:

قال ابن عباس: و لو شئنا لرفعناه بعمله بها.

و قالت طائفة: الضمير فى قوله: لَرَفَعْنَاهُ عائد على الكفر، و المعنى: لو شئنا لرفعنا

ص: ١٥٠

عنه الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد و عطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان و عصمناه. و هذا المعنى حق، و الأول هو مراد الآية، و هذا من لوازم المراد (١).

و قد تقدم أن السلف كثيرا ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

و قوله: وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. و قال مجاهد: سكن. و قال مقاتل: رضى بالدنيا. و قال أبو عبيدة: لزمها و أبطأ. و المخلد من الرجال: هو الذى يبطن مشيته، و من الدواب: التى تبقى ثناياها إلى أن تخرج رباعيته. و قال الزجاج: خلد و أخلد، و أصله من الخلود، و هو الدوام و البقاء، و يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حتى من قبائل مالك و عمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قلت: و منه قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) [الواقعه]، أى قد خلقوا للبقاء، لذلك لا يتغيرون و لا يكبرون، و هم على سن واحد أبدا.

و قيل: هم المقربون فى آذانهم و المسورون فى أيديهم، و أصحاب هذا القول فسروا اللفظه ببعض لوازمها، و ذلك أماره التخليد على ذلك السن، فلا تنافى بين القولين.

و قوله: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ، قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، و ترك معاليها.

و قال أبو روق (٢): اختار الدنيا على الآخرة، و قال عطاء: أراد الدنيا، و أطاع شيطانه، و قال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعنى: الذين حاربوا موسى و قومه، و قال يمان: اتبع امرأته، لأنها هى التى حملته على ما فعل.

فإن قيل: الاستدراك ب«لكن» يقتضى أن يثبت بعدها ما نفى قبلها، أو نفى ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكنى لم أعطه، و لو شئت لما فعلت كذا لكنى فعلته.

فالاستدراك يقتضى: و لو شئنا لرفعناه بها، و لكننا لم نرفع، و لكنه أخلد، فكيف استدرك بقوله: وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ بعد قوله: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا؟

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعانى، و ذلك أن مضمون قوله: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا أنه لم يتعاط الأسباب التى تقتضى).

ص: ١٥١

١- راجع الطبرى (١٢٧/٩).

٢- أبو روق، هو عطية بن الحارث، صاحب التفسير، صدوق، انظر تهذيب التهذيب (٢٢٤/٧).

رفعه بالآيات من إيثار الله و مرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا، وأخذ إلى الأرض، و اتبع هواه.

و قال الزمخشري (١): المعنى: و لو لزم آياتنا، لرفعناه بها، فذكر المشيئة، و المراد ما هي تابعه له، و مسببه عنه، كأنه قيل: و لو لزمها لرفعناه بها، قال: أ لا ترى إلى قوله:

وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ، فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون: وَ لَوْ شِئْنَا فِي مَعْنَى مَا هُوَ فَعَلَهُ، و لو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ وَ لَكِنَّا لَمْ نَشَأْ اه. فهذا منه شنشنة نعرفها من قدرى ناف للمشيئة العامه، مبعده للنجعه فى جعل كلام الله معتزليا قدريا، فأين قوله: و لو شئنا من قوله: و لو لزمها، ثم إذا كان اللزوم لها موقوفا على مشيئة الله، و هو الحق، بطل أصله.

و قوله: «إن مشيئة الله تابعه للزومه الآيات» من أفسد الكلام، و أبطله، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله، فمشيئة الله -سبحانه- متبوعه لا تابعه، و سبب لا مسبب، و موجب مقتضى لا مقتضى، فما شاء الله و جب وجوده، و ما لم يشأ امتنع وجوده.

مثل الحياه الدنيا

الحياه الدنيا

و منها قوله تعالى: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَنْتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ الْأُمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) [يونس]، شبه -سبحانه- الحياه الدنيا فى أنها تتزين فى عين الناظر، فتروقه بزينتها و تعجبه، فيميل إليها و يهواها اغترارا بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغيته أحوج ما كان إليها، و حيل بينه و بينها، فشبهها بالأرض التى ينزل الغيث عليها، فتعشب و يحسن نباتها، و يروق منظرها للناظر، فيغتر به، و يظن أنه قادر عليها مالك لها، فأتيتها أمر الله فتدرك نباتها الآفه بغيته، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، و تصبح يدها صفرا منها.

فهكذا حال الدنيا و الواطن بها سواء، و هذا من أبلغ التشبيه و القياس، و لما كانت الدنيا عرضه لهذه الآفات، و الجنه سليمه منها قال: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ [يونس: ٢٥]، فسمّاها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التى ذكرها فى الدنيا، فعم بالدعوه إليها، و خص بالهدايه من يشاء، فذاك عدله، و هذا فضله.

ص: ١٥٢

و منها قوله تعالى: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ لَا تَذَكَّرُونَ [هود: ٢٤]، فإنه -سبحانه- ذكر الكفار و وصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، و ما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين و وصفهم بالإيمان و العمل الصالح و الإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبوديه الظاهر و الباطن و جعل أحد الفريقين كالأعمى و الأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤيه الحق، أصم عن سماعه، فشبّهه بمن بصره أعمى عن رؤيه الأشياء، و سمعه أصم عن سماع الأصوات و الفريق الآخر: بصير القلب كبصير العين.

و سميع الأذن، فتضمنت الآيه قياسين و تمثيلين للفريقين، ثم نفى التسويه عن الفريقين بقوله: هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .

المثال المائى و النارى فى حق المؤمنين

و قد ذكر الله المثلين المائى و النارى فى «سوره الرعد»، و لكن فى حق المؤمنين فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) [الرعد]، شبه الوحي لحياء القلوب و الأسماع و الأبصار بالماء الذى أنزله لحياء الأرض بالنبات، و شبه القلوب بالأوديه، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا، و قلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادى الصغير، فسالت أوديه بقدرها، و احتملت قلوب من الهدى و العلم بقدرها، و كما أن السيل إذا خالط الأرض و مر عليها احتمل غثاء و زبدا، فكذلك الهدى و العلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات و الشبهات، ليقلعها و يذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاط فيتكدر بها شاربه، و هى من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجمعها و لا يشاركها، و هكذا يضرب الله الحق و الباطل.

ثم ذكر المثل النارى فقال: وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، و هو الخبث الذى يخرج عند سبك الذهب و الفضة و النحاس و الحديد، فتخرجه النار و تميزه و تفصله عن الجوهر الذى ينتفع به، فيرمى و يطرح و يذهب جفاء. فكذلك الشهوات و الشبهات يرميها قلب المؤمن و يطرحها و يجفوها كما يطرح السيل و النار ذلك الزبد و الغثاء

و الخبث، و يستقر في قرار الوادى الماء الصافى الذى استقى منه الناس و يزرعون و يسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب و جذره الإيمان الخالص الصافى الذى ينفع صاحبه، ينتفع به غيره، و من لم يفقه هذين المثليين و لم يدرهما، و يعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، و الله الموفق.

مثل في بطلان أعمار الكفار

في بطلان أعمار الكفار

و منها قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البُعِيدُ (١٨)** [إبراهيم]، فشبهه تعالى أعمال الكفار في بطلانها و عدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديده في يوم عاصف، فشبهه- سبحانه- أعمالهم في حبوطها و ذهابها باطلا كالهباء المنثور، لكونها على غير أساس من الإيمان و الإحسان، و كونها لغير الله- عز و جل- و على غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا- يقدر صاحبه على شىء منه وقت شده حاجته إليه، فلذلك قال: **لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ** لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شىء، فلا يرون له أثرا من ثواب، و لا فائده نفعه، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه.

و الأعمال أربعة: فواحد مقبول، و ثلاثة مردوده.

فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، و الصواب: أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

و الثلاثة المردوده ما خالف ذلك.

و في تشبيهها بالرماد سر بديع، و ذلك للتشابه الذى بين أعمالهم، و بين الرماد فى إحراق النار و إذهابها لأصل هذا و هذا، فكانت الأعمال التى لغير الله، و على غير مراده طعمه للنار، و بها تسعر النار على أصحابها، و ينشئ الله- سبحانه- لهم من أعمالهم الباطله نار عذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقه لأمره التى هى خالصه لوجهه من أعمالهم نعيما و روحا، فأثرت النار فى أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم و أعمالهم و ما يعبدون من دون الله و قود النار.

في الكلمه الطيبه

و منها قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)[إبراهيم]، فشبّه -سبحانه و تعالى- الكلمه الطيبه بالشجره الطيبه، لأن الكلمه الطيبه تثمر العمل الصالح، والشجره الطيبه تثمر الثمر النافع و هذا ظاهر على قول جمهور المفسرين يقولون: الكلمه الطيبه هي شهاده أن لا إله إلا الله فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحه الظاهره و الباطنه، فكل عمل صالح مرض لله ثمره هذه الكلمه.

و في تفسير علي بن أبي طالحة عن ابن عباس (١)، قال: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ: شهاده أن لا إله إلا الله كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ و هو المؤمن، أَصْلُهَا ثَابِتٌ: قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

و قال الربيع بن أنس: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجره الطيبه، و أصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، و فرعه في السماء: خشيه الله.

و التشبه على هذا القول أصح و أظهر و أحسن فإنه سبحانه شبه التوحيد في القلب بالشجره الطيبه الثابته الأصل الباسقه الفرع في السماء علوا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

و إذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقا لشجره التوحيد الثابته الراسخه في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحه الصاعده إلى السماء (٢).

لا- تزال هذه الشجره تثمر الأعمال الصالحه كل وقت بحسب ثباتها في القلب و محبه القلب لها، و إخلاصه فيها، و معرفته بحقيقتها، و قيامه بحقوقها، و مراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمه في قلبه بحقيقتها- التي هي حقيقتها- و اتصف قلبه بها، و انصبغ بها بصبغه الله التي لا أحسن صبغه منها، فعرف حقيقه الإلهيه التي يثبتها قلبه لله، و يشهد بها لسانه، و تصدقها جوارحه، و نفى تلك الحقيقه و لوازمها عن كل ما سوى الله، و واطأ قلبه لسانه، في هذا النفي و الإثبات، و انقادت جوارحه لمن شهد له بالواحدانيه طائعه سالكه سبل

ص: ١٥٥

١- الطبري (٢٠٣/١٣)، البيهقي في الأسماء و الصفات (١٣٥) و الطبراني في الدعاء (٢٥٧/٣).

٢- انظر الدرر المنثور للسيوطي (٢٠/٥).

ربه ذللا غير ناكبه عنها، ولا باغيه سواها بدلا، كما لا يتغى القلب سوى معبوده الحق بدلا.

فلا ريب أن هذه الكلمه من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتى ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمه الطيبه هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمه الطيبه تثمر كلما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب كما قال تعالى: **إِنَّهُ يَصِدُّكَ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُهُ** [فاطر: ١٠] فأخبر- سبحانه- أن العامل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمه الطيبه تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

و المقصود أن كلمه التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها و حقيقتها نفيا و إثباتا، متصفا بموجبها، قائما قلبه و لسانه و جوارحه، فهذه الكلمه الطيبه هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، و فروعها متصله بالسماء، و هي مخرجه ثمرتها كل وقت.

و من السلف من قال: إن الشجره الطيبه هي النخله، و يدل عليه حديث ابن عمر الصحيح (١).

و منهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي عن أبيه، عن ابن عباس قوله: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** يعني بالشجره الطيبه المؤمن، و يعنى بالأصل الثابت في الأرض، و الفرع في السماء... يكون المؤمن يعمل في الأرض و يتكلم، فيبلغ عمله و قوله السماء، و هو في الأرض.

و قال عطيه العوفى في قوله: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب، و عمل صالح يصعد إلى الله.

و قال الربيع بن أنس: **أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله و وحده و عبادته و وحده، لا شريك له. **أَصْلُهَا ثَابِتٌ**، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، **وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**، قال: ذكره في السماء، و لا اختلاف بين القولين...

ص: ١٥٦

١- صحيح البخارى- بالفتح-(١٧٥/١) في كتاب العلم، عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله: «إن من الشجر لشجره...» الحديث..

و المقصود بالمثل: المؤمن، و النخلة مشبهه به و هو مشبه بها، و إذا كانت النخلة شجره طيبه، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، و من قال من السلف: إنها شجره فى الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

و فى هذا المثل من الأسرار و العلوم و المعارف ما يليق به، و يقتضيه علم الذى تكلم به و حكمته.

فمن ذلك أن الشجره لا بد لها من عروق و ساق و فروع و ورق و ثمر، كذلك شجره الإيمان و الإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم و معرفه و اليقين، و ساقها الإخلاص، و فروعها الأعمال، و ثمرتها ما توجهه الأعمال الصالحه من الآثار الحميده و الصفات الممدوحه، و الأخلاق الزكيه و السمات الصالحه، و الهدى و الدل المرضى. فيستدل على غرس هذه الشجره فى القلب و ثبوتها فيه بهذه الأمور. فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذى أنزل الله كتابه به، و الاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، و أخبرت به عنه رسله، و الإخلاص قائم فى القلب، و الأعمال موافقه للأمر و الهدى، و الدل و السمات مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجره الإيمان فى القلب أصلها ثابت، و فرعها فى السماء، و إذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجره الخبيثه التى اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار.

و منها: أن الشجره لا تبقى حيه إلا بماده تسقيها و تنميتها، فإذا قطع عنها السقى أو شك أن تيسس، فهكذا شجره الإسلام فى القلب إن لم يتعهدا صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع، و العمل الصالح، و العود بالتذكر على التفكير على التذكر، و إلا أو شك أن تيسس.

و فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الإيمان يخلق فى القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم» (١).

و بالجملة فالغرس إن لم يتعهده صاحبه أو شك أن يهلك. و من هنا تعلم شدة حاجه العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات و عظم رحمته و تمام نعمته و إحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها، و جعلها ماده لسقى غراس التوحيد الذى غرسه فى قلبهم.

و منها: أن الغرس و الزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العاده أن يخالطه دغل و نبت).

ص: ١٥٧

١- عند أحمد من قوله «جددوا إيمانكم» دون أوله (٨٦٩٥)، و قال الهيثمى فى المجمع (٥٧/١): «إسناده جيد و فيه سمير بن نهار و ثقه ابن حبان»، و رواه الحاكم (٤/١) و انظر الصحيحه للألبانى (١٥٨٥).

غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه و نقاه و قلعه، كمل الغرس و الزرع و استوى، و تم نباته، و كان أوفر لثمرته و أطيب و أزكى.

و إن تركه أوشك أن يغلب على الغرس و الزرع و يكون الحكم له، أو يضعف الأصل، و يجعل الثمره ذميمة ناقصه بحسب كثرته و قلته، و من لم يكن له فقه نفس فى هذا و معرفه به، فإنه يفوته ربح كبير و هو لا- يشعر، فالمؤمن دائما سعيه فى شيئين: سقى هذه الشجره، و تنقيه ما حولها، فيسقيها تبقى و تدوم و بتنقيه ما حولها تكمل و تتم، و الله المستعان و عليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار و الحكم، و لعلها قطره من بحر بحسب أذهاننا الواقفه، و قلوبنا المخطئه، و علومنا القاصره، و أعمالنا التى توجب التوبه و الاستغفار، و إلا- فلو طهرت منا القلوب، و صفت الأذهان، و زكت النفوس، و خلصت الأعمال، و تجردت الهمم للتلقى عن الله و رسوله لشاهدنا من معانى كلام الله و أسراره و حكمه ما تضحل عنده العلوم، و تتلاشى عنده معارف الخلق، و بهذا تعرف قدر علوم الصحابه و معارفهم، و أن التفاوت الذى بين علومهم، و علوم من بعدهم كالتفاوت الذى بينهم فى الفضل، و الله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، و من يختص برحمته.

مثل الكلمه الخبيثه

الكلمه الخبيثه

ثم ذكر- سبحانه- مثل الكلمه الخبيثه، فشبها بالشجره الخبيثه التى اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، و لا فرع عال، و لا- ثمره زاكيه، فلا ظل و لا جنى و لا ساق قائم، و لا عرق فى الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق، و لا أعلاها مونق، و لا جنى لها، و لا تعلق بل تعلق، و يقول الله تعالى: **وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [إبراهيم: ٢٦].**

و إذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق فى خطابهم و كسبهم، و جده كذلك، فالخسران الوقوف معه، و الاشتغال به عن أفضل الكلام و أنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا- للكافر بشجره اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل و لا فرع و ليس لها ثمره، و لا فيها منفعه، كذلك الكافر لا يعمل خيرا، و لا يقوله، و لا يجعل الله فيه بركه و لا منفعه.

و قال ابن عباس: **وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ وَ هِيَ الشَّرْكُ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ**، يعنى: الكافر،

أُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا والآخرة.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد بن قتاده في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى توافي بها القيامة.

وقوله: أُجْتُثَّتْ أى: استوصلت من فوق الأرض، ثم أخبر - سبحانه - عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، والكلم الخبيث. فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين - وهم المشركون - عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، و ثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

مثل فى تثبيت المؤمن

فى تثبيت المؤمن

تحت قوله: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ٢٧]، كنز عظيم من وفق لمظنته، وأحسن استخراجه واقتناؤه، وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم. وذلك أن العبد لا يستغنى عن تثبيت الله له طرفه عين، فإن لم يثبته وإلا - زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه، عبده ورسوله: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتُنَاكَ لَقَدْ كِدْتِ تَزْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً - [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا [الأنفال: ١٢]. وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «و هو يسألهم و يثبتهم» (١). وقال تعالى لرسوله: وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ [هود: ١٢٠].

ص: ١٥٩

١- لم أجده فى الصحيحين، ولكنه فى المسند (٣٦٨/٢) وعند الترمذى (٢٥٥٧) فى صفه الجنة، باب: ما جاء فى خلود أهل الجنة و أهل النار، بلفظ: «و هو يأمرهم و يثبتهم» وقال: حسن صحيح، كلاها من حديث أبى هريره رضى الله عنه و الله تعالى أعلم.

فَالخَلْقُ كُلُّهُمْ قَسَمَانِ: مَوْفِقٌ بِالتَّيْبِتِ، وَ مَخْذُولٌ بِتَرْكِ التَّيْبِتِ، وَ مَادَهُ التَّيْبِتُ أَصْلَهُ وَ مَنْشُؤُهُ مِنَ الْقَوْلِ الثَّابِتِ، وَ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ الْعَبْدُ، فَبِهِمَا يَثْبِتُ اللَّهُ عِبْدَهُ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ أَثْبِتَ قَوْلًا وَ أَحْسَنَ فَعَلًا كَانَ أَعْظَمَ تَثْبِيتًا، قَالَ تَعَالَى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتًا [النساء: ٦٦].

فَأَثْبَتَ النَّاسَ قَلْبًا أَثْبَتَهُمْ قَوْلًا، وَ الْقَوْلُ الثَّابِتُ: هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ وَ الصَّدَقُ، وَ هُوَ ضِدُّ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْكَذِبِ، فَالْقَوْلُ نَوْعَانِ: ثَابِتٌ لَهُ حَقِيقَةٌ، وَ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَ أَثْبِتَ الْقَوْلُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ وَ لَوَازِمَهَا، فَهِيَ أَعْظَمُ مَا يَثْبِتُ اللَّهُ بِهَا عِبْدَهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ. وَ لِهَذَا تَرَى الصَّادِقَ مِنْ أَثْبِتَ النَّاسَ، وَ أَشْجَعَهُمْ قَلْبًا، وَ الْكَاذِبَ مِنْ أَمَهَنَ النَّاسَ وَ أَخْبَثَهُمْ وَ أَكْثَرَهُمْ تَلَوْنَا وَ أَقْلَهُمْ ثَبَاتًا. وَ أَهْلُ الْفِرَاسَةِ يَعْرِفُونَ صَدَقَ الصَّادِقُ مِنْ ثَبَاتِ قَلْبِهِ وَ قَتِ الْإِخْبَارِ، وَ شَجَاعَتِهِ وَ مَهَابَتِهِ، وَ يَعْرِفُونَ كَذَبَ الْكَاذِبِ بِضِدِّ ذَلِكَ، وَ لَا يَخْفَى ذَلِكَ إِلَّا عَلَى ضَعِيفِ الْبَصِيرَةِ.

وَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ عَنِ كَلَامِ سَمِعَهُ مِنْ مَتَكَلَّمٍ بِهِ، فَقَالَ: وَ اللَّهُ مَا فَهَمْتُ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ لِكَلَامِهِ صَوْلَهُ لَيْسَتْ بِصَوْلِهِ مَبْطَلٌ. فَمَا مَنَحَ الْعَبْدَ مَنَحَهُ أَفْضَلَ مِنْ مَنَحِهِ الْقَوْلِ الثَّابِتِ، وَ يَجِدُ أَهْلَ الْقَوْلِ الثَّابِتِ ثَمَرَتَهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ فِي قُبُورِهِمْ، وَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ» (١).

وَ قَدْ جَاءَ هَذَا مَبِينًا فِي أَحَادِيثِ صَحَّاحٍ، فَمِنْهَا مَا فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنِ أَبِي نَضْرَةَ، عَنِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي جَنَازِهِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الْأَمَةَ تَبْتَلِي فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الْإِنْسَانُ دَفِنَ، وَ تَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ مَلِكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَقْعَدَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، فَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ إِلَى النَّارِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذَا آمَنْتَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَبَدَلَكَ بِهِ هَذَا، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ لَهُ، فَيَقَالُ لَهُ: اسْكُنْ، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَ أَمَّا الْكَافِرُ [أَوْ] الْمُنَافِقُ: فَيَقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا- أَدْرِي، فَيَقَالُ لَهُ: لَا- دَرَيْتَ وَ لَا- اهْتَدَيْتَ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَامَ.

ص: ١٦٠

١- حَدِيثٌ صَحِيحٌ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٧٢٢/٥-٧٢٣) وَ قَدْ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ، فَلَا تَغْتَرِ أَخَى الْقَارِئِ بِكَلَامِ الْجَهَالِ مَنْكِرِ الْأَمْرِ، وَ الَّذِي خَالَفَ كُلَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي بَابِ الْعَقِيدَةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَنِ، وَ لَا تَنْسَى أَنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثُرَ فِيهِ الْقَوْلُ بِلَا عِلْمٍ.

إذ كفرت، فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يجمعه الملك بالمطراق قمعه يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين» (١)، قال بعض أصحابه: يا رسول الله، ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل (٢) عند ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧].

و في المسند نحوه من حديث البراء بن عازب (٣).

و روى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ذكر قبض روح المؤمن فقال: «يأتيه آت -يعنى فى قبره- فيقول: من ربك، و ما دينك، و من نبيك؟ فيقول: ربي الله، و ديني الإسلام، و نبيي محمد صلى الله عليه و سلم، قال: فتنهه، فيقول: ما ربك و ما دينك؟ و هي آخر فتنه تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، فيقول: ربي الله، و ديني الإسلام و نبيي محمد، فيقال له: صدقت». و هذا حديث صحيح (٤).

و قال حماد بن سلمه، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمه، عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: من ربك، و ما دينك؟ فيقول: ربي الله و ديني الإسلام، و نبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله فأمنت به و صدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، و عليه مت، و عليه تبعث (٥).

و قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذكر قبض روح المؤمن، قال: فترجع روحه فى جسده، و يبعث إليه ملكان شديدا الانتهاز، فيجلسانه، و ينتهرانه و يقولان: من ربك؟ فيقول: الله، و ما دينك؟ فيقول:

الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، ه.

ص: ١٦١

١- أحمد (٣/٣، ٤)، و الحديث رواه مسلم (٦٧/٢٨٦٧) فى الجنة و صفه نعيمها و أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه و إثبات عذاب القبر و التعوذ منه.

٢- أصابه الخوف و الرعب.

٣- أحمد (٢٨٨، ٢٨٧/٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (٥٣/٥): «رجال أحمد رجال الصحيح».

٤- سبق تخريجه.

٥- مسلم (٧٥/٢٨٧٢) فى الجنة و صفه نعيمها و أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه و إثبات عذاب القبر و التعوذ منه.

فيقولان له: و ما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به و صدقت، فذلك قول الله تبارك و تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ . رواه ابن حبان في صحيحه، و الإمام أحمد.

و في صحيحه أيضا من حديث أبي هريره يرفعه: قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، و الزكاه عن يمينه، و كان الصيام عن يساره، و كان فعل الخيرات من الصدقه و الصله المعروف و الإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من عند رأسه، فتقول الصلاة: ما قلبي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاه: ما قلبي مدخل، فيؤتى عن يساره، فيقول الصيام: ما قلبي مدخل، فيؤتى من عند رجله، فيقول فعل الخيرات من الصدقه و الصله و المعروف و الإحسان إلى الناس: ما قلبي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس من مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك عنه، فيقول: دعوني حتى أصلى، فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: و عما تسألوني؟ فيقال له: رأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما ذا تقول فيه، و ما ذا تشهد به عليه؟ فيقول: أ محمد صلى الله عليه و سلم؟ فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، و أنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حيت، على ذلك مت، على ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا، و ينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطه و سرورا، ثم تجعل نسمة في النسيم الطيب، و هي طير خضر، تعلق بشجر الجنة، و يعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب» (١)، و ذلك قول الله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ٢٧] و لا تستطل هذا الفصل المعترض في المفتى، و الشاهد، و الحاكم، بل و كل مسلم أشد ضروره إليه من الطعام و الشراب و النفس، و بالله التوفيق.

التمثيل بالعبد المملوك

و منها قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) [النحل].

ص: ١٦٢

و هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس، و هو نفى الحكم بنفى علته، و موجه.

فإن القياس نوعان: قياس طرد: يقتضى إثبات الحكم فى الفرع لثبوت عله الأصل فيه، و قياس عكس: يقتضى نفى الحكم عن الفرع لنفى عله الحكم فيه.

فالمثل الأول ما ضربه الله -سبحانه- لنفسه و للأوثان، فالله -سبحانه- هو المالك لكل شىء، ينفق كيف يشاء على عبده سرا و جهرا، و ليلا و نهارا يمينه ملأى، لا يغيضها نفقه، سحاء الليل و النهار (١).

و الأوثان مملوكه عاجزه لا تقدر على شىء، فكيف يجعلونها شركاء لى و يعبدونها من دونى مع هذا التفاوت العظيم و الفرق المبين؟ هذا قول مجاهد و غيره.

و قال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمنين و الكفار، و مثل المؤمن فى الخير الذى عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق على نفسه و على غيره سرا و جهرا، و الكافر بمنزله عبد مملوك، عاجز لا يقدر على شىء، لأنه لا خير عنده، فهل يستوى الرجلان عند أحد العقلاء؟

و القول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر فى بطلان الشرك، و أوضح عند المخاطب، و أعظم فى إقامه الحجج، و أقرب نسبا بقوله: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) [النحل: ٧٣-٧٤]، ثم قال: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [النحل: ٧٥] و من لوازم هذا المثل و أحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا. و الكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء، فهذا تبه عليه المثل، و أرشد إليه فذكره ابن عباس منبها على إرادته، لا- أن الآيه اختصت به، فتأمله فإنك تجده كثيرا فى كلام ابن عباس، و غيره من السلف فى فهم القرآن فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآيه التى لا معنى لها غيره، فيحكيه قوله.

و أما المثل الثانى، فهو مثل ضربه الله -سبحانه و تعالى- لنفسه، و لما يعبد من دونه أيضا، فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزله رجل أبكم، لا يعقل، و لا ينطق بل هو أبكم القلب و اللسان، قد عدم النطق القلبى و اللسانى، و مع هذا فهو عاجز لا يقدر على شىء.

ص: ١٦٣

١- يشير للحديث الصحيح عن أبى هريره رضى الله عنه «أنفق ينفق عليك...» إلخ، رواه البخارى (٤٣١٦) فى التفسير، و مسلم (١٦٥٩) فى الزكاه و رواه غيرهما. و معنى سحاء: أى دائمه العطاء و الفيض، لا حد لما توجد به، سبحانه و تعالى.

البتة؛ وعلی هذا فأینما أرسلته لا- یأتیک بخیر، و لا- یقضی لک حاجه، و اللہ- سبحانه- حی قادر متکلم یأمر بالعدل، و هو علی صراط مستقیم، و هذا وصف له بغایه الکمال و الحمد، فإن أمره بالعدل، و هو الحق یتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راض به، أمر لعباده به، محب لأهله لا یأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذی هو الجور و الظلم و السفه و الباطل، بل أمره و شرعه عدل کله.

و أهل العدل هم أولیاءه و أحباؤه، و هم المجاورون له عن یمینه علی منابر من نور، و أمره بالعدل یتناول الأمر الشرعی الدینی، و الأمر القدري الكونی، و كلاهما عدل لا- جور فيه بوجه ما، كما فی الحديث الصحيح: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» (1)، فقضاؤه هو أمره الكونی، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فلا- یأمر إلا- بحق و عدل، و قضاؤه قدره القائم به حق و عدل، و إن كان فی المقضى المقدر ما هو جور و ظلم، فالقضاء غير المقضى، و القدر غير المقدر.

ثم أخبر- سبحانه- أنه علی صراط مستقیم، و هذا نظیر قول رسوله شعيب: إني تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) [هود]، فقوله:

ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا- هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا نظير قوله: «ناصيتي بيدك»، و قوله: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، نظير قوله: «عدل في قضاؤك»، فالأول: ملكه، و الثاني: حمده، و هو- سبحانه- له الملك، و له الحمد، و كونه سبحانه- علی صراط مستقیم يقتضى أنه لا يقول إلا- الحق، و لا- يأمر إلا بالعدل، و لا يفعل إلا ما هو مصلحه و حكمه و عدل، فهو علی الحق فى أقواله و أفعاله فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً له به، و لا- يأخذه بغير ذنبه، و لا- ينقصه من حسناته شيئاً، و لا- يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها، و لم يتسبب إليها شيئاً، و لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره، و لا يفعل قط ما لا يحمد عليه، و يثنى به عليه، و يكون له فيه العواقب الحميدة، و الغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقیم يَأْبَى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبرى: و قوله: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يقول: إن ربي على).

ص: ١٦٤

١- أخرجه الإمام أحمد (٣٧١٢)، و قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، و قال الهيثمى فى المجمع (١٣٩/١٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى سلمه الجهنى و قد وثقه ابن حبان». و رواه الحاكم (٥١٠/٥٠٩/١) و صححه على شرط مسلم و تعقبه الذهبى و ابن حبان (٢٣٧٢) و أبو يعلى (١٩٦/٩).

طريق الحق، يجازى المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا- يظلم أحدا منهم شيئا، ولا- يقبل منهم إلا الإسلام له و الإيمان به (١).

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل، عن ابن أبي نجيح عنه: **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**، قال: الحق، وكذلك رواه ابن جريج عنه.

وقالت فرقه هي مثل قوله: **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)[الفجر]**، وهذا اختلاف عبارته، فإن كونه بالمرصاد، هو مجازاه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقه: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم، ويحضكم عليه.

وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها، فليس كما زعموا، ولا دليل على هذا المقدر، وقد فرق سبحانه بين كونه أمرا بالعدل، وبين كونه على صراط مستقيم، وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم، فقد أصابوا.

وقالت فرقه أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم: أن مرد العباد والأمر كلها إلى الله لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية، فليس كذلك، وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم، ومن مقتضاه و موجه فهو حق.

وقالت فرقه أخرى: معناه: كل شيء تحت قدرته وقهره، وفي ملكه وقبضته، وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية، وقد فرق شعيب بين قوله: **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا**، وبين قوله: **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**، فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه.

وقال جرير (٢) يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط إذا عوج الموارد مستقيم

وقد قال تعالى: **مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: ٣٩]**.

وإذا كان -سبحانه- هو الذي جعل رسله وأتباعه على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم، فهو -سبحانه- أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقه أمره، فصراطه الذي هو -سبحانه- عليه هو ما يقتضيه).

ص: ١٦٥

١- تفسير الطبري (١٢/٤١).

٢- ديوان جرير (٥٠٧).

حمده و كماله و مجده من قول الحق و فعله، و بالله التوفيق.

و فى الآيه قول ثان مثل الآيه الأولى سواء، أنه مثل ضربه الله للمؤمن و الكافر، و قد تقدم ما فى هذا القول و بالله التوفيق.

فى تشبيه من أعرض عن مثل الشرك

إشاره

و منها قوله تعالى: **فَاجْتَبِئُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَبِئُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَيَّحِقِ** (٣١)[الحج]، فتأمل هذا المثل و مطابقتها لحال من أشرك بالله، و تعلق بغيره، و يجوز لك فى هذا التشبيه أمران: أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا، و يكون قد شبه من أشرك بالله، و عبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاه، فصور حاله بصوره حال من خرّ من السماء، فاخطفته الطير فى الهوى، فتمزق مزقا فى حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به فى بعض المطارح البعيده. و على هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبهه و مقابله من المشبهه به.

و الثانى: أن يكون من التشبه المفترق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، و على هذا فيكون قد شبه الإيمان و التوحيد فى علوه و سعته و شرفه بالسماء التى هى مصعده و مهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، و إليها يصعد منه، و شبه تارك الإيمان و التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، و الآلام المتراكمه، و الطير الذى تخطف أعضائه، و تمزقه كل ممزق، بالشياطين التى يرسلها الله - سبحانه و تعالى - عليه أزا، و تزعجه و تقلقه إلى مظان هلاكه. فكل شيطان له مزعه من دينه و قلبه، كما أن لكل طير مزعه من لحمه و أعضائه، و الريح التى تهوى به فى مكان سحيق، هو هواه الذى يحمله على إلقاء نفسه فى أسفل مكان، و أبعد من السماء.

قدره الذين يدعوهن المشركون من دون الله

و منها قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْكُرُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لو اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ** (٧٣) ما قدرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)[الحج]، حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل و يتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، و ذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، و إعدام ما يضره، و الآلهه التى

يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، و لو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ و لا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب و نحوه، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذى هو من أضعف الحيوانات، و لا على الانتصار منه، و استرجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، و لا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟.

و هذا المثل من أبلغ ما أنزله الله - سبحانه - فى بطلان الشرك و تجهيل أهله، و تقبيح عقولهم، و الشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكره، حيث أعطوا الإلهية التى من بعض لوازمها القدره على جميع المقدورات، و الإحاطه بجميع المعلومات، و المغنى عن جميع المخلوقات، و أن يصمد إلى الرب فى جميع الحاجات، و تفريج الكربات، و إغاثة اللهفات، و إجابة الدعوات، فأعطوها صوراً و تماثيل يمتنع عليها القدره على أقل مخلوقات الإله الحق، و أذلها و أصغرها و أحقرها، و لو اجتمعوا لذلك و تعاونوا عليه، و أدل من ذلك على عجزهم و انتفاء لإلهيتهم. أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً، و استلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، و لم يقدرُوا عليه، ثم سوى بين العابد و المعبود فى الضعف و العجز بقوله: ضَعْفُ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ، قيل: الطالب: العابد، و المطلوب: المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز، و قيل: هو تسويه بين السالب و المسلوب، و هو تسويه بين الإله و الذباب فى الضعف و العجز، و على هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، و المطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، و قيل: الطالب: الذباب، و المطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه.

و الصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد و المعبود، المستلب و المستلب، فمن جعل هذا إلهاً مع القوى العزيز، فما قدره حق قدره، و لا عرفه حق معرفته، و لا عظمه حق تعظيمه.

تمثيل أعمال الكافرين بالسراب

و منها قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيَّحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) [النور]، ذكر - سبحانه - للكافرين مثلين، مثلاً بالسراب، و مثلاً بالظلمات المتراكمة.

و ذلك لأن المعرضين عن الهدى و الحق نوعان: أحدهما من يظن أنه على شىء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، و هذه حال أهل الجهل، و أهل البدع و الأهواء الذين يظنون أنهم على هدى و علم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شىء، و أن عقائدهم و أعمالهم التى ترتبت عليها كانت كسراب بقيعه يرى فى عين الناظر ماء و لا حقيقه له.

و هكذا الأعمال التى لغير الله و على غير أمره يحسبها العامل نافعه له، و ليست كذلك و هذه هى الأعمال التى قال الله -عزّ و جلّ- فيها: وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (٢٣) [الفرقان]، و تأمل جعل الله -سبحانه- السراب بالقيعه و هى الأرض القفر الخاليه من البناء و الشجر و النبات و المعالم.

فمحل السراب: أرض قفره لا - شىء بها، و السراب لا - حقيقه له، و ذلك مطابق لأعمالهم و قلوبهم التى أقفرت من الإيمان و الهدى. و تأمل ما تحت قوله: يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً، و الظَّمَانُ الذى قد اشتد عطشه، فرأى السراب، فظنه ماء، فتبعه فلم يجده شيئاً، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول، و لغير الله جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظماً ما كانوا، و أحوج ما كانوا إليهم فلم يجدوا شيئاً و وجدوا الله -سبحانه- ثم (١) فجازاهم بأعمالهم و وفاهم حسابهم.

و فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث التجلى يوم القيامة: «ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون:

كنا نعبد عزيراً ابن الله. فيقال: كذبتُم، لم يكن لله صاحبه و لا ولد، فما تريدون؟ قالوا:

نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا فيتساقطون فى جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ قالوا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتُم لم يكن لله صاحبه و لا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون» (٢) و ذكر الحديث. و هذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقه له، و هو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق و لا حق كان متعلقه باطلاً.

و كذلك إذا كانت غايه العمل باطله كالعمل لغير الله، أو على غير أمره بطل العملن.

ص: ١٦٨

١- أى هناك.

٢- مسلم (٢٦٧) فى الإيمان.

ببطلانه، و بحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله و اعتقاده، لا له و لا عليه، بل صار معذبا بفوات نفعه، و بحصول ضد النفع، فلماذا قال تعالى: وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى.

النوع الثانى: أصحاب مثل الظلمات المتراكمه، و هم الذين عرفوا الحق و الهدى و آثروا عليه ظلمات الباطل و الضلال، فتراكت عليهم ظلمه الطبع، و ظلمه النفوس، و ظلمه الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، و ظلمه اتباع الغى و الهوى، فحالهم كحال من كان فى بحر ليجى لا ساحل له، و قد غشيه موج، و من فوق ذلك الموج موج، و من فوقه سحب مظلم، فهو فى ظلمه البحر، و ظلمه الموج، ظلمه السحاب، و هذا نظير ما هو فيه من الظلمات التى لم يخرجها الله منها إلى نور الإيمان.

و هذان المثان بالسراب الذى ظنه ماده الحياه، و هو الماء، و الظلمات المضاده للنور، نظير المثليين اللذين ضربهما الله للمنافقين و المؤمنين، و هو المثل المائى، و المثل النارى، و جعل حظ المؤمنين منهما الحياه و الإشراق، و حظ المنافقين منهما الظلمه المضاده للنور، و الموت المضاد للحياه. فكذلك الكفار فى هذين المثليين حظهم من الماء السراب الذى يغر الناظر، و لا حقيقه له، و حظهم الظلمات المتراكمه. و هذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفه من طوائف الكفار، و أنهم عدموا ماده الحياه و الإضاء بإعراضهم عن الوحى، فيكون المثان صفتين لموصوف واحد.

و يجوز أن يكون المراد به تنوع أحوال الكفار، و أن أصحاب المثل الأول هم اللذين عملوا على غير علم و لا بصيره، بل على جهل و حسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا، و أصحاب المثل الثانى هم اللذين استحبوا الضلاله على الهدى، و آثروا الباطل على الحق، و عموا عنه بعد أن أبصروه و جحدوه بعد أن عرفوه.

فهذا حال المغضوب عليهم، و الأول حال الضالين.

و حال الطائفتين مخالف حال المنعم عليهم المذكورين فى قوله تعالى: *اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (النور: ٣٥-٣٨) فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثه المنعم عليهم: و هم أهل النور، و الضالين: و هم أصحاب السراب، و المغضوب عليهم: و هم أهل الظلمات المتراكمه، و الله أعلم.

فالمثل الأول من المثليين: لأصحاب العلم الذى لا ينفع، و الاعتقادات الباطله،

و كلاهما مضاد للهدى و دين الحق، و لهذا مثل حال الفريق الثانى فى تلاطم أمواج الشكوك و الشبهات و العلوم الفاسده فى قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، و أنها أمواج متراكمه من فوقها سحب مظلم.

و هكذا أمواج الشكوك، و الشبه فى قلوبهم المظلمه التى قد تراكمت عليها سحب الغى و الهوى و الباطل.

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، و ليطبق بينهما المثليين يعرف عظمه القرآن و جلالته، و أنه تنزيل من حكيم حميد.

و أخبر-سبحانه-أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم على الظلمه التى خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه ولى الذى آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

و فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو: أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمه، و ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، و من أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله» (١). فالله سبحانه خلق الخلق، فمن أراد هدايته جعل له نورا و جوديا يحيا به قلبه و روحه كما يحيى به بدنه بالروح التى ينفخها فيه، فهما حياتان:

حياه البدن بالروح، و حياه الروح و القلب بالنور.

و لهذا سمى-سبحانه-الوحى روحا لتوقف الحياه الحقيقيه عليه، كما قال تعالى:

يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [النحل: ٢]، و قال: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [غافر: ١٥]، و قال تعالى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: ٥٢]، فجعل وحيه روحا و نورا، فمن لم يحيه بهذا الروح، فهو ميت، و من لم يجعل نورا منه فهو فى الظلمات ما له من نور.

مثل فى بيان حال الكفار

فى بيان حال الكفار

و منها قوله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا- كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)[الفرقان]، فشبّه أكثر الناس بالأنعام، و الجامع بين النوعين التساوى فى عدم

ص: ١٧٠

١- رواه الإمام أحمد (٤٨٥٤)، و قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» و الحاكم (٣٠/١-٣١).

قبول الهدى و الانقياد، و جعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها تهتدى، و تتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا و لا شمالا، و الأكثرون يدعوهم الرسل و يهدونهم السبيل، فلا يستجيبون و لا يهتدون، و لا يفرقون بين ما يضرهم و بين ما ينفعهم، و الأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات و الطريق فتجنبه، و ما ينفعها فتؤثره، و الله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، و لا ألسنه تنطق بها، و أعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى و جعل لهم من العقول و القلوب و الألسنه و الأسماع و الأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدى إلى الرشده و إلى الطريق مع الدليل أضل و أسوأ حالا ممن لا يهتدى، حيث لا دليل معه.

مثل فى الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى

فى الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى

و منها قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٤١)[العنكبوت]، فذكر - سبحانه - أنهم ضعفاء، و أن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم، فهم فى ضعفهم، و ما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا، و هو أوهن البيوت و أضعفها.

و تحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا، كما قال تعالى:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا - سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) [مريم]، و قال تعالى: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَشْفِعُونَ لِنَصْرِهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (٧٥)** [يس]، و قال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: **وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)** [هود].

فهذه أربعة مواضع فى القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به، و يتكبر به و يستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصود.

و فى القرآن أكثر من ذلك، و هذا من أحسن الأمثال و أدلها على بطلان الشرك، و خساره صاحبه، و حصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ؟

فالجواب: أنه- سبحانه- لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه، يفيدهم عزا و قدره، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

مثل فى ضلال المشركين

فى ضلال المشركين

و منها قوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)[الروم]، و هذا دليل قياسى احتج الله- سبحانه- به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده و ملكه شركاء، فأقام عليهم حجه يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، و من أبلغ الحجج أن يأخذ الإنسان من نفسه و يحتج عليه بما هو فى نفسه مقرر عندها، معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيد و إمائكم شركاء فى المال و الأهل. أى: هل يشاركم عبيدكم فى أموالكم و أهليكم، فأنتم و هم فى ذلك سواء، أ تخافون أن يقاسموكم أموالكم و يشاطروكم إياها، و يستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه.

و قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. و المعنى: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه فى ماله و أهله حتى يساويه فى التصرف فى ذلك، فهو يخاف أن ينفرد فى ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء و الأحرار، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بى من خلقى من هو مملوك لى؟ فإن كان هذا الحكم باطلا فى فطركم و عقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن فى حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة، و إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، و أنتم و هم عباد لى فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم فى حقى مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى و ملكى و خلقى؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول.

مثل الموحد و المشرك

الموحد و المشرك

و منها قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلِمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمِيدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)[الزمر]، هذا مثل ضربه الله- سبحانه- للمشرك

ص: ١٧٢

و الموحد، فالمشرك بمنزله عبد يملكه جماعه متنازعون مختلفون متشاحنون.

و الرجل المتشاكس: الضيق الخلق، فالمشرك لما كان يعبد آلهه شتى شبه بعبد يملكه جماعه متنافسون فى خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين. و الموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له و علم مقاصده، و عرف الطريق إلى رضاه، فهو فى راحه من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه، مع رأفه مالكة به و رحمته له و شففته عليه و إحسانه إليه و توليه لمصالحه، فهل يستوى هذان العبدان؟

و هذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد، يستحق من معونته و إحسانه و التفاته إليه و قيامه بمصالحه، ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

مثل المغتاب

المغتاب

و منها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يُعْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أُوْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) [الحجرات]، و هذا من أحسن القياس التمثيلى، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، و لما كان المغتاب يمزق عرض أخيه فى غيبته، كأنه بمنزله من يقطع لحمه فى حال غيبه روجه عنه بالموت.

و لما كان المغتاب عاجزا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه، كان بمنزله الميت الذى يقطع لحمه، و لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

و لما كان مقتضى الأخوة: التراحم و التواصل و التناصر، فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الدم و العيب و الطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه. و الأخوة تقتضى حفظه و صيانته و الذب عنه، و لما كان المغتاب متمتعا بعرض أخيه، متفكها بغيبته و ذمه، متحليا بذلك، شبه بمن يأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، و لما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، و محبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه و التمثيل، و حسن موقعه، و مطابقه المعقول فيه المحسوس، و تأمل إخباره عنهم بكراهه أكل لحم الأخ ميتا، و وصفهم بذلك فى آخر الآيه، و الإنكار عليهم فى

أولها، أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله و نظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، و شبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، و هم أشد شيء نفره عنه، فلهذا يوجب العقل و الفطره و الحكمة أن يكونوا أشد شيء نفره، عما هو نظيره و مشبهه، و بالله التوفيق.

مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به

و منها قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥)[الجمعه]، ففاس من حمله -سبحانه- كتابه، ليؤمن به و يتدبره، و يعمل به، و يدعو إليه ثم خالف ذلك، و لم يحمله إلا -على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر و لا- تفهم، و لا- اتباع له، و تحكيم له، و عمل بموجه، كحمار على ظهره زامله أسفار لا يدرى ما فيها، و حظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره.

فهذا المثل، و إن كان قد ضرب لليهود؛ فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، و لم يؤد حقه، و لم يرعه حق رعايته.

مثل للكفار و مثالن للمؤمنين

و منها قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ** (١٠) **وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (١١) **وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ عَلَيْهَا وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ** (١٢)[التحریم] فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، و مثالن للمؤمنين.

فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره و عداوته لله و رسوله و أوليائه، و لا ينفعه مع كفره ما كان بينه و بين المؤمنين من لحمه نسب، أو وصله صهر، أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله و حده على أيدي رسله، فلو نفعت وصله القرابه و المصاهره أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصله التي

كانت بين نوح و لوط و امرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً: وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ قَطَعَتِ الْآيَةَ حِينَئِذٍ طَمَعٌ مِنْ رُكْبٍ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَرَجَا أَنْ يَنْفَعَهُ صِلَاحٌ غَيْرُهُ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ أَجْنَبِيٍّ، وَ لَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ الْإِتِّصَالِ، فَلَا إِتِّصَالَ فَوْقَ إِتِّصَالِ النَّبِيِّ وَالْأَبِ وَ الزَّوْجِيَّةِ، وَ لَمْ يَغْنِ نُوْحٌ عَنْ ابْنِهِ، وَ لَا إِبْرَاهِيمُ عَنْ أَبِيهِ، وَ لَا نُوْحٌ وَ لَا لُوْطٌ عَنْ أَمْرَأْتِيهِمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

قال الله تعالى: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) [الممتحنة: ٣] و قال تعالى: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) [الانفطار]، و قال تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً [البقرة: ١٢٣]، و قال: وَ أَحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ [لقمان: ٣٣]. و هذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة: أن من تعلقوا به من دون الله من قرابه أو صهر أو نكاح أو صحبه ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو يشفع لهم عند الله.

و هذا أصل ضلال بنى آدم و شركهم، و هو الشرك الذى لا- يغفره الله، و هو الذى بعث الله جميع رسله و أنزل جميع كتبه بإبطاله و محاربه أهله و معاداتهم.

و أما المثالان اللذان للمؤمنين: فأحدهما: امرأه فرعون، و وجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه فى كفره و عمله، فمعصية الغير لا- تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة، و إن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامه، فلم يضر امرأه فرعون اتصالها به و هو من أكفر الكافرين، و لم ينفع امرأتا نوح و لوط اتصالهما بهما، و هما رسولا رب العالمين.

المثل الثانى: للمؤمنين: مريم التى لا زوج لها، لا مؤمن و لا كافر.

فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التى لها وصله بالرجل الصالح، و المرأة الصالحة التى لها وصله بالرجل الكافر، و المرأة العزب التى لا وصله بينها و بين أحد.

فالأولى: لا تنفعها وصلتها و سببها.

و الثانية: لا تضرها وصلتها و سببها.

و الثالثة: لا يضرها عدم الوصله شيئاً.

ثم فى هذا الأمثال من الأسرار البديعه ما يناسب سياق السوره، فإنها سيقت فى ذكر أزواج النبي صلى الله عليه و سلم و التحذير من تظاهرن عليه، و أنهن إن لم يطعن الله و رسوله و يردن الدار

الآخرة، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله صلى الله عليه و سلم كما لم ينفع امرأتا نوح و لوط اتصالهما بهما، و لهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل الأول يحذر عائشه و حفصه، ثم ضرب لهما المثل الثانى يحرضهما على التمسك بالطاعة، و فى ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضا اعتبار آخر و هو أنها لم يضرها عند الله شيئا قذف أعداء الله اليهود لها و نسبتهم إياها و ابنها إلى ما برأهما الله عنه، مع كونها الصديقه المصطفاه على نساء العالمين، فلا يضر الرجل الصالح قذح الفجار و الفساد فيه. و فى هذا تسليته لعائشه أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصه الإفك، و توطين نفسها على ما قال الكاذبون إن كانت قبلها، كما فى ذكر التمثيل بامرأتى نوح و لوط تحذير لها و حفصه مما اعتمدها فى حق النبى صلى الله عليه و سلم، فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن و التخويف، و التحريض لهن على الطاعة و التوحيد و التسليته و توطين النفس لمن أودى منهن و كذب عليه، و أسرار التنزيل فوق هذا و أجل منه، و لا سيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون.

مثل فى تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره

و منها قوله تعالى فى تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره: **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُورٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)** [المدثر]، شبههم فى إعراضهم و نفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماه، ففرت منه، و هذا من بديع القياس و التمثيل، فإن القوم فى جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، و هى لا تعقل شيئا، فإذا سمعت صوت الأسد، أو الرامى نفرت منه أشد النفور، و هذا غايه الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذى فيه سعادتهم، و حياتهم كنفور الحمر عما يهلكها و يعقرها. و تحت المستنفره معنى أبلغ من النافره، فإنها لشده نفورها، قد استنفر بعضها بعضا، و حضه على النفور، فإن فى الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد. فكأنها تواصت بالنفور، و تواطأت عليه، و من قرأها بتفتح الفاء (١) فالمعنى: أن القسوره استنفرها و حملها على النفور ببأسه و شدته.

ص: ١٧٦

١- قرأ نافع و ابن عامر و المفضل عن عاصم: (مستنفره) بفتح الفاء، و الباقون بكسر الفاء، انظر السبعه فى القراءات لابن مجاهد.

كم فى القرآن من مثل عقلى و حسى ينبه به العقول على حسن ما أمر به، و قبح ما نهى عنه. فلو لم يكن فى نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، و لكان إثبات ذلك بمجرد الأمر و النهى، دون ضرب الأمثال، و تبين جهه القبح المشهوده بالحس و العقل.

و القرآن مملوء بهذا لمن تدبره، كقوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)[الروم] يحتج- سبحانه- عليهم بما فى عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكاً له، فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، و لا- يرضى بذلك، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادتى؟ و هذا يبين أن قبح عباده غير الله تعالى مستقر فى العقول و الفطر، و السماح به العقول و أرشدها إلى معرفه ما أودع فيها من قبح ذلك.

و كذلك قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)[الزمر] احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكه، و حال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح فى العقول استواء حال العبيدين؟ فكذلك حال المشرك و الموحد الذى قد سلمت عبوديته لاله الحق، لا يستويان.

و كذل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا- تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَيْفُونَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَيْلِدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)[البقره] ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، و المن و الأذى المبطل للصدقات ب«صفوان» و هو الحجر الأملس عليه تراب: غبار قد لصق به، فأصابه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صليداً»: أملس لا- شىء عليه. و هذا المثل فى غايه المطابقه لمن فهمه. ف«الصفوان» و هو الحجر. كقلب المرائى و المانّ و المؤذى. و«التراب» الذى لصق به ما تعلق به من أثر عمله و صدقته. و «الوابل»: المطر الذى به حياه الأرض. فإذا صادفها لينه قابله: نبت فيها الكلاء، و إذا صادف الصخور و الحجاره الصم: لم ينبت فيها شيئاً، فجاء هذا الوابل إلى التراب الذى على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله، فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

و هذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول، فلذلك نبهها على شبهه و مثاله.

و عكس ذلك قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)[البقره] فإن كانت هذه الجنة التى بموضع عال حيث لا تحجب عنها الشمس و الرياح، و قد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضعفى ما يخرج غيرها- إن كانت مستحسنه فى العقل و الحس. فكذلك نفقه من أنفق ماله لوجه الله، لا- لجزاء من الخلق، و لا- لشكور، بل بثبات من نفسه، و قوه على الإنفاق، لا يخرج النفقه و قلبه يرجف على خروجها، و يدها ترتعشان، و يضعف قلبه، و يخور عند الإنفاق. بخلاف نفقه صاحب التثبيت و القوه.

و لما كان الناس فى الإنفاق على هذين القسمين، كان مثل نفقه صاحب الإخلاص و القوه و التثبيت: كمثل الوايل. و مثل نفقه الآخر كمثل الطل، و هو المطر الضعيف.

فهذا بحسب كثرة الإنفاق و قلته، و كمال الإخلاص و القوه و اليقين فيه و ضعفه. أ فلا- تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، و استقباح فعل الأول؟ (١)

الخلاصه فهذا بعض ما اشتمل عليه القرآن من التمثيل و القياس و الجمع و الفرق، و اعتبار العلل و المعانى و ارتباطها بأحكامها تأثيرا و استدلالا، قالوا: و قد ضرب الله- سبحانه- الأمثال و صرفها قدرا و شرعا و يقظه و مناما، و دل عباده على الاعتبار بذلك و عبورهم من الشىء إلى نظيره و استدلالهم بالنظير على النظير (٢).

ص: ١٧٨

١- مدارج السالكين (٢٤١، ٢٤٠/١).

٢- إعلام الموقعين (٢٠٠/١-٢٤٦).

إن الله -سبحانه- قسم الأدله السمعيه إلى قسمين: محكم و متشابه، و جعل المحكم أصلا للمتشابه، و إِمَّا له يرد إليه، فما خالف ظاهر المحكم فهو متشابه يرد إلى المحكم.

و قد اتفق المسلمون على هذا، و أن المحكم هو الأصل، و المتشابه مردود إليه (١).

المتشابه و أنواع الأحكام

إشاره

الله -سبحانه- جعل القلوب على ثلاثه أقسام: مريضه، و قاسيه، و مخبته. و ذلك لأنها إما أن تكون يابسه جامده لا تلين لإعطاء الأعمال الصالحه.

و أما النوع الثاني: فلا يخلو إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه، لقوته مع لينه، أو يكون ثابتا مع ضعف و انحلال.

و الثاني: هو القلب المريض، و الأول هو الصحيح المخبت. و هو جمع الصلابه و الصفاء و اللين فيبصر الحق بصفائه، و يشد فيه بصلابته، و يرحم الخلق بليته، كما في أثر مروى: «القلوب آنيه الله فى أرضه، فأحبها إلى الله أصلبها و أرقها و أصفاهها» (٢)، كما قال تعالى فى أصحاب هذه القلوب: أَشِدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ [الفتح: ٢٩] فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم، و اشتدوا على الكفار بصلابتها و تراحموا فيما بينهم بليتها.

و ذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن، و هو أشرف أعضائه و ملكها المطاع. و كل عضو كاليد مثلا- إما أن تكون جامده و يابسه لا- تلتوى و لا- تبطش، أو تبطش بضعف، فذلك مثل القلب القاسى، أو تكون مريضه ضعيفه عاجزه، و لضعفها و مرضها، فذلك مثل

ص: ١٧٩

١- الصواعق المرسله (٧٧٢/٢).

٢- قال العلامة الألبانى رحمه الله تعالى: «أخرجه الطبرانى من المعجم الكبير، (المنتقى منه)، و إسناده قوى، رجاله كلهم ثقات أثبات غير نقيه، و هو صدوق كثير التحديث عن الضعفاء...، و لكن هناك قد صرح بالحديث» السلسله الصحيحه (١٦٩١).

الذى فيه مرض، أو تكون باطشه بقوه و لين، فذلك مثل القلب العليم الرحيم. فبالعلم خرج عن المرض الذى ينشأ من الشهوه و الشبهه، و بالرحمه خرج عن القسوه.

و لهذا وصف -سبحانه- من عدا أصحاب القلوب المريضة و القاسيه بالعلم و الإيمان و الإخبات.

فتأمل ظهور حكمته -سبحانه- فى أصحاب هذه القلوب، و هم كل الأمم، فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم، كما أخبر أنهم فى المتشابه يقولون: آمنا به كل من عند ربنا [آل عمران: ٧]. و كلا الوصفين موضع شبهه. فكان حظهم منه الإيمان، و حظ أرباب القلوب المنحرفه عن الصحه الافتتان.

و لهذا جعل -سبحانه- إحكام آياته فى مقابله ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات فى مقابله المتشابهات. فالإحكام هاهنا بمنزله إنزال المحكمات هناك، و نسخ ما يلقي الشيطان هاهنا فى مقابله رد المتشابه إلى المحكم هناك.

و النسخ هاهنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الرب سبحانه.

و للنسخ معنى آخر و هو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يردده و لا دل اللفظ عليه و إن أوهمه، كما أطلق الصحابه النسخ على قوله: وَ إِنْ تُبَدُّوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقره: ٢٨٤].

فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت، فإن المحاسبه لا تستلزم العقاب فى الآخره و لا فى الدنيا أيضا. و لهذا عمهم بالمحاسبه ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء. ففهم المؤاخذه التى هى المعاقبه من الآيه تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقره: ٢٨٤]، إلى آخرها. فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، و ذاك رفع لما ألقاه غير الملك، فى أسماعهم أو فى التمنى.

و للنسخ معنى ثالث عند الصحابه و التابعين، و هو ترك الظاهر إما بتخصيص عام أو بتقييد مطلق، و هذا كثير فى كلامهم جدا.

و له معنى رابع، و هو الذى يعرفه المتأخرون، و عليه اصطلاحوا، و هو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له، فهذه أربعه معان للنسخ (١).

ص: ١٨٠

أحدهما: الإحكام الذى فى مقابله المتشابه، كقوله: مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ [آل عمران: ٧].

و الثانى: الإحكام فى مقابله نسخ ما يلقي الشيطان كقوله: فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [الحج: ٥٢] وهذا الإحكام يعم جميع آياته، و هو إثباتها و تقريرها و بيانها، و منه قوله كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ [هود: ١].

الثالث: إحكام فى مقابله الآيات المنسوخه، كما يقول السلف كثيرا: هذه الآيه محكمه غير منسوخه. و ذلك لأن الإحكام تاره يكون فى التنزيل، فيكون فى مقابله ما يلقيه الشيطان فى أمنيته ما يلقيه المبلغ أو فى سماع المبلغ. فالحكم هنا هو المنزل من عند الله أحكمه الله، أى فصله من اشتباهه بغير المنزل، و فصل منه ما ليس منه بإبطاله.

و تاره يكون فى إبقاء المنزل و استمراره فلا ينسخ بعد ثبوته.

و تاره يكون فى معنى المنزل و تأويله، و هو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لا يشتبه به (١).

التحذير ممن يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة

سألت عائشه رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم، عن قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ [آل عمران: ٧]، فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله، فاحذروهم» متفق عليه (٢).

بيان خطأ الأخذ بالمتشابه فى رد المحكم

ذكر أحمد الاحتجاج على إبطال قول من عارض السنن بظاهر القرآن، ووردها بذلك و هذا فعل الذين يستمسكون بالمتشابه فى رد المحكم، فإن لم يجدوا لفظا متشابها غير المحكم يردونه به، استخرجوا من المحكم وصفا متشابها، و ردوه به.

فلهم طريقان فى رد السنن:

ص: ١٨١

١- سيأتى الكلام فى النسخ قريبا.

٢- إعلام الموقعين (٤/٤٩٦).

أحدهما:ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن.

الثانى:جعلهم المحكم متشابهها،ليعطلوا دلالتة.

و أما طريقه الصحابه و التابعين و أئمة الحديث، كالشافعى، و الإمام أحمد، و مالك، و أبى حنيفة، و أبى يوسف، و البخارى، و إسحاق، فعكس هذه الطريقه، و هى أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، و يأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه، و يبينه لهم. فتتفق دلالتة مع دلالة المحكم، و توافق النصوص بعضها بعضا، و يصدق بعضها بعضها، فإنها كلها من عند الله، و ما كان من عند الله. فلا اختلاف فيه، و لا تناقض. و إنما الاختلاف و التناقض فيما كان من عند غيره، و لنذكر لهذا الأصل أمثله لشده حاجه كل مسلم إليه أعظم من حاجته إلى الطعام و الشراب.

المثال الأول:رد الجهميه النصوص المحكمه غايه الإحكام، المبينه بأقصى غايه البيان:أن الله موصوف بصفات الكمال، من العلم و القدره و الإراده و الحياه و الكلام و السمع و البصر و الوجه و اليدين و الغضب و الرضا و الفرح و الضحك و الرحمه و الحكمة، و بالأفعال كالمجىء و الإتيان و النزول إلى السماء الدنيا، و نحو ذلك.

و العلم بمجىء الرسول بذلك، و إخباره به عن ربه إن لم يكن فوق العلم بوجوب الصلاه و الصيام و الحج و الزكاه و تحريم الظلم و الفواحش و الكذب، فليس يقصر عنه، فالعلم الضرورى حاصل بأن الرسول أخبر عن الله بذلك، و فرض على الأمة تصديقه فيه فرضا لا يتم أصل الإيمان إلا به.

فرد الجهميه ذلك بالمتشابه من قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]، و من قوله:

هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا [مريم: ٦٥]، و من قوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) [الإخلاص: ١].

ثم استخراجوا من هذه النصوص المحكمه المبينه احتمالات و تحريفات جعلوها به من قسم المتشابه (١).

ص: ١٨٢

١- فى معنى المحكم و المتشابه أكثر من عشره أقوال ذكرها السيوطى فى الإتيان فى الباب الثالث و الأربعين، ثم ذكر الاختلاف فى معرفه المتشابه هل مما يمكن الاطلاع عليه أم لا!! و مدار الخلاف على فهم قوله تعالى: وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ وَ هل قوله تعالى وَ الرّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ معطوفاً، و يقولون «حال أو مبتدأ خبره يقولون و الواو للاستئناف. إلخ... ثم بين اختيار الجمهور من العلماء إلى أن أولى العلم مما يعلم تأويله، و ذهب إلى ذلك النووى فى شرحه على مسلم و قال ابن الحاجب: و هو الأظهر. و فى المسأله تفصيل انظرها فى موضعه، الإتيان (٢/٢).

المثال الثاني: ردهم المحكم المعلوم بالضروره أن الرسل جاءوا به: من إثبات علو الله على خلقه و استوائه على عرشه بمتشابه قول الله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ [الحديد:

٤]، و قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [ق:١٦]، و قوله: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثِهِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا [المجادله:٧]، و نحو ذلك، ثم تخيلوا و تحملوا، حتى ردوا نصوص العلو و الفوقيه بمتشابه.

المثال الثالث: رد القدرية النصوص الصريحه المحكمه فى قدره الله على خلقه، و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن بالمتشابه من قوله: وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف:٤٩]، وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت:٤٦]، إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور:١٦]، ثم استخراجوا لتلك النصوص المحكمه وجوها آخر أخرجوها به من قسم المحكم، و أدخلوها فى المتشابه.

المثال الرابع: رد الجبرية النصوص المحكمه فى إثبات كون العبد قادرا مختارا فاعلا بمشيئته بمتشابه قوله: وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الإنسان ٣٠]، وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [المدثر:٥٦]، و قوله: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام:

٣٩]، و أمثال ذلك، ثم استخراجوا لتلك النصوص من الاحتمالات التى يقطع السامع أن المتكلم لم يردها ما صيروها به متشابهه.

المثال الخامس: رد الخوارج و المعتزله النصوص الصريحه المحكمه غايه الإحكام فى ثبوت الشافعه للعصاه، و خروجهم من النار بالمتشابه من قوله: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)[المدثر]، و قوله: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ [آل عمران:١٩٢]، و قوله:

وَ مَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا [النساء:١٤]، و نحو ذلك، و فعلوا فيها فعل من ذكرناه سواء.

المثال السادس: رد الجهميه النصوص المحكمه التى قد بلغت فى صراحتها و صحتها إلى أعلى الدرجات، فى رؤيه المؤمنين ربهم تبارك و تعالى فى عرصات القيامة. و فى الجنه المتشابه من قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ [الأنعام:١٠٣]، و قوله لموسى لَنْ تَرَانِي [الأعراف:١٤٣]، و قوله: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ [الشورى:٥١]، ثم أحالوا المحكم متشابهها و ردوا الجميع.

المثال السابع: رد النصوص الصريحه الصحيحه التى تفوق العدد على ثبوت الأفعال الاختياريه للرب سبحانه و قيامها به، كقوله: كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [الرحمن:٢٩]، و قوله:

فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ [التوبة: ١٠٥]، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) [يس]، و قوله: فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ [النمل: ٨]، و قوله: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا [الأعراف: ١٤٣]، و قوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَظْهَرًا فَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الإسراء: ١٨١].

[١٦]، و قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا [أول المجادلة]، و قوله: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ. [آل عمران: ١٨١].

و قوله: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا» (١).

و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ [الأنعام: ١٥٨].

و قوله: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، و لم يغضب بعده مثله» (٢)، و قوله: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي» الحديث (٣).

و أضعاف أضعاف ذلك من النصوص التي تزيد على الألف، فردوا هذا كله مع إحكامه بمتشابهه قوله: لا أَحِبُّ الْمَآفِلِينَ [الأنعام: ٧٦].

المثال الثامن: رد النصوص المحكمه الصريحه التي في غايه الصحه و الكثره على أن الرب سبحانه إنما يفعل ما يفعله لحكمه و غايه محموده، وجودها خير من عدمها، و دخول لام التعليل في شرعه و قدره أكثر من أن يعد فردوها بالمتشابهه من قوله: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) [الأنبياء]، ثم جعلوها كلها متشابهه.

المثال التاسع: رد النصوص الصحيحه الكثيره الداله على ثبوت الأسباب شرعا و قدرا، كقوله: بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: ٤٣]، بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [يونس: ٥٢]، بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ [الأنفال: ٥١]، بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ [الحج: ١٠]، بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [الأنعام: ٩٣]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ [النحل: ١٠٧]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (٩) [محمد: ٩]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا [الجاثية: ٣٥]، و قوله: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ [المائدة: ١٦]، و قوله: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا [البقره: ٢٦]، و قوله: ب.

ص: ١٨٤

١- البخارى (٦٣٢١) فى الدعوات، باب: الدعاء نصف الليل.

٢- البخارى (٣٣٤٠) فى الأنبياء، باب: قول الله عز و جل وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ [هود: ٢٥].

٣- مسلم (٣٨/٣٩٥) فى الصلاة، باب: وجوب قراءه الفاتحه فى كل ركعه و أنه إذا لم يحسن الفاتحه و لا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، و الترمذى (٢٩٥٣) فى تفسير القرآن، باب: و من سوره فاتحه الكتاب.

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩) [ق]، وقوله: فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ [الأعراف: ٥٧]، وقوله: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَ أَعْنَابٍ [المؤمنون: ١٩]، وقوله: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [التوبة: ١٤]، وقوله في العسل:

فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ [النحل: ٦٩]، وقوله في القرآن: وَ نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢]، إلى أضعاف أضعاف ذلك من النصوص المثبتة للسببيه، فردوا ذلك كله بالمتشابه من قوله: هَيْلٌ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ [فاطر: ٣]، وقوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧]، وقوله النبي صلى الله عليه و سلم: «ما حملتكم، و لكن الله حملكم» (١) و نحو ذلك. وقوله: «إني لا- أعطى أحدا، و لا- أمنعه» (٢)، وقوله للذي سأله عن العزول عن أمته: «اعزل عنها، فسيأتيها ما قدر لها» (٣)، وقوله: «لا عدوى و لا طيره» (٤)، وقوله: «فمن أعدى الأول؟» (٥)، وقوله: «أرأيت إن منع الله الثمره» (٦)، و لم يقل:

منعها البرد و الآفه التي تصيب الثمار، و نحو ذلك من المتشابه الذي إنما يدل على أن مالك السبب و خالقه يتصرف فيه، بأن يسلبه سببته إن شاء، و يقيها عليه إن شاء، كما سلب النار قوه الإحراق عن الخليل عليه السلام.

و يا لله العجب أ ترى من أثبت الأسباب، و قال: إن الله خالقها أثبت خالقا غير الله؟! و أما قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧] فغاب عنهم فقه الآيه و فهمها، و الآيه من أكبر معجزات النبي صلى الله عليه و سلم، و الخطاب بها خاص لأهل بدر، و كذلك القبضه التي رمى بها النبي صلى الله عليه و سلم فأوصلها الله- سبحانه- إلى جميع وجوه المشركين، و ذلك خارج عن قدرته صلى الله عليه و سلم، و هو الرمي الذي نفاه عنه، و أثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته و هو الحذف. و كذلك القتل الذي نفاه عنهم، هو قتل لم تباشره أيديهم، و إنما باشرته أيدي الملائكة، فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس، و إذا برأسه قد وقع أمامه من ضربه الملك. ا.

ص: ١٨٥

- ١- البخارى (٦٦٢٣) فى الأيمان و النذور، باب: قول الله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ [المائدة: ٨٩].
- ٢- البخارى (٨٤٤) فى الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة.
- ٣- مسلم (١٣٤/١٤٣٩) فى النكاح، باب: حكم العزل.
- ٤- البخارى (٥٧٧٥) فى الطب، باب: لا عدوى، و مسلم (١٠١/٢٢٢٠) فى السلام، باب: لا عدوى و لا طيره و لا هامه و لا صفر و لا نوء و لا غول و لا يورد ممرض على مصح.
- ٥- البخارى (٥٧٧٥) فى الطب، باب: لا عدوى، و مسلم (١٠١/٢٢٢٠) فى السلام، باب: لا عدوى و لا طيره و لا هامه و لا صفر و لا نوء و لا غول و لا يورد ممرض على مصح.
- ٦- النسائى (٤٥٢٦) فى البيوع، باب: شراء الثمار قبل أن يبدو صلاحها على أن يقطعها و لا يتركها إلى أوان إدراكها.

و لو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص، لم يكن فرق بين ذلك و بين كل قتل و كل فعل من شرب أو زنا أو سرقة أو ظلم، فإن الله خالق الجميع، و كلام الله ينزه عن هذا.

و كذلك قوله: «ما أنا حملتكم، و لكن الله حملكم»، لم يرد أن الله حملهم بالقدر، و إنما كان النبي صلى الله عليه و سلم متصرفاً بأمر الله منفذاً له، فالله - سبحانه - أمره بحمله، فنفذ أوامره، فكأن الله هو الذي حملهم، و هذا معنى قوله: «و الله إنى لا أعطى أحدا شيئاً و لا أمنعه»، و لهذا قال: «و إنما أنا قاسم»، فالله - سبحانه - هو المعطى على لسانه، و هو يقسم ما قسمه بأمره.

و كذلك قوله في العزل: «فسيأتيها ما قدر لها»، ليس فيه إسقاط الأسباب، فإن الله سبحانه إذا قدر خلق الولد، سبق من الماء ما يخلق منه الولد، و لو كان أقل شىء، فليس من كل الماء يكون الولد، و لكن أين في السنه أن الوطاء لا تأثير له في الولد البتة، و ليس سبباً له؟ و أن الزوج أو السيد إن وطئ أو لم يطأ، فكلا الأمرين بالنسبة إلى حصول الولد و عدمه على حد سواء كما يقوله منكرو الأسباب؟

المثال العاشر: رد الجهميه النصوص المحكمه الصريحه التي تفوت العد على أن الله - سبحانه - تكلم و يتكلم و يكلم و يقال و يقول، و أخبر و يخبر، و نبأ و ينبئ، و أمر و يأمر، و نهى و ينهى، و رضى و يرضى، و يعطى، و يبشر و ينذر، و يحذر، و يوصل لعباده القول، و يبين لهم ما يتقون، و نادى و ينادى، و ناجى و يناجى، و وعد و أوعد، و يسأل عباده يوم القيامة و يخاطبهم، و يكلم كلاً منهم ليس بينه و بينه ترجمان و لا حاجب، و يراجعه عبده مراجعه.

و هذه كلها أنواع الكلام و التكليم، و ثبوتها بدون صفة التكلم له ممتنع، فردها الجهميه مع إحكامها صراحتها و تعيينها للمراد منها، بحيث لا تحتمل غيره بالمتشابه من قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

المثال الحادى عشر: ردوا محكم قوله: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ [الأعراف: ٥٤] و قوله:

وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي [السجده: ١٣] و قوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [النحل:

١٠٢] و قوله: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] و قوله: إِنِّي اضْطَيْقُتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي [الأعراف: ١٤٤]، و غيرها من النصوص المحكمه بالمتشابه من قوله: خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ [الرعد: ١٦] و قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) [التكوير] و الآيتان حجه عليهم، فإن صفات الله جل جلاله داخله في مسمى اسمه، فليس الله اسماً لذات لا سمع لها، و لا

بصر لها، و لا- حياه لها، و لا- كلام لها، و لا علم، و ليس هذا رب العالمين، و كلامه تعالى، و علمه و حياته و قدرته و مشيئته و رحمته، داخله فى مسمى اسمه، فهو- سبحانه- بصفاته و كلامه الخالق، و كل ما سواه مخلوق.

و أما إضافه القرآن إلى الرسول بإضافه تبليغ محض لا- إنشاء. و الرساله تستلزم تبليغ كلام المرسل، و لو لم يكن للمرسل كلام يبلغه الرسول لم يكن رسولا، و لهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً، فقد أنكر رساله رسله، فإن حقيقه رسالتهم تبليغ كلام من أرسلهم.

فالجهميه و إخوانهم ردوا تلك النصوص المحكمه بالمتشابه، ثم صيروا الكل متشابهاً، ثم ردوا الجميع، فلم يثبتوا لله فعلاً يقوم به يكون به فاعلاً، كما لم يثبتوا له كلاماً يقوم به يكون به متكلماً. فلا- كلام له عندهم و لا- أفعال، بل كلامه و فعله عندهم مخلوق، منفصل عنه، و ذلك لا يكون صفه له، لأنه سبحانه إنما يوصف بما قام به، لا بما لم يقم به.

المثال الثانى عشر: و قد تقدم ذكره مجملاً- فنذكره هاهنا مفصلاً: رد الجهميه النصوص المتنوعه المحكمه على علو الله على خلقه، و كونه فوق عباده من ثمانية عشر نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقيه مقرونه بأداه «من» المعينه لفوقيه الذات، نحو: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) [النحل].

الثانى: ذكرها مجردة عن الأداه، كقوله: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه، نحو: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ [المعارج: ٤]، و قوله النبى صلى الله عليه و سلم: «يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم» (١).

الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ [النساء:

١٥٨]، و قوله: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا و قدرا و شرفاً، كقوله: وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقره: ٢٥٥]، وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [سبأ: ٢٣]، إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٍ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ.

ص: ١٨٧

[النحل: ١٠٢]. و هذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذى تكلم به لا غيره.

الثانى: على علوه على خلقه، وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده، من أعلى مكان إلى رسوله.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** [فصلت: ٣٨] أو قوله: **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِبُونَ** (١٩) [الأنبياء]، ففرق بين من له عموماً، ومن عنده من ممالئكه و عبيده خصوصاً، وقوله النبى صلى الله عليه و سلم فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى على نفسه «أنه عنده على العرش» (١).

التاسع: التصريح بأنه -سبحانه فى السماء، وهذا عند أهل السنه على أحد وجهين، إما أن تكون «فى» بمعنى «على»، و ما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون فى ذلك، و لا يجوز حمل النص على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداه «على»، مختصاً بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات، مصاحباً فى الأكثر لأداه «ثم» الداله على الترتيب و المهملة، و هو بهذا السياق صريح فى معناه الذى لا يفهم المخاطبون غيره من العلو و الارتفاع، و لا يحتمل غيره البته.

الحادى عشر: التصريح برفع الأيدى إلى الله -سبحانه- كقوله صلى الله عليه و سلم: «إن الله يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً» (٢).

الثانى عشر: التصريح بنزوله كل ليله إلى السماء الدنيا (٣)، و النزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حساً إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم به، و ما يجب له و يمتنع عليه من أفراخ الجهميه و المعتزله و الفلاسفه، فى أعظم مجمع على وجه الأرض يرفع إصبعه إلى السماء، و يقول: «اللهم اشهد» ليشهد الجميع أن الرب الذى أرسله، و دعا إليه، و استشهده هو الذى فوق سماواته على عرشه. هـ.

ص: ١٨٨

١- أخرجه البخارى (٢٩٥٥) فى بدء الخلق، و مسلم (٤٩٣١) فى التوبه.

٢- حديث صحيح، رواه غير واحد بألفاظ متقاربه، رواه أبو داود-الصحيح- (١٣٣٧) و ابن ماجه (٣١١٧) و غيرهما.

٣- سبق تخريجه.

الرابع عشر: التصريح بلفظ «الآين»، الذي هو عند الجهميه بمنزله «متى» في الاستحاله، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل: «آين الله؟» متى كان الله؟ عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمتهم و أعظمهم بيانا عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلا بوجه: «آين الله؟» (1) في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته- التي هي أصدق شهادته عند الله و ملائكته و جميع المؤمنين- لمن قال: إن ربه في السماء بالإيمان، و شهد عليه أفراخ جهم بالكفر، و صرح الشافعي بأن هذا الذي وصفته- من أن ربها في السماء- إيمان، فقال في كتاب في باب: عتق الرقبه المؤمنه، و ذكر حديث الأمه- السوداء التي سودت وجوه الجهميه، و بيضت وجوه المحمديه- فلما و صفت الإيمان قال: «أعتقها، فإنها مؤمنه»، و هي إنما و صفت كون ربها في السماء، و أن محمدا عبده و رسوله، فقرنت بينهما في الذكر، فجعل الصادق المصدق مجموعها هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره- سبحانه- عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبره به من أنه فوق السموات، فقال: يا هامان ابن لى صيرحاً لعلّى أبلغ الأسباب (36) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى و إنى لأظنه كاذباً (37) [غافر: 36، 37]، فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء. و عند الجهميه: لا فرق بين الإخبار بذلك، و بين الإخبار بأنه يأكل و يشرب، و على زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا- يليق به، و كذب موسى في إخباره بذلك، إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السموات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى و لجميع الأنبياء.

و لذلك سماهم أئمة السنه: فرعونيه، قالوا: و هم شر من الجهميه، فإن الجهميه يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، و هؤلاء عطلوه بالكليه، و أوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض. فأى طائفه من طوائف بنى آدم أثبتت الصانع على أى وجه، كان قولهم خيرا من قولهم.

السابع عشر: إخباره صلى الله عليه و سلم أنه تردد بين موسى، و بين الله، و يقول له موسى: «ارجع إلى ربك، فسله التخفيف» (2)، فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى، فيأمره بالرجوع إليه- سبحانه- ت.

ص: 189

1- يشير إلى حديث معاوية بن الحكم السلمي و صفعه لجاريتته فأراد أن يعتقها فأتى بها النبي صلى الله عليه و سلم فسألها: «آين الله؟» قالت: في السماء، قال من أنا، قالت: أنت رسول الله... إلخ. أخرجه مسلم (836) في المساجد، و رواه غير واحد من أئمة الحديث.

2- مسلم (259/162) في الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى السموات و فرض الصلوات.

فيصعد إليه-سبحانه-ثم ينزل من عنده إلى موسى عنده مرار.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه، وإخبار رسوله عنه أن المؤمنين يرونه عيانا جهره كرؤية الشمس في الظهيرة و القمر ليله البدر. والذى تفهمه الأمم على اختلاف لغاتها و أوهامها من هذه الرؤية رؤيه المقابله و المواجهه،التي تكون بين الرائي و المرئي فيها مسافه محدوده غير مفرطه فى البعد،فتمتنع الرؤية،و لا- فى القرب،فلا- تمكن الرؤية،لا- تعقل الأمم غير هذا.فإما أن يروه سبحانه من تحتهم-تعالى الله-أو من خلفهم،أو من أمامهم،أو عن أيانهم أو عن شمائلهم أو من فوقهم،و لا بد من قسم من هذه الأقسام إن كانت الرؤية حقا، و كلها باطل سوى رؤيتهم له من فوقهم،كما فى حديث جابر الذى فى المسند وغيره:«بيننا أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سَطَعَ لَهُمْ نَوْرٌ، فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا الْجِبَارُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» (١)، ثم قرأ قوله: سَيَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٨٥) [يس] ثم يتوارى عنهم، و تبقى رحمته و بركته عليهم فى ديارهم. و لا- يتم إنكار الفوقيه إلا بإنكار الرؤية، و لهذا طرد الجهيمه أصلهم، و صرحوا بذلك، و ركبوا النفيين معا، و صدق أهل السنه بالأمرين معا، و أقروا بهما، و صار من أثبت الرؤية، و نفى علو الرب على خلقه، و استواءه على عرشه، مذبذبا بين ذلك لا- إلى هؤلاء، و لا إلى هؤلاء.

فهذه أنواع من الأدله السمعيه المحكمه، و إذا بسطت أفرادها كانت ألف دليل على علو الرب على خلقه و استوائه على عرشه. فترك الجهيمه ذلك كله و ردوه بالمتشابه من قوله: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ [الحديد: ٤]، و رده زعيمهم المتأخر بقوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)، و بقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١].

ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهه، فسلطوا المتشابه على المحكم، و ردوه به، ثم ردوا المحكم متشابهه، فتاره يحتجون به على الباطل، و تاره يدفعون به الحق، و من له أدنى بصيره يعلم أنه لا- شىء فى النصوص أظهر، و لا- أبين دلالة من مضمون هذه النصوص، فإذا كانت متشابهه، فالشريعه كلها متشابهه، و ليس فيها شىء محكم البتة!

و لازم هذا القول-لزوما لا محيد عنه- أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم فإنها أوهمتهم، و أفهمتهم غير المراد، و أوقعتهم فى اعتقاد الباطل، و لم يتبين لهم ما هوق.

ص: ١٩٠

١- ابن ماجه (١٨٤) فى المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهيمه، و ضعفه الألبانى، و قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠١، ٧، ١٠٠): «رواه البزار و فيه الفضل بن عيسى الرقاشى و هو ضعيف»، و يغنى عنه الأحاديث الصحيحه فى هذا الباب كما سبق.

الحق في نفسه، بل أحيلوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم و أفكارهم و مقاييسهم. فنسأل الله مثبت القلوب-تبارك و تعالى- أن يثبت قلوبنا على دينه، و ما بعث به رسوله من الهدى و دين الحق، ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريب مجيب.

المثال الثالث عشر: رد الراضه النصوص الصحيحه الصريحه المحكمه المعلومه عند خاص الأمه و عامتها بالضروره فى مدح الصحابه و الثناء عليهم، و رضاه الله عنهم، و مغفرته، و تجاوزه عن سيئاتهم، و وجوب محبه الأمه، و اتباعهم لهم و استغفارهم لهم، و اقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (1)، و نحوه.

كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم و إيمانهم و طاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخوارج، حين ردوا النصوص الصحيحه المحكمه فى موالاه المؤمنين و محبتهم، و إن ارتكبوا بعض الذنوب التى تقع مكفره بالتوبه النصوص الاستغفار، و الحسنات الماحيه، و المصائب المكفره، و دعاء المسلمين لهم فى حياتهم و بعد موتهم، و بالامتحان فى البرزخ، و فى موقف القيامة، و بشفاعه من يأذن الله له فى الشفاعه، و بصدق التوحيد، و برحمه أرحم الراحمين. فهذه عشره أسباب تمحق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها، فلا بد من دخول النار، ثم يخرجون منها.

فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد و ردوا المحكم من أفعالهم و إيمانهم و طاعتهم بالمتشابه من أفعالهم الذى يحتمل أن يكونوا قصدوا به طاعه الله، فاجتهدوا، فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المنفرد، و كان حظ أعدائهم منه تكفيرهم و استحلال دمائهم و أموالهم، و إن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، و لهم من الحسنات و التوبه و غيرها ما يرفع موجب الذنب، فاشتركوا هم و الراضه فى رد المحكم من النصوص، و أفعال المؤمنين بالمتشابه منها، فكفروهم و خرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان و يدعون أهل الأوثان، ففساد الدنيا و الدين من تقديم المتشابه على المحكم، و تقديم الرأى على الشرع، و الهوى على الهدى، و بالله التوفيق.

المثال الرابع عشر: رد المحكم الصريح الذى لا يحتمل إلا وجهها واحدا من وجوب الطمأنينه و توقف أجزاء الصلاه، و صحتها عليها، كقوله: «لا تجزئ صلاه لا يقيم الرجل فيها».

ص: ١٩١

١- أخرجه البخارى (١٧٣٩) فى الحج، باب: الخطبه أيام منى، و مسلم (٢٩/١٦٧٩) فى القسامه، باب: تغليط تحريم الدماء و الأعراض و الأموال.

صلبه في ركوعه و سجوده» (١)، و قوله لمن تركها: «وصل فإنك لم تصل» (٢) و قوله: «ثم اركع حتى تطمئن راكعاً» (٣)، فنفي أجزاءها بدون الطمأنينه، و نفي مسمائها الشرعي بدونها، و أمر بالإتيان بها، فرد هذا المحكم الصريح بالمتشابه من قوله: اِرْكَعُوا وَ اسْجُدُوا [الحج: ٧٧].

المثال الخامس عشر: رد المحكم الصريح من تعيين التكبير للدخول في الصلاة بقوله:

«إذا قمت إلى الصلاة فكبر» (٤)، و قوله: «تحريمها التكبير» (٥)، و قوله: «لا يقبل الله صلاة أحدكم، حتى يضع الوجود مواضعه، ثم يستقبل القبلة، و يقول: الله أكبر» (٦)، و هي نصوص في غايه الصحه، فردت بالمتشابه من قوله: وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥). [الأعلى].

المثال السادس عشر: رد النصوص المحكمه الصريحه الصحيحه في تعيين قراءه فاتحه الكتاب فرضاً، بالمتشابه من قوله: فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ [المزمل: ٢٠]، و ليس ذلك في الصلاة، و إنما هو بدل عن قيام الليل، و بقوله للأعرابي: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» (٧)، و هذا يحتمل: أن يكون قبل تعيين الفاتحه للصلاه، و أن يكون الأعرابي لا يحسنها، و أن يكون لم يسه في قراءتها فأمره أن يقرأ معها ما تيسر من القرآن، و أن يكون أمره بالاكْتفاء بما تيسر عنها، فهو متشابه يحتمل هذه الوجوه، فلا يترك له المحكم الصريح (١٠).

ص: ١٩٢

١- أبو داود (٨٥٥) في الصلاة، باب: صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع و السجود، و الترمذى (٢٦٥) في الصلاة، باب: ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع و السجود.

٢- البخارى (٧٩٣) في الأذان، باب: أمر النبي صلى الله عليه و سلم الذى لا يتم ركوعه بالإعادته، و مسلم (٤٥/٣٩٧) في الصلاة، باب: وجوب قراءه الفاتحه في كل ركعه.

٣- سبق تخريجه في الحاشيه السابقه.

٤- أبو داود (٦١) في الطهاره، باب: فرض الوجود، و الترمذى (٢٣٨) في أبواب الصلاة باب: ما جاء في تحريم الصلاة و تحليلها، و قال: «حسن».

٥- رواه أبو داود (٨٥٧) في الصلاة، باب: من لا يقيم صلبه، و ضعفه الألبانى رحمه الله تعالى.

٦- سبق تخريجه.

٧- إعلام الموقعين (٣٠٤/٢-٣٢٠)

إذا كان الرب تعالى لا حجر عليه بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد و يتلى عباده بما يشاء و يحكم و لا يحكم عليه، فما الذى يحيل عليه و يمنعه أن يأمر أمه بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمه أخرى عنه، أو يحرم محرما على أمه و يبيحه لأمه أخرى.

بل أى شىء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك فى الشريعة الواحدة فى وقتين مختلفين بحسب المصلحه و قد بين ذلك سبحانه و تعالى: ما نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) [البقره: ١٠٦] فأخبر سبحانه أن عموم قدرته و ملكه و تصرفه فى مملكته و خلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء و يثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء و يثبت (١) فهكذا أحكامه الدينيه الأمريه، ينسخ منها ما يشاء و يثبت منها ما يشاء.

فمن أكفر الكفر و أظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذى جاء بالبينات و الهدى و تدفع نبوته و تجحد رسالته؛ بكونه أتى بإباحه بعض ما كان محرما على من قبله أو تحريم بعض ما كان مباحا لهم، و بالله التوفيق يضل من يشاء و يهدى من يشاء.

و من العجب أن هذه الأمه الغضبيه (٢) تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، و قد تركوا شريعته موسى عليه السلام فى أكثر ما هم عليه، و تمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم و علماؤهم فمن ذلك:

أنهم يقولون فى صلاتهم ما ترجمته هكذا: اللهم اضرب ببوق عظيم لفيينا و اقبضنا جميعا من أربعه أقطار الأرض إلى قدسك سبحانه يا جامع شتات قوم إسرائيل.

ص: ١٩٣

١- قال تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) [الرعد: ٣٩] و هى مذكوره بعد بيان أن الرسل لا تأتى بشىء من نفسها إنما بالوحى، و أن الآجال مقدره فى كتابه يقول تعالى عن ذلك و ما كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [الرعد: ٣٨] فهذا المحور إما لكتب الآجال أو نسخ ما فى شرائع و الله أعلم.

٢- يعنى اليهود لعنهم الله تعالى.

و يقولون كل يوم ما ترجمته هكذا:أردد حكمانا كالأولين و مسراتنا كالأبتداء و ابن أورشليم قريه قدسك و أعزنا بابتنائها سبحانك يا باني يورشليم.

فهذا قولهم فى صلاتهم مع علمهم بأن موسى و هارون عليهما السّلام لم يقولوا شيئاً من ذلك و لكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم.

و كذلك صيامهم كصوم إحراق بيت المقدس، و صوم أحصا و صوم كدليا التى جعلوها فرضاً لم يصمها موسى، و لا يوشع بن نون، و كذلك صوم هامان، ليس شىء من ذلك فى التوراه، و إنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

هذا مع أن فى التوراه ما ترجمته: لا تزيدوا على الأمر الذى أنا موصيكم به شيئاً، و لا تنقصوا منه شيئاً (١).

حكم نسخ القرآن بالسنة

قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الرضاعه تحرم ما تحرم الولاده» (٢): هذا الحكم متفق عليه بين الأمه، حتى عند من قال: إن الزيادة على النص نسخ (٣)، و القرآن لا ينسخ بالسنة، فإنه اضطر إلى قبول هذا الحكم و إن كان زائداً على ما فى القرآن، سواء سماه نسخاً أو لم يسمه. كما اضطر إلى تحريم الجمع بين المرأه و عمتها، و بينها و بين خالتها، مع أنه زياده على نص القرآن، و ذكرها هذا مع حديث أبى القعيس فى تحريم لبن الفحل على أن المرضعه و الزوج صاحب اللبن قد صارا أبوين للطفل، و صار الطفل ولداً لهما، فانتشرت الحرمة من هذه الجهات الثلاث، فأولاد الطفل و إن نزلوا أولاد ولدتهما، و أولاد كل واحد من المرضعه و الزوج من الآخر و من غيره، إخوته و أخواته من الجهات الثلاث، فأولاد أحدهما من الآخر إخوته و أخواته لأبيه و أمه، و أولاد الزوج من غيرها إخوته و أخواته من أبيه، و أولاد المرضعه من غيره إخوته و أخواته لأمه، و صار آباؤها أجداده و جداته، و صار إخوه المرأه و أخواتها أخواله و خالاته، و إخوه صاحب اللبن و أخواته أعمامه و عماته فحرمة الرضاع تنتشر من هذه الجهات الثلاث فقط (٤).

ص: ١٩٤

١- إغاثه اللهفان [٣٢٦، ٢/٣٢٧].

٢- البخارى (٥٠٩٩) فى النكاح، باب: وَ أُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ [النساء: ٢٣]، و مسلم (٢/١٤٤٤) فى الرضاع، باب: يحرم من الرضاعه ما يحرم من الولاده.

٣- انظر ما كتبناه فى المقدمه عن مسأله النسخ.

٤- زاد المعاد (٥/٥٥٦).

[١] قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) [البقره]، فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقى من الربا و هو ما لم يقبض و لم يأمرهم برد المقبوض، لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه، بل أهل قباء صلوا إلى القبلة المنسوخه بعد بطلانها و لم يعيدوا ما وصلوا، بل استداروا في صلاتهم و أتموها، لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم، و في هذا الأصل ثلاثه أقوال للفقهاء و هي لأصحاب أحمد، هذا أحدها و هو أصحابها، و هو اختيار شيخنا رضى الله عنه.

و الثانى: أن الخطاب إذا بلغ طائفه ترتب في حق غيرهم و لزمهم كما لزم من بلغه، و هذا اختيار كثير من أصحاب الشافعى و غيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائى و الخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائى يعم ثبوته من بلغه و غيره، و الخطاب الناسخ لا يترتب فى حق المخاطب إلا- بعد بلوغه، و الفرق بين الخطابين أنه فى الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به، بخلاف الخطاب الابتدائى، ذكره القاضى أبو يعلى فى بعض كتبه (١).

و نصوص القرآن و السنه تشهد للقول الأول، و ليس هذا موضع استقصاء هذه المسأله و إنما أشرنا إليها إشاره.

قال أبو القاسم (٢): و فى الحديث دليل على أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يصلى بمكه إلى بيت المقدس، و هو قول ابن عباس يعنى قوله للبراء: «لقد كنت على قبله» (٣).

و قالت طائفه: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينه سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهرا.

ص: ١٩٥

١- هو الإمام العلامة شيخ الحنابله، محمد بن الحسن بن محمد بن خلف البغدادى الحنبلى صاحب التصانيف المبهره منها «مسائل الإيمان» و «العهده» فى أصول الفقه و انظر منه (٣/٧٨٠) و ما بعدها. - انظر السير (١٨/٨٩)، و طبقات الحنابله (٢/١٩٣-٢٣٠).

٢- هو العلامة السهلى، انظر الروض الأنف (٤/١١٣-١١٤).

٣- السيره النبويه لابن هشام (٢/٨٦-٨٨)، و الحديث فى كنز العمال معزولا لأبى نعيم (٨/٢٨). و انظر الإصابه (١/٢٣٨).

فعلى هذا يكون فى القبله نسخان، نسخ سنه بسنه، و نسخ سنه بقرآن، و قد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف فى هذه المسأله، فروى عنه من طرق صحاح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان إذا صلى بمكه استقبل بيت المقدس و جعل الكعبه بينه و بين بيت المقدس (١)، فلما كان صلى الله عليه و سلم يتحرى القبلتين جميعا لم بين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكه، و لذلك -و الله أعلم- قال الله تعالى فى الآيه الناسخه: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** [البقره: ١٥٠]، أى من أى جهه جئت إلى الصلاه و خرجت إليها فاستقبل الكعبه مستدبرا بيت المقدس أو لم تكن، لأنه كان بمكه يتحرى فى استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبه بين يديه. قال و تدبر قوله: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ** و قال لأمته: **وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** [البقره: ١٥٠]، و لم يقل: «حيث ما خرجتم»، و ذلك لأنه صلى الله عليه و سلم كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم فى كل صلاه ليصلى بهم، و كان ذلك واجبا عليه إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج فى خاصته هذا المعنى و لم يكن غيره هكذا يقتضى الخروج، و لا سيما النساء و من لا جماعه عليه.

قلت: و يظهر فى هذا معنى آخر و هو أن قوله: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** و **حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** [البقره: ١٥٠]، خطاب عام له و لأمته، يقتضى أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام فى أى موضع كانوا من الأرض و قوله: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** خطاب بصيغه الإفراد و المراد هو و الأمه كقوله: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ** [الأحزاب: ١]، و نظائره.

و هو يفيد الأمر باستقبالها من أى جهه و مكان خرج منه و قوله: **وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** يفيد الأمر باستقبالها فى أى موضع استقر فيه و هو تعالى لم يقيد الخروج بغايه، بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أى مخرج كان من صلاه أو غزو أو حج أو غير ذلك فهو مأمور باستقبال المسجد هو و الأمه، و فى أى بقعه كانوا من الأرض فهو مأمور هو و الأمه باستقباله.

فتناولت الآيتان أحوال الأمه كلها، فى مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا و فى غايته إلى حيث انتهوا و فى حال استقرارهم حيثما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال فى الأحوال الثلاث التى لا ينفك منها العبد، فتأمل هذا المعنى و وازن بينه و بين ما أبداه أبو).

ص: ١٩٦

القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كد أفهام أمثالنا من القاصرين.

فقوله: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ يَتَنَاوَلُ مَبْدَأُ الْخُرُوجِ وَ غَايَتُهُ لَهُ وَ لِلْأَمَةِ وَ كَانَ أَوْلَى بِهَذَا الْخُطَابِ لِأَنَّ مَبْدَأَ التَّوَجُّهِ عَلَى يَدَيْهِ كَانَ، وَ كَانَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى التَّحْوِيلِ.

وقوله: وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ يَتَنَاوَلُ أَمَاكِنَ الْكُونِ كُلِّهَا لَهُ وَ لِلْأَمَةِ، وَ كَانُوا أَوْلَى بِهَذَا الْخُطَابِ لِتَعَدُّدِ أَمَاكِنِ أَكْوَانِهِمْ وَ كَثْرَتِهَا بِحَسَبِ كَثْرَتِهِمْ وَ اخْتِلَافِ بِلَادِهِمْ وَ أَقْطَارِهِمْ، وَ اسْتِدَارَتِهَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ شَرْقًا وَ غَرْبًا وَ يَمِينًا وَ عِرَاقًا، فَكَانَ الْأَحْسَنُ فِي حَقِّهِمْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ:

وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ أَى مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ فِي شَرْقِهَا وَ غَرْبِهَا وَ سَائِرِ جِهَاتِهَا، وَ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَدْخَلُوا فِي هَذَا الْخُطَابِ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَتَأْمَلْ هَذِهِ النَّكْتَ الْبَدِيعَةَ فَلَعَلَّكَ لَا تَتَّظَرُّ بِهَا فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

قال أبو القاسم: وَ كَرَّرَ الْبَارِي تَعَالَى الْأَمْرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ، لِأَنَّ الْمُنْكَرِينَ لِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانُوا ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: الْيَهُودَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِالنَّسْخِ فِي أَصْلِ مَذْهَبِهِمْ، وَ أَهْلَ الرِّيبِ وَ النِّفَاقِ اشْتَدَّ انْكَارُهُمْ لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ نَسْخِ نَزْلِ، وَ كِفَارِ قَرِيْشٍ قَالُوا: نَدِمَ مُحَمَّدٌ عَلَى فِرَاقِ دِينِنَا فَسِيرَجِعْ إِلَيْهِ كَمَا رَجِعْنَا إِلَى قِبْلَتِنَا. وَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ يَقُولُونَ: يَزْعَمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَدْعُونَا إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ، وَ قَدْ فَارَقَ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ آثَرَ عَلَيْهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ حِينَ أَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ: لِيَأْتِيَكَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَنْقُوعِ، أَى لَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَ لَا يَهْتَدُونَ، وَ قَالَ: أَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِرِينَ (البقرة: ١٤٧) أَى مِنَ الَّذِينَ شَكُّوا وَ امْتَرَوْا. وَ مَعْنَى أَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أَى الَّذِي أَمَرْتَكُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ فَلَا تَمْتَرُ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (البقرة: ١٤٤)، وَ قَالَ: وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ١٤٦) أَى يَكْتُمُونَ مَا عَلِمُوا أَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ قِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ.

ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب «الناسخ و المنسوخ»، قال: حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عنبسه عن يونس عن ابن شهاب، قال: كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه و هو ولي عهد، قال: و معه خالد بن يزيد بن معاوية فقال سليمان و هو جالس فيه: و الله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون و النصراني لعجبا - كذا رأيت، و الصواب اليهود - قال خالد بن يزيد: أما و الله إنني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله

على محمد صلى الله عليه و سلم، و أقرأ التوراه، فلم تجدها اليهود فى الكتاب الذى أنزله الله عليهم و لكن تابوت السكينه كان على الصخره، فلما غضب الله عز و جل على بنى إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخره عن مشاوره منهم.

و روى أبو داود أيضا أن يهوديا خاصم أبا العاليه فى القبله، فقال أبو العاليه: إن موسى كان يصلى عند الصخره و يستقبل البيت الحرام فكانت الكعبه قبلته، و كانت الصخره بين يديه. و قال اليهودى: بينى و بينك مسجد النبى صلى الله عليه و سلم. فقال أبو العاليه: فإنى صليت فى مسجد صالح و قبلته الكعبه، انتهى.

قلت: و قد تضمن هذا الفصل فائده جليله، و هى: أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهه الوحى و التوفيق من الله، بل كان عن مشوره منهم و اجتهاد.

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم فى الإنجيل و لا فى غيره باستقبال المشرق أبدا.

و هم مقرون بذلك و مقرون أن قبله المسيح كانت قبله بنى إسرائيل و هى الصخره.

إنما وضع لهم شيوخهم و أسلافهم هذه القبله، و هم يعتذرون عنهم بأن المسيح فوض إليهم التحليل و التحريم و شرع الأحكام، و أن ما حللوه و حرموه فقد ح لله هو و حرمه فى السماء. فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبدا، و المسلمون شاهدون عليهم بذلك.

و أما قبله اليهود فليس فى التوراه الأمر باستقبال الصخره البته، إنما كانوا ينصبون التابوت و يصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخره و صلوا إليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه و هو الصخره.

و أما السامره فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه و يحجون إليه، و رأيت أنه أنا و هو فى بلد نابلس و ناظرت فضلاءهم فى استقباله. و قلت: هو قبله باطله مبتدعه، فقال مشار إليه فى دينهم: هذه هى القبله الصحيحه، و اليهود أخطئوها لأن الله تعالى أمر فى التوراه باستقباله عينا، ثم ذكر نصا يزعمه من التوراه فى استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعاً على التوراه، لأنها إنما أنزلت على بنى إسرائيل، فهم المخاطبون بها و أنتم فرع عليهم فيها، و إنما تلقيتموها عنهم، و هذا النص ليس فى التوراه التى بأيديهم و أنا رأيتها و ليس هذا فيها، فقال لى: صدقت، إنما هو فى توراتنا خاصه، قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراه المخاطبون بها و هم الذين تلقوها عن الكليم و هم متفرقون فى أقطار الأرض قد

كتموا هذا النص و أزالوه و بدلوا القبلة التى أمروا بها و حفظتموها أنتم و حفظتم النص بها! فلم يرجع إلى الجواب.

قلت: و هذا كله مما يقوى أن يكون الضمير فى قوله تعالى: وَ لِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا رَاجِعًا إِلَىٰ وَ لِكُلِّ أَى هُوَ مَوْلِيهَا وَجْهَهُ، ليس المراد أن الله مولى إياها لوجوه هذا أحدها.

الثانى: أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه فى الآية و إن كان مذكورا فيما قبلها، فى إعادة الضمير إليه دون «كل» رد الضمير إلى غير من هو أولى به، و منعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو مولى إياها، هذا وجه الكلام كما قال تعالى: نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى [النساء: ١١٥] فوجه الكلام أن يقال: و لاه القبلة، لا يقال: و لى القبلة إياه، فتأمل.

و قول أبى القاسم: أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثا ردا على الطوائف الثلاث، ليس بالبين و لا فى اللفظ إشعار بذلك.

و الذى يظهر فيه أنه أمر به فى كل سياق لمعنى يقتضيه فذكره أول مره ابتداء للحكم و نسخا للاستقبال الأول فقال: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقره: ١٤٤]، ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم، حيث يجدونه فى كتبهم كذلك. ثم أخبر عن عبادتهم و كفرهم، و أنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، و لا- هو أيضا بتابع قبلتهم، و لا- بعضهم بتابع قبله بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفه أهل الكتاب به، كمعرفتهم بأبنائهم، و أنهم ليكتمون الحق عن علم.

ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه، فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهه هو مستقبلها و موليها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات.

ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج فى ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرر محضا، بل فى ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولا حيثما كانوا عند النسخ و ابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم و ابتداءه و بعد.

المحاجه و المخاصمه و الحكم لهم و بيان عنادهم و مخالفتهم مع علمهم فذكر الأمر

بذلك فى كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله، والله أعلم (١).

[٢] عن البراء- وهو ابن عازب- قال: كان الرجل إذا صام فنام لم يأكل إلى مثلها، وإن صرمة بن قيس الأنصارى أتى امرأته، وكان صائماً، فقال: عندك شىء؟ قالت: لا، لعلى أذهب فأطلب لك شيئاً، فذهبت، وغلبتة عينه، فجاءت فقالت: خيبه لك، فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه، وكان يعمل يومه فى أرضه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم، فنزلت: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ قَرَأَ إِلَى قَوْلِهِ: مِنَ الْفَجْرِ [البقره: ١٨٧] (٢).

و أخرجه البخارى و الترمذى و النسائى (٣).

و قد اختلف السلف فى هذه الآيه على أربعة أقوال:

أحدها: أنها ليست بمنسوخه، قاله ابن عباس.

الثانى: أنها منسوخه، كما قاله سلمه و الجمهور.

و الثالث: أنها مخصوصه، خص منها القادر الذى لا عذر له، و بقيت متناوله للمرضع و الحامل.

الرابع: أن بعضها منسوخ، و بعضها محكم (٤).

[٣] قال صالح بن أحمد: قال أبى: لا تجوز شهاده أهل الذمه إلا فى السفر، الذى قال الله تعالى فيه: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ [المائده: ١٠٦]، فأجازها أبو موسى الأشعري، و قد روى عن ابن عباس «أو آخران من غيركم من أهل الكتاب»، و هذا موضع ضروره؛ لأنه فى سفر، و لا نجد من يشهد من المسلمين، و إنما جاءت فى هذا المعنى. اه.

و قال إسماعيل بن سعيد الشالنجى: سألت أحمد- فذكر هذا المعنى- قلت: فإن كان.

ص: ٢٠٠

١- بدائع الفوائد (١٦٨/٤-١٧٣).

٢- أبو داود (٢٣١٤) فى الصوم، باب: مبدأ فرض الصيام. - البخارى و الترمذى (٢٨٩٤). - النسائى (٢١٣٩). - أبو داود (١٩٧٠).

٣- فى تفسير القرآن، باب: و من سوره البقره.

٤- تهذيب السنن (٢٠٧، ٢٠٨/٣).

ذلك على وصيه المسلمين هل تجوز شهادتهم؟ قال: نعم، إذا كان على الضرورة، قلت:

أليس يقال: هذه الآية منسوخة؟ قال: من يقول؟ وأنكر ذلك، وقال: هل يقول ذلك إلا إبراهيم؟

وقال في روايه ابنه عبد الله و حنبل: تجوز شهاده النصراني و اليهودى فى الميراث، على ما أجاز أبو موسى فى السفر، و أحلفه.

وقال فى روايه أبى الحارث: لا تجوز شهاده اليهودى و النصرانى فى شىء إلا فى الوصيه فى السفر، إذا لم يكن يوجد غيرهم. قال الله تعالى: **أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**، فلا تجوز شهادتهم إلا فى هذا الموضوع، و هذا مذهب قاضى العلم و العدل شريح، و قول سعيد بن المسيب، و حكاه أحمد عن ابن عباس، و أبى موسى الأشعري.

قال المروزي: حدثنا ابن نصير قال: حدثنى يعلى بن الحارث، عن أبيه، عن غيلان بن جامع، عن إسماعيل بن خالد عن عامر قال: شهد رجلان من أهل دقوقا على وصيه مسلم، فاستحلفهما أبو موسى بعد العصر: ما اشترينا به ثمنًا قليلًا. و لا كتمنا شهاده الله إننا إذا لمن الآثمين، ثم قال: إن هذه القضية ما قضى فيها مذمات رسول الله إلى اليوم.

و ذكر محمد بن إسحاق عن أبى النصر، عن باذان (١) -مولى أم هانئ- عن ابن عباس، عن تميم الدارى فى قوله عز و جل: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ [المائدة: ١٠٦]**، قال: برئ الناس منها غيرى و غير عدى بن بداء، و كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام، فأتيا الشام، و قدم زيد بن أبى مریم -مولى بنى سهم- و معه جام من فضه، و هو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما.

قال تميم: فلما مات أخذنا الجاه فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا و عدى بن بداء، فلما قدمنا ماله إلى أهله فسألوا عن الجاه؟ فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا، فلما أسلمت تأثمت من ذلك فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، و أدت إليهم خمسمائه درهم، و أخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فأتوا به إلى النبى صلى الله عليه و سلم، فسألهم البينه فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم، فأنزل الله عز و جل: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ [المائدة: ١٠٦]**، فحلف عمرو بن.

ص: ٢٠١

١- هو محمد بن السائب الكلبى وضاع. - و الحديث عند الترمذى (٢٤١/٥) (٣٠٥٩). و قال غريب، و لا يصح إسناده. - و انظر الطبرى (١٠٠/٧) و ابن كثير (١٢٠/٢) و «بدائع التفسير» (١٢٥/٢).

العاص و أخو سهم، فنزعت الخمسمائة درهم من عدى بن بداء (١).

و روى يحيى بن أبى زائده، عن محمد بن القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان تميم الدارى وعدى بن بداء يختلفان إلى مكة بالتجاره، فخرج معهم رجل من بنى سهم، فتولى بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما، فدفعاً تركته إلى أهله، و حبسا جاما من فضه مخصوصا بالذهب، فتفقدته أولياؤه، فأتوا رسول الله صلى الله عليه و سلم، فحلفهما: ما كتمنا، و لا أضعنا، ثم عرف الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم و عدى، فقام رجلان من أولياء السهمى، فحلفا بالله: إن هذا لجام السهمى، و لشهادتنا أحق من شهادتهما و ما اعتدينا، إنا إذا لمن الظالمين، فأخذ الجام، و فيهما نزلت هذه الآية (٢).

و القول بهذه الآية هو قول جمهور السلف، قالت عائشه رضى الله عنها: سورة المائدة آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها حلالات فحللوها، و ما وجدتم حراما فحرموه.

و صح عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية (٣): هذا لمن مات و عنده المسلمون، فأمر الله أن يشهد فى وصيته عدلين من المسلمين، ثم قال تعالى: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ [المائدة: ١٠٦]، فهذا لمن مات و ليس عنده أحد من المسلمين، فأمر الله عز و جل أن يشهد رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله: لا- نشترى بشهادتنا ثمنا، و قد تقدم أن أبا موسى حكم بذلك.

و قال سفيان الثورى: عن أبى إسحاق السبيعى، عن عمرو بن شرحبيل، قال: لم ينسخ من سورة المائدة شىء. و قال وكيع: عن شعبه، عن قتاده، عن سعيد بن المسيب: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قال: من أهل الكتاب. و فى روايه صحيحه عنه: من غير أهل ملتكم.

و صح عن شريح قال: لا تجوز شهاده المشركين على المسلمين إلا فى الوصيه، و لا تجوز فى الوصيه إلا أن يكون مسافرا.

و صح عن إبراهيم النخعى: (من غيركم): من غير أهل ملتكم. و صح عن سعيد بن جبير: (أو آخران من غيركم)، قال: إذا كان فى أرض الشرك، فأوصى إلى رجلين من أهل).

ص: ٢٠٢

١- أخرج البخارى (٤٨٠/٥) فى الوصايا، و الترمذى (٢٤٢/٥). - أبو داود (١٦/١٠) (التحفة).

٢- الحاكم فى المستدرک (٣١١/٢) و صححه و وافقه الذهبى.

٣- الطبرى (١٠٨/٧).

الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، فإن اطلع بعد حلفهما على أنهما خانا، حلف أولياء الميت أنه كذا و كذا، واستحقوا.

و صح عن الشعبي: **أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**، قال: من اليهود و النصارى.

و صح ذلك عن مجاهد قال: من غير أهل المله. و صح عن يحيى مثله، و صح عن ابن سيرين ذلك.

فهؤلاء أئمة المؤمنين: أبو موسى الأشعري، و ابن عباس، و روى نحو ذلك عن علي رضي الله عنه، و ذكر ذلك أبو محمد بن حزم (1)، و ذكره أبو يعلى عن ابن مسعود، و لا مخالف لهم من الصحابه.

و من التابعين: عمرو بن شرحبيل، و شريح، و عبيده، و النخعي، و الشعبي، و السعيدان، و أبو مجلز، و الأوزاعي.

و بعد هؤلاء: كأبي عبيد، و أحمد بن حنبل، و جمهور فقهاء أهل الحديث، و هو قول جميع أهل الظاهر.

و خالفهم آخرون. ثم اختلفوا فى تخريج الآيه على ثلاث طرق:

أحدها: أن المراد بقوله: **مِنْ غَيْرِكُمْ**، أى من غير قبيلتكم، و روى ذلك عن الحسن، و روى عن الزهري أيضا.

و الثانى: أن الآيه منسوخه، و هذا مروى عن زيد بن أسلم و غيره.

و الثالث: أن المراد بالشهاده فيها: إيمان الوصى -بالله تعالى- للورثه، لا الشهاده المعروفه.

قال القائلون بها: أما دعوى النسخ فباطله، فإنه يتضمن أن حكمها باطل، لا يحل العمل به، و أنه ليس من الدين، و هذا ليس بمقبول إلا بحجه صحيحه لا معارض لها و لا يمكن أحدا قط أن يأتى بنص صحيح صريح متأخر عن هذه الآيه مخالف لها، و لا يمكن الجمع بينه و بينها، فإن وجد إلى ذلك سبيلا صح النسخ، و إلا فما معه إلا مجرد الدعوى الباطله، ثم قالت أعلم نساء الصحابه بالقرآن: إنه لا منسوخ فى المائده، و قاله غيرها أيضا من السلف، و عمل بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم بعده.

و لو جاز قبول دعوى النسخ بلا حجه لكان لكل من احتج عليه بنص يقول: هو).

ص: ٢٠٣

منسوخ، وكان القائل لذلك لم يعلم أن كون النص منسوخاً: أن الله سبحانه حرم العمل به، وأبطل كونه من الدين والشرع و دون هذا مفاوز تنقطع فيها الأعناق.

قالوا: وأما قول من قال: المراد بقوله: (من غيركم)، أى: من غير قبيلتكم، فلا يخفى بطلانه وفساده، فإنه ليس فى أول الآيه خطاب لقبيله دون قبيله، بل هو خطاب عام لجميع المؤمنين فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار، هذا مما لا شك فيه، والذى قال من غير قبيلتكم، زله عالم غفل عن تدبر الآيه (١).

[٤] قال الله تعالى فى سورة المائده و هى من آخر القرآن نزولاً و ليس فيها منسوخ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ [المائده: ٢]، و قال فى سورة البقره: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَيْدٌ عَن سَبِيلِ اللَّهِ [البقره: ٢١٧]، فهاتان آيتان مدنيتان، بينهما فى النزول نحو ثمانيه أعوام، و ليس فى كتاب الله و لا سنن رسوله ناسخ لحكهما، و لا أجمعت الأمة على نسخه، و من استدل على نسخه بقوله تعالى: وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً [التوبه: ٣٦] و نحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه، و من استدل عليه بأن النبى صلى الله عليه و سلم: «بعث أبا عامر فى سريه إلى (٢) أوطاس فى ذى القعدة»، فقد استدل بغير دليل، لأن ذلك كان من تمام الغزوه التى بدأ فيها المشركون بالقتال، و لم يكن ابتداء منه لقتالهم فى الشهر الحرام (٣).

[٥] عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: من شاء لاعنته، لأنزلت سورة النساء القصرى بعد الأربعة الأشهر و عشرة (٤)، و أخرجه النسائى و ابن ماجه (٥).

و هذا يدل على أن ابن مسعود يرى نسخ الآيه فى البقره بهذه الآيه، التى فى الطلاق و هى قوله: وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٤]، و هذا على عرف السلف فى ..

ص: ٢٠٤

١- الطرق الحكميه (١٩٢-١٩٥). و انظر تتمه الأقوال فى الآيه فى بدائع التفسير (١٢٩/٢).

٢- فى عام أوطاس، و هو عام الفتح، و غزوه أوطاس متصله بفتح مكه و هو موضع بين مكه و الطائف. و قيل هى غزوه حنين، انظر زاد المعاد (٣/٤٦٥).

٣- زاد المعاد (٣/٣٤١).

٤- أبو داود (٢٣٠٧) فى الطلاق، باب: فى عده الحامل.

٥- ابن ماجه (٢٠٣٠) فى الطلاق، باب: الحامل و المتوفى عنها زوجها....

النسخ، فإنهم يسمون التخصيص و التقييد نسخا، و فى القرآن ما يدل على تقديم آيه الطلاق فى العمل بها، و هو أن قوله تعالى
أَجَلُهُمْ مِضاف إليه، و هو يفيد العموم، أى هذا مجموع أجلهن، لا أجل لهن غيره، و أما قوله:

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ [البقره: ٢٣٤]، فهو فعل مطلق لا- عموم له، فإذا عمل به فى غير الحامل كان تقييدا بآيه الطلاق، فالحديث مطابق
للمفهوم من دلاله القرآن. و الله أعلم (١).

ص: ٢٠٥

١- تهذيب السنن (٢٠٢/٣).

بالآيات الأفقيه و النفسيه

إن الله سبحانه أخبر—و خبره الصدق و قوله الحق—أنه لا- بد أن يرى العباد من الآيات الأفقيه و النفسيه ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق (١). فقال تعالى:

سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت: ٥٣] أي القرآن.

فإنه هو المتقدم في قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ [فصلت: ٥٢] ثم قال: أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت] فشهد—سبحانه—لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق، و وعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك و أجل، و هو شهادته—سبحانه—على كل شيء، فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء، و لا- يعزب عنه مثقال ذره في الأرض و لا- في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. و هذا استدلال بأسمائه و صفاته، و الأول استدلال بقوله و كلماته، و الاستدلال بالآيات الأفقيه و النفسيه استدلال بأفعاله و مخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته و الاستدلال بمخلوقاته، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه و صفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا و كتبنا؟.

قلت: أجل هو لعمر الله كما ذكرت، و شأنه أجل و أعلى، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، آياته هي الدليل و البرهان.

فاعلم أن الله—سبحانه—في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته، فهو الدليل (٢) لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات و الآيات، و قد أودع في الفطر التي لم تنتجس بالتعطيل

ص: ٢٠٦

١- انظر ما كتبناه في المقدمة عن التفسير العلمي، و إعجاز القرآن الكريم.

٢- انظر تعليقنا الآتي على وصفه تعالى بالكمال.

و الجحود: أنه-سبحانه-الكامل فى أسمائه و صفاته، و أنه الموصوف بكل كمال (1)، المنتزه عن كل عيب و نقض.

فالكمال كله، و الجمال و الجلال و البهاء، و العزه و العظمه و الكبرياء؛ كله من لوازم ذاته، يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياء كلها له، و العلم كله له، و القدره كلها له، و السمع و البصر و الإراده، و المشيئه و الرحمه و الغنى، و الجود و الإحسان و البر، كله خاص له قائم به. و ما خفى على الخلق كماله أعظم و أعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبه لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

و من كماله المقدس: اطلاعه على كل شىء، و شهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، و لا ذره من ذراته، باطنا و ظاهرا، و من هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به و أن يعبدوا معه غيره؟ و أن يجعلوا معه إلها آخر؟ و كيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، و يخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك و يؤيده، و يعلى كلمته، و يرفع شأنه، و يجيب دعوته، و يهلك عدوه، و يظهر على يديه من الآيات و البراهين و الأدله ما تعجز عن مثله قوى البشر، و هو-مع ذلك-كاذب عليه مفتر، ساع فى الأرض بالفساد.

و معلوم أن شهادته-سبحانه-على كل شىء، و قدرته على كل شىء، و حكمته و عزته و كماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. و من ظن به، و جوزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته، و إن عرف منه بعض صفاته، كصفه القدره، و صفه المشيئه.

و القرآن مملوء من هذه الطريق، و هى طريق الخاصه، بل خاصه الخاصه هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، و ما يليق به أن يفعله و ما لا يفعله.

و إذا تدبرت القرآن رأيته ينادى على ذلك، فيديه و يعبد له فمن له فهم و قلب واع عن الله، قال الله تعالى: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) [الحاقه] أ فلا تراه كيف يخبر-سبحانه-أن كماله و حكمته و قدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عبره لعباده، كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه. و قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُم.

ص: ٢٠٧

١- يجرى على ألسنه بعض المسلمين قولهم: «الكمال لله تعالى» و إن كان المعنى حق و صدق-كما يبين ابن القيم هنا-إلا إن لفظه الكمال لم أقف عليها فى السنه أو عند سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى و إن دلت جميع الأسماء و الصفات على معناها كالحكيم و العليم... و الله تعالى أعلم.

يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ [الشورى: ٢٤] ها هنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبرا جازما غير معلق:

أَنَّهُ وَ يَمُحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الشورى: ٢٤]، وقال تعالى:

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال و الكلام لم يقدره حق قدره، و لا عرفه كما ينبغى، و لا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه و يؤيده؟ و يظهر على يديه الآيات و الأدله؟ و هذا فى القرآن كثير جدا، يستدل بكماله المقدس، و أوصافه و جلاله على صدق رسله، و على وعده و وعيده. و يدعو عباده إلى ذلك، كما يستدل بأسمائه و صفاته على وحدانيته، و على بطلان الشرك، كما فى قوله:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [الحشر: ٢٣]

الاستدلال بأسماء الله و صفاته

على بطلان وصفه تعالى بما لا يليق

و يستدل -سبحانه- بأسمائه و صفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام و الشرائع الباطله، و أن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله: وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ آمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: ٢٨]، و قوله عقيب ما نهى عنه و حرمه من الشرك و الظلم و الفواحش و القول عليه بلا علم: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا [الإسراء: ٣٨]، فأعلمك أن ما كان سيئه فى نفسه فهو يكرهه، و كماله يأبى أن يجعله شرعا له و ديننا. فهو -سبحانه- يدل عباده بأسمائه و صفاته على ما يفعله و يأمر به، و ما يحبه و يبغضه، و يثيب عليه و يعاقب عليه. و لكن هذه الطريق لا -يصل إليها إلا- خاصه الخاصه. فلذلك كانت طريقه الجمهور الدلالات بالآيات المشاهده، فإنها أوسع تناولا. و الله -سبحانه- يفضل بعض خلقه على بعض، و يرفع درجات من يشاء، و هو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره، فإنه هو الدعوه و الحججه، و هو الدليل و المدلول عليه، و هو الشاهد و المشهود، و هو الحكم و الدليل، و هو الدعوى و البينه، قال تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ [هود: ١٧] أى من ربه، و هو القرآن.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسله أ و لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) [العنكبوت] فأخبر-سبحانه- أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفي عن كل آية؛ ففيه الحجج و الدلالة على أنه من الله، و أن الله-سبحانه- أرسل به رسله، و فيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، و ينجيه من العذاب.

ثم قال: (قل كفى بالله بيني و بينكم شهيدا يعلم ما في السموات و الأرض) فإذا كان الله -سبحانه- عالما بجميع الأشياء، كانت شهادته أصدق شهادة و أعدلها، فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به.

فيكون الشاهد به أعدل الشهداء و أصدقهم، و هو-سبحانه- يذكر علمه عند شهادته، و قدرته و ملكه عند مجازاته، و حكمته عند خلقه و أمره، و رحمته عند ذكر إرسال رسوله، و حملة عند ذكر ذنوب عباده و معاصيهم، و سمعه عند ذكر دعائهم و مسألته، و عزته و علمه عند قضائه و قدره.

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، و ارتباطها بالخلق و الأمر، و الثواب و العقاب.

الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم

و من هذا قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسِيَّتْ مُرْسِلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) [الرعد]، فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. و لا بد أن تعلم هذه الشهادة، و تقوم بها الحجج على المكذبين له، و كذلك قوله: قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ [الأنعام: ١٩]، و كذلك قوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) [النساء]، و كذلك قوله يس (١) وَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) [يس]، و قوله: تَلْعَكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) [البقره]، و قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ [المنافقون: ١]، و قوله:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ [الفتح: ٢٩]، فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها و بينها، و بين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه و بين عباده، و أقام الحجج عليهم. فكونه-سبحانه- شاهدا لرسوله، معلوم بسائر أنواع الأدلة؛ عقليها و نقلها و فطريها و ضروريها و نظريها.

و من نظر في ذلك و تأمله، علم أن الله-سبحانه- شهد لرسوله أصدق الشهادة.

و أعدلها و أظهرها؛ و صدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذى أقام البراهين على صدقه فيه، و بفعله و إقراره، و بما فطر عليه عباده، من الإقرار بكماله، و تنزيهه عن القبائح، و عما لا يليق به.

و فى كل وقت يحدث من الآيات الداله على صدق رسوله ما يقيم به الحجه، و يزيل به العذر، و يحكم له و لأتباعه بما وعدهم به من العز و النجاه و الظفر و التأييد. و يحكم على أعدائه و مكذبيه بما توعدهم به من الخزى و النكال و العقوبات المعجله، الداله على تحقيق العقوبات المؤجله، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) [الفتح]، فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجه، و البيان، و الدلاله. و ظهوراً بالنصر و الظفر و الغلبه، و التأييد، حتى يظهره على مخالففيه. و يكون منصوراً.

و قوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) [النساء]، فما فيه من الخبر عن علم الله الذى لا يعلمه غيره، من أعظم الشهادات بأنه هو الذى أنزله. كما قال فى الآيه الأخرى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَبْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) [هود]، و ليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله - و هو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كل شىء معلوم له من حق و باطل - و إنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه (١). فنزوله مشتملاً علمه، هو آيه كونه من عنده، و أنه حق و صدق. و نظير هذا قوله: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً [الفرقان: ٦]، ذكر ذلك - سبحانه - تكذيباً ورداً على من قال: افْتَرَاهُ [الفرقان: ٤] (٢).

ص: ٢١٠

١- و قال فى الصواعق المرسله «أنزله و فيه علم لا يعلمه البشر» (٨٧٧/٣).

٢- مدارج السالكين (٣/٤٦٦-٤٧١).

قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا فَآتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) [البقره]: إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم: إنه مفتعل، فأتوا ولو بسوره واحده تشبهه. وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، و من المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله و يختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عده ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك. حتى إن الذى راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدله على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحى العقلاء من سماعه و يحكمون بسماجه و قبح ركائته و خسته.

فهو كمن أظهر طيبا لم يشم أحد مثل ريحه قط، و تحدى الخلائق ملوكهم و سوقتهم بأن يأتوا بذره طيب مثله، فاستحى العقلاء و عرفوا عجزهم، و جاء الحمقان بعذره منتنه خبيثه، و قالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوه و برهانا و عظمه و جلاله؟ و أكد تعالى هذا التوبيخ و التقرير و التعجيز بأن قال: وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [البقره: ٢٣] كما يقول المعجز لمن يدعى مقاومه: اجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك و أعوانك و أوليائك، و لا تبق منهم أحدا حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم و أحمقه و أسخفه عقلا إن كان غير واثق بصحه ما يدعيه، أو أكملهم و أفضلهم و أصدقهم و أوثقهم بما يقوله. و النبي صلى الله عليه و سلم يقرأ هذه الآيه و أمثالها على أصناف الخلائق؛ أميهم و كتابيهم و عربهم و عجمهم، و يقول: لن تستطيعوا ذلك و لن تفعلوه أبدا فيعدلون معه إلى الحرب بقتل المحاربه الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بصوره واحده لم يعدلوا عنها إلى اختيار أيتام الأولاد، و قتل النفوس، و الإقرار بالعجز عن معارضته.

و تقرير النبوه بهذه الآيه وجوه متعدده، هذا أحدها.

و ثانيا: إقدامه صلى الله عليه و سلم على هذا الأمر و إسجاله على الخلائق إسجالا عاما إلى يوم القيامة

أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا. فهذا لا يقدم عليه و يخبر به إلا- عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحى من الله تعالى، وإلا فعلم البشر و قدرته يضعفان عن ذلك.

و ثالثهما: النظر إلى نفس ما تحدى به و ما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته و نظمه و بلاغته فرد من أفراد إعجازه.

و هذا الوجه يكون معجزه لمن سمعه و تأمله و فهمه، و بالوجهين الأولين يكون معجزه لكل من بلغه خبره و لو لم يفهمه و لم يتأمله. فتأمل هذا الموضوع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور من المتكلمين، و تقصيرهم في بيان إعجازه، و أنهم لن يوفوه معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف (١) الدواعي عن معارضته مع القدره عليها، و بعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته و بلاغته، و بعضهم على مخالفه أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، و بعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصره التي لا تشفى و لا تجدى (٢)، و إعجازه فوق ذلك و وراء ذلك كله، فإذا ثبت النبوه بهذه الحججه القاطعه فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره و طاعه أمره، و قد أخبر عن الله تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله و عن المعاد و الجنه و النار فثبتت صحه ذلك يقينا (٣).

ص: ٢١٢

-
- ١- انظر المقدمة في هذه المسأله.
 - ٢- لكن هذه الأنواع من أنواع الإعجاز حق و ما ذهب إليه ابن القيم من إن إعجاز القرآن فوق كل هذا حق أيضا، و فوق كل ذى علم عليهم.
 - ٣- بدائع الفوائد (٤/١٣٤-١٣٦).

سمى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية جامعاً فاذه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزله] أو من هذا قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) [المائدة]، فدخل في الخمر كل مسكر، جامداً كان أو مائعاً، من العنب أو من غيره، ودخل في الميسر كل أكل مال بالباطل، وكل عمل محرم يوقع العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة. ودخل في قوله:

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١) [التحریم: ٢] كل يمين منعقدة.

ودخل في قوله: يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ [المائدة: ٤] كل طيب (٢) من المطاعم والمشارب والملابس والفروج.

ودخل في قوله: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا [الشورى: ٤٠] فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة: ١٩٤]، ما لا تحصي أفراد من الجنائيات وعقوباتها، حتى اللطمه والضربه والكسعه (٢) كما فهم الصحابه.

ودخل في قوله: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: ٣٣] [الأعراف] تحريم كل فاحشه، ظاهره وباطنه، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله، وإن دق في قول أو عمل أو إرادته، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه، ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل، أو إيجاب أو إسقاط، أو خير عنه باسم أو صفه، نفيًا أو إثباتًا أو خبراً عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه.

١- الكسعه: الحمير والكسع: الضرب باليد أو الرجل إنساناً أو غيره.

٢- والطيب هو ما أحله الشرع والخبيث ما حرمه.

و دخل فى قوله: وَ الْجُرُوحِ قِصَاصٌ [المائدة:٤٥] وجوبه فى كل جرح يمكن القصاص منه، و ليس هذا تخصيصاً، بل هو مفهوم من قوله: قِصَاصٌ، و هو المماثلة.

و دخل فى قوله: وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ [البقرة:٢٣٣] وجوب نفقه الطفل و كسوته و نفقه مرضعته، على كل وارث قريب أو بعيد.

و دخل فى قوله: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ [البقرة:٢٢٨] جميع الحقوق التى للمرأة، و عليها، و أن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم، و يجعلونه معروفاً لا منكراً، و القرآن و السنه كفيلاً بهذا أتم كفاله (١)(٢).

بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى

قوله صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح: «لييك و سعديك و الخير فى يديك و الشر ليس إليك» (١) معناه أجل و أعظم من قول من قال: و الشر لا يتقرب به إليك، و قول من قال: و الشر لا يصعد إليك، و أن هذا الذى قالوه و إن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه و التقرب به إليه، فلا- يتضمن تنزيهه فى ذاته و صفاته و أفعاله عن الشر، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك و تعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما لا فى صفاته و لا فى أفعاله و لا فى أسمائه، و إن دخل فى مخلوقاته كقوله: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (٢) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٣) [الفلق]، و تأمل طريقه القرآن فى إضافة الشر تارة إلى سببه و من قام به، كقوله: وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة]، و قوله: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [التوبة]، و قوله:

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا [النساء: ١٦٠] و قوله: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ [الأنعام: ١٤٦] و قوله:

وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) [الزخرف] و هو فى القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عشر معشاره، و إنما المقصود التمثيل، و تارة يحذف فاعله، كقوله تعالى حكاية عن مؤمن الجن: وَ أَنَا لَا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) [الجن] فحذفوا فاعل الشر و مریده، و صرحوا بمرید الرشد.

و نظيره فى الفاتحة: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ

ص: ٢١٤

١- بدائع الفوائد (٢١٤، ٢١٥/٢).

٢- و هذا كله يدخل تحت قوله تبارك و تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: ٩] و قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ [المائدة: ٣] و قوله تعالى: مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٣٨].

٣- إعلام الموقعين (٤١٣، ٤١٢/١).

[الفاتحة:٧]، فذكر النعمة مضافه إليه سبحانه، والضللال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

و مثله قول الخضر في السفينه: فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْبِيهَا [الكهف:٧٩] و في الغلامين: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْرِخَ تَخْرَجَا كَنَزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [الكهف:٨٢] مثل قوله: وَ لَكِنَّ اللَّامَةَ حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَ زَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ [الحجرات:٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه، وقال: زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النَّبِيِّنَ [آل عمران:١٤]، فحذف الفاعل المزين.

و مثله قول الخليل: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِي (٧٩) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَعْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) [الشعراء] فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، و نسب إلى نفسه النقص منها و هو المرض و الخطيئة.

و هذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثله كثيرة في كتاب «الفوائد الملكية»، و بينا هناك السرف في مجيء الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، و الفرق بين الموضوعين و أنه حديث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، و حيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما، و ذلك من أسرار القرآن. و مثله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فاطر:٣٢] و قال: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [الشورى:١٤]، و قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى [الأعراف:١٦٩]

و ١٦٩] و بالجمله فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير و حكمه و مصلحه و عدل و الشر ليس إليه (١).

التدرج في التكليف

تأمل الحكمه في التشديد في أول التكليف، ثم التيسير في آخره بعد توطين النفس على العزم و الامتثال، فيحصل للعبد الأجر على عزمه و توطين نفسه على الامتثال و التيسير و السهولة بما خفف الله عنه. فمن ذلك أمر الله تعالى و رسوله بخمسين صلاه ليله الإسراء ثم خففها و تصدق بجعلها خمسا (٢). و من ذلك: أنه أمر أولا بصبر الواحد إلى العشره، ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنتين (٣).

ص: ٢١٥

١- بدائع الفوائد (٢١٤، ٢١٥/٢).

٢- سبق تخريجه ص (١١٨).

٣- في سورة الأنفال (٦٥-٦٦).

و من ذلك: أنه حرم عليهم فى الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثم خفف عنهم بإباحه ذلك إلى الفجر (١).

و من ذلك: أنه أوجب عليهم تقديم الصدقه بين يدى مناجاه رسوله صلى الله عليه و سلم، فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك، خففه عنهم (٢). و من ذلك تخفيف الاعتداد بالحوال بأربعه أشهر و عشر (٣).

و هذا كما قد يقع فى الابتلاء بالأوامر، فقد يقع فى الابتلاء بالقضاء و القدر؛ يشدد على العبد أولاً ثم يخفف عنه و حكمه تسهيل الثانى بالأول و تلقى الثانى بالرضا و شهود المنه و الرحمه. و قد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبا من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدا، الذى ربما عجزوا عنه ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذله و يسهل عليهم. و قد يفعل بعض الحمالين قريبا من هذا، فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجونه إليها، ثم يحط تلك الأشياء، فيسهل حمل الباقي عليهم.

و المقصود أن هذا الباب من الحكمه خلقا و أمرا، و يقع فى الأمر و القضاء و القدر أيضا ضد هذا، فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه؛ لئلا يفجأ هذا التشديد بغته فلا تحمله و لا تنقاد له. و هذا كتدريجهم فى الشرائع شيئا بعد شىء دون أن يؤمروا بها كلها و هله واحده، و كذلك المحرمات. و من هذا أنهم أمروا بالصلاه أولا- ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين آخرين فى الحضر. و من هذا أنهم أمروا بالصيام و خيروا فيه بين الصوم عينا و بين التخيير بينه و بين الفديه، فلما ألفوه أمروا بالصوم عينا. و من هذا أنهم أذن لهم بالجهد أولا من غير أن يوجبهم عليهم، فلما توطنت نفوسهم و باشروا حسن عاقبته و ثمرته أمروا به فرضا.

و كذلك يقع مثل هذا فى قضائه و قدره مقدر على عبده بل لا بد منه اقتضاء حمده و حكمته فيبتليه بالأخف أولا، ثم يرقبه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه.

و لهذا قد يسعى العبد فى أول البلاء فى دفعه و زواله و لا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض فى أوله و تزايد، فالعقل يستكين له أولا و ينكسر و يذل لربه، و يمد عنقه خاضعا ذليلا- لعزته، حتى إذا مر به معظمه و عمرته و أذن ليله بالصباح، فإذا سعى فى زواله ساعدته الأسباب).

ص: ٢١٦

١- سبق بيانه.

٢- سورة المجادله (١٢).

٣- آيه التخفيف فى سورة البقره (٢٣٤) و الآيه المنسوخه (٢٤٠).

و من تأمل هذا فى الخلق انتفع به انتفاعا عظيما و لا حول و لا قوة إلا بالله (١).

العطف فى القرآن الكريم

الكلام على واو الثمانية (٢):

قولهم: إن الواو تأتى لثمانية ليس عليه دليل مستقيم، و قد ذكروا ذلك فى مواضع، فلنتكلم عليها واحدا واحدا.

الموضع الأول: قوله تعالى: **الْتَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ** [التوبة: ١١٢] فقيل: الواو فى وَ النَّاهُونَ واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، و ذكروا فى الآية وجوها أخر، منها: أن هذا من التفتن فى الكلام أن يعطف بعضه، و يترك بعضه. و منها: أن الصفات التى قبل هاتين الصفتين صفات لازمه متعلقه بالعامل، و هاتان الصفتان متعدتان متعلقتان بالغير فقطعتا عما قبلها بالعطف.

و منها: أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الأمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر. و كل هذه الأجوبة غير سديده، و أحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت فى مقام التعداد، فتاره يتوسط بينها حرف العطف لتغيرها فى نفسها، و للإيدان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها. و تاره لا يتوسطها العطف لاتحاد موصوفها و تلازمها فى نفسها، و للإيدان بأنها فى تلازمها كالصفة الواحده. و تاره يتوسط العطف بين بعضها و يحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين، فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد، حسن إسقاط حرف العطف، و إن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغيرها، حسن إدخال حرف العطف. فمثال الأول: **الْتَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ** [التوبة: ١١٢] و قوله: **مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ** [التحریم: ٥]، و مثال الثانى قوله تعالى:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ [الحديد: ٣].

و تأمل كيف اجتمع النوعان فى قوله تعالى:

حم (١) **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي**

ص: ٢١٧

١- بدائع الفوائد (٣/١٨٣-١٨٥).

٢- انظر تحقيق المسألة و الأقوال فيها فى كلامنا على جزء اللغة لابن القيم، و راجع المغنى لابن هشام (٤٠٢) و الواو المزيده للعلائى (١٤٢).

الطَّوْلُ [غافر: ١-٣]، فأتى بالواو فى الوصفين الأولين و حذفها فى الوصفين الأخيرين؛ لأن غفران الذنب و قبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان فى عطف أحدهما على الآخر، ما يدل على أنهما صفتان و فعلان متغايران، و مفهومان مختلفان لكل منهما حكمه. أحدهما يتعلق بالإساءة و الاعتراض و هو المغفره. و الثانى يتعلق بالإحسان و الإقبال على الله، و الرجوع إليه و هو التوبه، فتقبل هذه الحسنه و تغفر تلك السيئه، و حسن العطف هاهنا هذا التغاير الظاهر و كلما كان التغاير أبين، كان العطف أحسن، و لهذا جاء العطف فى قوله: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ [الحديد: ٣]، و ترك فى قوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَّلْنَا بِالسَّلَامِ الْمُؤْمِنِ الْمُهَيَّمِ [غافر: ٣]، فترك العطف بينهم لنكته بديعه، و هى الدلالة على اجتماع هذين الأمرين فى ذاته- سبحانه- و أنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، و طوله لا ينافى شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول و الآخر فإن الأوليه لا تجامع الآخريه، و لهذا فسرهما النبى صلى الله عليه و سلم بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شىء، و أنت الآخر فليس بعدك شىء» (١). فأوليته و آخريته أبديته.

فإن قلت فما تصنع بقوله: وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه، فيجتمع فى حقه الظهور و البطون، و النبى صلى الله عليه و سلم فسر الظاهر بأنه الذى ليس فوقه شىء، و الباطن الذى ليس دونه شىء، و هذا العلو و الفوقيه مجامع لهذا القرب و الدنو و الإحاطه.

قلت: هذا سؤال حسن، و الذى حسن دخول الواو هاهنا أن هذه الصفات متقابله متضاده، و قد عطف الثانى منهما على الأول للمقابله التى بينهما، و الصفاتان الأخريان كأوليين فى المقابله، و نسبه الباطن إلى الظاهر كنسبه الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأولين حسن بين الأخيرين.

فإذا عرف هذا فالآيه التى نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف و تركه فيها؛ لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها، كان فيه تنبيه على أنها فى اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هما متلازمان مستمدان من ماده واحده، حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته، مطلوب تعيينه، لا يكتفى فيه بحصول الوصف الآخر، بل لا بد أن يظهر أمر بالمعروف بصريحه و نهيه عن المنكر بصريحه، و أيضا فحسن العطف هاهنا ما تقدم من التضاد، فلما كانع.

ص: ٢١٨

١- مسلم (٦١/٢٧١٣) فى الذكر و الدعاء و التوبه و الاستغفار، باب: ما يقول عند النوم و أخذ المضجع.

الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ضدین؛ أحدهما طلب الإيجاد، و الآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعین المتغایرین المتضادین فحسن لذلك العطف.

الموضع الثانی: قوله تعالى: عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلُومَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ، إلى قوله: تَبَيَّنَاتٍ وَأَبْكَارًا [التحریم: ٥]، فقيل: هذه واو الثمانیه، لمجيئها بعد الوصف السابع، و ليس كذلك، و دخول الواو هاهنا متعین؛ لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، و أما وصفا البكاره و الشیوبه فلا- يمكن اجتماعهما، فتعین العطف لأن المقصود أن یزوجه بالنوعین: الثیبات و الإبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف: ٢٢] قيل: المراد إدخال الواو هاهنا لأجل الثمانیه. و هذا یحتمل أمرین: أحدهما: هذا. و الثانی: أن یكون دخول الواو هاهنا إیذاناً بتمام كلامهم عند قولهم: سبعة ثم ابتداء قوله: وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، و ذلك یتضمن تقرير قولهم (سبعة)، كما إذا قال لك: زید فقیه فقلت: و نحوی، و هذا اختیار السهلی. و قد تقدم الكلام علیه و أن هذا إنما یتم إذا كان قوله: وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ لیس داخلاً في المحكى بالقول، و الظاهر خلافه. و الله أعلم.

الموضع الرابع: قوله تعالى: وَ سَبَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا [الزمر: ٧١]، لما كانت سبعة. و هذا في غایه البعد، و لا دلالة في اللفظ على الثمانیه حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب لنكته بديعه، و هی أن تفتیح أبواب النار كان حال موافاه أهلها، ففتحت في وجوههم، لأنه أبلغ في مفاجاه المكروه. و أمّا الجنة فلما كانت ذات الكرامه و هی مأدبه الله، و كان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتى بالواو العاطفه هنا الداله على أنها جاءوها بعد ما فتحت أبوابها، و حذف الجواب تفخيماً لشأنه و تعظيماً لقدره، كعادتهم في حذف الأجوبه (١).

و كذلك القاعده أن الشیء لا یعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزله تکرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زید و عمرو، فهی بمعنی قام زید و قام عمرو. و الثانی غیر الأول فإذا وجدت مثل قولهم: كذباً و میناً، فهو لمعنی زائد في اللفظ الثانی و إن خفی عنك. و لهذا).

ص: ٢١٩

يبعد جدا أن يجيء في كلامهم: جاءني عمر و أبو حفص، و رضى الله عن أبي بكر و عتيقه، فإن الواو إنما تجمع بين الشئيين لا بين الشىء الواحد، فإذا كان فى الاسم الثانى فائده زائده على معنى الاسم الأول كنت مخيرا فى العطف و تركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات و هى متغايره و إن لم تعطف فمن حيث كان فى كل منهما ضمير هو الأول فعلى الوجه الأول تقول: زيد فقيه شاعر كاتب. و على الثانى: فقيه و شاعر و كاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابه على الشعر. و حيث لم تعطف اتبعت الثانى الأول، لأنه هو من حيث اتحد الحامل للصفات.

و أما فى أسماء الرب تبارك و تعالى فأكثر ما يجيء فى القرآن بغير عطف نحو:

السَّمِيعُ البَصِيرُ العَزِيزُ الحَكِيمُ العَفُورُ الرَّحِيمُ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ، إلى آخرها. و جاءت معطوفه فى موضعين: أحدهما فى أربعه أسماء، و هى: المَأْوُلُ و المَآخِرُ و الظَّاهِرُ و البَاطِنُ و الثانى فى بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله: الَّذِي خَلَقَ فسْوَى (٢) و الَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى (٣) و الَّذِي أَخْرَجَ المَرْعى (٤) [الأعلى]، و نظيره: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا و جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) و الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) و الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا [الزخرف: ١٠-١٢].

فأما ترك العطف فى الغالب فلتناسب معانى تلك الأسماء، و قرب بعضها من بعض و شعور الذهن بالثانى منها شعوره بالأول. أ لا ترى أنك إذا شعرت بصفه المغفره، انتقل ذهنك منها إلى الرحمه؟ و كذلك إذا شعرت بصفه السمع انتقل الذهن إلى البصر، و كذلك:

الخالقُ البارىُّ المصوِّرُ [الحشر: ٢٤]. و أما تلك الأسماء الأربعة فهى ألفاظ متباينه المعانى متضاده الحقائق فى أصل موضوعها، و هى متفقه المعانى متطابقه فى حق الرب تعالى لا يبقى منها حقه. فكان دخول الواو صرفا لوهم المخاطب قبل التفكير و النظر عن توهم المحال و احتمال الأضداد؛ لأن الشىء لا يكون ظاهرا باطنا من وجه واحد، و إنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف هاهنا أحسن من تركه لهذه الحكمه، هذا جواب السهيلي.

و أحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ داله على معانى متباينه، و أن الكمال فى الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات، إيذانا بأن هذه المعانى مع تباينها فهى ثابتة للموصوف بها.

و وجه آخر و هو أحسن منها: و هو أن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم، و تقريره يكون فى الكلام متضمنا لنوع من التأكيد، من المزيد التقرير. و بيان ذلك بمثال نذكره مرقاه

إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل مثلاً أربع صفات: هو عالم و جواد و شجاع و غنى، و كان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، و يعجب من اجتماع هذه الصفات فى رجل فإذا قلت:

زيد عالم، و كان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: و جواد، أى: و هو مع ذلك جواد. فإذا قدرت استبعاده لذلك، قلت: و شجاع، أى و هو مع ذلك شجاع و غنى، فيكون فى العطف مزيد تقرير و توكيد، لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار.

و إذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات فى موصوف واحد؛ فإذا قيل: هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً- يقتضى أن يكون الآخر غيره لأن الأوليه و الآخريه من المتضائيات. و كذلك الظاهر و الباطن إذا قيل: هو ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف، الدال على أن الموصوف بالأوليه هو الموصوف بالآخريه، فكأنه قيل: هو الأول و هو الآخر و هو الظاهر و هو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك، فإنه من لطيف العربيه و دقيقتها.

و الذى يوضح لك ذلك أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض و خطيب و أمير فاجتمعت فى رجل، حسن أن تقول: زيد هو الخطيب و القاضى و الأمير، و كان لعطف هنا مزيه ليست للنعت المجرد، فعطف الصفات هاهنا أحسن، قطعاً لوهم متوهم أن الخطيب غيره و أن الأمير غيره.

و أما قوله تعالى: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** (٣) [غافر: ٣]، فعطف فى الاسمين الأولين دون الآخرين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الاسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال، فعلة- سبحانه- فى غيره لا فى نفسه، فدخل حرف العطف للمغايره الصحاحه بين المعنيين و لتزلهما منزله الجملتين؛ لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ليرجوه و يؤملوه، ثم قال: **شَدِيدُ الْعِقَابِ** بغير واو؛ لأن هذه راجعه إلى معنى القوه و القدره و هو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزله قوله: **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** و كذلك قوله: **ذِي الطُّوْلِ** لأن لفظ: «ذى» عباره عن ذاته، هذا جوابه (١)، و هو كما ترى غير شاف و لا- كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، و طوله من صفات الأفعال، و لفظه «ذى» فيه لا- تخرجه عن كونه صفه فعل، كقوله: **عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**، بل لفظ الوصف بغافر و قابل أدل على الذات من الوصف بذى لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها فلم يشف جوابه بل زاد السؤال سؤالاً.

ص: ٢٢١

١- قد يكون غير شاق أو كاف بما يراه ابن القيم، لكن نظر جيد هذا كلام العلامة السهيلي رحمه الله تعالى.

فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء كل اثنين منها قسم، فابتدأها ب **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** و هما اسمان مطلقان و صفتان من صفات ذاته و هما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدل بينهما العطف. ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما و جردهما من العطف، فأما الأولان فتجردهما من العاطف؛ لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، و هما متلازمان فتجردهما عن العطف هو الأصل، و هو موافق لبيان ما فى الكتاب العزيز من ذلك ك **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** و **السَّمِيعِ الْبَصِيرِ** و **الْغَفُورِ الرَّحِيمِ**. و أما **غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ**، فدخل العاطف بينهما؛ لأنهما فى معنى الجملتين، و إن كان مفردين لفظاً، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب و يقبل التوب، أى: هذا شأنه و وصفه فى كل وقت.

فأتى الاسم الدال على أن هذا وصفه و نعته المتضمن لمعنى الفعل الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض و لا كذلك الاسمان الأولان، و لما لم يكن الفعل ملحوظاً فى قوله: **شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ**؛ إذ لا- يحسن وقوع الفعل فيهما، و ليس فى لفظ: (ذى) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المقتردين من كل وجه، و لم يعطف أحدهما على الآخر كما لم يعطف فى **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**، فتأمله فإنه واضح.

و أما العطف فى قوله: **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) [الأعلى]**، فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال، و هى جملة، دخلت الواو عاطفه جملة على جملة و إن كانت الجملة مع الموصول فى تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، و العطف يصير كلاً منها جملة مستقلة مقصوده بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها فى خبر موصول واحد فقيل: **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا [الزخرف]**:

١٢-١٠] كانت كلها فى حكم جملة واحده، فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها (١).

ص: ٢٢٢

على بعض

قال سيويه (1): الواو لا- تدل على الترتيب و لا- التعقيب، تقول: صمت رمضان و شعبان، و إن شئت شعبان و رمضان، بخلاف «الفاء» و «ثم»، إلا- أنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، و هم بيانه أعنى، و إن كان جميعا يهمنهم و يغنيانهم. هذا لفظه.

قال السهيلي: و هو كلام مجمل يحتاج إلى بسط و تبين، فيقال: متى يكون أحد الشئيين أحق بالتقدم، و يكون المتكلم بيانه أعنى قال: و الجواب: أن هذا الأصل يجب الاعتناء به؛ لعظم منفعته في كتاب الله و حديث رسوله، إذ لا بد من الوقوف على الحكمه في تقديم ما قدم و تأخير ما أخر نحو: السَّمِيعُ البَصِيرُ و الظُّلُمَاتِ و النُّورَ و اللَّيْلِ و النَّهَارِ و الْجِنَّ و الْإِنْسِ في الأكثر. و في بعضها الإنس و الجن و تقديم السماء على الأرض في الذكر، و تقديم الأرض عليها في بعض الآي و نحو سَمِيعٌ عَلِيمٌ، و لم يجيء «عليم سميع» و كذلك «عزيز حكيم» و «غفور رحيم» و في موضع واحد «الرحيم الغفور» إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، و ليس شيء من ذلك يخلو عن فائده و حكمه لأنه كلام الحكيم الخبير، و سنقدم بين يدي الخوض في هذا الغرض أصلاً يقف بك على الطريق الأوضح، فنقول:

ما تقدم من الكلم فتقديمه في اللسان على حساب تقدم المعاني في الجنان، و المعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، و إما بالطبع، و إما بالرتبه، و إما بالسبب، و إما بالفضل و الكمال.

فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخفه و الثقل بأحد هذه الأسباب الخمسه أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، و كان ترتب الألفاظ بحسب ذلك، نعم؛ و ربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفه و الثقل، لا- بحسب المعنى كقولهم: ربيعه، و مضر، و كان تقديم مضر أولى من جهه الفضل، و لكن آثروا أخفه. لأنك لو قدمت مضر في اللفظ كثرت

ص: ٢٢٣

الحركات و توالت، فلما أخرت، وقف عليها بالسكون، قلت: و من هذا النحو الجن و الإنس، فإن لفظ الإنس أخف، لمكان النون الخفيفه و السنين المهموسه، فكان الأثقل أولى بأول الكلام من الأَخَف لنشاط المتكلم جماعه (١). و أما في القرآن فلحكمه أخرى سوى هذه: قدم الجن على الإنس في الأكثر الأغلب، و سنشير إليها في آخر الفصل إن شاء الله.

أما تقدم بتقدم الزمان، فكعاد و ثمود، و الظلمات و النور، فإن الظلمه سابقه للنور في المحسوس و المعقول، و تقدمها في المحسوس معلوم بالخبر المنقول، و تقدم الظلمه المعقوله معلوم بضروره العقل، قال سبحانه: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ [النحل: ٧٨]، فالجهل ظلمه معقوله، و هي متقدمه بالزمان على نور العلم؛ و لذلك قال تعالى: فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ [الزمر: ٦] فهذه ثلاث محسوسات: ظلمه الرحم، و ظلمه البطن، و ظلمه المشيمه (٢). و ثلاث معقولات و هي عدم الإدراكات الثلاثه المذكوره في الآيه المتقدمه، إذ لكل آيه ظهر و بطن، و لكل حرف حد، و لكل حد مطلع، و في الحديث: «إن الله خلق عباده في ظلمه، ثم ألقى عليهم من نوره» (٣).

و من المتقدم بالطبع نحو مثنى و ثلاث و رباع [النساء: ٣]، و نحو: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمُ الْآيَةَ [المجادله: ٧] و ما يتقدم من الأعداد بعضها على بعض إنما يتقدم بالطبع. كتقدم الحيوان على الإنسان، و الجسم على الحيوان. و من هذا الباب تقدم العزير على الحكيم لأنه عز، فلما عز حكم، و ربما كان هذا من تقدم السبب على المسبب، و مثله كثير في القرآن نحو يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقره] لأن التوبه سبب الطهاره، و كذلك كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) [الشعراء] لأن الإفك سبب الإثم، و كذلك كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [المطففين: ١٢].

و أما ما تقدم «هماز» على «مشاء بنميم» فالرتبه لأن المشى مرتب على القعود في المكان، و الهماز: هو العياب، و ذلك لا يفتقر إلى حركه و انتقال من موضعه، بخلاف النميمه. و أما تقدم «مناع للخير» على «معتد» فالرتبه أيضا؛ لأن المناع يمنع من نفسه».

ص: ٢٢٤

١- أي راحته.

٢- يقول الأطباء أن الأقرب لمعنى الكلمات الثلاث: -ظلمه البطن ثم الرحم ثم ما يسمى بالكيس الأميني (AMINOTIC) (SAC) و هو المحيط بالطفل و يحتوى على ماء، أما المشيمه فيها مجموعه أوعيه دمويه تشبه الطحال تنقل الغذاء للطفل و الله أعلم.

٣- أحمد (١٧٦/٢)، و الترمذى (٢٦٤٢) في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمه، و قال: «حسن».

والمعتدى يعتدى على غيره و نفسه قبل غيره، و من المتقدم بالرتبه يأتوك رجالاً و على كل ضامرٍ [الحج: ٢٧] لأن الذى يأتى راجلاً يأتى من المكان القريب، و الذى يأتى على الضامر يأتى من المكان البعيد، على أنه قد روى عن ابن عباس أنه قال: وددت أنى حججت راجلاً؛ لأن الله قدم الرجاله على الركبان فى القرآن، فجعله ابن عباس من باب تقدم الفاضل على المفضول. و المعنيان موجودان. و ربما قدم الشيء لثلاثه معان و أربعة و خمسه، و ربما قدم لمعنى واحد من الخمسه.

و مما قدم للفضل و الشرف فأغسلوا و جوهكم و أيديكم إلى المرافق و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم [المائدة: ٦]، و قوله النبيين و الصديقين [النساء: ٦٩]، و منه تقديم السميع على البصير و سميع على بصير. و منه تقديم الجن على الأنس فى أكثر المواضع؛ لأن الجن تشتمل على الملائكه، و غيرهم مما اجتن عن الأبصار، قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهٖ نَسَبًا [الصفات: ١٥٨].

و قال الأعشى:

و سخر من جن الملائك شيعه قياما لديه يعملون بلا أجر

و أما قوله تعالى: لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانُّ [الرحمن: ٥٦]، و قوله: لَا يُشِيرُ لُ عَنْ ذَنْبِهِ أَنْسَ وَ لَا جَانُّ [الرحمن: ٣٩]، و قوله: ظَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْأَنْسَ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا [الجن: ٥] فإن لفظ الجن هاهنا لا يتناول الملائكه بحال، لتزاهتهم عن العيوب و أنهم لا يتوهم عليهم الكذب و لا سائر الذنوب، فلما لم يتناولهم عموم لفظ لهذه القرينه، بدأ بلفظ الإنس لفضلهم و كمالهم.

و أما تقديم السماء على الأرض فبالرتبه أيضا و بالفضل و الشرف.

و أما تقديم الأرض فى قوله: وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فى الأرضِ وَ لَا- فى السماءِ [يونس: ٦١] فبالرتبه أيضا، لأنها منتظمه بذكر ما هى أقرب إليه و هم المخاطبون بقوله: وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ [يونس: ٦١] فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبه فى الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها بخلاف الآيه التى فى سبأ فإنها منتظمه بقوله: عَالِمُ الْغَيْبِ [الجن: ٢٦].

و أما تقديمه المال على الولد فى كثير من الآى فلأن الولد بعد وجود المال نعمه و مسره، و عند الفقر و سوء الحال هم و مضره، فهذا من باب تقديم السبب على المسبب؛ لأن المال سبب تمام النعمه بالولد.

و أما قوله: حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النَّيِّنِ [آل عمران: ١٤]، فتقديم النساء على

البنين بالسبب، و تقدم الأموال على البنين بالرتبه.

و مما تقدم بالرتبه ذكر السمع و العلم حيث وقع، فإنه خبر يتضمن التخويف و التهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات و همس الحركات، فإن من سمع حسك و صوتك، أقرب إليك في العاده ممن يقول لك: إنه يعلم، و إن كان علمه تعالى متعلقا بما ظهر و بطن و واقعا على ما قرب و شطن، و لكن ذكر «السميع» أوقع في باب التخويف من ذكر «العليم» فهو أولى بالتقديم.

و أما تقديم «الغفور» على «الرحيم»، فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفره سلامه، و الرحمه غنيمه و السلامه تطلب قبل الغنيمه.

و في الحديث: أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعمر و بن العاص: «أبعثك و جها يسلمك الله فيه و يغنمك، و أرغب لك رغبه من المال». فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامه قبل الغنيمه، و بالغنيمه قبل الكسب.

و أما قوله: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ فِي سَبَأٍ، فالرحمه هناك متقدمه على المغفره، فإما الفضل و الكمال و إما بالطبع؛ لأنها منتظمه بذكر أصناف الخلق من المكلفين و غيرهم من الحيوان، فالرحمه تشملهم و المغفره تخصصهم و العموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: فَأَكْبَهُ وَ نَحَلُّ وَ رُمَانٌ [الرحمن: ٦٨]، و كقوله: وَ مَلَأْنَاهُ وَ رُسُلِهِ وَ جَبْرِيلَ وَ مِيكَالَ [البقره: ٩٨]، و مما قدم بالفضل قوله: وَ اسْجُدْ بِقَبْلِهِ وَ ارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران: ٤٣]؛ لأن السجود أفضل و «أقرب ما يكون العبد من ربه و هو ساجد» (١)، فإن قيل: فالركوع قبله بالطبع و الزمان و العاده، لأنه انتقال من علو إلى انخفاض و العلو بالطبع قبل الانخفاض، فهلا قدم الركوع؟

الجواب أن يقال: انتبه لمعنى الآيه من قوله: وَ ارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ، و لم يقل:

اسجدى مع الساجدين، فإنما عبر بالسجود عن الصلاه و أراد صلاتها في بيتها؛ لأن صلاه المرأه في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، ثم قال لها: وَ ارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ أى صلّى مع المصلين في بيت المقدس، و لم يرد أيضا الركوع وحده دون أجزاء الصلاه، و لكنه عبر بالركوع عن الصلاه، كما تقول: ركعت ركعتين و أربع ركعات، يريد الصلاه لا الركوع بمجرد. فصارت الآيه متضمنه لصلاتين صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود. لأن السجود أفضل حالات العبد، و كذلك صلاه المرأه في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد عبرد.

ص: ٢٢٦

١- مسلم (٤٨٢/٢١٥) في الصلاه، باب: ما يقال في الركوع و السجود.

عنها بالركوع لأنه في الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها في بيتها و محرابها، وهذا نظم بديع و فقه دقيق، وهذه نبذ تشير لك إلى ما وراء أو سدل و أنت صحيح (١).

قالوا: و مما ذكره بهذا الباب قوله: طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرَّكْعِ السُّجُودِ [البقره: ١٢٥]، بدأ بالطائفين للرتبه و القرب من البيت المأمور بتطهيره من أجل الطوافين، و جمعهم جمع السلامه؛ لأن جمع السلامه أدل على لفظ الفعل الذى هو عله تعلق بها حكم التطهير و لو كان مكان الطائفين الطواف، لم يكن فى هذا اللفظ من بيان قصد الفعل ما فى قوله للطائفين، أ لا ترى أنك تقول: تطوفون، كما تقول: طائفون، فاللفظان متشابهان.

فإن قيل: فهلا أتى بلفظ الفعل بعينه فيكون أبين، فيقول: و طهرا بيتي للذين يطوفون.

قيل: إن الحكم يعلل بالفعل لا بدوات الأشخاص، و لفظ الذين ينبئ عن الشخص و الذات و لفظ الطواف بخفى معنى الفعل و لا يبينه، فكان لفظ الطائفين أولى بهذا الموطن ثم يليه فى الترتيب القائمين؛ لأنه فى معنى العاكفين، و هو فى معنى قوله: إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا [آل عمران: ٧٥]، أى مشابرا ملازما و هو كالطائفين فى تعلق حكم التطهر به، ثم يليه بالرتبه لفظ الراكع؛ لأن المستقبلين البيت بالركوع لا يختصون بما قرب منه كالطائفين و العاكفين؛ و لذلك لم يتعلق حكم التطهير بهذا الفعل الذى هو ركوع، و أنه لا يلزم أن يكون فى البيت و لا عنده؛ فلذلك لم يجئ بلفظ جمع السلامه؛ لأنه لا يحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل، كما احتيج فيما قبله، ثم وصف الراكع بالسجود و لم يعطف بالواو كما عطف ما قبله؛ لأن الراكع هم السجود و الشئ لا يعطف بالواو على نفسه.

و لفائده أخرى و هو أن السجود أغلب ما يجيء عبارته عن المصدر و المراد به هنا الجمع، فلو عطف بالواو لتوهم أنه يريد السجود الذى هو المصدر دون الاسم الذى هو النعت.

و فائده ثالثة: أن الراكع إن لم يسجد فليس براكع فى حكم الشريعة فلو عطفت هاهنا بالواو لتوهم أن الركوع حكم يجرى على حياله.

فإن قيل: فلم قال: السجود على وزن «فعل»، و لم يقل: السجد كالركع و فى آيهم.

ص: ٢٢٧

١- هكذا العبارة فى الأصل و فيها مقصوده و لعل مقصوده: و هذه نبذه تشير إلى ما وراء الألفاظ و ما أسدل عليها، تنتفع بها لو تيقظت أو ما شابه و لله أعلم.

أخرى: رُكْعًا سَجْدًا، و لم جمع «ساجد» على «السجود»، و لم يجمع «راكع» على «ركوع»؟.

فالجواب: إن السجود فى الأصل مصدر كالأخشوع و الخضوع، و هو يتناول السجود الظاهر و الباطن و لو قال: «السجد» فى جمع «ساجد»، لم يتناول إلا المعنى الظاهر، و كذلك الركع، أ لا تراه يقول: تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا [الفتح: ٢٩]، و هذه رؤيه العين و هى لا- تتعلق إلا- بالظاهر. و المقصود هنا الركوع الظاهر؛ لعطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت، و البيت لا يتوجه عليه إلا بالعمل الظاهر، و أما الخشوع و الخضوع الذى تناوله لفظ الركوع دون لفظ اركع، فليس مشروطا بالتوجه إلى البيت، و أما السجود فمن حيث أنبأ عن المعنى الباطن جعل وصفا للركع و متمما لمعناه؛ إذا لا يصح الركوع الظاهر إلا بالسجود الباطن، و من حيث تناول لفظه أيضا السجود الظاهر الذى يشترط فيه التوجه إلى البيت حسن انتظامه أيضا مع ما قبله مما هو معطوف على الطائفتين الذى ذكرهم بذكر البيت، فمن لحظ هذه المعانى بقلبه و تدبر هذا النظم البديع بلبه، ارتفع فى معرفه الإعجاز عن التقليد، و أبصر بعين اليقين أنه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: ٤٢]. تم كلامه (١).

قلت: و قد تولج رحمه الله مضايق تضايق عنها أن تولجها الإبر و أتى بأشياء حسنه، و بأشياء غيرها أحسن منها، فأما تعليقه تقديم ربيعه على مضر، ففى غايه الحسن، و هذان الاسمان لتلازمهما فى الغالب صار كاسم واحد، فحسن فيهما ما ذكره.

و أما ما ذكره فى تقديم الجن على الإنس من شرف الجن، فمستدرك عليه، فإن الإنس أشرف من الجن من وجوه عديده قد ذكرناها فى غير هذا الموضوع.

و أما قوله: إن الملائكه منهم أو هم أشرف فالمقدمتان ممنوعتان، أمرا الأول فلأن أصل الملائكه و مادتهم التى خلقوا منها هى النور، كما ثبت ذلك مرفوعا عن النبى صلى الله عليه و سلم فى صحيح مسلم (٢). و أما الجن فمادتهم النار بنص القرآن، و لا يصح التفريق بين الجن و الجان لغه و لا شرعا و لا عقلا.

و أما المقدمه الثانيه: و هى كون الملائكه خيرا و أشرف من الإنس فهى المسأله المشهوره و هى تفضيل الملائكه أو البشر؟. و الجمهور على تفضيل البشر (٣)، و الذين فضلوا الملائكه.

ص: ٢٢٨

١- أى السهيلي رحمه الله تعالى، و قد أبدع إبداعا.

٢- مسلم (٢٩٩٦/٦٠) فى الزهد و الرقائق، باب: فى أحاديث متفرقه.

٣- كما فى حادى الأرواح و غيره.

هم المعتزلة و الفلاسفه و طائفه ممن عداهم، بل الذى ينبغى أن يقال فى التقديم هنا: إنه تقديم الزمان؛ لقول تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)[الحجر].

و أما تقديم الإنس على الجن فى قوله: لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا- جَانٌّ [الرحمن: ٥٦]، فلحكمه أخرى سوى ما ذكر، و هو: أن النفى تابع لما تعقله القلوب من الإثبات، فيرد النفى عليه و علم النفوس بطمث الإنس و نفرتها ممن طمثها الرجال هو المعروف، فجاء النفى على مقتضى ذلك، و كان تقديم الإنس فى هذا النفى أهم.

و أما قوله: وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)[الجن] فهذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمنى الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمٌ تَمَعَّ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) الآيات [الجن].

و كان القرآن أول ما خوطب به الإنس و نزل على نبيهم، و هم أول من بدأ بالتصديق و التكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمنى الجن: وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)[الجن] بتقديم الإنس لتقدمهم فى الخطاب بالقرآن، و تقديمهم فى التصديق و التكذيب.

و فائده ثالثة، و هى: أن هذا حكاية كلام مؤمنى الجن لقومهم، بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا من القرآن و عظمته و هدايته إلى الرشده، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشده، بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس و الجن يقولون على الله كذبا، فذكرهم الإنس هنا فى التقديم أحسن فى الدعوه و أبلغ فى عدم التهمه، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعون من الإنس و الجن لما تبين لهم كذبهم، فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ فى نفي الغرض و التهمه، و ألا- يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله، و هذا من أطف المعانى و أدقها، و من تأمل مواقعها فى الخطاب عرف صحته.

و أما تقديم «عاد» على «ثمود» حيث وقع فى القرآن فما ذكره من تقدمهم بالزمان، فصحيح و كذلك الظلمات و النور، و كذلك «مثنى» و «بأه».

و أما تقديم «العزیز» على «الحكيم» فإن كان من الحكم و هو الفصل و الأمر، فما ذكره من المعنى صحيح، و إن كان من الحكمه و هى كمال العلم و الإراده، لمتضمنين اتساق صنعه و جريانه على أحسن الوجوه. و أكملها و وضعه الأشياء مواضعها و هو الظاهر من هذا (١) و هى من مسائل الخلاف الشهيره.

الاسم، فيكون وجه التقديم أن العزه كمال قدره و الحكمة كمال العلم و هو- سبحانه- الموصوف من كل صفة كمال بأكملها و أعظمها و غايتها، فتقدم وصف قدره، لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدته الخلق و هو مفعولاته تعالى و آياته، و أما الحكمة فمتعلقها بالنظر و الفكر و الاعتبار غالباً و كانت متأخره عن متعلق قدره.

و وجه ثان: أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول و العلم به، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم و المعاني.

و وجه الثالث: أن الحكمة غايه الفعل، فهي متأخره عنه تأخر الغايات عن وسائلها، فالقدره تتعلق بإيجاده، و الحكمة تتعلق بغايتها، فقدم الوسيله على الغايه؛ لأنها أسبق في الترتيب الخارجى.

و أما قوله تعالى: يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقره: ٢٢٢]، ففيه معنى آخر سوى ما ذكره، هو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث و النجاسات، و طهر بالتوبه من الشرك و المعاصى.

و هذا الطهور أصل لظهور الماء، و ظهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له معد مهياً بحصوله، فكان أولى بالتقديم؛ لأن العبد أول ما يدخل فى الإسلام فقد تطهر بالتوبه من الشرك ثم يتطهر بالماء من الحدث.

و أما قوله: كُفِّلَ أَفْكَائِ أَيْمٍ (٢٢٢) [الشعراء: ٢٢٢]، فالإفك: هو الكذب و هو فى القول، و الإثم: هو الفجور و هو فى الفعل، و الكذب يدعو إلى الفجور، كما فى الحديث الصحيح:

«أن الكذب يدعو إلى الفجور و أن الفجور يدعو إلى النار» (١)، فالذى قاله صحيح.

و أما كُلُّ مُعْتَدٍ أَيْمٍ [المطففين: ١٢] ففيه معنى ثان غير ما ذكره، و هو أن العدوان مجاوزه الحد الذى حد للعبد، فهو ظلم فى القدر و الوصف، و أما الإثم فهو محرم الجنس، و من تعاطى تعدى الحدود، تخطى إلى الجنس الآخر و هو الإثم.

و معنى ثالث، و هو أن المعتدى الظالم لعباد الله عدوانا عليهم، و الأثم الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثم أولى؛ لأنه فى سياق ذمه و النهى عن طاعته، فمن كان معتدياً على العباد ظالماً لهم فهو أحرى بأن لا يطيعه و يوافقه.

و فيه معنى رابع، و هو أنه قدمه على الأثم ليقترن بما قبله و هو وصف المنع للخير، هـ.

ص: ٢٣٠

١- مسلم (١٠٣/٢٦٠٧) فى البر و الصلوة، باب: قبح الكذب، و حسن الصدق، و فضله.

فوصفه بأنه لا خير فيه للناس و أنه مع ذلك معتد عليهم فهو متأخر عن المناع، لأنه يمنع خيره أولاً ثم يعتدى عليهم ثانياً؛ و لهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة و يكف عنهم الأذى و هذا هو حقيقه التصوف (1)، و هذا لا راحة يوجد لها و لا أذى يكفه.

و أما تقديم «هماز» على «مشاء بنميم» ففيه معنى آخر غير ما ذكره، و هو أن همزه عيب للمهموز و إزراء به و إظهار لفساد حاله في نفسه فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلى غيره، و المشى بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعد، و الهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينتقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدى المنتشر.

و أما تقديم «الرجال» على «الركبان» ففيه فائده جليله و هي أن الله شرط في الحج الاستطاعه و لا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج، لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، و قدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى و تأكيداً، و من الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تدرهمهم و توبخهم، و تقول: إن الله لم يكتبه عليكم و لم يرده منكم، و ربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم و رحمه.

و أما تقديم غسل الوجه ثم اليد، ثم مسح الرأس ثم الرجلين في الوضوء، فمن يقول:

إن هذا الترتيب واجب و هو الشافعي و أحمد و من وافقهما، فالآيه عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عديده:

أحدها: أنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين، وقع الظير عن نظيره، و لو أريد الجمع المطلق، لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم، و الممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك، دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.

الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به، و هو الوضوء فدخلت الواو لأجزاء بعضها على بعض، و الفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزاء بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب؛ إذ هو الربط المذكور في الآيه و لا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين الأفعال لا ارتباط بينهما، نحو: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ [البقره: 110]، أ لا تفيده بين أجزاء فعل مرتبط بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع و لطفه، و هذا أحد.

ص: ٢٣١

١- هذا من إنصاف العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث ينصف في أقواله و يأخذ الفائده و الحكمه حيث وجدت و من تصفح مدارج السالكين وجد من ذلك الكثير، و انظر مقدمه «بدائع التفسير».

الأقوال الثلاثة في إفادته الواو للترتيب. وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه وهو قول ابن أبي موسى -من أصحاب أحمد- ولعله أرجح الأقوال (١).

الثالث: أن لبداءه الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة فيجب مراعاتها ألا تلغى وتهدر، فيهدر ما اعتبره الله، ويؤخر ما قدمه الله.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن «ما قدمه الله فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر» (٢)، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله، فلما طاف بين الصفا والمروه بدأ بالصفا وقال: «بدأ بما بدأ الله به». وفي رواية للنسائي: «أبدءوا بما بدأ الله به» (٣) على الأمر، فتأمل بداءته بالصفا معللاً ذلك بكون الله بدأ به فلا ينبغي تأخيره، وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء: نحن نبدأ بما بدأ الله به، ولا يجوز تأخير ما قدمه الله، ويتعين البداء بما بدأ الله به وهذا هو الصواب؛ لمواظبه المبين عن الله مراده على الوضوء المرتب، فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم على إيقاعه مرتباً، ولم ينقل عنه أحد قط أنه أدخل بالترتيب مره واحده فلو كان الوضوء المنكوس مشروعاً لفعله ولو في عمره مره واحده، لتبين جوازه لأتمته هذا بحمد الله أوضح (٤).

وأما تقديم «النبين» على «الصدّيقين» فلما ذكره، وكون الصديق تابعاً للنبي، فإنما استحق اسم «الصدّيق» بكمال تصديقه للنبي، فهو تابع محض، وتأمل تقديم الصديقين على الشهداء؛ لفضل الصديقين عليهم، وتقديم «الشهداء» على «الصالحين»؛ لفضلهم عليهم.

وأما تقديم «السمع» على «البصر»، فهو متقدم عليه حيث وقع في القرآن مصدراً أو فعلاً أو اسماً، فالأول كقوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُلاً [الإسراء: ٣٦]. الثاني: كقوله تعالى: إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى [طه: ٤٦]. والثالث:

كقوله تعالى: سَمِيعٌ بَصِيرٌ [الحج: ٦١] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الإسراء: ١] وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً [النساء: ١٣٤] فاحتج بهذا من يقول: إن السمع أشرف من البصر، وهذا قوله.

ص: ٢٣٢

١- انظر المقدمة.

٢- مسلم (١٢١٨/١٤٧) في الحج: باب: حجه النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو داود (١٩٠٥) في الحج، باب: أمر الصفا والمروه.

٣- النسائي (٢٩٧٠) في الحج، باب: ذكر الصفا والمروه.

٤- ولو تأمل أهل التحقيق هذه المسألة، لكان كثير من الخلاف قد اضمحل، وكثير من النزاع تلاشى ولكن هي الآراء التي أفسدت كثيراً من الأحوال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الأكثرين، وهو الذى ذكره أصحاب الشافعى، و حكوا هم و غيرهم عن أصحاب أبى حنيفه أنهم قالوا: البصر أفضل. و نصبوا معهم الخلاف، و ذكروا الحجاج من الطرفين و لا أدرى ما يترتب على هذا المسأله من الأحكام حتى تذكر فى كتب الفقه، و كذلك القولان للمتكلمين و المفسرين (١).

و حكى أبو المعالى عن ابن قتيبه تفضيل البصر، و رد عليه، و احتج مفضلو السمع بأن الله تعالى يقدمه فى القرآن حيث وقع، و بأن بالسمع تنال سعادته الدنيا و الآخرة، فإن السعادة بأجمعها فى طاعة الرسل و الإيمان بما جاءوا به، و هذا إنما يدرك بالسمع؛ و لهذا فى الحديث الذى رواه أحمد و غيره من حديث الأسود بن سريع: «ثلاثه كلهم يدل على الله بحجته يوم القيامة» فذكر منهم رجلا أصم يقول: «يا رب، لقد جاء الإسلام و أنا لا أسمع شيئاً» (٢). و احتجوا بأن العلوم الحاصله من السمع أضعاف أضعاف العلوم الحاصله من البصر، فإن البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات المشاهده بالبصر القريبه، و السمع يدرك الموجودات و المعدومات، و الحاضر و الغائب، و القريب و البعيد، و الواجب و الممكن و الممتنع، فلا نسبه لإدراك البصر إلى إدراكه.

و احتجوا بأن فقد السمع تلم القلب و اللسان، و لهذا كان الأطرش خلقه.. لا ينطق فى الغالب، و أما فقد البصر فربما كان معينا على قوه إدراك البصيره و شدة ذكائها، فإن نور البصر ينعكس إلى البصيره باطنا فيقوى إدراكها و يعظم؛ و لهذا تجد كثيرا من العميان أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقاد، و الفطنه، و ضياء الحس الباطن، ما لا تكاد تجده عند البصير، و لا ريب أن سفر البصر فى الجهات و الأقطار و مباشرته للمبصرات على اختلافها يوجب تفرق القلب و تشتيته؛ و لهذا كان الليل أجمع للقلب و الخلوه و أعون على إصابه الفكره، قالوا: فليس نقص فاقده السمع كنقص فاقده البصر. و لهذا كثير فى العلماء و الفضلاء و أئمه الإسلام، من هو أعمى و لم يعرف فيهم واحد أطرش، بل لا يعرف فى الصحابه أطرش، فهذا و نحوه من احتجاجهم على تفضيل البصر.

قال منازعهم: يفصل بيننا و بينكم أمران:

أحدهما: أن مدرك البصر النظر إلى وجه الله تعالى فى الدار الآخرة، و هو نعيم أهل..

ص: ٢٣٣

١- انظر هامش (٣) فى الصفحه السابقه، و رحم ابن القيم صاحب الفقه الحى، لا الآراء التى هى كالشوك فى خلق العلم و أهله.

٢- أحمد (٢٤/٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (٢١٩، ٢١٨/٧): «رجال أحمد رجال الصحيح».

الجنة إليهم، ولا شيء أكمل من المنظور إليه- سبحانه- فلا حاسه في العبد أكمل من حاسه تراه بها.

الثانى: أن هذا النعيم و هذا العطاء إنما نالوه بواسطة السمع، فكان السمع كالوسيله لهذا المطلوب الأعظم، فتفضيله عليه كفضيله الغايات على وسائلها. و أما ما ذكرتم من سعه إدراكاته و عمومها، فيعارضه كثره الخيانه فيها و وقوع الغلط، فإن الصواب فيما يدركه السمع بالإضافة إلى كثره المسموعات قليل فى كثير، و يقابل كثير مدركاته صحه مدركات البصر و عدم الخيانه، و أن ما يراه و يشاهده لا يعرض فيه من الكذب ما يعرض فيه فيما يسمعه، و إذا تقابلت المرتبتان بقى الترجيح بما ذكرناه.

و قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيميه- قدس الله روحه و نور ضريحه-: و فصل الخطاب أن إدراك السمع أعم و أشمل، و إدراك البصر أتم و أكمل، فهذا له التمام و الكمال، و ذاك له العموم و الشمول، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به، تم كلامه (١).

و قد ورد فى الحديث المشهور: أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأبى بكر و عمر: «هذان السمع و البصر» (٢). و هذا يحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون المراد أنهما منى بمنزله السمع و البصر.

و الثانى: أن يريد أنهما من دين الإسلام بمنزله السمع و البصر من الإنسان، فيكون الرسول صلى الله عليه و سلم بمنزله القلب و الروح، و هما بمنزله السمع و البصر من الدين.

و على هذا فيحتمل وجهين، أحدهما: التوزيع، فيكون أحدهما بمنزله السمع و الآخر بمنزله البصر.

و الثانى: الشركه، فيكون هذا التنزيل و التشبيه بالحاستين ثابتا لكل واحد منهما، فكل منهما بمنزله السمع و البصر.

فعلى احتمال التوزيع و التقسيم تكلم الناس أيهما هو السمع و أيهما هو البصر، و بنوا ذلك على أى الصفتين أفضل، فهى صفه الصديق.

و التحقيق أن صفه البصر للصديق و صفه السمع للفاروق. و يظهر لك هذا من كون عمر محدثا كما قال النبى صلى الله عليه و سلم: «قد كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى هذه الأمة أحد».

ص: ٢٣٤

١- و هذا الكلام من فتح الله تعالى عليه، رحمه الله، و حسمه للمسأله إرشاد للباحث إلى وسائل قطع النزاع.

٢- مجمع الزوائد (٥٥/٩)، و قال: «رواه الطبرانى، و فيه فرات بن السائب و هو متروك».

(١). و التحديث المذكور هو ما يلقي في القلب من الصواب و الحق و هذا طريقه السمع الباطن، و هو بمنزله التحديث و الإخبار في الأذن، و أما الصديق فهو الذي كمل مقام الصديقيه لكمال بصيرته، حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر به الرسول، ما باشر قلبه، فلم يبق بينه و بين إدراك البصر إلا- حجاب الغيب، فهو كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره. و هذا لكمال البصيره، و هذا أفضل مواهب العبد، و أعظم كراماته التي يكرم بها، و ليس بعد درجه النبوه إلا هي، و لهذا جعلها- سبحانه- بعدها فقال: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدَّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ [النساء: ٦٩] و هذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثره صوم و لا بكثره صلاه، و صاحب هذا يمشى رويدا و يجيء في الأول. و لقد تعناه من لم يكن سيره على هذا الطريق و تسميره إلى هذا العلم، و قد سبق من شمر إليه و إن كان يزحف زحفا و يجبو جبا.

و لا تستطل هذا الفصل فإنه أهم مما قصد بالكلام. فليعد إليه.

فقيل: تقديم السمع على البصر له سببان، أحدهما: أن يكون السياق يقتضيه، بحيث يكون ذكرها بين الصفتين، متضمنا للتهديد و الوعيد، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين و تحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضى الحذر و الاستقامه، كقوله: فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) [البقره]، و قوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: ١٣٤].

و القرآن مملوء من هذا، و على هذا فيكون في ضمن ذلك أنى أسمع ما يردون به عليك و ما يقابلون به رسالاتي، و أبصر ما يفعلون، و لا ريب أن المخاطبين بالرساله بالنسبه إلى الإجابه و الطاعه نوعان:

أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجبها.

و الثانى: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبه المسموع منهم قبل مرتبه البصر، فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر، و تأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى:

إِنِّي مَعَكُمْ أَشْمَعُ وَ أَرَى [طه: ٤٦]، هو يسمع ما يجيبهم و يرى ما يصنعه. و هذا لا يعم سائر المواضع، بل يختص منها بما هذا شأنه.

و السبب الثانى: أن إنكار الأوهام الفاسده لسمع الكلام، مع غايه البعد بين السامع و المسموع، أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده. و فى «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثه نفر: ثقفيان و قرشى، أو قرشيان و ثقفى، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما.

نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا. ولم يقولوا: أترون الله يرانا، فكان تقديم السمع أهم، والحاجه إلى العلم به أمس.

و سبب ثالث: وهو أن حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح و أشدها تأثيرا فى الخير و الشر و الصلاح و الفساد، بل عامه ما يترتب فى الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان، فكان تقديم الصفه المتعلقة به أهم و أولى، و بهذا يعلم تقديمه على العليم، حيث وقع.

و أما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره و هو أن غالبا تذكر السموات و الأرض فى سياق آيات الرب الداله على وحدانيته و ربوبيته، و معلوم أن الآيات فى السموات أعظم منها فى الأرض لسعتها و عظمها و ما فيها من كواكبها و شمسها و قمرها و بروجها و علوها و استغنائها عن عمد ثقلها أو علاقته ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التى تعتبر الأرض و ما فيها كقطره فى سعتها، و لهذا أمر- سبحانه- بأن يرجع الناظر البصر فيها كره بعد كره، و يتأمل استواءها و اتساقها و براءتها من الخلل و الفطور، فالآيه فيها أعظم من الأرض و فى كل شىء له آيه سبحانه و بحمده.

و أما تقديم الأرض عليها فى قوله: **وَ مَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ** [يونس: ٦١]، و تأخيرها عنها فى «سبأ» فتأمل كيف وقع هذا الترتيب فى «سبأ» فى ضمن قول الكفار: **لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ** [سبأ: ٣]، كيف قدم السموات هنا؟ لأن الساعه إنما تأتى من قبلها و هى غيب فيها و من جهتها تبتدئ و تنشأ، و لهذا قدم صقع أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: **وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَن فِي الْأَرْضِ** [الزمر: ٦٨].

و أما تقديم الأرض على السماء فى سورة يونس [الآيه ٦١]، فإنه لما كان السياق سياق تحذير و تهديد للبشر و إعلامهم أنه- سبحانه- عالم بأعمالهم دقيقها و جليلها، و أنه لا- يغيب عنه منها شىء، اقتضى ذلك ذكر محلهم و هو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم و الأسرار و العلوم ما يشهد أنه كلام الله، و أن مخلوقا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدا.

و أما تقديم المال على الولد فلم يطرد فى القرآن بل قد جاء مقدا كذلك فى قوله:

وَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ [سبأ: ٣٧]، و قوله: **أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** [التغابن: ١٥]، و قوله: **لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** [المنافقون: ٩] و جاء

ذكر البنين مقدما كما فى قوله: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا [التوبه: ٢٤]، وقوله: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ [آل عمران: ١٤].

فأما تقديم الأموال فى تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها و الحرص على تحصيلها، حتى يفوته حظه من الله و الدار الآخرة، نهى (١) فى موضع عن الانتهاء بها، و أخبر فى موضع أنها فتنه، و أخبر فى موضع آخر أن الذى يقرب عباده إليه إيمانهم و عملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففى ضمن هذا النهى عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. و معلوم أن اشتغال الناس بأموالهم و التلاهى بها، أعظم من اشتغالهم بأولادهم. و هذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحه ولده و عن معاشرته و قربه.

و أما تقديمهم على الأموال فى تينك الآيتين فلحكمه باهره، و هى أن «براءه» متضمنه لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكوره فيها، أحب إليه من الجهاد فى سبيل الله، و معلوم أن تصور المجاهد فراق أهله و أولاده و آباءه و إخوانه و عشيرته، تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقتة ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر و أكثر، و لا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقه ماله، بل يغيب بمفارقه الأحباب عن مفارقه المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

و تأمل هذا الترتيب البديع فى تقديم ما قدم و تأخير ما أخر، يطلعك على عظمه هذا الكلام و جلالته، فبدأ أولا بذكر أصول العبد، و هم آباؤه المتقدمون طبعاً و شرفاً و رتبه، و كان فخر القوم بآبائهم و محاماتهم عن آبائهم و مناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل و سبى الذريه، و لا يشهدون على آبائهم بالكفر و النقيصه، و يرغبون عن دينهم لما فى ذلك من إزرائهم بهم.

ثم ذكر الفروع و هم الأبناء لأنهم يتلونهم فى الرتبه، و هم أقرب أقاربهم إليهم و أعلق بقلوبهم و ألصق بأكبادهم من الإخوان و العشيره.

ثم ذكر الإخوان و هم الكلاله و حواشى النسب، فذكر الأصول أولا ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً؛ لأن الزوجه أجنبيه عنده، و يمكن أن يتعوض عنها بغيرها،».

ص: ٢٣٧

و هي إنما تراد للشهوه. و أما الأقارب من الآباء و الأبناء و الإخوان فلا عوض عنهم، و يرادون للنصره و الدفاع، و ذلك مقدم على مجرد الشهوه.

ثم ذكر القرابه البعيده خامسا و هي العشيره و بنو العم؛ فإن عشائرهم كانوا بنى عمتهم غالبا و إن كانوا أجنب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادسا، و وصفها بكونها مقترفه أى مكتسبه؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل و له أحب و بقدره أعرف لما حصل له فيه من التعب و المشقه، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبه أو وصيه، فإن حفظه للأول و مراعاته له و حرصه على بقائه أعظم من الثانى، و الحس شاهد بهذا، و حسبك به.

ثم ذكر التجاره سابعا؛ لأن محبه العبد للمال أعظم من محبته للتجاره التى يحصله بها، فالتجاره عنده وسيله إلى المال المقترف، فقدم المال على التجاره تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجاره بكونها مما يخشى كسادها، و هذا يدل على شرفها و خطرها، و أنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفه الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامنا آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تشابه، و قد يقوم الوطن الثانى مقام الأول من كل وجه و يكون خيرا منه، فمنها عوض. و أما الآباء و الأبناء و الأقارب و العشائر فلا يتعوض منها غيرها، فالقلب و إن كان يحن إلى وطنه الأول، فحنينه إلى آباءه و أبنائه و زوجاته أعظم، فمحبه الوطن آخر المراتب، و هذا هو الواقع إلا- لعارض يترجح عنده إثارة البعيد على القريب فذلك جزئى لا كلى فلا تناقض به، و أما عند عدم العوارض، فهذا هو الترتيب المناسب و الواقع.

و أما آيه آل عمران، فإنها لما كانت فى سياق الإخبار بما زين للناس من الشهوات التى آثروها على ما عند الله و استغنوا بها، قدم ما تعلق الشهوه به أقوى و النفس إليه أشد سعرا و هو النساء، التى فتنتهن أعظم فتن الدنيا، و هى القيود التى حالت بين العباد و بين سيرهم إلى الله، ثم ذكر البنين المتولدين منهم، فالإنسان يشتهى المرأه للحمه و الولد، و كلاهما مقصود له لذاته، ثم ذكر شهوه الأموال، لأنها تقصد لغيرها فشهوتها شهوه الوسائل، و قدم أشرف أنواعها، و هو الذهب، ثم الفضة بعده، ثم ذكر الشهوه المتعلقة بالحيوان الذى لا- يعاشره عشره النساء و الأولاد، فالشهوة المتعلقة به دون الشهوه المتعلقة بها. و قدم أشرف هذا النوع و هو الخيل، فإنها حصون القوم و معاقلهم و عزهم و شرفهم، فقدمها على الأنعام التى هى الإبل و البقر و الغنم، ثم ذكر الأنعام و قدمها على الحرث؛ لأن الجمال بها

و الانتفاع أظهر و أكثر من الحرث كما قال تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرِحُونَ (٦)[النحل]. و الانتفاع بها أكثر من الحرث، فإنها ينتفع بها ركوبا و أكلا و شربا و لباسا و أمتعه و أسلحه و دواء و قنيه، إلى غير ذلك من وجوه الانتفاع، و أيضا فصاحبها أعز من صاحب الحرث و أشرف و هذا هو الواقع فإن صاحب الحرث لا بد له من نوع مذكوره؛ و لهذا قال بعض السلف- و قد رأى سكه: ما دخل هذا دار قوم إلا دخلهم الذل، فجعل الحرث في آخر المراتب و ضعا له في موضعه.

و يتعلق بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، و هو تقديم الأموال على الأنفس في الجهاد حيث ما وقع في القرآن إلا في موضع واحد و هو قوله:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [التوبة: ١١١]، و أما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ [الصف: ١١] و قوله: وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ [التوبة: ٢٠]، و هو كثير فما الحكمه في تقديم المال على النفس، و ما الحكمه في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ و هذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله.

فيقال أولا- هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو و جب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزا و جب عليه أن يكتري بماله، و هذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، و الأدله عليها أكثر من أن تذكر هنا.

و من تأمل أحوال النبي صلى الله عليه و سلم و سيرته في أصحابه و أمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول، و المقصود تقديم المال في الذكر، و إن ذلك مشعر بإنكاره، و هم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزى بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال فكيف يقال: لا يجيب به، و لو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم و أقوى من وجوبه بالنفس، لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال، و هذا بين و على هذا فتظهر الفائده في تقديمه في الذكر.

و فائده ثانيه على تقدير عدم الوجوب، و هي: أن المال محبوب النفس و معشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله و ترتكب الأخطار و تتعرض للموت في طلبه، و هذا يدل على أنه هو محبوبها و معشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله، إلى بذل معشوقهم و محبوبهم في مرضاته فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، و لا- يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه، نقلهم إلى مرتبه أخرى أكمل منها، و هي

بذل نفوسهم له. فهذا غاية الحب فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئاً بذل له محبوبه من نفعه و ماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه و أثرها على محبوبه.

و هذا هو الغالب و هو مقتضى الطبيعه الحيوانيه و الإنسانيه؛ و لهذا يدافع الرجل عن ماله و أهله و ولده، فإذا أحس بالمغلوبيه و الوصول إلى مهجته و نفسه، فر و تركهم فلم يرض الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها. و أيضا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يقى به نفسه، فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس فى الجهاد مطابقا للواقع.

و أما قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ [التوبه: ١١١] فكان تقديم الأُنفس هو الأولى لأنها هى المشتره فى الحقيقه و هى مورد العقد و هى السلعه التى استامها ربها و طلب شراءها لنفسه و جعل ثمن هذا العقد رضاء و جنته، فكانت هى المقصود بعقد الشراء، و الأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها، فإن العبد و ما يملكه لسيدته ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها و متعلقاتها، فحسن تقديم النفس على المال فى هذه الآيه حسنا لا مزيد عليه.

فلنرجع إلى كلام السهيلي -رحمه الله- و أما ما ذكره من تقديم الغفور على الرحيم فحسن جدا.

و أما تقديم الرحيم على الغفور فى موضع واحد و هو «أول سبأ»، ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى، و أسمائه الحسنى، فى أول السوره إلى قوله:

وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ، فإنه ابتداء -سبحانه- السوره بحمده الذى هو أعم المعارف و أوسع العلوم، و هو متضمن لجميع صفات كماله و نعوت جلاله، مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته فى جميع أفعاله و أوامره، فهو المحمود على كل حال و على كل ما خلقه و شرعه، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ، ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له فى الآخره غير منقطع أبدا، فإنه حمد يستحقه لذاته و كمال أوصافه، و ما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبدا، و قرن بين الملك و الحمد على عادته تعالى فى كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه و كمال و من حمده و كمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصا، و الحمد بلا ملك يستلزم عجزا، و الحمد مع الملك غاية الكمال، و نظير هذا العزه و الرحمه، و العفو و القدره، و الغنى و الكرم. فوسط الملك بين الجمليتين، فجعله

محفوظا بحمد قبله و حمد بعده، ثم عقب هذا الحمد و الملك باسم الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ الدالين على كمال الإرادة و أنها لا تتعلق بمراد إلا- لحكمه بالغه و على كمال العلم، و أنه يتعلق بطواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا- تدرك إلا- بخبره، فنسبه الحكمه إلى الإرادة كنسبه الخبره إلى العلم، فالمراد ظاهر و الحكمه باطنه، و العلم ظاهر و الخبره باطنه، فكمال الإرادة أن تكون واقعته على وجه الحكمه، و كمال العلم أن يكون كاشفا عن الخبره، فالخبره باطن العلم و كماله و الحكمه باطن الإراده و كمالها. فتضمنت الآيه إثبات حمده و ملكه، و حكمته و علمه على أكمل الوجود.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر و ما بطن في العالم العلوى و السفلى، فقال: يَعْلمُ ما يَلجُجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْهَا وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيهَا [الحديد: ٤] ثم ختم الآيه بصفتين تقتضيان غايه الإحسان إلى خلقه، و هما الرحمه و المغفره، فيجلب لهم الإحسان و النفع على أتم الوجوه برحمته، و يعفو عن زلتهم، و يهب لهم ذنوبهم و لا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال:

وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ [سبأ: ٢]، فتضمنت هذه الآيه سعه علمه و رحمته و مغفرته، و هو -سبحانه- يقرن بين سعه العلم و الرحمه كما يقرن بين العلم و الحلم، فمن الأول قوله:

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا [غافر: ٧]؛ و من الثانى: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ [النساء: ١٢]

[١٢] فما قرن شىء إلى شىء أحسن من حلم إلى علم، و من رحمه إلى علم. و حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا و بحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، و اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا و بحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك (١).

فاقتران العفو بالقدره كاقتران الحلم و الرحمه بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدره، و كذلك الحلم و الرحمه إنما يحسان مع العلم، و قدم الرحيم فى هذا الموضع لتقدم صفه العلم فحسن ذكر «الرحيم» بعده ليقترن به فيطابق قوله: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا [غافر: ٧] ثم ختم الآيه بذكر صفه المغفره لتضمنها دفع الشر و تضمن ما قبلها جلب الخير، و لما كان دفع الشر مقدا على جلب الخير، قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. و لما كان فى هذا الموضع تعارض يقتضى تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.

و أما قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) [آل عمران] فقدب.

ص: ٢٤١

١- انظر الدرر المنثور للسيوطى (٢٧٤/٧) عن هارون بن رثاب بلفظ «حملة العرش ثمانية» و قال: أخرجه ابن المنذر و أبو الشيخ و البيهقى فى الشعب. و ذكره ابن كثير (٧٨/٤) عن شهر بن حوشب.

أبعد النجعه فيما تعسفه من فائده التقديم، و أتى بما ينبو اللفظ عنه. و قال غيره: السجود كان فى دينهم قبل الركوع، و هذا قائل ما لا علم له به.

و الذى يظهر فى الآيه- و الله أعلم بمراده من كلامه- أنها اشتملت على مطلق العباده و تفصيلها، فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص. فذكر القنوت أولاً و هو الطاعه الدائمه فيدخل فيه القيام و الذكر و الدعاء، و أنواع الطاعه. ثم ذكر ما هو أخص منه و هو السجود الذى يشرع وحده كسجود الشكر و التلاوه، و يشرع فى الصلاه، فهو أخص من مطلق القنوت. ثم ذكر الركوع الذى لا يشرع إلا فى الصلاه، فلا يسن الإتيان به منفرداً فهو أخص مما قبله.

ففائده الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، و هما طريقتان معروفتان من الكلام: النزول من الأعم إلى الأخص و عكسها و هو الترقى من الأخص، إلى ما هو أعم منه الى ما هو أعم.

و نظيرها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ [الحج: ٧٧] فذكر أربعة أشياء، أخصها: الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العباده أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله و الذى يزيد هذا وضوح الكلام على ما ذكره بعد هذه الآيه من قوله: وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ [الحج: ٢٦]، فإنه ذكر أخص هذه الثلاثه، و هو الطواف الذى لا يشرع إلا بالبيت خاصه، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف و هو القيام المذكور فى الحج، و هو أعم من الطواف، لأنه يكون فى كل مسجد و يختص بالمساجد لا يتعداها- ثم ذكر الصلاه التى تعم سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثنى شرعاً.

و إن شئت قلت: ذكر الطواف الذى هو أقرب العبادات بالبيت، ثم الاعتكاف الذى يكون فى سائر المساجد ثم الصلاه التى تكون فى البلد كله بل فى كل بقعه، فهذا تمام الكلام على ما ذكره من الأمثله و له- رحمه الله- مزيد السبق و فضل التقدم (١).

ص: ٢٤٢

دخول الشرط على الشرط

[صور دخول الشرط على الشرط]

دخول الشرط على الشرط له صور:

إحداها: إن خرجت و لبست فأنت طالق، لا يحنث إلا بهما كيفما كانا.

الثانية: إن لبست فخرجت، لم يحنث إلا بخروج بعد لبس.

الثالثة: إن لبست ثم خرجت، لا يحنث بخروجها بعد لبسها لا معه، و يكون متراخيا، هذا بناء على ظاهر اللفظ، و أما قصده فيراعى و لا يلتفت إلى هذا.

الرابعة: إن خرجت لا إن لبست، يحنث بالخروج وحده، و لا يحنث باللبس.

و يحتمل هذا التعليق أمرين: أحدهما: أن يجعل الخروج شرطا و يبقى أن يكون اللبس شرطا، فحكمه ما ذكرنا. الثاني: أن يجعل الخروج مع عدم اللبس شرطا فلا يحنث بخروج معه لبس، و يكون المعنى إن خرجت لا لابسه أو غير لابسه. فإن خرجت لابسه لم يحنث.

الخامسة: إن خرجت بل إن لبست، فلا يحنث إلا باللبس دون الخروج. و يحتمل هذا التعليق أيضا أمرين: أحدهما: هذا. و الثاني: أن يكون كل منهما شرطا، فيحنث بأيهما وجد، و يكون الإضراب إضراب اقتصار لا إضراب إلغاء، فكأنه يقول: لا أقتصر على جعل الأول وحده شرطا، بل أيهما وجد فهو شرط. فعلى التقدير الأول يكون إضراب إلغاء و رجوع، و على الثاني: إضراب اقتصار و أفراد.

السادسة: إن خرجت أو إن لبست يحنث بأيهما وجد.

السابعة: إن لبست لكن إن خرجت، فالشرط الثاني قد لغا الأول بلكن، لأنها للاستدراك.

الثامنة: و هى أشكلها: إن لبست إن خرجت، و هذه مسألة دخول الشرط على الشرط، و يحتمل التعليق فى ذلك أمرين: أحدهما: أن يجعل كل واحد منهما شرطا مستقلا فيكون كالمعطوف بالواو سواء و لا إشكال. و الثاني: أن يجعل أحدهما شرطا فى الآخر.

و اختلف الفقهاء فى حكم هذه المسألة؛ فقال أصحاب مالك: هو تعليق للتعليق. ففى هذا الكلام تعليقان: أحدهما: إن لبست فأنت طالق، ثم علق هذه الجملة المعلقة

بالخروج. فكأنه قال: شرط نفوذ هذا التعليق الخروج، فعلى هذا لا يحث حتى يوجد الخروج بعد اللبس، و ممن نص عليها ابن شاش في «الجواهر».

و قال أبو اسحاق في «المهذب». و قد صور المسألة: إن كلمت زيدا إن دخلت الدار فأنت طالق. ثم كلمت زيدا طلقت. و إن كلمت زيدا أولا، ثم دخلت الدار، لم تطلق؛ لأنه جعل دخول الدار شرطا في كلام زيد، فوجب تقديمه عليه، و هكذا عكس قول المالكية.

و رجح أبو المعالي قول المالكية في نهايته، و قد وقع هذا التعليق في كتاب الله عز و جلّ في مواضع.

أحدها: قوله عن نوح وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود: ٣٤] و هذا ظاهر في أن الشرط الثاني شرط في الشرط الأول، و المعنى: إن أراد الله أن يغويكم لم ينفعكم نصحي إن أردته، و هذا يشهد لصحة ما قال الشيخ أبو إسحاق.

الموضع الثاني: قوله تعالى وَ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ [الأحزاب: ٥٠]. قالوا: فهذه الآية ظاهرة في قول المالكية؛ لأن إرادة رسول الله صلى الله عليه و سلم متأخره عن هبتها، فإنها تجرى مجرى القبول في هذا العقد، و الإيجاب هو هبتها. و نظير هذا أن يقول: إن وهب لي شيئا إن أردت قبوله أخذته، فإن إرادته القبول متأخره عن الهبة، فلا يكون شرطا فيها. قال الأولون: يجوز أن تكون إرادة رسول الله صلى الله عليه و سلم متقدمه، فلما فهمت المرأة منه ذلك و هبت نفسها له، فيكون كالأية الأولى. و هذا غير صحيح، و القصة تأباه؛ فإن المرأة قامت و قالت: يا رسول الله، إنى وهبت لك نفسي.

فصعد فيها النظر و صوبه، ثم لم يتزوجها و زوجها غيره (١).

الموضع الثالث: قوله تعالى: فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الواقعه]. المعنى: فلو لا ترجعونها، أى تردون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مربوبين مملوكين إن كنتم صادقين. و هنا: الثاني شرط للأول، و المعنى: إن كنتم صادقين فى قولكم فهلا تردونها إن كنتم غير مدنيين. و يدل عليه قول الشاعر، أنشده عبد الله بن مالك: د.

ص: ٢٤٤

١- البخارى (٥٦٣٥) فى النكاح، باب: السلطان ولى، و مسلم (٧٦/١٤٢٥) فى النكاح، باب: الصداق و جواز كونه تعليم قرآن و خاتم حديد.

إن تستغيثوا بنا إن تذرنا تجنوا منا معاقل عز زانها الكرم

و معلوم أن الاستغاثه إنما تكون بعد الذعر، فالذعر شرط فيها. و من هذا قول الدردي:

فإن عثرت بعدها إن والت نفسى من هاتا فقولا لا لعا

و معلوم أن العثور مره ثانيه إنما يكون بعد النجاه من الأولى، ف«والت» شرط فى الشرط الثانى. و على هذا فإذا ذكرت الشرطين و أتيت بالجواب كان جوابا للأول خاصه، و الثانى جرى معه مجرى الفضله و التتمه كالحال و غيرها من الفضلات، قاله ابن مالك.

و أحسن من هذا أن يقال: ليس الكلام بشرطين يستدعيان جوابين، بل هو شرط واحد و تعليق واحد اعتبر فى شرطه قيد خاص جعل شرطاً فيه، و صار الجواب للشرط المقيد فهو جواب لهما معا بهذا الاعتبار. و إيضاحه أنك إذا قلت: إن كلمت زيدا إن رأيتَه فأنت طالق. جعلت الطلاق جزاء على كلام مقيد بالرؤيه لا على كلام مطلق، و كأنه قال: إن كلمته ناظره إليه فأنت طالق، و هذا يبين لك حرف المسأله، و يزيل عنك إشكالها جمله، و بالله التوفيق (١)...

ص: ٢٤٥

١- بدائع الفوائد (٣/٢٤٥-٢٤٨) ..

الروابط بين الجملتين هي الأدوات التي تجعل بينهما تلازما لم يفهم قبل دخولها و هي أربعة أقسام:

أحدها: ما يوجب تلازما مطلقا بين الجملتين، إما بين ثبوت و ثبوت أو بين نفى و نفى أو بين نفى و ثبوت و عكسه في المستقبل خاصة و هو حرف الشرط البسيط كـ «إن»، فإنها تلازم بين هذه الصور كلها تقول: إن اتقيت الله أفلحت، و إن لم تتق الله لم تفلح، و إن أطعت الله لم تخب، و إن لم تطع الله خسرت؛ و لهذا كانت أمّ الباب و أعم أدواته تصرفا.

القسم الثاني: أداه تلازم بين هذه الأقسام الأربعة تكون في الماضي خاصة و هي «لما» تقول: لما قام أكرمته، و كثير من النحاه يجعلها ظرف زمان. و تقول: إذا دخلت على الفعل الماضي فهي اسم، و إن دخلت على المستقبل فهي حرف. و نص سيبويه على خلاف ذلك، و جعلها من أقسام الحروف التي تربط بين الجملتين.

و مثال الأقسام الأربعة: لما قام أكرمته، و لما لم يقم أكرمه، و لما لم يقم أكرمته، و لما قام لم أكرمه.

القسم الثالث: أداه تلازم بين امتناع الشيء لامتناع غيره، و هي «لو»، نحو: لو أسلم الكافر نجا من عذاب الله.

القسم الرابع: أداه تلازم بين امتناع الشيء و وجود غيره، و هي «لو لا»، نحو: لو لا أن هدانا الله لضللنا، و تفصيل هذا الباب يرسم عشر مسائل:

المسألة الأولى: المشهور أن الشرط و الجزاء لا يتعلقان إلا بالمستقبل، فإن كان ماضى اللفظ كان مستقبل المعنى، كقولك: إن مت على الإسلام دخلت الجنة. ثم للنحاه فيه تقديران، أحدهما: أن الفعل ذو تغير في اللفظ، و كان الأصل: إن تمت مسلما تدخل الجنة. فغير لفظ المضارع إلى الماضي، تنزيلا له منزله المحقق. و الثاني: أنه ذو تغير في المعنى و أن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال و بقي لفظه على حاله.

و التقدير الأول أفقه في العربي، لموافقته تصرف العرب في إقامتها الماضي مقام

المستقبل، و تنزيلها المنتظر منزله الواقع المتيقن، نحوى أتى أمرُ الله [النحل: ١] وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ [الزمر: ٦٨] و نظائره، فإذا تقرر ذلك فى الفعل المجرد، فليفهم مثله المقارن لأداه الشرط. و أيضا فإن تغيير الألفاظ أسهل عليهم من تغيير المعانى؛ لأنهم يتلاعبون بالألفاظ مع محافظتهم على المعنى. و أيضا فإنهم إذا أعرّبوا الشرط أتوا بأداته، ثم أتبعوها فعله يتلوه الجزاء، فإذا أتوا بالأداه جاءوا بعدها بالفعل، و كان حقه أن يكون مستقبلا لفظا و معنى، فعدلوا عن لفظ المستقبل إلى الماضى لما ذكرنا، فعدلوا عن صيغه إلى صيغه. و على التقدير الثانى، كأنهم وضعوا فعل الشرط و الجزاء أولا ماضيين، ثم أدخلوا عليهما الأداه فانقلبا مستقبلين، و الترتيب و القصد يأبى ذلك فتأمله.

المسألة الثانىة: قال تعالى عن عيسى عليه الصلاه و السلام: **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** [المائدة: ١١٦] فهذا شرط دخل على ماضى اللفظ، و هو ماضى المعنى قطعاً؛ لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة.

و على التقديرين: فإنما تعلق الشرط و جزاؤه بالماضى. و غلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه فى الدنيا قبل رفعه، و التقدير: إن أكن أقول هذا، فإنك تعلمه. و هذا تحريف للآية؛ لأن هذا الجواب إنما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، و الله لم يسأله، و هو بين أظهر قومه و لا اتخذه و أمه إلهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين، فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارا لقاعده نحويه، هدم مائه أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية.

و قال ابن السراج فى «أصوله»: يجب تأويلهما بفعلين مستقبلين، تقديرهما: إن ثبت فى المستقبل أنى قلته فى الماضى، يثبت أنك علمته، و كل شىء تقرر فى الماضى كان ثبوته فى المستقبل، فيحسن عليه.

و هذا الجواب أيضا ضعيف جدا، و لا- ينبئ عنه اللفظ، و ليت شعرى ما يصنعون بقول النبى صلى الله عليه و سلم: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله و توبى إليه» (١) هل يقول عاقل: إن الشرط هنا مستقبل؟ أما التأويل الأول فمتف هنا قطعاً، و أما الثانى فلا يخفى وجه التعسف فيه، و أنه لم يقصد أنه يثبت فى المستقبل أنك أذبت فى الماضى فتوبى، و لا قصد هذا المعنى، و إنما المقصود المراد ما دل عليه الكلام: إن كان صدر منك ذنب فيما مضى فاستقبله بالتوبه، لم يرد إلا هذا الكلام. ف.

ص: ٢٤٧

١- البخارى (٤٧٥٠) فى التفسير، باب: وَ لَوْ لَا إِذٍ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ [النور: ١٦]، و مسلم (٥٦/٢٧٧٠) فى التوبه، باب: فى حديث الإفك و قبول توبه القاذف.

و إذا ظهر فساد الجوابين فالصواب أن يقال:جملة الشرط و الجزء تاره تكون تعليقا محضا غير متضمن جوابا لسائل:هل كان كذا؟و لا يتضمن لنفى قول من قال:قد كان كذا،فهذا يقتضى الاستقبال و تاره يكون مقصوده و مضمونه جواب سائل:هل وقع كذا؟أو رد قوله:قد وقع كذا؟فإذا علق الجواب هنا على شرط،لم يلزم أن يكون مستقبلا لا- لفظا و لا- معنى،بل لا يصح فيه الاستقبال بحال،كمن يقول لرجل:هل أعتقت عبدك؟فيقول:

إن كنت قد أعتقته،فقد أعتقه الله،فما للاستقبال هنا معنى قط.و كذلك إذا قلته لمن قال:

صحبت فلانا؟فيقول:إن كنت صحبته فقد أصبت بصحبته خيرا.و كذلك إذا قلت له:هل أذنبت؟فيقول:إن كنت قد أذنبت فإنى قد تبت إلى الله و استغفرته،و كذلك إذا قال:هل قلت لفلان كذا؟و هو يعلم أنه علم بقوله له،فيقول:إن كنت قلته فقد علمته.فقد عرفت أن هذه المواضع كلها،مواضع ماض لفظا و معنى،ليطابق السؤال الجواب،و يصح التعليق الخبرى لا- الوعدى،فالتعليق الوعدى يستلزم الاستقبال،و أما التعليق الخبرى فلا يستلزمه.

و من هذا الباب قوله تعالى: إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصِيَدَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)[يوسف]،و تقول:إن كانت البينه شهدت بكذا و كذا فقد صدقت.و هذه دقيقه خلت عنها كتب النحاه و الفضلاء،و هى كما ترى وضوحا و برهانا،و لله الحمد.

المسألة الثالثة:المشهور عند النحاه و الأصوليين و الفقهاء أن أداه«إن»لا يعلق عليها إلا محتمل الوجود و العدم،كقولك:إن تأتى أكرمك.و لا يعلق عليها محقق الوجود،فلا نقول:إن طلعت الشمس أتيتك.بل تقول:إذا طلعت الشمس أتيتك.و«إذا»يعلق عليها النوعان،و استشكل هذا بعض الأصوليين فقال:قد وردت«إن»فى القرآن فى معلوم الوقوع قطعا،كقوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا [البقره:٢٣]،و هو-سبحانه-يعلم أن الكفار فى ريب منه.و قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ [البقره:٢٤]،و معلوم قطعا اتقاء فعلهم.

و أجاب عن هذا بأن قال:إن الخصائص الإلهيه لا تدخل فى الأوضاع العربيه،بل الأوضاع العربيه مبنيه على خصائص الخلق.و الله تعالى أنزل القرآن بلغه العرب و على منوالهم،فكل ما كان فى عاده العرب حسنا أنزل القرآن على ذلك الوجه،أو قبيحا لم ينزل فى القرآن،فكل ما كان شأنه أن يكون فى العاده مشكوكا فيه بين الناس حسن تعليقه ب«إن» من قبل الله و من قبل غيره،سواء كان معلوما للمتكلم أو للسامع أم لا.

و كذلك يحسن من الواحد منا أن يقول: إن كان زيد في الدار فأكرمه مع علمه بأنه في الدار، لأن حصول زيد في الدار شأنه أن يكون في العاده مشكوكا فيه فهذا هو الضابط لما تعلق على «إن» فاندفع الإشكال.

قلت: هذا السؤال لا يرد، فإن الذي قاله القوم أن الواقع و لا بد لا يعلق ب«إن» و أما ما يجوز أن يقع و يجوز ألا يقع، فهو الذي يعلق بها و إن كان بعد وقوعه متعين الوقوع. و إذا عرفت هذا فتدبر قوله تعالى: وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى، «بإذا» و أتى في إصابه السيئه «بان»، فإن ما يعفو الله عنه أكثر، و أتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الدال على تحقيق الوقوع، و في حصول السيئه بالمستقبل الدال على أنه غير محقق و لا بد، و كيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقه الدال على مباشره الرحمة لهم، و أنها مذوقه لهم و الذوق هو أخص أنواع الملابسه و أشدها، و كيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغايه مضافا إليه، فقال: مِنَّا رَحْمَةً [الشورى: ٤٨] و أتى في السيئه بباء السببيه مضافه إلى كسب أيديهم؟ و كيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقه الرحمة بحرف «إن» دون الجملة الثانيه.

و أسرار القرآن كثر و أعظم من أن تحيط بها عقول البشر.

و تأمل قوله تعالى: وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: ٦٧]، كيف أتى بإذا هاهنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققا؛ بخلاف قوله: لا- يَسِيْأُمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّ قُنُوطٌ (٤٩) (١) [فصلت]، فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، و لما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداه «إذا».

و تأمل قوله تعالى: وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (٨٣) [الإسراء]، كيف أتى هنا بإذا المشعره بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بإذا هاهنا أدل على المعنى المقصود من «إن»، بخلاف قوله: وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَمُدُّو دُعَاءِ عَرِيضٍ، فإنه بقله صبره و ضعف احتمالته متى توقع الشر أعرض و أطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤوسا.

ص: ٢٤٩

١- في المطبوعه «و إن مسه الشر فذو دعاء عريض».

و مثل هذه الأسرار فى القرآن لا ىرقى إليها إلا بموهبه من الله و فهم يؤتیه عبدا فى كتابه.

فإذا قلت:فما تصنع بقوله تعالى: **إِنِ امْرَأَةٌ هَمَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ** [النساء:١٧٦]، و الهلاك محقق؟قلت:التعليق ليس على مطلق الهلاك بل على هلاك مخصوص و هو هلاك لا عن ولد.

فإن قلت:فما تصنع بقوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢)[البقره:١٧٢] أو قوله: **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ** (١١٨)[الأنعام] أو تقول العرب:إن كنت ابنى فأطعنى. و فى الحديث فى السلام على الموتى:«و إنا إن شاء الله بكم لاحقون» (١) و اللحاق محقق و فى قول الموصى:إن مت فثلث مالى صدقه.

قلت:أما قوله **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**، الذى حسن مجيء «إن» هاهنا الاحتجاج و الإلزام، فإن المعنى:إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هى الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين فى جملتها، فكلوا من رزقه و اشكروه على نعمه، و هذا كثيرا ما يورد فى الحجاج كما تقول للرجل:إن كان الله ربك و خالقك فلا تعصه. و إن كان لقاء الله حقا فتأهب له. و إن كانت الجنة حقا فتزود إليها. و هذا أحسن من جواب من أجاب بأن «إن» هنا قامت مقام «إذا»، و كذا قوله: **إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ** و كذا قولهم:إن كنت ابنى فأطعنى، و نظائر ذلك.

و أما قوله:«إنا إن شاء الله بكم لاحقون» فالتعليق هنا ليس لمطلق الموت، و إنما هو للحاقهم بالمؤمنين و مصيرهم إلى حيث صاروا. و أما قول الموصى:إن مت فثلث مالى صدقه؛ فلأن الموت و إن كان محققا، لكن لما لم يعرف تعين وقته و طال الأمد و انفردت مسافه أمنيته الحياه، نزل منزله المشكوك، كما هو الواقع الذى يدل عليه أحوال العباد. فإن عاقلا لا يتيقن الموت و يرضى بإقامته على حال لا يحب الموت عليها أبدا، كما قال بعض السلف:ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

و على هذا حمل بعض أهل المعانى: **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** (١٥) **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** (١٦)[المؤمنون] فأكد الموت باللام، و أتى فيه باسم الفاعل الدال على الثبوت، و أتى فى البعث بالفعل و لم يؤكداه.

ص: ٢٥٠

١- مسلم (١٠٢/٩٧٤) فى الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور و الدعاء لأهلها.

المسألة الرابعة: قد تعلق الشرط بفعل محال ممتنع الوجود، فيلزمه محال آخر و تصدق الشرطيه دون مفرديهما، أما صدقها فلاستلزام المحال المحال، و أما كذب مفرديهما فلاستحالتهم، و عليه: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَمَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) [الزخرف: ٨١]، و منه قوله لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: ٢٢]. و منه: قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) [الإسراء] و نظائره كثيره.

و فائده الربط بالشرط فى مثل هذا أمران؛ أحدهما: بيان استلزام إحدى القضيتين للأخرى. و الثانى: أن اللازم متنف فالملزوم كذلك، فقد تبين من هذا الشرط تعلق به المحقق الثبوت و الممتنع الثبوت و الممكن الثبوت.

المسألة الخامسة: اختلف سيبويه و يونس فى الاستفهام الداخلى على الشرط؛ فقال سيبويه: يعتمد على الشرط و جوابه، فيتقدم عليهما و يكون بمنزله القسم، و نحو قوله: أَمْ فَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) [الأنبياء] و قوله: أَمْ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ [آل عمران]:

١٤٤]. و قال يونس: يعتمد على الجزاء، فتقول: إن مت أفأنت خالد. و القرآن مع سيبويه و القياس أيضا كما يتقدم القسم ليكون جملة الشرط و الجزاء مقسما عليها و مستفهما عنها، و لو كان كما قال يونس، لقال: فإن مت أفهم الخالدون.

المسألة السادسة: اختلف الكوفيون و البصريون فيما إذا تقدم أداء الشرط جملة تصلح أن تكون جزاء، ثم ذكر فعل الشرط و لم يذكر له جزاء، نحو: أقوم إن قمت. فقال ابن السراج: الذى عندى أن الجواب محذوف يعنى عنه الفعل المتقدم، قال: و إنما يستعمل هذا على وجهين؛ إما أن يضطر إليه شاعر، و إما أن يكون المتكلم به محققا بغير شرط و لا نيه.

فقال: أجيئك، ثم يبدو له ألا يجيئه إلا بسبب، فيقول: إن جئتني، فيشبه الاستثناء و يعنى عن الجواب ما تقدم.

و هذا قول البصريين، و خالفهم أهل الكوفة، و قالوا: المتقدم هو الجزاء، و الكلام مرتبط به. و قولهم فى ذلك هو الصواب، و هو اختيار الجرجاني، قال: الدليل على أنك إذا قلت:

آتيك إن أتيتنى كان الشرط متصلا «بآتيك»، و أن الذى يجرى فى كلامهم لا بد من إضمار الجزاء ليس على ظاهره، و أما إن عملنا على ظاهره و توقفنا أن الشرط متقدم فى النفس على الجزاء، صار من ذلك شيئا ابتداء كلام ثان.

ثم اعتقاد ذلك يؤدى إلى إبطال ما اتفق عليه العقلاء فى الإيمان، من افتراق الحكم بين أن يصل الشرط فى نطقه، و بين أن يقف ثم يأتى بالشرط، و أنه إذا قال لعبده: أنت حر إن

شاء الله، فوصل، لم يعتق، و لو وقف ثم قال: إن شاء الله، فإنه يعتق.

فإذا سمعت ما قلنا عرفت خلاف المسأله، فالمشهور من مذهب البصريين امتناع تقديم الجزاء على الشرط، هذا كلامه.

قلت: و لم يكن به حاجه فى تقرير الدليل إلى الوقف بين الجملة الأولى و جملة الشرط، فالدلاله قائمه و لو وصل، فإنه إذا قال: أنت حر، فهذه جملة خبريه ترتب عليها حكمها عند تمامها، و قوله: إن شاء الله، ليس تعليقا لها عندكم، فإن التعليق إنما يعمل فى الجزاء، و هذه ليست بجزاء، و إنما هى خبر محض و الجزاء عندكم محذوف. فلما قالوا: إنه لا يعتق، دل على أن المتقدم نفسه جزاء معلق.

هذا تقرير الدلاله و لكن ليس هذا باتفاق، فقد ذهب طائفة من السلف و الخلف إلى أن الشرط إنما يعمل فى تعليق الحكم إذا تقدم على الطلاق، فتقول: إن شاء الله فأنت طالق.

فأما إن تقدم الطلاق ثم عقبه بالتعليق فقال: أنت طالق إن شاء الله، طلقت و لا ينفع التعليق، و على هذا فلا يبقى فيما ذكر حجه. و لكن هذا المذهب شاذ و الأكثرون على خلافه، و هو الصواب، لأنه إما جزاء لفظا و معنى قد اقتضاه التعليق على قول الكوفيين، إما أن يكون جزاء فى المعنى، و هو نائب الجزاء المحذوف و دل عليه، فالحكم تعلق به على التقديرين، و المتكلم إنما بنى كلامه عليه.

و أما قول ابن السراج: إنه قصد الخبر جزما، ثم عقبه بالجزاء. فليس كذلك بل بنى كلامه على الشرط كما لو قال له: على عشرة إلا درهما. فإنه لم يقر بالعشره ثم أنكر درهما. و لو كان كذلك لم ينفعه الاستثناء. و من هنا قال بعض الفقهاء: إن الاستثناء لا ينفع فى الطلاق؛ لأنه إذا قال: أنت طالق ثلاثا إلا واحده، فقد أوقع الثلاثه ثم رفع منها واحده.

و هذا مذهب باطل؛ فإن الكلام مبنى على آخره مرتبط أجزاءه بعضها ببعض، كارتباط التوابع من الصفات و غيرها بمتبوعاتها، و الاستثناء لا يستقل بنفسه فلا يقبل إلا بارتباطه بما قبله، فجرى مجرى الصفه و العطف.

و يلزم أصحاب هذا المذهب ألا ينفع الاستثناء فى الإقرار؛ لأن المقر به لا يرفع ثبوته، و فى إجماعهم على صحته دليل على إبطال هذا المذهب، و إنما احتاج الجرجاني إلى ذكر الفرق بين أن يقف أو يصل؛ لأنه إذا وقف عتق العبد و لم ينفعه الاستثناء و إذا وصل لم يعتق، فدل على أن الفرق بين وقوع العتق و عدمه هو السكوت، و الوصل هو المؤثر فى

الحكم لا تقدم الجزاء و تأخره، فإنه لا تأثير له بحال كما ذكره ابن السراج: أنه إنما يأتي في الضرورة، ليس كما قال -فقد جاء في أفصح الكلام و هو كثير جدا، كقوله تعالى:

وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقره: ١٧٢] و قوله: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنَّ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) [الأنعام: ١١٨] و قوله: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنَّ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) [آل عمران] و هو كثير، فالصواب المذهب الكوفي، و التقدير إنما يصار إليه عند الضرورة، بحيث لا- يتم الكلام إلا- به، فإذا كان الكلام تاما بدونه فأى حاحه بنا إلى التقدير؟ و أيضا، فتقديم الجزاء ليس بدون تقديم الخبر و المفعول و الحال و نظائرها.

فإن قيل: الشرط له التصدير و صفا، فتقديم الجزاء عليه يخل بتصديره، قلنا هذه هي الشبهه التي منعت القائلين بعدم تقديمه.

و جوابها: إنكم إن عنيتم بالتصدير أنه لا- يتقدم معموله عليه، و الجزاء معمول له فيمتنع تقديمه فهو نفس المتنازع فيه، فلا يجوز إثبات الشيء بنفسه، و إن عنيتم به أمرا آخر لم يلزم منه امتناع التقديم، ثم نقول: الشرط و الجزاء جملتان قد صارتا بأداه الشرط جملة واحده، و صارت الجملتان بالأداه كأنهما مفردان فأشبهها الفردين في باب الابتداء و الخبر، فكما لا يمتنع تقديم الخبر على المبتدأ فكذلك تقديم الجزاء، و أيضا فالجزء هو المقصود و الشرط قيد فيه و تابع له، فهو من هذا الوجه رتبته التقديم طبعاً، و لهذا كثيرا ما يجيء الشرط متأخرا عن المشروط؛ لأن المشروط هو المقصود و هو الغايه، و الشرط و سيله، فتقديم المشروط هو تقديم الغايات على وسائلها و رتبته التقديم ذهنا و إن تقدمت الوسيله و جودا، فكل منهما له التقدم بوجه، و تقدم الغايه أقوى، فإذا وقعت في مرتبتها فأى حاحه إلى أن نقدرها متأخره؟ و إذا انكشف الصواب فالصواب أن تدور معه حيثما دار.

المسأله السابعه: «لو» يؤتى بها للربط لتعلق ماض بماض، كقولك: لو زرتنى لأكرمتك؛ و لهذا لم تجزم إذا دخلت على مضارع، لأن الموضوع للماضى لفظا و معنى، كقولك: لو يزورنى زيد لأكرمه فهي في الشرط نظير «إن» في الربط بين الجملتين لا في العمل و لا في الاستقبال، و كان بعض فضلاء المتأخرين و هو تاج الدين الكندى ينكر أن تكون «لو» حرف شرط، و غلط الزمخشري في عدها في أدوات الشرط. قال الأندلسي في «شرح المفصل»: فحكيت ذلك لشيخنا أبى البقاء، فقال: غلط تاج الدين في هذا التغليظ، فإن «لو» تربط شيئا بشيء كما تفعل إن.

قلت: و لعل النزاع لفظي، فإن أريد بالشرط الربط المعنوى الحكيمى، فالصواب ما قاله

أبو البقاء و الزمخشري، و إن أريد بالشرط ما يعمل في الجزئين فليست من أدوات الشرط (١).

المسألة الثامنة: المشهور أن «لو» إذا دخلت على ثبوتين نفيهما، أو نفيين أثبتتهما، أو نفلى و ثبوت، أثبتت المنفى و نفت المثبت، و ذلك لأنها تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، و إذا امتنع النفى صار إثباتا فجاءت الأقسام الأربعة، و أورد على هذا أمور.

أحدها: قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَمَقْتَضَى مَا ذَكَرْتُمْ أَنْ تَكُونَ كَلِمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ نَفِدَتْ، وَهُوَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ ثُبُوتٌ وَهُوَ كَوْنُ أَشْجَارِ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَالْبَحَارَ مَدَادًا لِكَلِمَاتِهِ، وَهَذَا مُنْتَفٍ، وَالثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ فَيُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ثُبُوتًا.

الثاني: قول عمر: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فعلى ما ذكرتم يكون الخوف ثابتا لأنه منفى، و المعصية كذلك لأنها منفيه أيضا.

و قد اختلف أجوبه الناس عن ذلك، فقال أبو الحسن بن عصفور: «لو» في الحديث بمعنى «إن» لمطلق الربط، فلا يكون نفيها إثباتا، و لا إثباتا نفيًا، فاندفع الإشكال. و في هذا الجواب ضعف بين، فإنه لم يقصد في الحديث مطلق الربط كما قال، و إنما قصد ارتباط متضمن لنفى الجزاء و لا- سيق الكلام إلا- لهذا، ففي الجواب إبطال خاصية «لو» التي فارقت بها سائر أدوات الشرط. و قال غيره: «لو» في اللغة لمطلق الربط، و إنما اشتهرت في العرف في انقلاب ثبوتها نفيًا و بالعكس، و الحديث إنما ورد بمعنى اللفظ في اللغة حكى هذا الجواب القرافي، و هو أفسد من الذى قبله بكثير، فإن اقتضاء «لو» لنفى الثابت بعدها و إثبات المنفى متلقى من أصل وضعها لا من العرف الحادث، كما أن معانى سائر الحروف من نفى أو تأكيد أو تخصيص أو بيان أو ابتداء أو انتهاء، إنما هو متلقى من الوضع لا من العرف فما قاله ظاهر البطلان.

الجواب الثالث: جواب الشيخ أبى محمد بن عبد السلام و غيره، و هو أن الشيء الواحد قد يكون له سبب واحد فينتفى عند انتفائه، و قد يكون له سببان فلا يلزم من عدم أحدهما عدمه؛ لأن السبب الثانى يخلف السبب الأول كقولنا فى زوج: هو ابن عم. لو لم يكن زوجا لورث أى بالتعصيب، فإنهما سببان لا يلزم من عدم أحدهما عدم الآخر. و كذلك الناس هاهنا فى الغالب، إنما لم يعصوا لأجل الخوف، فإذا ذهب الخوف عنهم عصوا.

ص: ٢٥٤

لاتحاد السبب في حقهم. فأخبر عمر أن صهييا اجتمع له سببان يمنعانه المعصيه الخوف و الإجلال فلو انتفى الخوف في حقه، لانتفى العصيان للسبب الآخر و هو الإجلال. و هذا مدح عظيم له.

قلت: و بهذا الجواب بعينه يجاب عن قوله صلى الله عليه و سلم في ابنه حمزه: «إنها لو لم تكن ربيتي في حجرى لما حلت لها ابنه أخى من الرضاعه» (1)، أى فيها سببان يقتضيان التحريم فلو قدر انتفاء أحدهما لم ينتف التحريم للسبب الثانى، و هذا جواب حسن جدا.

الجواب الرابع: ذكره بعضهم بأن قال: جواب «لو» محذوف، و تقديره لو لم يخف الله لعصمه فلم يعصه بإجلاله و محبته إياه، فإن الله يعصم عبده بالخوف تاره و المحبه و الإجلال تاره، و عصمه الإجلال و المحبه أعظم من عصمه الخوف، لأن الخوف يتعلق بعقابه و المحبه و الإجلال يتعلقان بذاته و ما يستحقه تبارك و تعالى (2)، فأين أحدهما من الآخر. و لهذا كان دين الحب أثبت و أرسخ من دين الخوف، و أمكن و أعظم تأثيرا و شاهد ما نراه من طاعه المحب لمحبوبه، و طاعه الخائف لمن يخافه، كما قال بعض الصحابه: إنه ليستخرج حبه منى من الطاعه ما لا يستخرجه الخوف، و ليس هذا موضع بسط هذا الشأن العظيم القدر و قد بسطته في كتاب «الفتوحات القدسيه».

الجواب الخامس: أن «لو» أصلها أن تستعمل للربط بين شيئين كما تقدم، ثم أنها قد تستعمل لقطع الربط فتكون جوابا لسؤال محقق أو متوهم وقع فيه ربط، فتقطع أنت لاعتقادك بطلان ذلك الربط، كما لو قال القائل: إن لم يكن زيد زوجا لم يرث. فتقول أنت: لو لم يكن زوجا لورث زيد. إن ما ذكره من الربط بين عدم الزوجيه و عدم الإرث ليس بحق فمقصودك قطع ربط كلامه لا ربطه، و تقول: لو لم يكن عالما لأ-كرم، أى لشجاعته جوابا لسؤال سائل يتوهم أنه لو لم يكن عالما لما أكرم، فتربط بين عدم العلم و الإ-كرام، فتقطع أنت ذلك الربط و ليس مقصودك أن تربط بين عدم العلم و الإكرام؛ لأن ذلك ليس بمناسب و لا من أغراض العقلاء، و لا يتجه كلامك إلا على عدم الربط، كذلك الحديث لما كان الغالب على الناس أن يرتبط عصيانهم بعدم خوفهم، و إن ذلك في الأوهام قطع عمر هذا الربط، و قال: لو لم يخف الله لم يعصه، و كذلك لما كان الغالب على).

ص: ٢٥٥

١- البخارى (٥١٠١) فى النكاح، باب: وَ أُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمُ، و مسلم (١٥/١٤٤٩) فى الرضاع، باب: تحريم الربيبه و أخت المرأه.

٢- كذا الأصل، و لعل فى الكلام حذف تقديره: لذاته أعظم مما يستحقه بعقابه (من هامش المطبوعه).

الأوهام أن الشجر كلها إذا صارت أقلاماً، والبحار المذكورة كلها تكتب به الكلمات الإلهية، فلعل الوهم يقول: ما يكتب بهذا شيء إلا نفذ كائناً ما كان، فقطع الله تعالى هذا الربط، ونفى هذا الوهم، وقال: ما نفذت.

قلت: ونظير هذا في الحديث أن زوجته لما توهمت أن ابنه عمه حمزه تحل له، لكونها بنت عمه، فقطع هذا الربط بقوله: إنها لا تحل، و ذكر للتحريم سببين: الرضا، و كونها ربيبه له. و هذا جواب القرافي، قال: و هو أصلح من الأجوبة المتقدمة من وجهين، أحدهما: شموله للحديث و الآيه و بعض الأجوبة لا تنطبق على الآيه. و الثاني: أن ورود «لو» بمعنى «إن» خلاف الظاهر، و ما ذكره لا يتضمن خلاف الظاهر.

قلت: و هذا الجواب فيه ما فيه، فإنه إن ادعى أن «لو» وضعت أو جىء بها لقطع الربط فغلط، فإنها حرف من حروف الشرط التي مضمونها ربط السبب بمسببه و الملزوم بلازمه، و لم يؤت بها لقطع هذا الارتباط، و لا وضعت له أصلاً فلا يفسر الحرف بضم موضوعه.

و نظير هذا قول من يقول: إن «إلا» قد تكون بمعنى الواو، و هذا فاسد، فإن الواو للتشريك و الجمع، و «إلا» للإخراج و قطع التشريك، و نظائر ذلك. و إن أراد أن قطع الربط الموهوم مقصود للمتكلم من أدله، فهذا حق، و لكن لم ينشأ هذا من حرف «لو»، و إنما جاء من خصوصيه ما صاحبها من الكلام المتضمن لنفي ما توهمه القائل أو ادعاه، و لم يأت من قبل «لو» فهذا كلام هؤلاء الفضلاء في هذه المسألة، و إنما جاء الإشكال سؤالاً - و جواباً من عدم الإحاطة بمعنى الحرف و مقتضاه و حقيقته، و أنا أذكر حقيقه هذا الحرف ليتبين سر المسألة بعون الله.

فاعلم أن «لو» حرف وضع للملازمه بين أمرين يدل على أن الحرف الأول منهما ملزوم، و الثاني لازم هذا وضع هذا الحرف و طبيعته و مواده في هذه الملازمه أربعة، فإنه ما أن يلزم بين نفيين أو ثبوتين، أو بين ملزوم مثبت و لازم منفي أو عكسه و نعى بالثبوت و النفي هنا الصورى اللفظى لا المعنوى.

فمثال الأول: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ [الإسراء]:

[١٠٠] وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: ٦٤] وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا [النساء] و نظائره.

و مثال الثاني: لو لم تكن ربيبتى فى حجرى لما حلت لى، و لو لم يخف الله لم يعصه.

و مثال ثالث: وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ [لقمان: ٢٧].

و مثال الرابع: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم و لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

فهذه صورته وردوها على النفي و الإثبات.

و أما حكم ذلك فأمران، أحدهما: نفي الأول لنفي الثاني لأدنى الأول ملزوم، و الثاني لازم و الملزوم عدم عند عدم لازمه. و الثاني: تحقق الثاني لتحقيق الأول؛ لأن تحقق الملزوم يستلزم تحقق لازمه.

فإذا عرفت هذا فليس في طبيعته «لو» و لا وضعها ما يؤذن بنفي واحد من الجزئين و لا إثباته، و إنما طبعها و حقيقتها الدلالة على التلازم المذكور، لكن إنما يؤتى بها للتلازم المتضمن نفي اللازم أو الملزوم أو تحققها، و من هنا نشأت الشبهة فلم يؤت بها لمجرد التلازم مع قطع النظر عن ثبوت الجزئين أو نفيهما، فإذا دخلت على جزئين متلازمين قد انتفى اللازم منهما، استفيد نفي الملزوم من قضيه اللزوم لا من نفس الحرف.

و بيان ذلك أن قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: ٢٢] لم يستفد نفي الفساد من حرف «لو»، بل الحرف دخل على أمرين قد علم انتفاء أحدهما حسا، فلازمت بينه و بين من يريد نفيه من تعدد الآلهة- و قضيه الملازمه انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه- فإذا كان اللازم منتفيا قطعاً و حسا، انتفى ملزومه لانتفائه، لا من حيث الحرف. فهنا أمران، أحدهما: الملازمه التي فهمت من الحرف، و الثاني: انتفاء اللازم المعلوم بالحس.

فعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم انتفاء اللازم و الملزوم ب«لو» فمن هنا قالوا: إن دخلت على مثبتين صاروا منتفيتين، بمعنى: أن الثاني منهما قد علم انتفاؤه من خارج، فينتفى الأول لانتفائه. و إذا دخلت على منفيين أثبتتهما لذلك أيضا؛ لأنها تدخل على ملزوم محقق الثبوت من خارج فيتحقق ثبوت ملزومه، كما في قوله: «لو لم تذنبوا» (١).

فهذا الملزوم- و هو صدور الذنب- متحقق في الخارج من البشر فتحقق لازمه و هو بقاء النوع الإنساني و عدم الذهاب به؛ لأن الملازمه وقعت بين عدم الذنب و عدم البقاء، لكن عدم الذنب منتفيا قطعاً، فانتفى لازمه و هو عدم الذهاب بنا فثبت الذنب و ثبت البقاء و كذلك نفيه الأقسام الأربعة يفهم على هذا الوجه. هـ.

ص: ٢٥٧

١- مسلم (١١/٢٧٤٩) في التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار توبه.

و إذا عرف هذا، فاللازم الواحد قد يلزم ملزومات متعددة كالحيوانيه اللازمه للإنسان و الفرس و غيرهما، فيقصد المتكلم إثبات الملازمه بين بعض تلك الملزومات و اللازم على تقدير انتفاء البعض الآخر، فيكون مقصوده أن الملازمه حاصله على تقدير انتفاء ذلك الملزوم الآخر، فلا يتوهم المتوهم انتفاء اللازم عند نفي ملزوم معين، فإن الملازمه حاصله بدونها، و على هذا يخرج: لو لم يخف الله لم يعصه، و لو لم تكن ربيتي لما حلت لى.

فإن عدم المعصيه له ملزومات فهى الخشيه و المحبه و الإجلال، فلو انتفى بعضها و هو الخوف مثلا- لم يبطل اللازم؛ لأن له ملزومات آخر غيره. و كذلك لو انتفى كون البنت ربيبه لما انتفى التحريم؛ لحصول الملازمه بينه و بين وصف آخر و هو الرضاع، و ذلك الوصف ثابت. و هذا القسم إنما يأتى فى لازم له ملزومات متعددة فيقصد المتكلم تحقق الملازمه على تقدير نفي ما نفاها منها.

و أما قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَامٌ [لقمان: ٢٧]، فإن الآيه سيقى لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلاما و البحار مدادا فكتبت بها كلمات الله، لنفدت البحار، و الأقلام و لم تنفذ كلمات الله، فالآيه سيقى لبيان الملازمه بين عدم نفاذ كلماته و بين كون الأشجار أقلاما و البحار مدادا يكتب بها، فإذا كانت الملازمه ثابتة على هذا التقدير الذى هو أبلغ تقدير يكون فى نفاذ المكتوب، فثبوتها على غيره من التقادير أولى.

و نوضح هذا بضرب مثل يرتقى منه إلى فهم مقصود الآيه.

إذا قلت لرجل لا يعطى أحدا شيئا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدا منها شيئا. فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التى تقتضى الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه و بين أعظم أسباب الإعطاء، و هو كثره ما يملكه. فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير، و إن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير. فافهم نظير هذا المعنى فى الآيه، و هو عدم نفاذ كلمات الله تعالى، على تقدير أن الأشجار أقلام، و البحار مداد يكتب بها، فإذا لم تنفذ على هذا التقدير كان عدم نفاذها لازما له، فكيف بما دونه من التقديرات؟

فافهم هذه النكته التى لا يسمح بمثلها كل وقت، و لا تكاد تجدها فى الكتب، و إنما هى من فتح الله و فضله، فله الحمد و المنه و نسأله المزيد من فضله.

فانظر كيف اتفقت القاعده العقلية مع القاعده النحويه، و جاءت النصوص بمقتضاها معا من غير خروج عن موجب عقل و لا لغه و لا تحريف لنص، و لو لم يكن فى هذا التعليق

إلا- هذه الفائده لساوت رحله، فكيف و قد تضمن من غرر الفوائد ما لا- ينفق إلا على تجاره، و أما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجه، و الزجاجه المستديره المثقوبه جوهرة، و يزرى على الجوهري و يزعم أنه لا يفرق بينهما، و الله المعين.

المسأله التاسعه: فى دخول الشرط على الشرط و نذكر فيه ضابطا مزيلا للإشكال إن شاء الله، فنقول: الشرط الثانى تاره يكون معطوفا على الأول، و تاره لا- يكون، و المعطوف تاره يكون معطوفا على فعل الشرط وحده، و تاره يعطف على الفعل مع الأداة. فمثال غير المعطوف: إن قمت إن قعدت فأنت طالق. و مثال المعطوف على فعل الشرط وحده: إن قمت و قعدت. و مثال المعطوف على الفعل مع الأداة: إن قمت و إن قعدت فهذه الأقسام الثلاثه أصول الباب، و هى عشر صور.

أحدها: إن خرجت و لبست، فلا يقع المشروط إلا بهما كيفما اجتمعا.

الثانيه: إن لبست فخرجت، لم يقع المشروط إلا بالخروج بعد اللبس، فلو خرجت ثم لبست، لم يحث.

الثالثه: إن لبست ثم خرجت، فهذا مثل الأول و إن كان ثم للتراخي فإنه لا يعتبر هنا إلا حيث يظهر قصده.

الرابعه: إن خرجت لا إن لبست، فيحتمل هذا التعليق أمرين، أحدهما: جعل الخروج شرطا و نفى اللبس أن يكون شرطا. الثانى: أن يجعل الشرط هو الخروج المجرد عن اللبس، و المعنى: إن خرجت لا لابسه، أى غير لابسه. و يكون المعنى: إن كان منك خروج لا مع اللبس، فعلى هذا التقدير الأول يحث بالخروج وحده، و على الثانى لا يحث إلا بخروج لا لبس معه.

الخامسه: إن خرجت بل إن لبست، و يحتمل هذا التعليق أمرين، أحدهما: أن يكون الشرط هو اللبس دون الخروج فيختص الحث به لأجل الإضراب، و الثانى: أن يكون كل منهما شرطا فيحث بأيهما وجد و يكون الإضراب عن الاقتصار، فيكون إضراب اقتصار لا إضراب إلغاء كما تقول: أعطه درهما بل درهما آخر.

السادسه: إن خرجت أو إن لبست، فالشرط أحدهما، أيهما كان.

السابعه: إن لبست لكن إن خرجت، فالشرط الثانى وقع، لغا الأول لأجل الاستدراك ولكن.

الثامنه: أن يدخل الشرط على الشرط، و يكون الثانى معطوفا بالواو نحو: إن لبست و إن

خرجت. فهذا يحث بأحدهما.

فإن قيل: فكيف لم تحثوه في صورته العطف على الفعل وحده إلا بهما وحثتموه هاهنا بأيهما كان؟ قيل: لأن هناك جعل الشرط مجموعهما، و هنا جعل كل واحد منهما شرطا برأسه، وجعل لهما جوابا واحدا. وفيه رأيان، أحدهما: أن الجواب لهما جميعا، وهو الصحيح. والثاني: أن جواب أحدهما حذف لدلاله المذكور عليه، وهي أخت مسأله الخبر عن المبتدأ بجزئين.

التاسعه: أن يعطف الشرط الثاني بالفاء نحو قوله تعالى: **فَمَا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدًى** [طه]:

١٢٣] فالجواب المذكور جواب الشرط الثاني وهو وجوبه جواب الأول، فإذا قال: إن خرجت فإن كلمت أحدا فأنت طالق، لم تطلق حتى تخرج وتكلم أحدا.

العاشره: وهي أن المسأله التي تكلم فيها الفقهاء دخول الشرط على الشرط بلا- عطف، نحو: إن خرجت إن لبست. و اختلف أقوالهم فيها: فمن قائل: إن المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى، وأنه لا يحث حتى يتقدم اللبس على الخروج. ومن قائل: بل المقدم لفظا هو المقدم معنى و ذكر كل منهم حججا لقوله. و ممن نص على المسأله الموفق الأندلسي في شرحه، فقال: إذا دخل الشرط على الشرط وعيد حرف الشرط توقف وقوع الجزاء على وجود الشرط الثاني قبل الأول، كقولك: إن أكلت إن شربت فأنت طالق، فلا تطلق حتى يوجد الشرب منها قبل الأكل، لأنه تعلق على أكل معلق على شرب.

وهذا الذي ذكره أبو إسحاق في «المهذب». وحكى ابن شاس في «الجواهر» عن أصحاب مالك عكسه. والوجهان لأصحاب الشافعي، ولا بد في المسأله من تفصيل، وهو أن الشرط الثاني إن كان متأخرا في الوجود عن الأول، كان مقدرًا بالفاء وتكون الفاء جواب الأول، والجواب المذكور جواب الثاني. مثاله: إن دخلت المسجد إن صليت فيه، لك أجر. تقديره: فإن صليت فيه، وحذفت الفاء لدلاله الكلام عليها. وإن كان الثاني متقدما في الوجود على الأول، فهو في نيه التقدم وما قبله جوابه، والفاء مقدره فيه. ومثله قوله عز وجل: **وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْرِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** [هود: ٣٤] أي: فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. وتقول: إن دخلت المسجد إن توضأت فصل ركعتين. تقديره: إن توضأت فإن دخلت المسجد فصل ركعتين، فالشرط الثاني هنا متقدم، وإن لم يكن أحدهما متقدما في الوجود على الآخر، بل كان محتملا للتقدم والتأخر لم يحكم على أحدهما بتقدم ولا تأخر، بل يكون الحكم راجعا إلى تقدير المتكلم و نيته،

فأيهما قدر شرطاً كان الآخر جواباً له، وكان مقدرًا بالفاء، تقدم في اللفظ أو تأخر، وإن لم يظهر نيته ولا تقديره احتمال الأمرين، فمما ظهر فيه تقديم المتأخر قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تذرنا تجدوا منا معاقل عز زانها الكرم

لأن الاستغاثه لا تكون إلا بعد الذعر، ومنه قول ابن دريد:

فإن عثرت بعدها إن والت نفسي من هاتا فقولا لا لعا

و معلوم أن العثور مره ثانيه إنما يكون بعد الذعر.

و من المحتمل قوله تعالى: **وَ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ** **وَ هَبَّتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ** **إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لِمَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** [الأحزاب: ٥٠]، يحتمل أن تكون الهبة شرطاً، ويكون فعل الإرادة جواباً له، ويكون التقدير إن وهبت نفسها للنبي فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصه له، ويحتمل أن تكون الإرادة شرطاً و الهبة جواباً له، و التقدير: إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له. يحتمل الأمرين، فهذا ما ظهر لي من التفصيل في هذه المسألة و تحقيقها، و الله أعلم (١).

ص: ٢٤١

١- بدائع الفوائد (١/٤٣-٦٠).

و هو- سبحانه- يقسم بأمر على أمور، و إنما يقسم بنفسه الموصوفه بصفاته، و آياته المستلزمه لذاته و صفاته، و إقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.

فالقسم إما على جملة خبريه- و هو الغالب- كقوله تعالى: **فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ** [الذاريات: ٢٣]، و إما على جملة طلبيه، كقوله تعالى: **فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** [الحجر: ٩٢-٩٣]. مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر، و قد يراد به تحقيق القسم.

و المقسم عليه يراد بالقسم توكيده و تحقيقه، فلا- بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمر الغائبه و الخفيه إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور الظاهره المشهوره، كالشمس، و القمر، و الليل، و النهار، و السماء، و الأرض، فهذه يقسم بها و لا يقسم عليها.

و ما أقسم عليه الرب فهو من آياته، فيجوز أن يكون مقسما به و لا ينعكس.

و هو- سبحانه- يذكر جواب القسم تارة- و هو الغالب- و تارة يحذفه، كما يحذف جواب (راجع البدائع) لو كثيرا، كقوله تعالى: **كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) [التكاثر]** و قوله: **وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ [الرعد: ٣١]**، **وَ لَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ [الأنفال: ٥٠]** **وَ لَوْ تَرَى إِذِ فَرَعُو فَلَآ- فَوْتَ [سبأ: ٥١]** **وَ لَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ [الأنعام: ٣٠]** و مثل هذا حذفه من أحسن الكلام؛ لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولاء- عظيما، فليس فى ذكر الجواب زياده على ما دل عليه الشرط.

و هذه عادة الناس فى كلامهم، إذا رأوا أمورا عجيبه و أرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا؟ و منه قوله تعالى: **وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٦٥) [البقره]** فالمعنى فى أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا إذ يرون العذاب فى الآخرة، و الجواب محذوف، ثم قال: **أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**، كما قال تعالى: **وَ لَوْ تَرَى إِذِ فَرَعُو فَلَآ فَوْتَ [سبأ: ٥١]**،

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ [الأنفال: ٥٠] أى لو ترى ذلك الوقت و ما فيه.

و أما القسم، فإن الحالف قد يحلف على الشيء ثم يكرر القسم، فلا يعيد المقسم عليه؛ لأنه قد عرف ما يحلف عليه. فيقول: و الله إن لى عليه ألف درهم، ثم يقول: و رب السموات و الأرض، و الذى نفسى بيده، و حق القرآن العظيم، و لا يعيد المقسم عليه؛ لأنه قد عرف المراد.

و القسم لما كان يكثر فى الكلام اختصر، فصار فعل القسم يحذف و يكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو فى الأسماء الظاهره و التاء فى أسماء الله، كقوله: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَضْنَامَكُمْ [الأنبياء: ٥٧] و قد نقل: ترب الكعبه، و أما الواو فكثيره (١).

أمثله من قسم القرآن

من ذلك قوله فى قصه لوط عليه السّلام و مراجعته قومه له: قالوا أ و لم ننهيك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين (٧١) لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون (٧٢) [الحجر: ٧٠-٧٢] أكثر المفسرين من السلف و الخلف- بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعا، أن هذا قسم من الله بحياه رسوله صلى الله عليه و سلم. و هذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز و جل بحياته، و هذه مزيه لا تعرف لغيره. و لم يوافق (٢) الزمخشري على ذلك، فصرف القسم إلى أنه بحياه لوط، و أنه من قول الملائكة فقال: هو على إرادته القول، أى قالت الملائكة للوط عليه الصلاه و السلام: لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون، و ليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ و سياقه إنما يدل على ما فهمه السلف لا أهل التعطيل و الاعتزال.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: لعمرك، أو حياتك، قال: و ما أقسم الله تعالى بحياه نبي غيره.

و العمر و العمر واحد، إلا- أنهم خصوا القسم بالمفتوح؛ لإثبات الأختف، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، و أيضا فإن العمر حياه مخصوصه.

فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به؛ لمزيتته على كل من أعمار بنى آدم. و لا ريب أن عمره و حياته صلى الله عليه و سلم من أعظم النعم و الآيات، فهو أهل أن يقسم به. و القسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات (٣).

ص: ٢٦٣

١- التبيان (٣-١).

٢- قال الزمخشري: و قيل الخطاب- يعنى فى الآيه- لرسول الله صلى الله عليه و سلم و أنه أقسم بحياته و ما أقسم بحياه أحد قط كرامه له... الكشاف (٣١٧/٢-٣١٨). و انظر الطبرى (٤٤/١٤).

٣- التبيان (٤٢٩).

و من ذلك قوله-سبحانه: فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) أَلْجَوَارِ الْكُنُسِ (١٦) وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَى (١٧) وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) [التكوير]، أقسم-سبحانه-بالنجوم فى أحوالها الثلاثة، من طلوعها، و جريانها، و غروبها. هذا قول على، و ابن عباس، و عامه المفسرين. و هو الصواب.

و الخنس جمع خانس، و الخنس الانقباض و الاختفاء، و منه سمى الشيطان خناسا، لانقباضه و انكماشه حين يذكر العبد ربه، و منه قول أبى هريره: فانخنست.

و الكنس جمع كانس، و هو الداخلى فى كناسه، أى فى بيته، و منه تكنست المرأه إذا دخلت فى هودجها و منه كنس الطباء، إذا أوت إلى أكناسها.

و الجوارى جمع جاربه، كغاشيه و غواش. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: النجوم تخنس بالنهار و تظهر بالليل، و هذا قول مقاتل و عطاء و قتاده، و غيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفى و لا ترى، و تكنس فى وقت غروبها. و معنى تخنس-على هذا القول- تتأخر عن البصر، و تتوارى عنه بإخفاء النهار لها.

و فيه قول آخر، و هو أن خنوسها رجوعها، و هى حركتها الشرقيه، فإن لها حركتين حركه بفعلها و حركه بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعه. و على هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، و هى السياره و هذا قول الفراء.

و فيه قول ثالث، و هو أن خنوسها و كنوسها اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها، و هذا قول الزجاج.

و لما كان للنجوم حال ظهور، و حال اختفاء، و حال جريان، و حال غروب-أقسم-سبحانه-بها فى أحوالها كلها. و نبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، و لا يقال لما لا يزال مختفيا: إنه قد خنس. فذكر-سبحانه-جريانها و غروبها صريحا، و خنوسها و ظهورها، و اكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم طلوعها، و غروبها، و جريانها، و اختفاءها، و ذلك من آيات و دلائل ربوبيته.

و ليس قول من فسرها بالظباء و بقر الوحش بالظاهر لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال فى الكواكب السياره أعظم آيه و عبره.

و الثانى: اشترك أهل الأرض فى معرفته بالمشاهده و العيان (١).

الثالث: أن البقر و الظباء ليست لها حاله تختفى فيها عن العيان مطلقا، بل لا تزال ظاهره فى الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآيه بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء، قال الواحدى:

هو من الخنس فى الأنف، و هو تأخر الأرنبه و قصر القصبه، و البقر و الظباء أنوفهن خنس، و البقره خنساء، و الطبى أخنس. و منه سميت الخنساء (٢) لخنس أنفها. و معلوم أن هذا أمر خفى يحتاج إلى تأمل، و أكثر الناس لا يعرفونه. و آيات الرب التى يقسم بها لا- تكون إلا- ظاهره جليه، يشترك فى معرفتها الخلائق، و ليس الخنس فى أنف البقره و الظباء بأعظم من الاستواء و الاعتدال فى أنف ابن آدم، فالآيه فيه أظهر.

الخامس: أن كنوسها فى أكتنها ليس بأعظم من دخول الطير و سائر الحيوانات فى بيته الذى يأوى فيه، و لا أظهر منه، حتى يتعين للقسم.

السادس: أنه لو كان جمعا للطبى لقال الخنس- بالتسكين- لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر و حمر، و لو أريد به جمع بقره خنساء، لكان على وزن «فعلاء» أيضا، كحمرء و حمر، فلما جاء جمعه على «فعل»- بالتشديد- استحال أن يكون جمعا لواحد من الظباء و البقر. و تعين أن يكون جمعا لخناس، كشاهد و شهد، و صائم و صوم، و قائم و قوم، و نظائرها.

السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر و الغزلان، و ليس هذا عرف القرآن و لا عادته. و إنما يقسم- سبحانه- من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، و هى النفس الإنسانيه. و لما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه و أجله، و هو القرآن. و لما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها و هى السماء، و شمسها و قمرها، و نجومها. و لما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، و هو الليالى العشر، و إذا أراد- سبحانه- أن يقسم بغير ذلك أدرجه فى العموم، كقوله: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) [الحاقه] و قوله: الدَّكْرَ وَ الأُنْثَى [القيامة: ٣٩] فى قراءه رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحو ذلك..

ص: ٢٦٥

١- انظر المقدمه فى الكلام عن «الإعجاز فى القرآن» فى العلوم الطبيعیه.

٢- هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمیه الشاعره الصحابیه. توفيت سنه ٢٤ هـ.

الثامن: أن اقتران القسم بالليل و الصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر و الغزلان و الليل و الصبح فى قسم واحد. و بهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم، فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

التاسع: أنه لو أراد ذلك- سبحانه- لبيته و ذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجوارى السفن، قال وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ [الشورى] (٣٢) و هنا ليس فى اللفظ و لا- فى السياق ما يدل على أنها البقر و الظباء. و فيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التى ذكرناها و غيرها.

العاشر: أن الارتباط الذى بين النجوم التى هى هدايه للسالكين و رجوم للشياطين و بين المقسم عليه- و هو القرآن، الذى هو هدى للعالمين، و زينه للقلوب، و داحض لشبهات الشيطان- أعظم من الارتباط الذى بين البقر و الظباء و القرآن، و الله أعلم (١).

باب منه:

فكم من قسم فى القرآن بها كقوله: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) [البروج]، وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ (١) [الطارق]، وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا (٥) [الشمس]، وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) [الطارق]، وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (١) [الشمس]، وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) [النجم]، النَّجْمِ الثَّاقِبُ (٣) [الطارق]، فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) [التكوير]، و هى الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها. جواريا فى مجراها و مسيرها، كنسا عند غروبها، فأقسم بها فى أحوالها الثلاثة، و لم يقسم فى كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء و النجوم و الشمس و القمر.

و هو- سبحانه- يقسم بما يقسم به من مخلوقاته، لتضمنه الآيات و العجائب الداله عليه، و كلما كان أعظم آيه و أبلغ فى الدلاله، كان إقسامه به أكثر من غيره- و لهذا يعظم- سبحانه- هذا القسم، كقوله: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسِيمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) [الواقعه]، و أظهر القولين، أنه قسم بمواقع هذه النجوم التى فى السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، و أيضا فإنه لم تجر عاداته- سبحانه- باستعمال النجوم فى آيات القرآن و لا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآيه، و جرت عاداته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن.

و أيضا فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا، إقسامه بهوى النجوم فى قوله: وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) [النجم].

ص: ٢٦٦

و أيضا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، و أيضا فإنه-سبحانه-يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده.

هذه طريقه القرآن قال الله تعالى: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذُّكْرِ (١) ص، يس (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) [يس]، ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) [ق]، حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) [الدخان]، و نظائره.

و المقصود أنه-سبحانه-إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الداله على ربوبيته و وحدانيته (١).

ص: ٢٦٧

١- مفتاح دار السعادة (٢/٥).

بيان الوجوه التي تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن

الوجوه التي تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه-سبحانه-لعباده بأسمائه، و صفات كماله، و نعوت جلاله و أفعاله مثال (إن ربكم الله)، و أنه واحد لا شريك له، و ما يتبع ذلك.

القسم الثانى: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته، و آثار حكمته فيما خلق و ذرأ فى العالم الأعلى و الأسفل من أنواع بريته و أصناف خليقته؛ محتجا به على من ألحد فى أسمائه و توحيده، و عطله عن صفات كماله و عن أفعاله، و كذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك، و الأمثال المضروبه، و الأقيسه العقلية التي تقدمت الإشاره إلى الشيء اليسير منها.

القسم الثالث: ما اشتمل عليه بدء الخلق، و إنشاؤه، و مادته، و ابتداعه له، و سبق بعضه على بعض، و عدد أيام التخليق، و خلق آدم، و إسجاد الملائكه، و شأن إبليس و تمرده و عصيانه، و ما يتبع ذلك.

القسم الرابع: ذكر المعاد و النشأ الأخرى، و كيفيته و صورته، إحاله الخلق فيه من حال إلى حال، و إعادتهم خلقا جديدا.

القسم الخامس: ذكر أحوالهم فى معادهم، و انقسامهم إلى شقى و سعيد، و مسرور بمنقلبه و مشبور به، و ما يتبع ذلك.

القسم السادس: ذكر القرون الماضيه و الأمم الخاليه، و ما جرى عليهم، و ذكر أحوالهم مع أنبيائهم، و ما نزل بأهل العناد و التكذيب منهم من المثلات، و ما حل بهم من العقوبات؛ ليكون ما جرت عليه أحوال الماضيين عبره للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم فى التكذيب و العصيان.

القسم السابع: الأمثال التي ضربها لهم، و المواعظ التي وعظهم بها، ينبههم بها على قدر الدنيا، و قصر مدتها و آفاقها؛ ليزهدوا فيها، و يتركوا الإخلاق إليها، و يرغبوا فيما أعد لهم فى الآخرة من نعيمها المقيم و خيرها الدائم.

القسم الثامن: ما تضمنه من الأمر والنهي والتحليل والتحرير وبيان ما فيه طاعته ومعصيته، وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق، وما يكرهه، ويغضه منها، وما يقرب إليه، ويدنى من ثوابه، وما يبعد منه، ويدنى من عقابه، وقسم هذا القسم إلى فروض فرضها، وحدود حدها وزواجر زجر عنها، وأخلاق وشيم رغب فيها.

القسم التاسع: ما عرفهم إياه من شأن عدوهم ومدخله عليهم، ومكايده لهم، وما يريد بههم، وعرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيده منهم، وما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم وبينه، وما يتبع ذلك.

القسم العاشر: ما يختص بالسفير بينه وبين عباده عن أوامره ونواهيه، وما اختصه به، من الإباحة والتحرير، وذكر حقوقه على أمته، وما يتعلق بذلك.

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن، وإذا تأملت الألفاظ المتضمنة لها وجدت ثلاثه أنواع:

أحدها: ألفاظ في غاية العموم، فدعوى التخصيص فيها: يبطل مقصودها، وفائدة الخطاب بها.

الثاني: ألفاظ في غاية الخصوص، فدعوى العموم فيها لا سبيل إليه.

الثالث: ألفاظ متوسطة بين العموم والخصوص (١).

من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ

إن في القرآن الكريم ألفاظا استعملت في معان لم تكن تعرفها العرب؛ وهي أسماء الشريعة؛ كالصلاه والزكاه، والصيام والاعتكاف ونحوها.

والأسماء الدينيه كالإسلام والإيمان والكفر والنفاق ونحوها. وأسماء مجمله لم يرد ظاهرها، كالسارق والسارقه، والزاني والزانيه، ونحوه. وأسماء مشتركه كالقرء، و«عسعس»، ونحوهما، فهذه الأسماء لا تفيد اليقين بالمراد منها.

فيقال: هذه الأسماء جاريه في القرآن ثلاثه أنواع: نوع بيانه معه، فهو مع بيانه يفيد اليقين بالمراد منه، ونوع بيانه في آيه أخرى، فيستفاد اليقين بالمراد من مجموع الاثنتين، ونوع بيانه موكل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيستفاد اليقين من المراد منه ببيان الرسول.

ص: ٢٦٩

و لم نقل نحن و لا- أحد من العقلاء: إن كل لفظ فهو مفيد لليقين بالمراد منه بمجرد من غير احتياج إلى لفظ آخر، متصل به، أو منفصل عنه، بل نقول: إن مراد المتكلم يعلم من لفظه المجرد تاره، و المقرون تاره و منه و من لفظ آخر يفيدان اليقين بمراده تاره و منه و من بيان آخر بالفعل أو القول يحيل المتكلم عليه تاره، و ليس فى القرآن خطاب أريد منه العلم بمدلوله إلا و هو داخل فى هذه الأقسام (١).

خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله

العلم بمراد المتكلم يعرف تاره: من عموم لفظه، و تاره من عموم علتة، و الحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، و على الثانى أوضح لأرباب المعانى و الفهم و التقدير.

و قد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفه مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها و هضمها تاره، و تحميلها فوق ما أريد بها تاره، و يعرض لأرباب المعانى فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ.

فهذه أربع آفات هى منشأ غلط الفريقين، و نحن نذكر بعض الأمثلة لذلك ليعتبر به غيره، فتقول: قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) [المائدة]، فلفظ الخمر عام فى كل مسكر، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها تقصير به، و هضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: «كل مسكر خمر».

و إخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها لها تقصير أيضا به، و هضم لمعناه، فما الذى جعل النرد الخالى عن العوض من الميسر، و أخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر، و قال على كرم الله وجهه: هو ميسر العجم.

و أما تحميل اللفظ فوق ما يحتمله، فكما حمل لفظ قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ [النساء: ٢٩] و قوله فى آيه البقره إلا- أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ [البقره: ٢٨٢] مسأله العينه (٢) التى هى ربا بحيله و جعلها من التجاره، و لعمر الله إن الربا الصريح تجاره للمرابى، و أى تجاره.

ص: ٢٧٠

١- الصواعق المرسله (٧٥٣/٢-٧٥٤).

٢- هى أن يشتري من رجل سلعه بثمان معلوم إلى أجل مسمى، ثم يبيعها له بأقل من الثمن الذى اشتراها به.

و كما حمل قوله تعالى: فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ [البقره: ٢٣٠] على مسأله التحليل، و جعل التيس المستعار الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه و سلم، داخلا فى اسم الزوج، و هذا فى التجاره يقابل الأول فى التقصير.

و لهذا كان معرفه حدود ما أنزل الله على رسوله أصل العلم، و قاعدته و آخيته، التى يرجع إليها، فلا تخرج شيئا من معانى ألفاظه عنها، و لا يدخل فيها ما ليس منها، بل يعطيها حقها و يفهم المراد منها.

و من هذا لفظ الأيمان و الحلف، أخرجت طائفه منه الأيمان الالتزاميه التى يلتزم صاحبها بها إيجاب شىء أو تحريمه، و أدخلت طائفه فيها التعليق المحض الذى لا يقتضى حضا و لا منعا، الأول: نقص من المعانى، و الثانى: تحميل له فوق معناه.

و من ذلك لفظ الربا أدخلت فيه طائفه ما لا- دليل على تناول اسم الربا كبيع الشيرج بالسمس، و الدبس بالعب، و الزيت بالزيتون، و كل ما استخرج من ربوى، و عمل منه بأصله، و إن خرج عن اسمه، و مقصوده و حقيقته. و هذا لا دليل عليه يوجب المصير إليه، لا من كتاب، و لا من سنه، و لا إجماع، و لا ميزان صحيح.

و أدخلت فيه مسائل: مد عوجه ما هو أبعد شىء عن الربا، و أخرجت طائفه أخرى منه ما هو من الربا الصحيح حقيقه قصدا و شرعا كالحيل الربويه التى هى أعظم مفسده من الربا الصريح، و مفسده الربا البحت التى لا يتوصل إليه بالسلايم أقل بكثير، و أخرجت منه طائفه بيع الرطب بالتمر، و إن كان كونه من الربا أخفى من كون الحيل الربويه منه، فإن التماثل موجود فيه فى الحال دون المال، و حقيقه الربا فى الحيل الربويه أكمل، و أتم منها فى العقد الربوى الذى لا حيله فيه.

و من ذلك لفظ البيئه قصرت بها طائفه. فأخرجت منه الشاهد و اليمين و شهاده العبيد العدول الصادقين المقبولى القول على الله و رسوله، و شهاده النساء منفردات فى المواضع التى لا يحضرهن فيه الرجال كالأعراس و الحمامات. و شهاده الزوج فى اللعان إذا نكلت المرأه، و أيمان المدعين الدم إذا ظهر اللوث، و نحو ذلك مما يبين الحق أعظم من بيان الشاهدين. و شهاده القاذف، و شهاده الأعمى على ما يتيقنه، و شهاده أهل الذمه على الوصيه فى السفر إذا لم يكن هناك مسلم، و شهاده الحال فى تداعى الزوجين متاع البيت، و تداعى النجار و الخياط آلتهما و نحو ذلك.

و أدخلت فيه طائفه ما ليس منه كشهاده مجهول الحال الذى لا يعرف بعداله، و لا فسق،

و شهاده وجوه الأجر و معاهد القمط و نحو ذلك.

و الصواب: أن كل ما بين الحق فهو بينه، و لم يعطل الله و لا رسوله حقا بعد ما تبين بطريق من الطرق أصلا، بل حكم الله و رسوله الذى لا حكم له سواه أنه متى ظهر الحق، و وضح بأى طريق كان، ووجب تنفيذه، و نصره و حرم تعطيله و إبطاله.

و هذا باب يطول استقصاؤه، و يكفى المستبصر التنبيه عليه، و إذا فهم هذا فى جانب اللفظ فهم نظيره فى جانب المعنى سواء (١).

من الألفاظ المكروهه

منها: أن يسمى أدله القرآن و السنه ظواهر لفظيه و مجازات، فإن هذه التسميه تسقط حرمتها من القلوب، و لا سيما إذا أضاف إلى ذلك تسميه شبه المتكلمين و الفلاسفه قواطع عقليه.. فلا إله إلا الله، كم حصل بهاتين التسميتين من فساد فى العقول، و الأديان، و الدنيا و الدين (٢).

و كذلك: و ليحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، «ولى»، «و عندى»، فإن هذه الألفاظ الثلاثه ابتلى بها إبليس، و فرعون، و قارون، قال أنا خَيْرٌ مِنْهُ [الأعراف: ١٢] لإبليس، و لى مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي [القصص: ٧٨] لقارون.

و أحسن ما وضعت «أنا» فى قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف و نحوه. «ولى»، فى قوله: لى الذنب، و لى الجرم، و لى المسكنه، و لى الفقر و الذل:

«و عندى» فى قوله «اغفر لى جدى، و هزلى، و خطئى، و عمدى، و كل ذلك عندى» (٣)(٤).

ص: ٢٧٢

- ١- إعلام الموقعين (٢٨٢/١-٢٨٥).
- ٢- زاد المعاد (٢/٤٧٣).
- ٣- البخارى (٦٣٩٩) فى الدعوات، باب: قول النبى صلى الله عليه و سلم: «اللهم اغفر لى ما قدمت و ما أخرت»، و مسلم (٧٠/٢٧١٩) فى الذكر و الدعاء و التوبه و الاستغفار، باب: التعود من شر ما عمل و من شر ما لم يعمل.
- ٤- زاد المعاد (٢/٤٧٥).

كالطبع و الختم و الغشاوه و الغطاء و غيرها

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) [البقره].

و قال تعالى: أَمْ قَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) [الجاثيه].

و قال تعالى: وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥].

و قال تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: ١٠١].

و قال تعالى: وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [الأعراف: ١٠٠].

و قال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) [محمد: ٢٤].

و قال: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) [يس].

و قد دخل هذه الآيات و نحوها طائفتا القدرية و الجبرية، فحرفها القدرية بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها و ما أريد منها.

و زعمت الجبرية أن الله أكرهها على ذلك؛ و قهرها عليه، و أجبرها من غير فعل منها، و لا إرادته، و لا اختيار، و لا كسب البتة، بل حال بينها و بين الهدى ابتداء من غير ذنب، و لا سبب من العبد يقتضى ذلك، بل أمره، و حال مع أمره بينه و بين الهدى، فلم ييسر إليه سيلا، و لا أعطاه عليه قدره، و لا مكنه منه بوجه.

و أراد بعضهم: بل أحب له الضلال و الكفر و المعاصي و رضيه منه.

فهدى أهل السنه، و الحديث و أتباع الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه، و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

قالت القدرية: لا يجوز حمل هذه الآيات على أنه منعهم من الإيمان، و حال بينهم و بينه، إذ يكون لهم الحجة على الله، و يقولون كيف يأمرنا بأمر، ثم يحول بيننا و بينه، و يعاقبنا عليه، و قد منعنا من فعله؟ و كيف يكلفنا بأمر لا قدره لنا عليه؟ و هل هذا إلا بمثابة من أمر عبده بالدخول من باب ثم سد عليه الباب سدا محكما لا- يمكنه الدخول معه البتة ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم الدخول؟، و بمنزله من أمره بالمشى إلى مكان ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقل قدمه، ثم أخذ يعاقبه على ترك المشى؟

و إذا كان هذا قبيحا في حق المخلوق الفقير المحتاج، فكيف ينسب إلى الرب تعالى مع كمال غناه، و علمه، و إحسانه، و رحمته؟ قالوا: و قد كذب الله- سبحانه- الذين قالوا قلوبنا غلف، و فى أكنه، و إنها قد طبع عليها، و ذمهم على هذا القول فكيف ينسب إليه تعالى؟

و لكن القوم لما أعرضوا، و تركوا الاهتداء بهداه الذى بعث به رسله حتى صار ذلك الإعراض و النفار كالإلف، و الطيعة، و السجية أشبه حالهم حال من منع عن الشيء و صد عنه، و صار هذا وقرأ فى آذانهم، و ختما على قلوبهم، و غشاوه على أعينهم، فلا يخلص إليها الهدى.

و إنما أضاف الله تعالى ذلك إليه؛ لأن هذه الصفه قد صارت فى تمكنها، و قوه ثباتها كالخلق التى خلق عليها العبد. قالوا: و لهذا قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين].

و قال: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥] و قال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: ٥].

و قال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) [التوبه].

و لعمر الله إن الذى قاله هؤلاء، حقه أكثر من باطله و صحيحه أكثر من سقيميه، و لكن لم يوفوه حقه؛ و عظموا الله من جهه، و أخلوا بتعظيمه من جهه؛ فعظموه بتزييه عن الظلم؛ و خلاف الحكمة، و أخلوا بتعظيمه من جهه التوحيد، و كمال القدره و نفوذ المشيئه.

و القرآن يدل على صحه ما قالوه فى الران، و الطبع، و الختم من وجه، و بطلانه من وجه.

و أما صحته فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبه لهم، و جزاء على كفرهم و إعراضهم عن الحق بعد

أن عرفوه، كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: ٥].

وقال: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين].

وقال: وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام].

وقال: ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧].

وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق الله- سبحانه- ولكنه عقوبه على كفرهم وإعراضهم السابق، فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده و يثيب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئه بسيئه مثلها، و يثيب على الحسنه بحسنه مثلها.

قال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) [محمد].

وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ [الأحزاب]:

[٧٠-٧١].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ [الأنفال: ٢٩].

و من الفرقان الهدى الذى يفرق به بين الحق و الباطل.

قال فى ضد ذلك: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا [النساء: ٨٨].

وقال: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقره: ١٠].

وقال: ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧].

و هذا الذى ذهب إليه هؤلاء حق، و القرآن دل عليه، و هو موجب العدل،- و الله سبحانه- ماض فى العبد حكمه، عدل فى عبده قضاؤه، فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته، و محبته، و ذكره، و شكره فأبى العبد إلا- إعراضا و كفرا قضى عليه؛ بأن أغفل قلبه عن ذكره، و صدّه عن الإيمان به، و حال بين قلبه و بين قبول الهدى، و ذلك عدل منه فيه، و تكون عقوبته بالختم، و الطبع و الصد عن الإيمان، كعقوبته له بذلك فى الآخرة مع دخول النار، كما قال:

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) [المطففين].

فحجابه عنهم إضلال لهم، و صد عن رؤيته، و كمال معرفته كما عاقب قلوبهم فى هذه الدار بصددها عن الإيمان.

و كذلك عقوبته لهم بصددهم عن السجود له يوم القيامة مع الساجدين هو جزاء امتناعهم من السجود له فى الدنيا.

و كذلك عما هم عن الهدى فى الآخرة عقوبه لهم على عما هم فى الدنيا، لكن أسباب هذه الجرائم فى الدنيا كانت مقدوره لهم واقعه باختيارهم، و إرادتهم و فعلهم، فإذا وقعت عقوبات لهم تكن مقدوره، بل قضاء جار ماض عدل فيهم. و قال تعالى: وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) [الإسراء].

و من هاهنا يفتح للعبد باب واسع عظيم النفع جدا، فى قضاء الله المعصيه و الكفر و الفسوق على العبد، و أن ذلك محض عدل فيه.

و ليس المراد بالعدل ما يقوله الجبريه: إنه الممكن، فكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل، و الظلم هو الممتنع لذاته، فهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الكلام فى الأسباب و الحكم.

و لا المراد به ما يقوله القدرية النفاه: إنه إنكار عموم قدره الله و مشيئته على أفعال عباده، و هدايتهم و إضلالهم، و عموم مشيئته لذلك، و إن الأمر إليهم لا إليه.

و تأمل قول النبى صلى الله عليه و سلم: «ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك» (١)، كيف ذكر العدل فى القضاء مع الحكم النافذ، و فى ذلك رد لقول الطائفتين القدرية و الجبريه، فإن العدل الذى أثبتته الجبريه مناف للحكمه و الرحمه، و لحقيقه العدل.

و العدل الذى هو اسمه و صفته و نعتة- سبحانه- خارج عن هذا و هذا، و لم يعرفه إلا الرسل و أتباعهم. و لهذا قال هود- عليه الصلاه و السلام- لقومه: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ مَا مِنْ دَائِبَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) [هود].

فأخبر عن عموم قدرته، و نفوذ مشيئته، و تصرفه فى خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه فى هذا التصرف و الحكم على صراط مستقيم.

و قال أبو إسحاق: أى: هو سبحانه، و إن كانت قدرته تنالهم بما شاء؛ فإنه لا يشاء إلا العدل.

و قال ابن الأنبارى، لما قال: هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، كان فى معنى: لا يخرج من قبضته، و أنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابه فأتبعه قوله: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

قال: و هذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيره و العدل و الإنصاف؛ قالوا: فلان على طريقه حسنه، و ليس ثم طريق، ثم ذكر وجهها آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل).

ص: ٢٧٦

١- رواه الإمام أحمد (٣٩١/١)، و قال الهيثمى فى المجمع (١٣٩/١٠): «رجال أحمد الصحيح غير أبى سلمه الجهنى و قد وثقه ابن حبان»، و صحح إسناده الشيخ أحمد شاکر (٣٧١٢).

دابه، أتبع هذا قوله: إن ربي على صراط مستقيم، أى: لا تخفى عليه مشيئته، ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعنى به: الطريق الذى لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)[الفجر].

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد: أنه فى تصرفه فى ملكه يتصرف بالعدل، و مجازاه المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته، و لا يظلم مثقال ذره، و لا يعاقب أحدا بما لم يجنه، و لا يهضمه ثواب ما عمله، و لا يحمل عليه ذنب غيره، و لا يأخذ أحدا بجريره أحد، و لا يكلف نفسا ما لا تطيقه، فيكون من باب: لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ [التغابن: ١].

و من باب: «ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك» (١).

و من باب: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)[الفاتحة]، أى: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته و مشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، و له الحمد على جميعه.

و على القول الثانى، المراد به: التهديد و الوعيد، و أن مصير العباد إليه و طريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)[الحجر].

قال الفراء: يقول مرجعهم إلى فأجازيهم، كقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)[الفجر].

قال: و هذا كما تقول فى الكلام: طريقك على، و أنا على طريقك، لمن أوعده.

و كذلك قال الكلبي و الكسائي، و مثل قوله: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ [النحل: ٩] على أحد القولين فى الآية.

و قال مجاهد: الحق يرجع إلى الله و عليه طريقه، و «منها» أى: و من السبيل ما هو جائز عن الحق و لو شاء لهداكم [النحل: ٩].

فأخبر عن عموم مشيئته، و أن طريق الحق عليه موصله إليه، فمن سلكه فإليه يصل، و من عدل عنها فإنه يضل عنه.

و المقصود: أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى و توحيده، و الله يتصرف فى خلقه بملكه، و حمده و عدله، و إحسانه فهو على صراط مستقيم فى قوله و فعله و شرعه و قدره و ثوابه و عقابه، يقول الحق، و يفعل العدل، وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ [الأحزاب: ٤].

فهذا العدل و التوحيد اللذان دل عليهما القرآن لا يتناقضان، و أما توحيد أهل القدر و الجبر، و عدلهم فكل منهما يبطل الآخر، و يناقضه.

ص: ٢٧٧

و من سلك من القدرية هذه الطريق فقد توسط بين الطائفتين، لكنه يلزمه الرجوع إلى مثبتى القدر قطعاً، وإلا- تناقض أبين تناقض. فإنه زعم أن الضلال، والطبع، والختم، والقفل، والوقر، وما يحول بين العبد وبين الإيمان مخلوق لله، وهو واقع بقدرته و مشيئته، فقد أعطى: أن أفعال العباد مخلوقه، وأنها واقعه بمشيئته، فلا فرق بين الفعل الابتدائي و الفعل الجزائي إن كان هذا مقدورا لله واقعا بمشيئته، والآخر كذلك، وإن لم يكن ذلك مقدورا و لا يصح دخوله تحت المشيئة، فهذا كذلك.

و التفريق بين النوعين تناقض محض.

و قد حكى هذا الفريق عن بعض القدرية: أبو القاسم الأنصارى فى «شرح الإرشاد»، فقال: ولقد اعترف بعض القدرية بأن الختم و الطبع توابع غير أنها عقوبات من الله لأصحاب الجرائم، قال: و ممن صار إلى هذا المذهب عبد الواحد بن زيد البصرى، و بكر ابن أخته، قال: و سبيل المعاقبين بذلك سبيل المعاقبين بالنار، و هؤلاء قد بقى عليهم درجة واحده، و قد تحيزوا إلى أهل السنه و الحديث.

و قالت طائفة منهم: الكافر هو الذى طبع على قلبه بنفسه فى الحقيقه و ختم على قلبه، و الشيطان أيضا فعل ذلك، و لكن لما كان الله- سبحانه- هو الذى أقدر العبد و الشيطان على ذلك نسب الفعل إليه؛ لإقداره للفاعل على ذلك لا لأنه هو الذى فعله.

قال أهل السنه و العدل: هذا الكلام فيه حق و باطل، فلا يقبل مطلقا و لا يرد مطلقا.

فقولكم: إن الله- سبحانه- أقدر الكافر و الشيطان على الطبع، و الختم كلام باطل، فإنه لم يقدر إلا على التزيين و الوسوسة، و الدعوه إلى الكفر، و لم يقدره على خلق ذلك فى قلب العبد البته، و هو أقل من ذلك و أعجز.

و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم: «بعثت داعيا و مبلغا؛ و ليس إليّ من الهدايه شىء، و خلق إبليس مزينا، و ليس إليه من الضلاله شىء» (١).

فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التى إذا فعلها ختم الله على قلبه

و سمعه، و طبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعاقبه بالنار كعاقبه بالختم و الطبع، و أسباب العقاب فعله، و تزيينها و تحسينها: فعل الشيطان، و الجميع مخلوق لله.

و أما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله- سبحانه- أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع و الختم على قلبه، فلو لا إقدار الله على ذلك لم يفعله.

و هذا حق، لكن القدرية لم توف هذا الموضوع حقه. و قالت: أقدره قدره تصلح للضدين، فكان فعل أحدهما باختياره و مشيئته التي لا- تدخل تحت مقدور الرب، و إن دخلت قدرته الصالحة لها تحت مقدوره سبحانه، فمشيئته، و اختياره، و فعله غير واقع تحت مقدور الرب. و هذا من أبطل الباطل، فإن كل ما سواه تعالى مخلوق له داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته، و لو لم يشأ لم يكن.

قالت القدرية: لما أعرضوا عن التدبر، و لم يصغوا إلى التذكر، و كان ذلك مقارنا لإيراد الله- سبحانه- حجة عليهم أضيفت أفعالهم إلى الله؛ لأن حدوثها إنما اتفق عند إيراد الحجة عليهم.

قال أهل السنة: هذا من أمحل المحال، أن يضيف الرب إلى نفسه أمرا لا يضاف إليه البتة لمقارنته ما هو من فعله.

و من المعلوم: أن الضد يقارن الضد، فالشر يقارن الخير، و الحق يقارن الباطل، و الصدق يقارن الكذب، و هل يقال إن الله يحب الكفر و الفسوق و العصيان؛ لمقارنتها ما يحبه من الإيمان و الطاعة، و إنه يحب إبليس؛ لمقارنته وجوده لوجود الملائكة؟ فإن قيل: قد ينسب الشيء إلى الشيء لمقارنته له، و إن لم يكن له فيه تأثير، كقوله تعالى: وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)[التوبة].

و معلوم: أن السورة لم تحدث لهم زيادة رجس، بل قارن رجسهم نزولها، فنسب إليها.

قيل: لم ينحصر الأمر في هذين الأمرين اللذين ذكرتموهما، و هما إحداث السورة الرجس، و الثاني مقارنته لنزولها، بل هاهنا أمر ثالث، و هو أن السورة لما أنزلت اقتضى نزولها الإيمان بها، و التصديق، و الإذعان لأوامرها و نواهيها و العمل بما فيها.

فوطن المؤمنون أنفسهم على ذلك فزادوا إيماناً بسببها؛ فنسبت زياده الإيمان إليها؛ إذ هي السبب في زيادته.

و كذب بها الكافرون و جحدوها، و كذبوا من جاء بها، و وطنوا أنفسهم على مخالفه ما تضمنته و إنكاره؛ فازدادوا بذلك رجسا و نسب إليها؛ إذ كان نزولها و وصولها إليهم هو السبب فى تلك الزيادة.

فأين هذا من نسبة الأفعال القبيحه عندكم التى لا تجوز نسبتها إلى الله، عند دعوتهم إلى الإيمان و تدبر آياته.

على أن أفعالهم القبيحه لا- تنسب إلى الله سبحانه، و إنما هى منسوبة إليهم، و المنسوب إليه سبحانه أفعاله الحسنه الجميله المتضمنه للغايات المحموده، و الحكم المطلوبه.

و الختم، و الطبع، و القفل، و الإضلال أفعال حسنه من الله و وضعها فى أليق المواضع بها؛ إذ لا يليق بذلك المحل الخيىث غيرها.

و الشرك و الكفر و المعاصى و الظلم أفعالهم القبيحه التى لا- تنسب إلى الله فعلا، و إن نسبت إليه خلقا، فخلقها غيرها و الخلق غير المخلوق، و الفعل غير المفعول، و القضاء غير المقضى، و القدر غير المقدور.

و ستمر بك هذه المسأله مستوفاه- إن شاء الله- فى باب اجتماع الرضا بالقضاء، و سخط الكفر و الفسوق و العصيان- إن شاء الله.

قال القدرية: لما بلغوا فى الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى الإيمان لهم إلا- بالقسر و الإلجاء، و لم تقتض حكمته- تعالى- أن يقسروهم على الإيمان، لئلا تزول حكمه التكليف، عبر عن ترك الإلجاء و القسر بالختم و الطبع إعلاما لهم بأنهم انتهوا فى الكفر و الاعتراض إلى حيث لا ينتهون عنه إلا بالقسر. و تلك الغايه فى وصف لجاجهم، و تماديهم فى الكفر.

قال أهل السنه: هذا كلام باطل فإنه- سبحانه- قادر على أن يخلق فيهم مشيئه الإيمان، و إرادته، و محبته فيؤمنون بغير قسر و لا إلجاء، بل إيمان اختيار و طاعه، كما قال تعالى: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً [يونس: ٩٩].**

و إيمان القسر و الإلجاء لا- يسمى إيمانا، و لهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيامه، و لا- يسمى ذلك إيمانا؛ لأنه عن إلجاء و اضطرار، قال تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا [السجده: ١٣].**

و ما يحصل للنفس من المعرفه و التصديق بطريق الإلجاء و الاضطرار و القسر لا يسمى هدى، و كذلك قوله: **أَفَلَمْ يَتَّسِبِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً [الرعد: ٣١].**

فقولكم لم يبق طريق إلى الإيمان إلا بالقسر باطل، فإنه بقى إلى إيمانهم طريق لم يرهم الله إياه، وهو مشيئته و توفيقه و إلهامه، و إماله قلوبهم إلى الهدى، و إقامتها على الصراط المستقيم. ذلك أمر لا- يعجز عنه رب كل شىء و مليكه، بل هو القادر عليه، كقدرته على خلقه ذواتهم و صفاتهم و ذرياتهم، و لكن منعهم ذلك؛ لحكمته و عدله فيهم، و عدم استحقاقهم و أهليتهم لبذل ذلك لهم، كما منع السفيل خصائص العلو، و منع الحار خصائص البارد، و منع الخبيث خصائص الطيب.

و لا يقال فلم يليق فعل هذا؟ فإن ذلك من لوازم ملكه، و ربوبيته، و من مقتضيات أسمائه و صفاته، و هل يليق بحكمته أن يسوى بين الطيب و الخبيث، و الحسن و القبيح، و الجيد و الردىء؟

و من لوازم الربوبية خلق الزوجين، و تنوع المخلوقات و أخلاقها.

فقول القائل لم خلق الردىء و الخبيث و اللئيم؟ سؤال جاهل بأسمائه و صفاته، و ملكه و ربوبيته.

و هو سبحانه فرق بين خلقه أعظم تفریق، و ذلك من كمال قدرته، و ربوبيته، فجعل منه ما يقبل جميع الكمال الممكن، و منه ما لا يقبل شيئاً منه، و بين ذلك درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الخلاق العليم. و هدى كل نفس إلى حصول ما هى قابله له، و القابل و المقبول كله مفعوله و مخلوقه، و أثر فعله و خلقه. و هذا هو الذى ذهب عن الجبريه و القدرية، و لم يهتدوا إليه، و بالله التوفيق.

قالت القدرية: الختم الطبع هو شهادته سبحانه عليهم بأنهم لا يؤمنون، و على أسماعهم، و على قلوبهم.

قال أهل السنه: هذا هو قولكم: بأن الختم و الطبع هو الإخبار عنهم ذلك، و قد تقدم فساد هذا بما فيه كفايه، و أنه لا يقال فى لغه من لغات الأمم لمن أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه، و إن عليه ختماً، و إنه قد طبع على قلبه و ختم عليه، بل هذا كذب على اللغات، و على القرآن.

و كذلك قول من قال إن ختمه على قلوبهم اطلعه على ما فيها من الكفر.

و كذلك قول من قال إنه إحصاؤه عليهم حتى يجازيهم به، و قول من قال: إنه إعلامها بعلامه تعرفها بها الملائكة، و قد بينا بطلان ذلك بما فيه كفايه (١)...

ص: ٢٨١

١- سبق ذلك فى فصل تحمیل اللفظ ما لا يحتمل (٢١٣)..

قالت القدرية: لا يلزم من الطبع و الختم و القفل أن تكون مانعه من الإيمان، بل يجوز أن يجعل الله فيهم من غير أن يكون منعهم من الإيمان، بل يكون ذلك من جنس الغفلة، و البلاده، و العشا في البصر فيورث ذلك إعراضا عن الحق و تعميا عنه، و لو أنعم النظر، و تفكر و تدبر لما آثر على الإيمان غيره.

و هذا الذى قاله يجوز أن يكون فى أول الأمر فإن تمكن و استحكم من القلب و رسخ فيه امتنع معه الإيمان، و مع هذا فهو أثر فعله، و إعراضه و غفلته و إثارة شهوته و كبره على الحق و الهدى، فلما تمكن فيه و استحكم صار صفة راسخه، و طبعه، و ختما و قفلا، و رينا، فكان مبدؤه حائلا بينهم و بين الإيمان، و الإيمان ممكن معه لو شاءوا لآمنوا مع مبادئ تلك الموانع فلما استحكمت لم يبق إلى الإيمان سبيل.

و نظير هذا أن العبد يستحسن ما يهواه فيميل إليه بعض الميل، ففى هذه الحال يمكن صرف الداعية له؛ إذ الأسباب لم تستحكم، فإذا استمر على ميله، و استدعى أسبابه و استمكن لم يمكنه صرف قلبه عن الهوى، و المحبة فيطبع على قلبه، و يختم عليه فلا يبقى فيه محل لغير ما يهواه و يحبه، و كان الانصراف مقدورا له فى أول الأمر، فلما تمكنت أسبابه لم يبق مقدورا له كما قال الشاعر:

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق

رأى لجه ظننها موجه فلما تمكن منها غرق

فلو أنهم بادروا فى مبدأ الأمر إلى مخالفه الأسباب الصاده عن الهدى لسهل عليهم، و لما استعصى عليهم، و لقدروا عليه.

و نظير ذلك المبادره إلى إزالة العله قبل استحكام أسبابها، و لزومها للبدن لزوما لا ينفك منها، فإذا استحكمت العله و صارت كالجزء من البدن عز على الطبيب استنفاذ العليل منها.

و نظير ذلك المتوحد فى حمأه، فإنه ما لم يدخل تحتها فهو قادر على التخلص، فإذا توسط معظمها عز عليه و على غيره إنقاذه، فمبادئ الأمور مقدوره للعبد، فإذا استحكمت أسبابها و تمكنت لم يبق الأمر مقدورا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أنفع الأشياء فى باب القدر، و الله الموفق للصواب.

و الله- سبحانه- جاعل ذلك كله، و خالقه فيهم بأسباب منهم، و تلك الأسباب قد تكون أمورا عدميه يكفى فيها عدم مشيئه أضدادها، فلا يشاء- سبحانه- أن يخلق للعبد أسباب

الهدى فيبقى على العدم الأصلي، وإن أراد من عبده الهداية فهي لا تحصل حتى يريد من نفسه إعانته و توفيقه، فإذا لم يرد- سبحانه- من نفسه ذلك لم تحصل الهداية.

فصل

و مما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع و الختم و القفل حصول الإيمان، بأن يفك الذى ختم على القلب، و طبع عليه، و ضرب عليه القفل ذلك الختم و الطابع و القفل، و يهديه بعد ضلاله، و يعلمه بعد جهله، و يرشده بعد غيه، و يفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التى هى بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوه و الكفر لم يمتنع أن يمحوها، و يكتب عليه السعاده و الإيمان.

و قرأ قارئ عند عمر بن الخطاب أ فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أفعالها (٢٤) [محمد]، و عنده شاب فقال: اللهم عليها أفعالها و مفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك؛ فعرّفها له عمر و زادته عنده خيرا.

و كان عمر يقول فى دعائه: اللهم إن كنت كتبتنى شقيا فامحنى و اكتبنى سعيدا فإنك تمحو ما تشاء و تثبت. فالرب تعالى فعال لما يريد، لا حجر عليه.

و قد ضل هاهنا فريقان:

القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدرا للرب، و لا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدورا له، و منعه العبد لناقض جوده و لطفه.

و الجبرية حيث زعمت أنه- سبحانه- إذا قدر، أو علم شيئا فإنه لا يغيره بعد هذا، و لا يتصرف فيه بخلاف ما قدره و علمه.

و الطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، و جميع خلقه تحت حجره شرعا و قدرا. و هذه المسألة من أكبر مسائل القدر، و المقصود: أنه مع الطبع و الختم و القفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم و الطابع، و فتح ذلك القفل، يفتح من بيده مفاتيح كل شىء، و أسباب الفتح مقدوره للعبد غير ممتنع عليه. و إن كان فك الختم، و فتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، و زوال العله و حصول العافية غير مقدور، فإذا استحکم به المرض و صار صفة لازمه له لم يكن له عذر فى تعاطى ما إليه من أسباب الشفاء، و إن كان غير مقدور له.

و لكن لما ألفت العله و ساكنها، و لم يحب زوالها، و لا آثر ضدها عليها مع معرفته بما

بينها و بين ضدها من التفاوت فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية.

و الله- سبحانه- يهدى عبده إذا كان ضالاً، و هو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه؛ لمحبته و ملاءمته لنفسه.

فإذا عرف الهدى فلم يحبه، و لم يرض به و أثر عليه الضلال مع تكرر تعريفه منفعه هذا و خيره، و مضره هذا و شره فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض و افتقر إلى من يبيده هداه، و علم أنه ليس إليه هدى نفسه، و أنه إن لم يهده الله فهو ضال، و سأل الله أن يقل قلبه، و أن يقيه شر نفسه و فقه و هداه.

بل لو علم الله منه كراهيه لما هو عليه من الضلال، و أنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته و بغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء و الهدايه.

و لكن من أعظم أسباب الشقاء و الضلال محبته له، و رضاه به، و كراهته الهدى و الحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك، و رغب إلى الله في فك ذلك عنه، و فعل مقدوره لكان هداه أقرب شيء إليه، و لكن إذا استحكم الطبع و الختم حال بينه و بين كراهه ذلك و سؤال الرب فكه و فتح قلبه.

فصل

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع و الختم و القفل عقوبه و جزاء على الجرائم و الإعراض و الكفر السابق على فعل الجرائم- قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، و يظنون بالله- سبحانه- خلاف موجب أسمائه و صفاته.

و القرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع، و الختم، و الغشاوه لم يفعلها الرب سبحانه بعبد من أول وهله حين أمره بالإيمان أو بينه له، و إنما فعله بعد تكرار الدعوه منه- سبحانه- و التأكيد في البيان و الإرشاد و تكرار الإعراض منهم و المبالغه في الكفر و العناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم و يختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

و الإعراض و الكفر الأول لم يكن مع ختم و طبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعه و سجيته، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)[البقره].

و معلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا و صدقوا الرسل كان

أكثرهم كفارا قبل ذلك، و لم يختم على قلوبهم، و على أسماعهم. فهذه الآيات فى حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبه منه لهم فى الدنيا بهذا النوع من العقوبه العاجله، كما عاقب بعضهم بالمسخ قرده و خنازير، و بعضهم بالطمس على أعينهم.

فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، و هو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبه دائمه مستمره، و قد يعاقب به إلى وقت ثم يعافى عبده و يهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

فصل

و هنا عدده أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان، و هى: الختم، و الطبع، و الأكنه و الغطاء، و الغلاف، و الحجاب، و الوقر، و الغشاوه، و الران، و الغل، و السد، و القفل، و الصمم، و البكم، و العمى، و الصد، و الصرف، و الشد على القلب، و الضلال، و الإغفال، و المرض، و تقليب الأفتد، و الحول بين المرء و قلبه، و إزاعه القلوب، و الخذلان، و الإركاس، و التشييط، و التزيين، و عدم إرادته هداهم و تطهيرهم، و إماتة قلوبهم بعد خلق الحياه فيها فتبقى على الموت الأصلى، و إمساك النور عنها فتبقى فى الظلمه الأصلية، و جعل القلب قلبا قاسيا لا ينطبع فيه مثال الهدى و صورته، و جعل الصدر ضيقا حرجا لا يقبل الإيمان.

و هذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب: كالختم، و الطبع، و القفل، و الأكنه، و الإغفال و المرض و نحوها.

و منها ما يرجع إلى رسوله الموصول إليه الهدى كالصمم و الوقر.

و منها ما يرجع إلى طبيعته و رائده كالعمى و العشا.

و منها ما يرجع إلى ترجمانه و رسوله المبلغ عنه كالبكم النطقى، و هو نتيجة البكم القلبى، فإذا بكم القلب بكم اللسان.

و لا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات و استعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم و الفهم عن الله و رسوله.

و كأن هذا القائل حقيقه القفل عنده أن يكون من حديد، و الختم أن يكون بشمع أو طين، و المرض أن يكون حمى بنافض (١)، أو قولنج (٢) أو غيرهما من أمراض البدن،

ص: ٢٨٥

١- نافض: حمى الرعد.

٢- و قد تكسر لامه أو هو مكسور اللام و يفتح القاف و يضم: مرض معوى مؤلم، يعسر معه خروج الثفل و الريح.

و الموت: هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى: ذهاب ضوء العين الذى تبصر به.

و هذه الفرقة من أغلظ الناس حجاباً، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبه قفل القلب إلى القلب كنسبه قفل الباب إليه، وكذلك الختم، والطابع الذى هو عليه هو بالنسبة إليه كالختم، والطابع الذى على الباب و الصندوق و نحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته و حياته نظير موت البدن و حياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن.

فلو قيل: إنها حقيقة فى ذلك مجاز فى الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء و أقوى منه، و كلاهما باطل، العمى فى الحقيقة و البكم و الموت و القفل للقلب، ثم قال تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: ٤٦]**.

و المعنى: أنه معظم العمى و أصله، و هذا كقوله صلى الله عليه و سلم: **«إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ» (١)**.

و قوله: **«إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ» (٢)**.

و قوله: **«لَيْسَ الْغَنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ (٣) إِنَّمَا الْغَنَى غِنَى النَّفْسِ» (٤)**.

و قوله: **«لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَ اللَّقْمَتَانِ وَ التَّمْرَةُ وَ التَّمْرَتَانِ إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يَغْنِيهِ وَ لَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ» (٥)**.

و قوله: **«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (٦)**.

و لم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء، و أحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**.

و قريب من هذا قوله: **لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**.

ص: ٢٨٦

١- البخارى (٢١٧٩، ٢١٧٨) فى البيوع، باب: بيع الدينار بالدينار نساء، و مسلم (١٠١/١٥٩٦) فى المساقاة، باب: بيع الطعام مثلاً بمثل.

٢- مسلم (٨٠/٣٤٣) فى الحيض، باب: إنما الماء من الماء.

٣- العرض: هو ما يتموله الإنسان و يقتنيه من المال و غيره.

٤- البخارى (٦٤٤٦) فى الرقاق، باب: الغنى غنى النفس، و مسلم (١٢٠/١٠٥١) فى الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض.

٥- البخارى (١٤٧٦) فى الزكاة، باب: قول الله تعالى: **لَا يَسْتَلُونُ النَّاسَ إِحْفَافاً**، و مسلم (١٠١/١٠٣٩) فى الزكاة، باب: المسكين الذى لا يجد غنى، و لا يفتن له فيتصدق عليه.

٦- البخارى (٦١١٤) فى الأدب، باب: الحذر من الغضب، و مسلم (١٠٧/٢٦٠٩) فى البر و الصلة، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، و بأى شىء يذهب الغضب.

وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ الْآيَةِ [البقره: ١٧٧].

و على التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقه، وهكذا جميع ما نسب إليه. و لما كان القلب ملك الأعضاء، و هى جنوده، و هو الذى يحركها و يستعملها، و الإراده و القوى و الحرکه الاختياريه تنبعث كانت هذه الأمثال أصلا و للأعضاء تبعا.

فلنذكر هذه الأمور مفصله و مواقعها فى القرآن، فقد تقدم الختم، قال الأزهري: و أصله التغطية، و ختم البذر فى الأرض إذا غطاه. قال أبو إسحاق: معنى ختم و طبع فى اللغة واحده، و هو التغطية على الشىء و الاستيثاق منه فلا يدخله شىء، كما قال تعالى: أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: ٢٤]، و كذلك قوله: طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [محمد: ١٦].

قلت: الختم و الطبع يشتركان فيما ذكر و يفترقان فى معنى آخر، و هو أن الطبع ختم يصير سجيح و طبيعه، فهو تأثير لازم لا يفارق.

و أما الأكنه ففى قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ [الأنعام: ٢٥]، و هى جمع كنان، كعنان و أعنه، و أصله من الستر و التغطية، و يقال: كنه و أكنه و ليسا بمعنى واحد، بل بينهما فرق، فأكنه إذا ستره و أخفاه، كقوله تعالى: أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ [البقره: ٢٣٥]، و كنه إذا صانه و حفظه، كقوله: بَيِّضُ مَكْنُونٌ [الصفات: ٤٩]، و يشتركان فى الستر. و الكنان ما أكن الشىء و ستره و هو كالغلاف، و قد أقرؤا على أنفسهم بذلك فقالوا: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنَكَ حِجَابٌ [فصلت: ٥]، فذكروا غطاء القلب؛ و هى الأكنه، و غطاء الأذن؛ و هو الوقر، و غطاء العين؛ و هو الحجاب.

و المعنى: لا- نفقه كلامك و لا نسمعه و لا نراك، و المعنى: أنا فى ترك القبول منك بمنزله من لا يفقه ما تقول، و لا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا فى أكنه مثل الكنانه التى فيها السهام، و قال مجاهد: كجعبه النبل، و قال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

فصل

و أما الغطاء فقال تعالى: وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَيْنٌ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسْتَشْفِعُونَ سَمْعًا (١٠١) [الكهف].

و هذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم فى غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، و أدله توحيده، و عجائب قدرته.

ص: ٢٨٧

و الثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن، و تدبره و الاهتداء به، و هذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسرى منه إلى العين.

فصل

و أما الغلاف فقال تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقره: ٨٨]، و قد اختلف في معنى قولهم: قُلُوبُنَا غُلْفٌ فقالت طائفه: المعنى: قلوبنا أوعيه للحكمه و العلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك.

و على هذا فيكون غلف جمع غلاف، و الصحيح قول أكثر المفسرين: إن المعنى: قلوبنا لا تفقه و لا تفهم ما تقول، و على هذا فهو جمع أغلف كأحمر و حمر.

قال أبو عبيده: كل شيء في غلاف فهو أغلف، كما يقال: سيف أغلف، و قوس أغلف، و رجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس و قتاده و مجاهد: على قلوبنا غشاوه، فهي في أوعيه فلا تعي، و لا تفقه ما تقول. و هذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّهِ [فصلت: ٥]، و قوله تعالى: كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِ [الكهف: ١٠١]، و نظائر ذلك.

و أما قول من قال: هي أوعيه للحكمه فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، و ليس له في القرآن نظير يحمل عليه، و لا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم و الحكمه، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، و قلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعيه للعلم؟

و الغلاف قد يكون وعاء للجيد و الرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم و الحكمه. و هذا ظاهر جداً، فإن قيل: فالإضراب ب«بل» على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟

و أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلاً للعلم و الحكمه، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غايه الظهور، و هو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول و معرفته، بل جعل قلوبهم داخله في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجج؟ و كأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم

الإيمان، فكذبهم الله و قال: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥]، و فى الآيه الأخرى:

بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقره: ٨٨].

فأخبر- سبحانه- أن الطبع و الإبعاد عن توفيقه و فضله، إنما كان بكفرهم الذى اختاروه لأنفسهم و آثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع و اللعنه، و المعنى: لم نخلق قلوبهم غلفا لا- تعى و لا- تفقه ثم نأمرهم بالإيمان و هم لا يفهمونه و لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب، و الختم عليها.

فصل

و أما الحجاب ففى قوله- تعالى- كحكاية عنهم: وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت: ٥].

و قوله: وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَشْتُورًا [الإسراء] على أصح القولين، و المعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته و بينهم حجابا يحول بينهم و بين فهمه و تدبره و الإيمان به، و يبينه قوله: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الأنعام: ٢٥].

و هذه الثلاثة المذكوره فى قوله: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت: ٥].

فأخبر- سبحانه- أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤيه الحق، و الأكنه تمنع من فهمه، و الوقر يمنع من سماعه.

و قال الكلبي: الحجاب هاهنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب، و نحوه مما يصددهم عن الإقدام عليه. و وصفه بكونه مستورا، فقيل: بمعنى ساتر، و قيل: على النسب، أى ذو ستر، و الصحيح: أنه على بابه، أى مستورا عن الإبصار فلا يرى. و مجيء مفعول بمعنى فاعل لا- يثبت، و النسب فى مفعول لم يشتق من فعله، كما كان مهول، أى: ذى هول، و رجل مرطوب أى: ذى رطوبه، فأما مفعول فهو جار على فعله فهو الذى وقع عليه الفعل كمضروب، و مجروح، و مستور.

فصل

و أما الران فقد قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين].

قال أبو عبيده: غلب عليها، و الخمر ترين على عقل السكران، و الموت يرين على الميت فيذهب به، و من هذا حديث أسيفع جهينه، و قول عمر: «فأصبح قد رين به» أى غلب عليه و أحاط به الرين.

وقال أبو معاذ النحوى: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم؛ فذلك الرين عليها.

قال أبو إسحاق: ران: غطى، يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينا أى غشيه.

قال: و الرين كالغشاء يغشى القلب، ومثله الغين.

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين أطف شيء و أرقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان (١) على قلبى و إنى لأستغفر الله فى اليوم مائه مره» (٢).

و أما الرين و الران فهو من أغلظ الحجب على القلب و أكثفها. و قال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب و تغشاه فيموت القلب. و قال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة.

و فى سنن النسائى و الترمذى من حديث أبى هريره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئه نكتت فى قلبه نكته سوداء، فإن هو نزع و استغفر و تاب صقل قلبه، و إن زاد زيد فيها حتى تعلق قلبه». و هو الران الذى ذكر الله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين]. قال الترمذى: هذا حديث صحيح (٣).

و قال عبد الله بن مسعود: كلما أذنب نكت فى قلبه نكته سوداء حتى يسود القلب كله، فأخبر- سبحانه- أن ذنوبهم التى اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، و هو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب و مسببه، لكن السبب باختيار العبد، و المسبب خارج عن قدرته و اختياره.

فصل

و أما الغل فقال تعالى لَمَّا حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا- فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ

ص: ٢٩٠

١- ليغان على قلبى: قال ابن الأثير الجزرى فى جامع الأصول (٣٨٦/٤) أى: ليغشى و يغش، و المراد به: السهو، لأنه كان صلى الله عليه و سلم لا يزال فى مزيد من الذكر و القربه و دوام المراقبه، فإذا سهوا عن شىء منها فى بعض الأوقات، أو نسى، عده ذنبا على نفسه، ففزع إلى الاستغفار، انتهى.

٢- مسلم (٤١/٢٧٠٢) فى الذكر و الدعاء و التوبه و الاستغفار، باب: استحباب الاستغفار و الاستكثار منه.

٣- الترمذى (٣٣٣٤) فى التفسير، باب: و من سوره وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) قال: «حسن صحيح»، و النسائى فى الكبرى (١١٦٥٨) فى التفسير، باب: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤).

فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) [يس].

قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله.

و قال أبو عبيده: منعناهم عن الإيمان بموانع.

و لما كان الغل مانعا للمغلول من التصرف و التقلب كان الغل الذى على القلب مانعا من الإيمان.

فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذى فى القلب فكيف ذكر الغل الذى فى العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع فى العنق ناسب ذكر محله، و المراد به: القلب، كقوله تعالى: وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ [الإسراء: ١٣]

و من هذا قولهم: إثمى فى عنقك، و هذا فى عنقك.

و من هذا قوله: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ [الإسراء: ٢٩] شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

و من هذا قال الفراء: إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا، حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: و إنما يقال للشىء اللزوم: هذا فى عنق فلان، أى: لزومه كلزوم القلاده من بين ما يلبس فى العنق، قال أبو على: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا و قلدتك كذا، و منه: قلده السلطان كذا، أى صارت الولاية فى لزومها له فى موضع القلاده و مكان الطوق.

قلت: و من هذا قولهم: قلدت فلانا حكم كذا و كذا، كأنك جعلته طوقا فى عنقه.

و قد سمي الله التكليف الشاقه أغلالا- فى قوله: وَ يَضْعُ عَنْهُمْ إِصِيرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف: ١٥٧]، فشبها بالأغلال لشدتها، و صعوبتها.

قال الحسن: هى الشدائد التى كانت فى العباده كقطع أثر البول، و قتل النفس فى التوبه، و قطع الأعضاء الخاطئه، و تتبع العروق من اللحم.

و قال ابن قتيبه: هى تحريم الله- سبحانه- عليهم كثيرا مما أطلقه لأمه محمد صلى الله عليه و سلم، و جعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقض الغل اليد.

و قوله: فَهِيَ إِلَيَّ الْأَذْفَانِ، قالت طائفه: الضمير يعود إلى الأيدي و إن لم تذكر، لدلاله السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون فى العنق فتجمع إليه اليد، و لذلك سمي جامع، و على هذا فالمعنى: فأيديهم، أو فأيمانهم مضمومه إلى أذقانهم هذا قول الفراء و الزجاج.

وقالت طائفه:الضمير يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر، وقوله:فهى إلى الأذقان أى:واصله و ملزوزه إليها،فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: فَهُمْ مُقْمَحُونَ قال الفراء و الزجاج:المقمح:هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، و معنى الإقماح فى اللغة:رفع الرأس و غض البصر،يقال:أقمح البعير رأسه و قمح.

و قال الأصمعى:بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض،و لم يشرب.

قال الأزهرى:لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم،و رءوسهم صعدا، كالإبل الرافعه رءوسها،انتهى.

فإن قيل:فما وجه التشبيه بين هذا و بين حبس القلب عن الهدى و الإيمان؟قيل أحسن وجه و أبينه،فإن الغل إذا كان فى العنق،و اليد مجموععه إليها منع اليد عن التصرف و البطش،فإذا كان عريضا قد ملأ العنق و وصل إلى الذقن،منع الرأس من تصويبه،و جعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركه،ثم أكد هذا المنع و الحبس بقوله:

وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا [يس:٩].

قال ابن عباس:منعهم من الهدى؛لما سبق فى علمه.

و السد الذى جعل من بين أيديهم و من خلفهم هو الذى سد عليهم طريق الهدى،فأخبر -سبحانه-عن الموانع التى منعهم بها من الإيمان عقوبه لهم،و مثلها بأحسن تمثيل و بعله.

و ذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصله إلى الأذقان فى أعناقهم و ضمت أيديهم إليها،و جعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما،و أغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا.

و إذا تأملت حال الكافر الذى عرف الحق،و تبين له،ثم جحدته و كفر به،و عاداه أعظم معاداه وجدت المثل مطابقا له أتم مطابقه،و أنه قد حيل بينه و بين الإيمان كما حيل بين هذا و بين التصرف،و الله المستعان.

فصل

و أما القفل فقال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)[محمد]

قال ابن عباس:يريد على قلوب هؤلاء أقفال.و قال مقاتل:يعنى:الطبع على القلب، و كأن القلب بمنزله الباب المرتج الذى قد ضرب عليه قفل،فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب و الوصول إلى ما وراءه،و كذلك ما لم يرفع الختم و القفل عن القلب لم يدخل الإيمان و القرآن.

و تأمل تنكير القلب و تعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادته قلوب هؤلاء و قلوب من هم بهذه الصفة، و لو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم فى الجملة.

و فى قوله: أقفالها بالتعريف: نوع تأكيد، فإنه لو قال: «أقفال» لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب منزله القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التى لا تكون لغيرها، و الله أعلم.

فصل

و أما الصمم و الوقرف فى قوله تعالى: صُمُّ بَكْمٌ عُمَى [البقره: ١٧١، ١٨]

و قوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ [محمد].

و قوله: وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف].

و قوله: وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: ٤٤].

قال ابن عباس: فى آذانهم صمم عن استماع القرآن، و هو عليهم عمى: أعمى الله قلوبهم فلا- يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد مثل البهيمة التى لا تفهم إلا دعاء و نداء.

و قال مجاهد: بعيد من قلوبهم.

و قال الفراء: نقول للرجل الذى لا يفهم: كذلك أنت تنادى من مكان بعيد. قال: و جاء فى التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى.

المعنى: أنهم لا يسمعون و لا يفهمون كما أن من دعى من مكان بعيد لم يسمع و لم يفهم.

فصل

و أما البكم فقال تعالى: صُمُّ بَكْمٌ عُمَى [البقره ١٧١، ١٨] و البكم: جمع أبكم، و هو الذى لا ينطق. و البكم نوعان: بكم القلب، و بكم اللسان، كما أن النطق نطقان: نطق القلب، و نطق اللسان، و أشدهما بكم القلب، كما أن عماء و صممه أشد من عمى العين، و صمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، و لا تنطق به ألسنتهم.

و العلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، من سمعه و بصره و قلبه، و قد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، و البصر بالعمى، و القلب بالبكم.

و نظيره قوله تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا [الأعراف: ١٧٩].

و قد جمع -سبحانه- بين الثلاثة في قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [الأحقاف: ٢٦].

فإذا أراد الله -سبحانه- هداية عبد فتح قلبه و سمعه و بصره، و إذا أراد ضلاله أصمه و أعماه و أبكمه و بالله التوفيق.

فصل

و أما الغشاوه فهو غطاء العين كما قال تعالى: وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً [الجاثية: ٣٣].

و هذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما فى القلب يظهر على العين من الخير الشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

و أنت إذا أبغضت رجلا -بغضا شديدا، أو أبغضت كلامه و مجالسته، تجد على عينك غشاوه عند رؤيته و مخالطته، فتلك أثر البغض و الإعراض عنه، و غلظت على الكفار عقوبه لهم على إعراضهم و نفورهم عن الرسول.

و جعل الغشاوه عليها يشعر بالإحاطه على ما تحته، كالعمامه، و لما عشوا عن ذكره الذى أنزله صار ذلك العشا غشاوه على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى.

فصل

و أما الصد فقال تعالى: وَ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ [غافر: ٣٧].

قرأ أهل الكوفه على البناء للمفعول، حملا على زين، و قرأ الباقون (و صدّ) بفتح الصاد، و يحتمل وجهين أحدهما: أعرض، فيكون لازما، و الثانى: صد غيره، فيكون متعديا، و القراءتان كالأيتين لا تناقضان (١).

و أما الشد على القلب ففى قوله تعالى: وَ قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ

ص: ٢٩٤

١- قرأ عاصم و حمزه و الكسائى: (و صدّ) بضم الصاد. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمر و ابن عامر: (و صدّ) بفتح الصاد. «السبعه فى القراءات» لابن مجاهد.

زَيْنَهُ وَ أَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ (٨٨) [يونس]

فهذا الشد على القلب هو الصد و المنع، و لهذا قال ابن عباس: يريد امنعها، و المعنى قسها و اطبع عليها حتى لا تلين و لا تشرح
للإيمان. و هذا مطابق لما فى التوراه أن-الله سبحانه و تعالى-قال لموسى: اذهب إلى فرعون فإنى سأقسى قلبه فلا يؤمن حتى تظهر
آياتى و عجائبي بمصر.

و هذا الشد و التقسيه من كمال عدل الرب-سبحانه-فى أعدائه، جعله عقوبه لهم على كفرهم و إغراضهم كعقوبته لهم
بالمصائب، و لهذا كان محمودا عليه. فهو حسن منه و أقبح شئى منهم، فإنه عدل منه و حكمه، و هو ظلم منهم و سفه. فالقضاء و
القدر فعل عادل حكيم غنى عليم يضع الخير و الشر فى أليق المواضع بهما، و المقضى المقدر يكون ظلما و جورا و سفاها هو فعل
جاهل ظالم سفيه.

فصل

و أما الصرف فقال تعالى: وَ إِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) [التوبه].

فأخبر-سبحانه-عن فعلهم و هو الانصراف، و عن فعله فيهم و هو صرف قلوبهم عن القرآن و تدبره؛ لأنهم ليسوا أهلا له، فالمحل
غير صالح، و لا قابل، فإن صلاحه المحل بشيئين: حسن فهم، و حسن قصد، و هؤلاء قلوبهم لا تفقه، و قصودهم سيئه.

و قد صرح-سبحانه-بهذا فى قوله: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) [الأنفال].

فأخبر-سبحانه-عن عدم قابليه الإيمان فيهم، و أنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، و إن
سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجه، فسماع الفهم الذى سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر-سبحانه-عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، و هو الكبر و التولى و
الإغراض، فالأول مانع من الفهم، الثانى مانع من الانقياد و الإذعان، فأفهام سيئه، و قصود رديئه، و هذه نسخه الضلال، و علم الشقاء
كما أن نسخه الهدى، و علم السعاده فهم صحيح و قصد صالح. و الله المستعان.

و تأمل قوله سبحانه: ثُمَّ انصَبُوا صَيْرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧] كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خيرا أو إعادته عقوبه؛ لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته- سبحانه- و مشيئته لإقبالهم. لأنه لا صلاحية فيه و لا قبول، فلم ينلهم الإقبال و الإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل و الظلم عن القرآن- فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاعه غير الزيغ الأول كما قال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ [الصف: ٥].

و هكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه.

و لتكن قصه إبليس منك على ذكره تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى و لم ينقد لأمره، و أصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعيا إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية، و فروعها صغيرها و كبيرها. و صار هذا الإعراض و الكفر منه عقوبه لذلك الإعراض و الكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من عقاب الحسنه الحسنه بعدها.

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره- سبحانه- عليهم الانصراف و الإعراض عنه، و قد قال تعالى: فَأَنى تُصَيِّرُ قُلُوبَهُمْ [يونس: ٣٢]. و قال فَأَنى تُؤَفِّكُونَ [الأنعام: ٩٥] و قال: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ [٤٩] [المدثر: ٤٩]. فإذا كان هو الذى صرفهم و جعلهم معرضين و مأفوكين فكيف ينفى ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله و حجته عليهم، فممكنهم، و فتح لهم الباب، و نهج لهم الطريق و هيا لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله و أنزل عليهم كتبه، و دعاهم على ألسنه رسله، و جعل لهم عقولا تميز بين الخير و الشر، و النافع و الضار، و أسباب الردى و أسباب الفلاح، و جعل لهم أسماعا و أبصارا، فأثروا الهوى على التقوى و استحبوا العمى على الهدى، و قالوا:

معصيتك آثر عندنا من طاعتك، و الشرك أحب إلينا من توحيدك، و عباده سواك أنفع لنا فى دنيانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم و خالقهم و مليكهم، و انصرفت عن طاعته و محبته.

فهذا عدله فيهم، و تلك حجته عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادته منهم و اختيارا فسده عليهم اضطرابا، فخلاهم، و ما اختاروا لأنفسهم و ولاهم ما تولوه، و مكنهم فيما ارتضوه، و أدخلهم من الباب الذى استبقوا إليه، و أغلق عنهم الباب الذى تولوا عنه

و هم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، و لا أحسن من فعله، و لو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، و لأنشأهم على غير هذه النشأة، و لكنه سبحانه خالق العلو و السفلى، و النور و الظلمه، و النافع و الضار، الطيب و الخبيث، و الملائكه و الشياطين، و الشاء و الذئاب، و معطيها آلاتها و صفاتها، و قواها و أفعالها، و مستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، و بعضها بإرادتها و مشيئتها، و كل ذلك جار على وفق حكمته، و هو موجب حمده و مقتضى كماله المقدس، و ملكه التام، و لا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفى عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقره عصفور من البحر

فصل

و أما الإغفال فقال تعالى: وَ لَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا [الكهف: ٢٨].

سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا [الكهف: ٢٨] فقال: جعلناه غافلاً، قال: و يكون فى الكلام «أغفلته سميته غافلاً، و وجدته غافلاً».

قلت: الغفل: الشيء الفارغ، و الأرض الغفل: التى لا علامه بها، و الكتاب الغفل:

الذى لا شكل عليه، فأغفلناه: تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه- سبحانه- لم يشأ له الذكر فبقى غافلاً، فالغفله وصفه، و الإغفال فعل الله فيه بمشيئته، و عدم مشيئته لتذكرة، فكل منهما مقتضى لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، و إذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

فإن قيل: فهل تضاف الغفله و الكفر و الإعراض و نحوها إلى عدم مشيئه الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا، و بهذا قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ [المائدة: ٤١].

و قال: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [المائدة: ٤١] وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضى موجبا للأثر؟

قيل: الأثر و إن كان وجوديا فلا بد له من مؤثر وجودى، و أما العدم فيكفى فيه عدم سببه و موجهه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافته الشيء إلى

دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجبا و مقتضيا بهذا الاعتبار فلا مشاحه في ذلك، و أما أن يكون العدم أثرا و مؤثرا فلا.

و هذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه و تفریطه في أمره، قال مجاهد: كان أمره فرطا أي ضياعا. و قال قتاده: أضاع أكبر الضيعه. و قال السدي: هلاكاً. و قال أبو الهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، التفریط تقديم العجز. قال أبو إسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه و أهله. قال الليث: الفرط: الأمر الذي يفرط فيه، يقال: كل أمر فلان فرط. قال الفراء:

فرطا متروكا يفرط فيما لا ينبغي التفریط فيه و اتباع ما لا ينبغي اتباعه و غفل عما لا يحسن الغفله عنه.

فصل

و أما المرض فقال تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقره: ١٠]

و قال: فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [الأحزاب: ٣٢].

و قال: يَزْتَابُ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا [المدثر: ٣١].

و مرض القلب خروج عن صحته و اعتداله، فإن صحته أن يكون عارفا بالحق محبا له مؤثرا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، و إما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك و ريب، و مرض العصاة مرض غي، و شهوه. و قد سمي الله سبحانه كلا منهما مرضا.

قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان: فسد جسمه و تغيرت حاله، و مرضت الأرض: تغيرت و فسدت.

قالت ليلي الأخيلية:

إذا هبط الحجاج أرضا مريضه تتبع أقصى دائها فشفاهها

و قال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضه لفقد الحسين و البلاد اقشعرت

و المرض يدور على أربعة أشياء: فساد، و ضعف، و نقصان، و ظلمه، و منه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه و لم يبالغ، و عين مريضه النظر أي: فاتره ضعيفه، و ريح مريضه: إذا هب هبوبها، كما قال:

راحت لأربعك الرياح مريضه

أى:لينه ضعيفه حتى لا- يعفى أثرها. وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، و منه بدن مريض أى: ناقص القوه، و قلب مريض: ناقص الدين، و مرض فى حاجتى إذا نقصت حرته.

و قال الأزهري: عن المنذرى عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعه و اضطرابها بعد صفائها. قال: و المرض: الظلمه، و أنشد:

و ليله مرضت من كل ناحيه فلا يضىء لها شمس و لا قمر

هذا أصله فى اللغه، ثم الشك و الجهل و الحيره و الضلال و إرادته الغى و شهوه الفجور فى القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض فيعاقبه الله بزياده المرض لإيثاره أسبابه و تعاطيه لها.

فصل

و أما تغليب الأفتداه فقال تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْتِدَانَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام: ١١٠].

و هذا عطف على أنها إذا جاءت لا يؤمنون، أى نحول بينهم و بين الإيمان، و لو جاءتهم تلك الآيه فلا يؤمنون.

و اختلف فى قوله: كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الأنعام: ١١٠] فقال كثير من المفسرين:

المعنى نحول بينهم و بين الإيمان لو جاءتهم الآيه، كما حلنا بينهم و بين الإيمان أول مره. قال ابن عباس، و فى روايه عطاء عنه: و نقلت أفتداتهم و أبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمى. قال: و هذا كقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ [الأنفال: ٧٧].

و قال آخرون: المعنى: و نقلت أفتدتهم و أبصارهم لتركهم الإيمان به أول مره فعاقبناهم بتغليب أفتدتهم و أبصارهم. و هذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله: وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ [القصص: ٧٧].

و قوله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادُّكُّونِي أَدُّكُّوكُمْ [البقره: ١٥١-١٥٢].

و الذى حسن اجتماع التعليل و التشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل فى الخير و الشر.

و التغليب: تحويل الشئ من وجه إلى وجه، و كان الواجب من مقتضى إنزال الآيه

و وصولهم إليها، كما سألوها أن يؤمنوا إذا جاءتهم؛ لأنهم رأوها عيانا، و عرفوا أدلتها و تحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبا لقلوبهم و أبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

و قد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول:

«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» (١).

و روى الترمذى من حديث أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنة بك و بما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقبلها كيف يشاء» (٢) قال: هذا حديث حسن.

و روى حماد عن أيوب و هشام و يعلى بن زياد عن الحسن قال: قالت عائشه رضى الله عنها: دعوه كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا رسول الله، دعوه كثيرا ما تدعو بها، قال: «إنه ليس من عبد إلا و قلبه بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أن يقيمه أقامه، و إذا شاء أن يزيغه أزاعه» (٣).

و قوله: وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: ١١٠]. قال ابن عباس: أخذلهم و أدعهم فى ضلالهم يتمادون.

فصل

و أما إزاعه القلوب فقال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: ٥].

و قال عن عباده المؤمنين إنهم سألوه: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا [آل عمران: ٨].

و أصل الزيع: الميل، و منه زاغت الشمس إذا مالت، فإزاعه القلب: إمالته، و زيغه:

ميله عن الهدى إلى الضلال. و الزيع يوصف به القلب و البصر، كما قال تعالى: وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ [الأحزاب: ١٠] و قال قتاده و مقاتل: شخصت فرقا.

و هذا تقريب للمعنى، فإن الشخصوص غير الزيع، و هو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشىء فلا

ص: ٣٠٠

١- مسلم (١٧/٢٤٥٤) فى القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

٢- الترمذى (٢١٤٠) فى القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن.

٣- أحمد (٩١/٦).

يطرق، و منه شخص بصر الميت، و لما مالت الأبصار عن كل شىء فلم تنظر إلا- إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شىء آخر، فمالت عنه و شخصت بالنظر إلى الأحزاب.

و قال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم.

و قال الفراء: زاغت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيره تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله عن ملاحظه ما سوى المخوف، فزاعج البصر عن الوقوع عليه، و هو مقابله.

فصل

و أما الخذلان فقال تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ [آل عمران: ١٦٠].**

و أصل الخذلان: الترك و التخليه، و يقال للبقرة و الشاه إذا تخلفت مع ولدها فى المرعى و تركت صواحباتها: خذول.

قال محمد بن إسحاق فى هذه الآية: إن ينصررك الله فلا غالب لك من الناس و لن ينصررك خذلان من خذلك، و إن يخذلك فلن ينصررك الناس، أى لا تترك أمرى للناس، و ارفض الناس لأمرى.

و الخذلان: أن يخلى الله تعالى بين العبد و بين نفسه و يكله إليها، و التوفيق ضده: ألا يدعه و نفسه، و لا يكله إليها بل يصنع له و يلطف به، و يعينه و يدفع عنه، و يكلاه كلاءه الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه و بين نفسه فقد هلك كل الهلاك؛ و لهذا كان من دعائه صلى الله عليه و سلم: «يا حى يا قيوم يا بديع السموات و الأرض، يا ذا الجلال و الإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله، و لا تكلنى إلى نفسى طرفه عين، و لا إلى أحد من خلقك» (١).

فالعبد مطروح بين الله، و بين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، و إن خذله، و أعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاه.

فإن قيل: فما ذنب الشاه إذا خلى الراعى بين الذئب و بينها، و هل يمكنها أن تقوى على الذئب و تنجو منه؟

ص: ٣٠١

١- أبو داود (٥٠٩٠) فى الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، و أحمد (٤٢/٤).

قيل: لعمر الله إن الشيطان ذئب الإنسان كما قاله الصادق المصدوق، ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاه سلطانا مع ضعفها، فإذا أعطت بيدها و سالمت الذئب و دعاها فلبت دعوته و أجابت أمره و لم تتخلف، بل أقبلت نحوه سريعه مطيعه، و فارقت حمى الراعى الذى ليس للذئب عليه سبيل، و دخلت فى محل الذئب الذى من دخله كان صيدا لهم فهل الذئب كل الذئب إلا- على الشاه! فكيف و الراعى يحذرهما و يخوفهما و ينذرهما، و قد أراها مصارع الشاه التى انفردت عن الراعى و دخلت وادى الذئاب؟!

قال أحمد بن مروان المالكي فى كتاب «المجالسه»: سمعت ابن أبى الدنيا يقول: إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى، و يعطى كل واحد من ذلك ما لا يعطى غيره.

لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد القطان، ثنا عبيد الله بن بكر السهمي عن أبيه أن قوما كانوا فى سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر، فيقول: أ تدررون ما تقول هؤلاء؟ فيقولون: لا، فيقول: تقول: كذا و كذا، فيحيلنا على شىء لا ندرى أ صادق فيه هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم، و فيها شاه قد تخلفت على سخله لها فجعلت تحنو عنقها إليها و تثغو، فقال: أ تدررون ما تقول هذه الشاه؟ قلنا: لا، قال: تقول للسخله؟ الحقى لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول فى هذا المكان.

قال: فانتبهينا إلى الراعى فقلنا له: ولدت هذه الشاه قبل عامك هذا؟ قال: نعم، ولدت سخله عام أول فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم طعينة على جمل لها و هو يرغو، و يحنو عنقه إليها فقال: أ تدررون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا، قال: فإنه يلعن راكبه و يزعم أنها رحلته على مخيط و هو فى سنامه.

قال: فانتبهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبه، و يزعم أنها رحلته على مخيط، و أنه فى سنامه، قال: فأناخوا البعير و حطوا عنه فإذا هو كما قال.

فهذه شاه قد حذرت سخلتها من الذئب مره فحذرت. و قد حذر الله- سبحانه- ابن آدم من ذئبه مره بعد مره، و هو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه، و يبيت معه و يصبح: وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) [إبراهيم: ٢٢].

و أما الإركاس فقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨)[النساء].

قال الفراء: أركسهم: ردهم إلى الكفر، و قال أبو عبيده: يقال: ركست الشيء و أركسته، لغتان، إذا رددته، و الركس: قلب الشيء على رأسه. أو رد أوله على آخره.

و الارتكاس: الارتداد. قال أمية:

فأركسوا في حميم النار إنهم كانوا عصاه و قالوا الإفك و الزورا

و من هذا يقال للروث: الركس؛ لأنه رد إلى حال النجاسة، و لهذا المعنى سمي رجيعا، و الركس و النكس و المركوس و المنكوس بمعنى واحد.

قال الزجاج: أركسهم: نكسهم و ردهم. و المعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفر من الذل و الصغار.

و أخبر- سبحانه- عن حكمه و قضائه فيهم و عدله، و إن كان إركاسه كان بسبب كسبهم و أعمالهم، كما قال: بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين: ١٤] فهذا توحيد، و هذا عدله، لا ما تقوله القدرية المعطلة من أن التوحيد إنكار الصفات و العدل و التكذيب بالقدر.

و أما الشيطان فقال تعالى: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَجَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) [التوبة].

و الشيطان: رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، قال ابن عباس: يريد خذلهم و كسلهم عن الخروج. و قال في روايه أخرى: حبسهم، قال مقاتل: و أوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدین.

و قد بين- سبحانه- حكمته في هذا الشيطان و الخذلان قبل و بعد فقال: إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)[التوبة: ٤٥] وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَجَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)[التوبة: ٤٦].

فلما تركوا الإيمان به و بلاقئه و ارتابوا بما لا ريب فيه و لم يريدوا الخروج في طاعة الله، و لم يستعدوا له و لا أخذوا أهبه ذلك كره- سبحانه- انبعث من هذا شأنه، فإن من لم يرفع

به، و برسوله، أو كتابه رأساً، و لم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه و أكرمهم عليه، و لم يعرف قدر هذه النعمة و لا شكرها، بل بدلها كفراً، فإن طاعه هذا و خروجه مع رسوله يكرهه الله- سبحانه- فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه و أوحى إلى قلبه قدراً و كونا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر- سبحانه- عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا [التوبة: ٤٧].

و الخبال: الفساد و الاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب و الاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا- خبالاً- و عجزاً و جنباً، يعني: يجبنوهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم، و تعظيمهم في صدورهم. ثم قال: وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ أَى: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق و الإفساد. قال ابن عباس: يريد: ضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم لتفريق الكلمه فيجبوا عن العدو. و قال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين. و قال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب، قال امرؤ القيس:

أرانا موضعين لحتم غيب و نسحر بالطعام و بالشراب

أى مسرعين، و منه قول عمر بن أبى ربيعه:

تبا لهن بالعرفان لما عرفننى و قلن امرؤ باغ أكل و أوضعا

أى: أسرع حتى كلت مطيته: يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ [التوبة: ٤٧].

قال قتاده: و فيكم من يسمع كلامهم، و يطيعهم. و قال ابن إسحاق: و فيكم قوم أهل محبه لهم و طاعه فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم.

و معناه على هذا القول: و فيكم أهل سمع و طاعه لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

قلت: فتضمن «سماعين» معنى «مستجيبين».

و قال مجاهد و ابن زيد و الكلبي: المعنى: و فيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، أى: جواسيس. و القول هو الأول، كما قال تعالى: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ [المائدة]:

[٤١] أى: قابلون له، و لم يكن فى المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين، كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم و يرحلون و يصلون معهم و يجالسونهم، و لم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم، فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفه،

و لم يخالطها و أرسد بينهم عيوننا له. فالقول قول قتاده، و ابن إسحاق. و الله أعلم.

فإن قيل انبعاثهم إلى طاعته طاعه له فكيف يكرهها؟ و إذا كان-سبحانه-يكرهها فهو يجب ضدها لا-محاله إذ كراهه أحد الضدين تستلزم محبه الضد الآخر، فيكون قعودهم محبوبا له فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، و هو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، و أجوبه الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلق بالحكم و المصالح، و كل ممكن فهو جائز عليه، و يجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه و يرضاه و ترك ما يبغضه و يسخطه، و الجميع بالنسبه إليه سواء، و هذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة و التعليل.

و القدرية تجيب عنه على أصولها بأنه-سبحانه-لم يثبثهم حقيقه، و لم يمنهم بل هم منعوا أنفسهم، و ثبثوها عن الخروج، و فعلوا ما لا يريد، و لما كان في خروجهم المفسده التي ذكرها الله-سبحانه-ألقى في نفوسهم كراهه الخروج مع رسوله-قالوا: و جعل-سبحانه-إلقاء كراهه الانبعاث في قلوبهم كراهه مشيئه من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم، فإنه أمرهم به، قالوا: و كيف يأمرهم بما يكرهه.

و لا يخفى على من نور الله بصيرته، فساد هذين الجوابين و بعدهما من دلاله القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه-سبحانه-أمرهم بالخروج؛ طاعه له و لأمره، و اتباعا لرسوله صلى الله عليه و سلم و نصره له و للمؤمنين و أحب ذلك منهم و رضيه لهم ديناً، و علم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله و للمؤمنين فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه و يرضاه، و يستلزم وقوع ما يكرهه و يبغضه، فكان مكروهاً من هذا الوجه، و محبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه. و هو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه و عاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه و يرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه و يسخطه.

و على هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعه، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه و لم يرضه منهم. و هذا الخروج المكروه له ضدان: أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، و هذا الضد هو الذي يحبه، و الثاني: التخلف عن رسوله، و القعود عن الغزو معه. و هذا الضد يبغضه و يكرهه أيضاً، و كراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبعوض له،، لكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه و أحدهما أكره له من الآخر؛ لأنه أعظم مفسده. فإن قعودهم مكروه له، و خروجهم على الوجه الذى ذكره أكره إليه، و لم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه- سبحانه- فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسده قعودهم عنه أصغر من مفسده خروجهم معه، فإن مفسده قعودهم تختص بهم، و مفسده خروجهم تعود على المؤمنين، فتأمل هذا الموضوع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذى يحبه و يرضاه، و هو الذى خرج عليه المؤمنون؟

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا. و إن حكمته- سبحانه- تأبى أن يضع التوفيق فى غير محله، و عن غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداة و توفيقه و فضله. و ليس كل محل يصلح لذلك، و وضع الشىء فى غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: و على ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحه؟

قلت: يأباه كمال ربوبيته و ملكه، و ظهور أسمائه و صفاته، و فى الخلق و الأمر. و هو - سبحانه- لو فعل ذلك لكان محبوبا له، فإنه يحب أن يذكر، و يشكر، و يطاع، و يوحد، و يعبد، و لكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق فى الطاعة و الإيمان، و هو محبته لجهاد أعدائه، و الانتقام منهم، و إظهار قدر أوليائه و شرفهم، و تخصيصهم بفضله و بذل نفوسهم له فى معاداة من عاداه، و ظهور عزته و قدرته و سطوته و شدة أخذه و أليم عقابه، و أضعاف أضعاف هذه الحكم التى لا سبيل للخلق و لو تناهوا فى العلم و المعرفة- إلى الإحاطة بها، و نسبة ما عقلوه منها إلى ما خفى عليهم كنفرة عصفور فى بحر.

فصل

و أما التزيين فقال تعالى: كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ [الأنعام: ١٠٨].

و قال أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [فاطر: ٨].

و قال: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: ٤٣].

أضاف التزيين إليه منه- سبحانه- خلقا- و مشيئه و حذف فاعله تاره- و نسبة إلى سببه و من أجراه على يده تاره.

و هذا التزيين منه- سبحانه- حسن، إذ هو ابتلاء و اختبار بعيد؛ ليتميز المطيع منهم من العاصى، و المؤمن من الكافر، كما قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) [الكهف]. و هو من الشيطان قبيح.

و أيضا فترتيبه-سبحانه-للعبد عمله السيئ عقوبه منه له على إعراضه عن توحيده و عبوديته،و إثثار سيئ العمل على حسنه،فإنه لا بد أن يعرفه-سبحانه-المسيء من المحسن،فإذا آثر القبيح،و اختاره،و أحبه و رضي له لنفسه زينه الله له،و أعماه عن رؤيه قبيحه بعد أن رآه قبيحا.

و كل ظالم و فاجر و فاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه و فجوره و فسقه قبيحا،فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤيه قبحه من قلبه فربما رآه حسنا عقوبه له،فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه،و هو حجه الله عليه،فإذا تمادى في غيه و ظلمه ذهب ذلك النور فلم ير قبحه في ظلمات الجهل و الفسوق و الظلم.

و مع هذا فحجه الله قائمه عليه بالرساله و بالتعريف الأول،فتزيين الرب تعالى عدل و عقوبته حكمه،و تزيين الشيطان إغواء و ظلم،و هو السبب الخارج عن العبد،و السبب الداخلى فيه حبه و بغضه و إعراضه.

و الرب-سبحانه-خالق الجميع-و الجميع واقع بمشيئته و قدرته،و لو شاء لهدى خلقه أجمعين.و المعصوم من عصمه الله،و المخذول من خذله الله ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين [الأعراف:٥٤].

فصل

و أما عدم مشيئته سبحانه و إرادته فكما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ [المائدة ٤١].

و قال: وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى [السجده:١٣] وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ [يونس:٩٩]

و عدم مشيئته للشئء مستلزم لعدم وجوده،كما أن مشيئته تستلزم وجوده،فما شاء الله و جب وجوده،و ما لم يشأ امتنع وجوده.

و قد أخبر-سبحانه-أن العباد لا-يشاءون إلا-بعد مشيئته-و لا يفعلون شيئا إلا بعد مشيئته.فقال: وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الإنسان:٣٠]، وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [المدثر:٥٦].

فإن قيل:فهل يكون الفعل مقدورا للعبد في حال عدم مشيئته الله له أن يفعله؟

قيل:إن أريد بكونه مقدورا سلامه آله العبد التي يتمكن بها من الفعل،و صحه أعضائه،

و وجود قواه، و تمكينه من أسباب الفعل، و تهيئه طريق فعله، و فتح الطريق له فنعم هو مقدور بهذا الاعتبار.

و إن أريد بكونه مقدورا القدره المقارنه للفعل، و هى الموجه له التى إذا وجدت لم يتخلف عنها الفعل فليس بمقدور بهذا الاعتبار.

و تقرير ذلك أن القدره نوعان:

قدره مصححه و هى قدره الأسباب و الشروط و سلامه الآله، و هى مناط التكليف، و هذه متقدمه على الفعل غير موجه له.

و قدره مقارنه للفعل مستلزمه له لا يتخلف الفعل عنها، و هذه ليست شرطا فى التكليف فلا يتوقف صحته و حسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، و طاعه من لم يشأ الله طاعته مقدور بالاعتبار الأول غير مقدور بالاعتبار الثانى.

و بهذا التحقيق تزول الشبهه فى تكليف ما لا يطاق، كما أتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا قيل: هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدره على الإيمان، أم لم يخلق له قدره؟

قيل: خلق له قدره مصححه متقدمه على الفعل هى مناط الأمر و النهى، و لم يخلق له قدره موجه للفعل مستلزمه له لا يتخلف عنها، فهذه فضله يؤتیه من يشاء، و تلك عدله التى تقوم بها حجته على عبده.

فإن قيل: فهل يمكنه الفعل: و لم يخلق هذه القدره؟

قيل: هذا هو السؤال السابق بعينه، و قد عرفت جوابه، و بالله التوفيق.

فصل

و أما إماتة قلوبهم فى قوله: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى [النمل: ٨٠]

و قوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: ١٢٢].

و قوله: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس: ٧٠].

و قوله: وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر: ٢٢].

فوصف الكافر بأنه ميت، و أنه بمنزله أصحاب القبور، و ذلك أن القلب الحى هو الذى يعرف الحق، و يقبله و يحبه و يؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس و لا تمييز

بين الحق و الباطل، و لا إرادته للحق و كراهه للباطل، بمنزله الجسد الميت الذى لا يحس بلذه الطعام و الشراب و ألم فقدهما.

و كذلك وصف-سبحانه و تعالى- كتابه و وحيه بأنه روح؛ لحصول حياه القلب به، فيكون القلب حيا و يزداد حياه بروح الوحي، فيحصل له حياه على حياه، و نور على نور، نور الوحي على نور الفطره قال: يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [غافر: ١٥].

و قال: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: ٥٢].

فجعله روحا؛ لما يحصل به من الحياه، و نورا لما يحصل به من الهدى و الإضاءة، و ذلك نور و حياه زائده على نور الفطره و حياتها، فهو نور على نور، و حياه على حياه.

و لهذا يضرب-سبحانه- لمن عدم ذلك مثلا- بمستوقد النار التى ذهب عنه ضوءها، و بصاحب الصيب الذى كان حظه منه الصواعق، و الظلمات و الرعد و البرق، فلا استنار بما أوقد من النار، و لا حيا بما فى الصيب من الماء.

و لذلك ضرب هذين المثلين فى سوره الرعد لمن استجاب له فحصل على الحياه و النور و لمن لم يستجب له، و كان حظه الموت و الظلمه، فأخبر عنن أمسك عنه نوره بأنه فى الظلمه ليس له من نفسه نور، فقال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) [النور: ٣٥].

ثم ذكر من أمسك عنه هذا النور: و لم يجعله له فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) [النور].

و فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله خلق خلقه فى ظلمه ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى و من أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله» (١).

ص: ٣٠٩

و قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)[الأنعام].

و هذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن فإن نور الإيمان في قلبه، و مدخله نور، و مخرجه نور، و علمه نور، و مشيئته في الناس نور، و كلامه نور، و مصيره إلى نور، و الكافر بالضد.

و لما كان النور من أسمائه الحسنی و صفاته، كان دينه نوا، و رسوله نورا، و كلامه نورا، و داره نورا يتلأأ، و النور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين، و يجرى على ألسنتهم و يظهر على وجوههم.

و كذلك لما كان الإيمان صفته، و اسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه.

و كذلك الإحسان صفته، و هو المحسن و يحب المحسنين، و هو صابر يحب الصابرين، شاکر يحب الشاكرين، عفو يحب أهل العفو، حيي يحب أهل الحياء، ستيير يحب أهل الستير، قوى يحب أهل القوة من المؤمنين، عليم يحب أهل العلم من عباده، جواد يحب أهل الجود، جميل يحب المتجملين، بر يحب الأبرار، رحيم يحب الرحماء، عدل يحب أهل العدل، رشيد يحب أهل الرشده، و هو الذي جعل من يحبه من خلقه كذلك، و أعطاه من الصفات ما شاء، و أمسكها عن يبغضه و جعله على أضدادها، فهذا عدله، و ذاك فضله، و الله ذو الفضل العظيم.

فصل

و أما جعله القلب قاسيا فقال تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ [المائدة: ١٣].

و القسوه: الشده و الصلابه في كل شيء، يقال: حجر قاس، و أرض قاسيه لا تنبت شيئا، قال ابن عباس: قاسيه عن الإيمان، و قال الحسن: طبع عليها.

و القلوب الثلاثة (١): قلب قاس؛ و هو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورته الحق، و لا

ص: ٣١٠

١- جاء عن حذيفه رضى الله عنه موقوفا (القلوب أربعة: قلب مصفح فذلك قلب المنافق، و قلب أغلف فذلك قلب الكافر، و قلب أجرد كأن فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن، و قلب فيه نفاق و إيمان، فمثله مثل قرحة يحدها قيح و دم، و مثله شجرة يسقيها ماء خبث و طيب، فأیما غلب عليها غلب) المسند (١٠٧٠٥) عن أبي سعيد و فى كنز العمال و أشار إلى أنه رواه أحمد و الطبرانى فى الأوسط، و ابن أبى شيبه عن حذيفه، موقوفا، و ابن أبى حاتم عن سلمان موقوفا. كنز العمال (١/٢٤٤).

تنطع فيه، و ضده القلب اللين المتماسك، و هو السليم من المرض الذى لا- يقبل صورته الحق بليته، و يحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذى لا- يحفظ ما ينطع فيه لمعانه و رخاوته كالمائع الذى إذا طبعت فيه الشىء قبل صورته بما فيه من اللين و لكن رخاوته تمنعه من حفظها، فخير القلوب القلب الصلب الصافى اللين، فهو يرى الحق بصفائه و يقبله بليته، و يحفظه بصلابته.

و فى المسند و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم: «القلوب آنيه الله فى أرضه، فأحبها إليه أصلبها و أرقدها و أصفها» (١).

و قد ذكر- سبحانه- أنواع القلوب فى قوله: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ [الحج: ٥٣-٥٤].

فذكر القلب المريض، و هو الضعيف المنحل الذى لا- تثبت فيه صورته الحق، و القلب القاسى اليابس الذى لا يقبلها و لا تنطع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، و هو الذى ينتفع بالقرآن و يزكو به. قال الكلبى:

فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ فَتُرَقِّقَ الْقُرْآنَ قُلُوبَهُمْ.

و قد بين- سبحانه- حقيقته الإخبات، و وصف المخبتين فى قوله: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) [الحج: ٣٤-٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات؛ و جل قلوبهم عند ذكره- و الوجع: خوف مقرون بهيبه و محبه- و صبرهم على أقداره، و إتيانهم بالصلاه قائمه الأركان ظاهرا و باطنا، و إحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم.

و هذا إنما يتأتى للقلب المخبت، قال ابن عباس: «المخبتين»: المتواضعين، و قال مجاهد: المطمئنين إلى الله، و قال الأخفش: الخاشعين.

و قال ابن جرير: الخاضعين. و قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت و هو المنخفض من الأرض، و كل مخبت متواضع، فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع و الخشوع لله.

فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع و الخشوع فكيف عدى بإلى فى قوله: وَ أَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ [هود: ٢٣].

ص: ٣١١

١- انظر حليه الأولياء (٧٩/١)، لم نقف إلا على أوله فى أحمد (١٧٧/٢).

قيل: ضمن معنى أنابوا، واطمأنوا و تابوا، وهذه عبارات السلف فى هذا الموضوع.

و المقصود: أن القلب المخبت ضد القاسى و المريض، و هو سبحانه الذى جعل بعض القلوب مخبتا إليه، و بعضها قاسيا، و جعل للقسوه آثارا و للإخبات آثارا.

فمن آثار القسوه: تحريف الكلم عن مواضعه، و ذلك من سوء الفهم، و سوء القصد، و كلاهما ناشئ عن قسوه القلب، و منها نسيان ما ذكر به، و هو ترك ما أمر به علما و عملا.

و من آثار الإخبات: و جل القلوب لذكره سبحانه، و الصبر على أقداره، و الإخلاص فى عبوديته، و الإحسان إلى خلقه.

فصل

و أما تضيق الصدر، و جعله حرجا لا يقبل الإيمان فقال تعالى: **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥].**

و الحرج: هو الشديد الضيق فى قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حرج و حرج أى:

ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حرج الصدر و لا عنيف

و قال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بنى بكر؟ قال رجل: نعم، ما الحرجه فيكم؟ قالوا: الوادى الكثير الشجر الذى لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر.

و قرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتونى رجلا من كنانه، و جعلوه راعيا فأتوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحرجه فيكم؟ فقال: الشجره تحدث بها الأشجار الكثيره فلا تصل إليها راعيه و لا وحشيه، فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شىء من الخير.

قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقا حرجا، إذا سمع ذكر الله اشماز قلبه، و إن ذكر شىء من عباده الأصنام ارتاح إلى ذلك.

و لما كان القلب محلا للمعرفه و العلم و المحبه و الإنابه، و كانت هذه الأشياء إنما تدخل فى القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هدايه عبد و سع صدره و شرحه فدخلت فيه و سكتته، و إذا أراد ضلاله ضيق صدره، و أخرج فلم يجد محلا يدخل فيه فيعدل عنه، و لا يساكنه.

و كل إناء فارغ إذا دخل فى الشىء ضاق به، و كلما أفرغت فيه الشىء ضاق، إلا القلب

اللين، فكلما أفرغ الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدره الرب تعالى.

و في الترمذى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا: فما علامه ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابه إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله» (١).

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال، كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه في هذه الدار على ما ناله من مكروهها، وإذا قوى الإيمان وخالطت بشاشته القلوب كان على مكارهها أشرح صدره منه على شهواتها ومحابها. فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له لفراقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبه لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية فهو أصل كل نعمه، وأساس كل خير.

وقد سأل كلیم الرحمن موسى بن عمران ربه أن يشرح له صدره؛ لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره.

وقد عدد- سبحانه- من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرح الصدر والتي تضييقه؟

قلت: السبب الذي يشرح الصدر: النور الذي يقذفه الله فيه، فإذا دخله ذلك النور أثار وانشرح.

فإن قلت: فهل يمكنه اكتساب هذا النور أم هو وهبى؟

قلت: هو وهبى وكسبى. واكتسابه أيضا مجرد موهبه من الله تعالى فالأمر كله لله والحمد كله له والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيء البتة، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها وجاعلها أسبابا، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، إذا أراد بعبد خيرا وفقه لاستفراغ وسعه، وبذل جهده في الرغبة، والرهبه إليه؛ فإنهما مادتا التوفيق فبقدر قيام الرغبة والرهبه في القلب يحصل التوفيق.

فإن قلت: فالرغبه والرهبه بيده لا بيد العبدى.

ص: ٣١٣

١- انظر: الدرر المنثور (٣/٤٤) وعزاه لعبد بن حميد، ولم نقف عليه في الترمذى.

قلت: نعم و الله، و هما مجرد فضله و منته، و إنما يجعلهما فى المحل الذى يليق بهما و يحبسهما عن لا يصلح لهما، فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟

قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح؛ لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه و آثره و أحبه من الضلال و الغى على بصيره من أمره، فأثر هواه على حق ربه و مرضاته، استحب العمى على الهدى، و كان كفر المنعم عليه بصنوف النعم و جحد إلهيته و الشرك به و السعى فى مسأخه أحب إليه من شكره و توحيده و السعى فى مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه و مالكه، و أى ذنب فوق هذا؟ فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عن هذا شأنه كان قد عدل فيه و انسدت عليه أبواب الهدايه، و طرق الرشاد فأظلم قلبه فضاق عن دخول الإسلام و الإيمان فيه، لو جاءته كل آيه لم تزده إلا ضلالا و كفرا.

و إذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام و الإيمان هذا الآيه، و ما تضمنته من أسرار التوحيد و القدر و العدل و عظمه شأن الربوبيه صار لقلبه عبوديه أخرى، و معرفه خاصه، و علم أنه عبد من كل وجه و بكل اعتبار، و أن الرب تعالى رب كل شىء و مليكه من الأعيان و الصفات الأفعال، و الأمر كله بيده و الحمد له و أزمه الأمور بيده و مرجعها كلها إليه.

و لهذه الآيه شأن فوق عقولنا و أجل من أفهامنا، و أعظم مما قال فيها المتكلمون الذين ظلموها معناها، و أنفسهم كانوا يظلمون تالله لقد غلظ عنها حجابهم و كثفت عنها أفهامهم، و منعتهم من الوصول إلى المراد بها أصولهم التى أصلوها و قواعدهم التى أسسوها.

فإنها تضمنت إثبات التوحيد و العدل الذى بعث الله به رسله و أنزل به كتبه، لا التوحيد و العدل الذى يقوله معطلو الصفات، و نفاه القدر.

و تضمنت إثبات الحكمه و القدره و الشرع و القدر و السبب و الحكم و الذنب و العقوبه ففتحت للقلب الصحيح بابا واسعاً من معرفه الرب تعالى بأسمائه، و صفات كماله، و نعوت جلاله، و حكمته فى شرعه، و قدره، و عدله فى عقابه، و فضله فى ثوابه.

و تضمنت كمال توحيده و ربوبيته و قيوميته و إلهيته، و أن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته و مردها إلى ممال حكمته، و أن المهدى من خصه الله بهدايته - شرح صدره لدينه و شريعته، و أن الضال من جعل صدره ضيقاً حرجاً عن معرفته، و محبته، كأنما يتصاعد فى السماء، و ليس ذلك فى قدرته، و أن ذلك عدل فى عقوبته لمن لم يقدره حق قدره و جحد كمال ربوبيته، و كفر بنعمته، و آثر عباده الشيطان على عبوديته، فسد عليه باب توفيقه و هدايته

و فتح عليه أبواب غيه و ضلّاله فضايق صدره، و قسا قلبه و تعطلت من عبوديه ربها جوارحه، و امتلأت بالظلمه جوانحه.

و الذنب له حيث أعرض عن الإيمان، و استبدل به الكفر و الفسوق و العصيان، و رضى بموالاه الشيطان، و هانت عليه معاداه الرحمن، فلا يحدث نفسه بالرجوع إلى مولاه، و لا يعزم يوما عن إقلاعه عن هواه، قد ضاد الله في أمره، بحب ما يبغضه و يبغض ما يحبه، و يوالى من يعاديه، و يعادى من يواليه، يغضب إذا رضى الرب، و يرضى إذا غضب.

هذا و هو يتقلب في إحسانه، و يسكن في داره، و يتغذى برزقه، و يتقوى على معاصيه بنعمه، فمن أعدل منه - سبحانه - عما يصفه به الجاهلون و الظالمون إذا جعل الوحي على أمثال هذا من الذين لا يؤمنون.

فصل

و إذا شرح الله صدر عبده بنوره الذى يقذفه في قلبه أراه في ضوء ذلك النور حقائق الأسماء و الصفات التى تضل فيها معرفه العبد إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هى عليه في نفس الأمر.

و أراه في ضوء ذلك النور حقائق الإيمان، و حقائق العبوديه، و ما يصححها، و ما يفسدها، و تفاوتت معرفه الأسماء و الصفات، و الإيمان و الإخلاص و أحكام العبوديه بحسب تفاوتهم في هذا النور. قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: ١٢٢].**

و قال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ [الحديد: ٢٨].**

فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقه المثل الأعلى مستويا على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن، فيشهد بقلبه ربا عظيما قاهرا قادرا أكبر من كل شىء في ذاته و في صفاته و في أفعاله. السموات السبع قبضه إحدى يديه، و الأرضون السبع قبضه اليد الأخرى، يمسك السموات على إصبع، و الأرضين على إصبع، و الجبال على إصبع و الشجر على إصبع، و الثرى على إصبع، ثم يهزهن ثم يقول: **«أنا الملك» (١).**

ص: ٣١٥

١- البخارى (٧٥١٣) في التوحيد، باب: كلام الرب عز و جل يوم القيامة مع الأنبياء و غيرهم، و مسلم (١٩/٢٧٨٦) في صفات المنافقين، باب: صفه القيامة و الجنه و النار.

فالسماوات السبع في كفه كخردله في كف العبد، يحيط و لا يحاط به، و يحصر خلقه و لا يحصرونه، و يدركهم و لا يدركونه، لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفا واحدا ما أحاطوا به-سبحانه.

ثم يشهده في علمه فوق كل عليم، و في قدرته فوق كل قدير، و في جوده فوق كل جواد، و في رحمته فوق كل رحيم، و في جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد منهم ثم أعطى الخلق كلهم مثل ذلك الجمال لكانت نسبتته إلى جمال الرب-سبحانه-دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

و لو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم ثم أعطى كل منهم مثل تلك القوه لكانت نسبتها إلى قوته-سبحانه-دون نسبة قوه البعوضه إلى حمله العرش.

و لو كان جودهم على رجل واحد، و كل الخلائق على ذلك الجود لكانت نسبتته إلى جوده دون نسبة قطره إلى البحر.

و كذلك علم الخلائق إذا نسب إلى علمه كان كنقره عصفور من البحر.

و كذلك سائر صفاته كحياته و سمعه و بصره و إرادته، فلو فرض البحر المحيط بالأرض مدادا تحيط به سبعة أبحر، و جميع أشجار الأرض شيئا بعد شيء أقلما لفنى ذلك المداد و الأقالام و لا تفنى كلماته و لا تنفذ، فهو أكبر في عمله من كل عالم، و في قدرته من كل قادر، و في جوده من كل جواد، و في غناه من كل غني، و في علوه من كل عال، و في رحمته من كل رحيم.

استوى على عرشه، و استولى على خلقه، منفرد بتدبير مملكته، فلا قبض، و لا بسط و لا منع، و لا هدى، و لا ضلال، و لا سعادة، و لا شقاوه، و لا موت، و لا حياة، و لا نفع و لا ضرر إلا بيده، لا مالك غيره، و لا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذره في السموات و الأرض، و لا له شركة في ملكها. و لا يحتاج إلى وزير، و لا ظهير، و لا معين، و لا يغيب فيخلفه غيره، و لا يعي فيعيه سواه، و لا يتقدم أحد بالشفاعه بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء و فيمن شاء.

فهو أول مشاهد المعرفه ثم يترقى منه إلى مشهد فوقه لا يتم إلا به، و هو مشهد الإلهيه فيشهد-سبحانه-متجليا في كماله بأمره و نهيه-و وعده و وعيده، و ثوابه و عقابه، و فصله في ثوابه، فيشهد ربا قيوما، متكلما آمرا ناهيا، يحب و يبغض، و يرضى و يبغض. قد أرسل رسله، و أنزل كتبه، و أقام على عباده الحجج البالغه، و أتم عليهم نعمته السابغه، يهدى من

يشاء منه نعمه وفضلا، ويضل من يشاء حكمه منه وعدلا، ينزل إليهم أوامره، وتعرض عليه أعمالهم. لم يخلقهم عبثا، ولم يتركهم سدى، بل أمره جار عليهم في حركاتهم وسكناتهم وظواهرهم وبواطنهم، فله عليهم حكم وأمر في كل تحريكه وتسكينه ولحظه ولفظه.

وينكشف له في هذا النور عدله وحكمته ورحمته ولطفه وإحسانه، وبره في شرعه وأحكامه، وأنها أحكام رب رحيم محسن لطيف حكيم، قد بهرت حكمته العقول، وأقرت بها الفطر، وشهدت لمنزلها بالوحدانية، ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة.

وينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال وتنزيهه، سبحانه- عن النقص والمثال، وأن كل كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به أولى، وكل نقص وعيب فهو- سبحانه- منزّه متعال عنه.

وينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر، وما أخبر به الرسول عنه حتى كأنه يشاهده عيانا، وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأمره ونهيه وعده وعيده إخبار من كأنه قد رأى وعان وشاهد ما أخبر به.

فمن أراد- سبحانه- هدايته شرح صدره لهذا فاتسع له وانفسح، ومن أراد ضلّالته جعل صدره من ذلك في ضيق وحرَج لا يجد فيه مسلكا، ولا منفذا، والله الموفق المعين.

وهذا الباب يكفى اللبيب في معرفه القدر والحكمه، ويطلع على العدل والتوحيد اللذين تضمنهما قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) [آل عمران] (١).

السلطان في القرآن

قال ابن عباس رضى الله عنه: كل سلطان في القرآن فهو حجه، وهذا كقوله تعالى: قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) [يونس]، يعنى: ما عندكم من حجه بما قلت إن هو إلا- قول على الله بلا- علم؛ وقال تعالى: إِنَّ هِيَ إِلَّا- أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ [النجم: ٢٣]، يعنى ما أنزل بها حجه ولا برهانا بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم؛ وقال تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) [الصافات]. يعنى حجه واضحة فأتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم. إلا موضعا

ص: ٣١٧

واحدا اختلف فيه و هو قوله: ما أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةُ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةُ (٢٩)[الحاقه]،فقيل:

المراد به القدره و الملك أى:ذهب عنى مالى و ملكى فلا مال لى و لا سلطان.و قيل:هو على بابهِ أى:انقطعت حجتى و بطلت فلا حجه لى.

و المقصود أن الله-سبحانه-سمى علم الحجه سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها و اقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد؛و لهذا ينقاد الناس للحجه ما لا ينقادون لليد،فإن الحجه تنقاد لها القلوب و أما اليد فإنما ينقاد لها البدن،فالحجه تأسر القلب و تقوده و تذل المخالف و إن أظهر العناد المكابره،فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها،بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يستاس به فهو بمنزله سلطان السباع و الأسود،و نحوها قدره بلا علم و لا رحمه،بخلاف سلطان الحجه فإنه قدره بعلم و رحمه و حكمه،و من لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف حجته و سلطانه و إما لقهر سلطان اليد و السيف له،و إلا فالحجه ناصره نفسها ظاهره على الباطل قاهره له (١).

و أيضا لما كان الغضب مركب الشيطان،فتعاون النفس الغضبيه و الشيطان على النفس المطمئنه التى تأمر بدفع الإساءه بالإحسان،أمر أن يعاونها بالاستعاذه منه.فتمد الاستعاذه النفس المطمئنه فتقوى على مقاومه جيش النفس الغضبيه،و يأتى مدد الصبر الذى يكون النصر معه،و جاء مدد الإيمان و التوكل،فأبطل سلطان الشيطان،ف إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)[النحل].

قال مجاهد و عكرمه و المفسرون:ليس له حجه.

و الصواب:أن يقال:ليس له طريق يتسلط به عليهم،و لا من جهه الحجه،و لا من جهه القدره.و القدره داخله فى مسمى السلطان،و إنما سميت الحجه سلطانا لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدره بيده،قد أخبر-سبحانه-أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين و المتوكلين،فقال فى سوره الحجر: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) [الحجر].

و قال فى سوره النحل: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩).

ص: ٣١٨

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)[النحل].

فتضمن ذلك أمرين: أحدهما: نفى سلطانه و إبطاله على أهل التوحيد و الإخلاص و الثانى: إثبات سلطانه على أهل الشرك و على من تولاه.

و لما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد و الإخلاص قال: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ [ص: ٨٢-٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله، عز و جل، و أخلص له و توكل عليه، لا يقدر على إغوائه و إضلاله، و إنما يكون له السلطان على من تولاه و أشرك مع الله، فهؤلاء رعيته فهو وليهم و سلطانهم و متبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه فى هذا الموضع، فكيف ينفى فى قوله:

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) و ما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لنعلم من يؤمن بالآخره ممن هو منها فى شك [سبأ: ٢٠-٢١].

و قيل: إن كان الضمير فى قوله: و ما كان له عليهم من سلطانٍ عائدا على المؤمنين فالسؤال ساقط، و يكون الاستثناء منقطعا: أى لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخره ممن هو منها فى شك، و إن كان عائدا على ما عاد عليه فى قوله: و لقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه و هو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفى، و يكون المعنى: و ما سلطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخره.

قال ابن قتيبه: إن إبليس لما سأل الله تعالى النظره فأنظره قال: لأغوينهم و لأضلنهم و لآمرنهم بكذا، و لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١) و ليس هو فى وقت هذه المقالة.

مستيقنا أن ما قدره فيه يتم، و إنما قال ظانا، فلما اتبعوا و أطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: و ما كان تسلطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعنى نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول و يقع الجزاء.

و على هذا فيكون السلطان هاهنا على من لم يؤمن بالآخره و شك فيها، و هم الذين تولوه و أشركوا به، فيكون السلطان ثابتا لا منفيا، فتتفق هذه الآيه مع سائر الآيات).

ص: ٣١٩

١- قال تعالى فى سورة النساء: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأَمْرِيَنَّهُمْ وَ لَأَمْرَنَّهُمْ فَلْيَلْبِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَ لَأَمْرَنَّهُمْ فليغيرن خلق الله و مرن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد حسر حشرانا مبينا (١١٩).

فإن قيل: فما تصنع بالتى فى سورة إبراهيم، حيث يقول لأهل النار و ما كان لى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَأَسَدْتَجِبْتُمْ لى [إبراهيم: ٢٢]، و هذا و إن كان قوله فالله- سبحانه- أخبر به عنه مقررًا له، لا منكرًا، فدل على أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد، و جوابه: أن السلطان المنفى فى هذا الموضع: هو الحجج و البرهان، أى: ما كان لى عليكم من حجج و برهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: ما كان لى من حجج أحتج بها عليكم. أى: ما أظهرت لكم حجج إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى، و صدقتم مقالتي، و اتبعتمونى بلا برهان و لا حجج. و أما السلطان الذى أثبتته فى قوله: إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ فهو تسلطه عليهم بالإغواء و الإضلال و تمكنه منهم، بحيث يؤزهم إلى الكفر و الشرك و يزعجهم إليه، و لا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَاْفِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا [مريم: ٨٣] قال ابن عباس: تغريهم إغراء. و فى روايه:

تشليهم إشلاء (١). و فى لفظ: تحرضهم تحريضا. و فى آخر: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا.

و فى آخر: توقدهم: أى تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته. قال الأخفش: توهجهم.

و حقيقه ذلك أن (الأز) هو التحريك و التهييج، و منه يقال لغليان القدر: الأزيز: لأن الماء يتحرك عند الغليان. و منه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء» (٢) قال أبو عبيده: «الأزيز» الالتهاب و الحركة، كالتهاب النار فى الحطب، يقال أزدرك، أى ألهب تحتها بالنار؛ و أيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأز معيان: أحدهما: التحريك، و الثانى: الإيقاد و الإلهاب، و هما متقاربان فإنه تحريك خاص بإزعاج و إلهاب.

فهذا من السلطان الذى له على أوليائه و أهل الشرك، و لكن ليس له على ذلك حجج و برهان، و إنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم و أغراضهم فهم الذين أعانوا على أنفسهم و مكثوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته و متابعتة فلما أعطوا بأيديهم و استأسروا له سلط عليهم، عقوبه لهم.

و بهذا يظهر معنى قوله سبحانه: وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا [النساء: ١٤١]. ع.

ص: ٣٢٠

١- قال ابن جرير قال ابن زيد: تَوَزُّهُمْ أَزًّا فقراً: وَ مَيْنُ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقْيَضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) قال توزهم أزا: تشليهم إشلاء على معاصى الله تبارك و تعالى و تغريهم عليها كما يغرى الإنسان الآخر على الشىء ا.ه. فى القاموس: أشلى دابته: أراها المخلاه لتأنيه، و الناقه: دعاها للحلب.

٢- رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائى و الترمذى- و صححه- ابن حبان و ابن خزيمة: عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: رأيت النبى صلى الله عليه و سلم يصلى و لصدرة أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

فالآية على عمومها و ظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية و المخالفه التي تضاد الإيمان، ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفه، فهم الذين تسبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبوا إليه يوم أحد بمعصيه الرسول و مخالفته.

و الله- سبحانه- لم يجعل للشيطان على العبد سلطانا، حتى جعل له العبد سبيلا إليه بطاعته و الشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلط و قهرا، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فالتوحيد و التوكل و الإخلاص يمنع سلطانه، و الشرك و فروعه يوجب سلطانه، و الجميع بقضاء من أزمه الأمور بيده، و مردها، و له الحجه البالغه، فلو شاء لجعل الناس أمه واحده، و لكن أبت حكمته و حمده و ملكه إلا ذلك: **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)[الجاثية] (١).**

السمع في القرآن

و السمع يراد به إدراك الصوت، و يراد به فهم المعنى، و يراد به القبول و الإجابة.

و الثلاثة في القرآن.

فمن الأول: قوله: **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)[المجادله].**

و هذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع لله، ذكر الماضي و المضارع و اسم الفاعل، سمع و يسمع و هو سميع و له السمع، كما قالت عائشه رضی الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادله تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أنا في جانب البيت، و إنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله: **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا (٢).**

و الثاني: سمع الفهم، كقوله: **وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ أَى: لأفهمهم و لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)[الأنفال]** لما في قلوبهم من الكبر و الإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان، إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، و لو فهموه لتولوا عنه و هم معرضون عنه لكبرهم، و هذا غايه النقص و العيب.

ص: ٣٢١

١- إغاثه اللفهان (١/٩٨-١٠١).

٢- البخارى معلقا (الفتح ١٣/٣٧٢) في التوحيد، باب: **وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً**، و النسائي (٣٤٦٠) في الطلاق، باب: **الظهار**، و ابن ماجه (١٨٨) في المقدمة، باب: **فيما أنكرت الجهيمه**، أحمد (٤٦/٦).

و الثالث: سمع القبول و الإجابة: كقوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) [التوبة: ٤٧]، أى قابلون مستجيبون، و منه قوله: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ [المائدة: ٤٢] أى قابلون له مستجيبون لأهله، و منه قول المصلى: «سمع الله لمن حمد»، أى أجاب الله حمد من حمده و دعاء من دعاه.

و قول النبى صلى الله عليه و سلم: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمد، فقولوا: ربنا و لك الحمد، يسمع الله لكم» (١) أى يجيبكم (٢).

الصبر فى القرآن

قال الإمام أحمد-رحمه الله: ذكر الله-سبحانه-الصبر فى القرآن فى تسعين موضعاً.

و نحن نذكر الأنواع التى سيق فيها الصبر، و هى عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ [النحل: ١٢٧]. وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ [الطور: ٤٨].

الثانى: النهى عما يضاذه، كقوله: وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ [الأحقاف: ٣٥]، و قوله: وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا [آل عمران: ١٣٩]، و قوله: وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الثُّمُودِ [القلم: ٤٨]. و بالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاذ الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا [آل عمران: ٢٠٠] فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفه أجر الصابرين على غيره كقوله: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [القصص: ٥٤]، و قوله: إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: ١٠] قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر.

الخامس: تعليق الإمامه فى الدين به و باليقين، قال الله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) [السجده] فبالصبر و اليقين تنال الإمامه فى الدين.

ص: ٣٢٢

١- البخارى (٧٩٦) فى الأذان، باب: فضل: «اللهم ربنا لك الحمد» و مسلم (٧١/٤٠٩) فى الصلاة، باب: التسميع و التحميد و التأمين.

٢- مفتاح دار السعادة (٨٥-٨٦).

السادس: ظفرهم بمعيه الله-سبحانه-لهم، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [الأنفال: ٤٦]. قال أبو علي الدقاق: فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته.

السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لهم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم؛ قال تعالى: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) [البقره]. قال بعض السلف: وقد عزي على مصيبه نالته، فقال: ما لى لا أصبر وقد وعدنى الله على الصبر ثلاث خصال كل خصله منها خير من الدنيا و ما عليها.

الثامن: أنه-سبحانه-جعل الصبر عوناً و عدّه، و أمر بالاستعانه به، فقال، وَاشْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [البقره: ٤٥]، فمن لا- صبر له لا عون له.

التاسع: أنه سبحانه-علق النصر بالصبر و التقوى، فقال تعالى: بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) [آل عمران] لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم: «و اعلم أن النصر مع الصبر».

العاشر: أنه-سبحانه-جعل الصبر و التقوى جنه عظيمه من كيد العدو و مكره، فما استجن العبد من ذلك جنه أعظم منهما، قال تعالى: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [آل عمران: ١٢٠].

الحادى عشر: أنه-سبحانه-أخبر أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنه بصبرهم كما قال:

و الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) [الرعد].

الثانى عشر: أنه-سبحانه-أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسماً مؤكداً غايه التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال: وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) [النحل]. فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التى فى الجواب.

الثالث عشر: أنه-سبحانه-رتب المغفره و الأجر الكبير على الصبر و العمل الصالح فقال: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) [هود]. و هؤلاء ثنيه الله (١) من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس و الكفر عند المصيبة، و الفرح و الفخر عند النعمه، و لا خلاص من هذا الظم إلا بالصبر و العمل الصالح، كما لا تنال المغفره و الأجر الكبير إلا بهما.ه.

ص: ٣٢٣

١- ثنيه الله: أى الذين استثناهم الله.

الرابع عشر: أنه-سبحانه-جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أى مما يعزم من الأمور التى إنما يعزم على أجلها و أشرفها فقال: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) [الشورى]، و قال لقمان لابنه: وَ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [لقمان: ١٧].

الخامس عشر: أنه-سبحانه-وعد المؤمنين بالنصر و الظفر، و هى كلمته التى سبقت لهم و هى الكلمة الحسنى، و أخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [الأعراف: ١٣٧].

السادس عشر: أنه-سبحانه-علق محبته بالصبر و جعلها لأهله فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) [آل عمران].

السابع عشر: أنه سبحانه-قال عن خصال الخير: إنه لا- يلقاها إلا الصابرون، فى موضعين من كتابه، فى سورة القصص فى قصه قارون، و أن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتى: وَ يَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا- يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) [القصص: ٨٠]. و فى سورة حم السجده، حيث أمر العبد أن يدفع بالتى هى أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذى بينه و بينه عداوه حبيب قريب، ثم قال: وَ مَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت].

الثامن عشر: أنه-سبحانه-أخبر أنه إنما ينتفع بآياته و يتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) [إبراهيم: ٥]، و قال تعالى فى لقمان أ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) [لقمان]، و قال فى قصه سبأ: فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [سبأ: ١٩]، و قال تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنَّ يَشَأُ يُسَيِّدُ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) [الشورى]. فهذه أربع مواضع فى القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر و الشكر.

التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص: ٤٤]، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا. و هذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلى فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه-سبحانه-حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يؤمن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رايح سواهم فقال تعالى: وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)[سوره العصر].

ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآيه لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوته: قوه العلم و قوه العمل، و هما الإيمان و العمل الصالح، و كما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، و هو التواصي بالحق و التواصي بالصبر و أخيه ذلك و قاعدته و ساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي و العشرون: أنه-سبحانه-خص أهل الميمنه بأنهم أهل الصبر و المرحمه الذين قامت بهم هاتان الخصلتان و وصوا بهما غيرهم، فقال تعالى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)[البلد]. و هذا حصر لأصحاب الميمنه فيمن قام به هذان الوصفان، و الناس بالنسبه إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، و شرهم من لا صبر له و لا رحمه فيه، و يليه من له صبر و لا رحمه عنده، و يليه القسم الرابع و هو من له رحمه و رقه و لكن لا صبر له.

الثاني و العشرون: أنه-سبحانه-قرن الصبر بأركان الإسلام و مقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاه، كقوله: وَ اسْتَتَعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ [البقره: ٤٥].

و قرنه بالأعمال الصالحه عموما، كقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [هود: ١١] و جعله قرين التقوى، كقوله: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ [يوسف: ٩٠].

و جعله قرين الشكر كقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [إبراهيم: ٥] و جعله قرين الحق، كقوله: وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر: ٣].

و جعله قرين الرحمه، كقوله: وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ [البلد: ١٧].

و جعله قرين اليقين كقوله: لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوَقِّنُونَ (٢٤)[السجده: ٢٤].

و جعله قرين الصدق كقوله: وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ [الأحزاب: ٣٥].

و جعله سبب محبته و معيته و نصره و عونته و حسن جزائه، و يكفي بعض ذلك شرفا و فضلا، و الله أعلم (١).

ص: ٣٢٥

صلاه الله عز و جل على عباده في القرآن

صلاه الله سبحانه نوعان: عامه، و خاصه:

أما العامه: فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ [الأحزاب: ٤٣] أو منه دعاء النبي صلى الله عليه و سلم بالصلاه على آحاد المؤمنين كقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى» (١) و في حديث آخر أن امرأه قالت له: صل على و على زوجي.

قال: «صلى الله عليك و على زوجك» (٢).

النوع الثاني: صلاته الخاصه: على أنبيائه و رسله خصوصا على خاتمهم و خيرهم محمد صلى الله عليه و سلم.

فاختلف الناس في معنى الصلاه منه سبحانه على أقوال:

أحدها: أنها رحمته.

قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك قال: صلاه الله رحمته، و صلاه الملائكة: الدعاء.

و قال المبرد: أصل الصلاه الرحمه، فهي من الله رحمته، و من الملائكة رحمته، و استدعاء الرحمه من الله.

و هذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

و القول الثاني: أن صلاه الله مغفرته.

قال إسماعيل: ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ، قال: صلاه الله مغفرته، و

صلاه الملائكة الدعاء— و هذا القول هو من جنس الذي قبله و هما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله—سبحانه—فرق بين صلاته على عباده و رحمته فقال: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) [البقره] فعطف الرحمه على الصلاه فاقتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف و أما قولهم:

و ألفى قولها كذبا و مينا

ص: ٣٢٦

١- البخارى (٦٣٥٩) في الدعوات، باب: هل يصلى على غير النبي صلى الله عليه و سلم.

٢- أبو داود (١٥٣٣) في الصلاه، باب: الصلاه على غير النبي صلى الله عليه و سلم.

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثانى: أن صلاة الله-سبحانه-خاصه بأبيائه و رسله و عبادته المؤمنين، و أما رحمته فوسعت كل شىء، فليست الصلاة مرادفه للرحمه، لكن الرحمه من لوازم الصلاة و موجباتها و ثمراتها، فمن فسرها بالرحمه فقد فسرها ببعض ثمرتها و مقصودها، و هذا كثيرا ما يأتى فى تفسير ألفاظ القرآن، و الرسول صلى الله عليه و سلم يفسر اللفظه بلازمها و جزء معناها كتفسير الريب بالشك، و الشك جزء مسمى الريب، و تفسير المغفره بالستر، و هى جزء مسمى المغفره، و تفسير الرحمه بإرادته الإحسان، و هو لازم الرحمه و نظائر ذلك كثيره قد ذكرناها فى أصول التفسير (١).

الفاجر فى عرف القرآن

و اسم الفاجر فى عرف القرآن و السنه يتناول الكافر قطعاً، كقوله، تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) [الانفطار] أو قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) [المطففين]، و فى لفظ آخر فى حديث البراء: «إن الكافر إذا كان فى الآخره و انقطع من الدنيا نزل إليه ملائكه شداد غضاب معهم ثياب نار و سراويل من قطران فيحتوشونه، فتتزع روحه كما يتزع السفود الكثير الشعب من صفوف المبتل، فإذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء و الأرض و كل ملك فى السماء» (٢)(٣).

القضاء و الحكم و الإراده و الكتابه

و الأمر و الإذن و الجعل و الكلمات و البعث و الإرسال

و التحريم و الإنشاء فى القرآن و بيان انقسامها إلى كونى و دبنى

ما كان من الكونى فهو متعلق بربوبيته و خلقه. و ما كان من الدينى فهو متعلق بالهيته؟ و شرعه. و هو كما أخبر عن نفسه-سبحانه- له الخلق و الأمر، فالخلق قضاؤه و قدره و فعله.

و الأمر شرعه و دينه، فهو الذى خلق و شرع و أمر و أحكامه جاريه على خلقه قدرا و شرعا، و لا خروج لأحد عن حكمه الكونى القدرى.

ص: ٣٢٧

١- جلاء الإفهام (٨٢، ٨٣).

٢- أبو داود (٤٧٥٣) فى السنه، باب: فى المسائله فى القبر و فى عذاب القبر، و أحمد (٢٨٧/٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (٥٣/٥): «رجال أحمد رجال صحيح».

٣- الروح (٨٥).

و أما حكمه الدينى الشرعى فيعصيه الفجار و الفساق، و الأمران غير متلازمين. فقد يقضى و يقدر ما لا يأمره به و لا يشرعه، و قد يشرع و يأمر بما لا يقضيه و لا يقدره. و يجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده و إيمانهم، و ينتفى الأمران عما لم يقع من المعاصى و الفسق و الكفر. و ينفرد القضاء الدينى و الحكم الشرعى فى ما أمر به و شرعه و لم يفعله المأمور، و ينفرد الحكم الكونى فيما وقع من المعاصى.

إذا عرف ذلك فالقضاء فى كتاب الله نوعان: كونى قدرى، كقوله تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ [سبأ: ١٤]، و قوله: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يظلمُونَ [الزمر: ٦٩]

و شرعى دينى، كقوله: وَ قُضِيَ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: ٢٣] أى أمر و شرع.

و لو كان قضاء كونيا لما عبد غير الله.

و الحكم أيضا نوعان: فالكونى كقوله: قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ [الأنبياء: ١١٢]، أى افعل ما تنصر به عبادك و تخذل به أعداءك.

و الدينى كقوله: ذَلِكَ كُحْمٌ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ [المتحنه: ١٠]، و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [المائدة: ١].

و قد يرد بالمعنيين معا كقوله: وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكونى، و حكمه الشرعى.

و الإراده أيضا نوعان: فالكونيه كقوله تعالى: فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ [هود: ١٠٧]، و قوله:

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا [الإسراء: ١٦]، و قوله: إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود: ٣٤]، و قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ [القصاص: ٥].

و الدينيه كقوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقره: ١٨٥]، و قوله:

وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ [النساء: ٢٧]، فلو كانت هذه الإراده كونيه لما حصل العسر لأحد منا، و لوقعت التوبه من جميع المكلفين.

و بهذا التفصيل يزول الاشتباه فى مسأله الأمر و الإراده هل هما متلازمان أم لا؟

فقال القدرية: الأمر يستلزم الإراده، و احتجوا بحجج لا تندفع.

و قالت المثبتة: الأمر لا يستلزم الإراده، و احتجوا بحجج لا تندفع.

و الصواب: أن الأمر يستلزم الإراده الدينيه و لا يستلزم الإراده الكونيه، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعا و دينيا، و قد يأمر بما لا يريده كونا و قدرا، كإيمان من أمره، و لم يوفقه

للإيمان مراد له دينا و لا كونا.و كذلك أمر خليله بذبح ابنه و لم يرده كونا و قدرا.و أمر رسوله بخمسين صلاه و لم يرد ذلك كونا و قدرا.

و بين هذين الأمرين و أمر من لم يؤمن بالإيمان فرق فإنه سبحانه-لم يحب من إبراهيم ذبح ولده،و إنما أحب منه عزمه على الامتثال و أن يوطن نفسه عليه.و كذلك أمره محمدا صلى الله عليه و سلم ليله الإسراء بخمسين صلاه.و أما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان فإنه-سبحانه-يحب من عباده أن يؤمنوا به و برسوله،و لكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره و وفقه له،و خذل بعضهم فلم يعنه و لم يوفقه فلم تحصل مصلحه الأمر منهم و حصلت من الأمر بالذبح.

و أما الكتابه:فالكونيه كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) [المجادله:٢١]،و قوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)[الأنبياء].

و قوله: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)[الحج].

و الشرعيه الأمريه كقوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ [البقره:١٨٣].

و قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ امِّهَاتُكُمْ [النساء:٢٣].

إلى قوله: كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ [النساء:٢٤].

و قوله: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ [المائدہ:٤٥].

فالأولى كتابه بمعنى القدر،و الثانيه كتابه بمعنى الأمر.

فالأمر الكونى كقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)[يس].

و قوله: وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)[القمر].

و قوله: وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا [النساء:٤٧].

و قوله: مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا [مريم:٢١].

و قوله: وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [الإسراء:١٦].

فهذا أمر تقدير كونى لا أمر دينى شرعى،فإن الله لا يأمر بالفحشاء،و المعنى قضينا ذلك و قدرناه.

و قالت طائفه:بل هو أمر دينى.و المعنى قضينا ذلك و قدرناه.

و قالت طائفه:بل هو أمر دينى،و المعنى أمرناهم بالطاعه فخالقونا و فسقوا،و القول

الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين: أحدهما: أمرناهم بطاعتنا، والثاني: فخالفونا أو عصونا، ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه. كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا- يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه- سبحانه- جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور، و من المعلوم أن أمره بالطاعة و التوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاه و الفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك.

قيل: هذا يبطل بالوجه الخامس: و هو أن هذا الأمر لا- يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته و اتباع رسله؛ المترفين و غيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين.

يوضحه الوجه السادس: أن الأمر لو كان الطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم.

و معلوم أنه لا- يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله- سبحانه- لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم و تكذيبهم، و إلا- فقيل ذلك: هو لا- يريد إهلاكهم؛ لأنهم معذورون بغفلتهم و عدم بلوغ الرسالة إليهم. قال تعالى: **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصِيبُونَ** (١١٧) [هود].

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم يوم أراد إهلاكها، فأمر رؤساءها و مترفيها أمرا كونيا قدريا لا شرعيا دينيا، بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها على تكذيبهم، و فسق رؤسائهم فحينئذ جاءها أمر الله و حق عليها قوله بالإهلاك.

و المقصود ذكر الأمر الكوني الديني، و من الديني قوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** [النحل: ٩٠].

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** [النساء: ٥٨]. و هو كثير.

و أما الإذن الكوني فكقوله تعالى: **وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**

[البقره: ١٠٢] أى بمشيئته و قدره.

و أما الدينى فكقوله: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ أَوْ تَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ [الحشر: ٥] أى بأمره و رضاه.

و قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَ حَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [يونس: ٥٩].

و قوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [الشورى: ٢١]

و أما الجعل الكونى فكقوله: إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا [يس: ٩].

و قوله: وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ [يونس: ١٠٠]

و قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً [النحل: ٧٢]، و هو كثير.

و أما الجعل الدينى فكقوله: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيْلَةٍ وَ لَا حَامٍ [المائدة: ١٠٣]، أى ما شرع ذلك و لا أمر به، و إلا فهو مخلوق له واقع بقدره و مشيئته.

و أما قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ [المائدة: ٩٧]. فهذا يتناول الجعلين. فإنه جعلها كذلك بقدره و شرعه. و ليس هذا استعمالاً للمشترك فى معنيه، بل إطلاق اللفظ و إرادته المشترك بين معنيه، فتأمله.

و أما الكلمات الكونيه فكقوله: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) [يونس]، و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [الأعراف:

[١٣٧].

و قوله صلى الله عليه و سلم: «أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر و لا فاجر من شر ما خلق» (١).

فهذه كلماته الكونيه التى يخلق بها و يكون، و لو كانت الكلمات الدينيه التى يأمر بها و ينهى لكانت ما يجاوزهن الفجار و الكفار.

و أما الدينى فكقوله. وَ إِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) [التوبه: ٦] أو المراد به القرآن.».

ص: ٣٣١

و قوله صلى الله عليه و سلم فى النساء: «و استحللتم فروجهن بكلمه الله» (١)، أى إباحته و دينه.

و قوله تعالى: فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ [النساء: ٣].

و قله اجتمع النوعان فى قوله: وَ صَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ [التحریم: ١٢]

فكتبه كلماته التى يأمر بها و ينهى و يحرم، و كلماته التى يخلق بها و يكون، فأخبر أنها ليست جهميه تنكر كلمات دينه و كلمات تكوينه و جعلها خلقاً من جملة مخلوقاته.

و أما البعث الكونى فكقوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ [الإسراء: ٥].

و قوله: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ [المائدة: ٣١].

و أما البعث الدينى فكقوله: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ [الجمعه: ٢].

و قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ [البقره: ٢١٣].

و أما الإرسال الكونى فكقوله: أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) [مريم].

و قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ [الفرقان: ٤٨].

و أما الدينى فكقوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ [التوبه: ٣٣].

و قوله: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) [المزمل].

و أما التحريم الكونى فكقوله: وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ [القصص: ١٢].

و قوله: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً [المائدة: ٢٦].

و قوله: وَ حَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) [الأنبياء].

و أما التحريم الدينى فكقوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ [النساء: ٢٣]، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ [المائدة: ٣] وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيِّدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرِّمًا [المائدة: ٩٦]، وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا [البقره: ٢٧٥].

و أما الإيتاء الكونى فكقوله: وَ اللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ [البقره: ٢٤٧]، و قوله:

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ [آل عمران: ٢٦] و قوله: وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [النساء: ٥٤].

١- مسلم (١٢١٨/١٤٧) فى الحج، باب: حجه النبى صلى الله عليه و سلم، و أبو داود (١٩٠٥) فى المناسك، باب: صفه حج النبى صلى الله عليه و سلم، و أحمد (٧٣/٥).

و أما الإيتاء الدينى كقوله: وَ مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ [الحشر: ٧]، وقوله: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [البقرة: ٦٣].

و أما قوله: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [البقرة:

٢٦٩]، فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمرا و دينا و توفيقا و إلهاما.

و أنبياءه و رسله و أتباعهم حظهم من هذه الأمور، الدينى منها، و أعداؤه واقفون مع القدر الكونى، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، و دين الرسل و أتباعهم دين الأمر. فهم يدينون بأمره و يؤمنون بقدره، و خصماء الله يعصون أمره و يحتجون بقدره، و يقولون: نحن واقفون مع مراد الله نعم مع مراده الكونى لا الدينى و لا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكونى، و لا يكون ذلكم عذرا لكم عنده، إذ لو عذر بذلك لم يذم أحدا من خلقه، و لم يعاقبه، و لم يكن فى خلقه عاص و لا كافر. و من زعم ذلك فقد كفر بالله و كتبه كلها و جميع رسله. و بالله التوفيق (١).

ص: ٣٣٣

حقيقه التأويل

هو إدراك الحقيقه التي يؤول إليها المعنى التي هي آخيته و أصله، و ليس كل من فقه في الدين عرف التأويل، فمعرفة التأويل يختص به الراسخون في العلم، و ليس المراد به تأويل التحريف، و تبديل المعنى، فإن الراسخين في العلم يعلمون بطلانه، و الله يعلم بطلانه (١).

و أيضا قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسِوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ [الأعراف: ٥٣]. تأويل ما أخبرت به الرسل هو مجيء حقيقته و رؤيتها عيانا، و منه تأويل الرؤيا و هو حقيقته الخارجة التي ضربت للرائي في عالم المثال.

و منه التأويل بمعنى العاقبة كما قيل في قوله تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: ٥٩] قيل: أحسن عاقبه، فإن عواقب الأمور هي حقائقها التي تؤول إليها.

و منه التأويل بمعنى التفسير، لأن تفسير الكلام هو بيان معناه و حقيقته التي يراد منه، قالوا و منه الأول لأنه أصل العدد و مبناه الذي يتفرع (٢).

درجات التأويل

التأويل ثلاث درجات: قريب، و بعيد، و متوسط، و لا تنحصر أفرادها، و المعتقد أنه لا يحث بفعله تقليدا سواء كان المفتي مصيبا أو مخطئا، كمن قال لامرأته: إن خرجت من بيتي، فأنت طالق، أو الطلاق يلزمني لا تخرجين من بيتي، فأفتاه مفت بأن هذه اليمين لا يلزم بها الطلاق بناء على أن الطلاق المعلق لغو، كما يقوله بعض أصحاب الشافعي كأبي عبد الرحمن الشافعي، و بعض أهل الظاهر، كما صرح به صاحب «المحلى»، فقال:

ص: ٣٣٤

١- إعلام الموقعين (٤١١، ١/٤١٠).

٢- جلاء الأفهام (١١٦، ١١٥).

و الطلاق بالصفه عندنا كالطلاق باليمين كل ذلك لا يلزم (١).

ما يدخل فيه التأويل و المجاز

المجاز و التأويل لا يدخل فى النصوص، و إنما يدخل فى الظاهر المحتمل له.

و هنا نكته ينبغى التفطن لها و هى: أن كون اللفظ نصا يعرف بشيئين: أحدهما: عدم احتمال له لغير معناه وضعا كالعشره، و الثانى: ما اطرده استعماله على طريقه واحده فى جميع مواردِه فإنه نص فى معناه لا يقبل تأويلا، و لا مجازا، و إن قدر تطرق ذلك إلى بعض أفرادِه. و صار هذا بمنزله خبر المتواتر لا يتطرق احتمال الكذب إليه، و إن تطرق إلى كل واحد من أفرادِه بمفرده.

و هذه عصمه نافعته تدلك على خطأ كثير من التأويلات السمعيات التى اطرده استعمالها فى ظاهرها و تأويلها، و الحاله هذه غلط، فإن التأويل إنما يكون الظاهر قد ورد شاذا مخالفا لغيره، و من السمعيات، فيحتاج إلى تأويله لتوافقها، فأما إذا اطرده كلها على وتيره واحده، صارت بمنزله النص و أقوى، و تأويلها ممتنع فتأمل هذا (٢).

الأقوال فى التأويل و بيان خطورته

إشاره

إذا سئل عن تفسير آيه من كتاب الله أو سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم، فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجه التأويلات الفاسده لموافقته نحلته و هواه، و من فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء، و الحجر عليه، و هذا الذى ذكرناه هو الذى صرح به أئمه الإسلام قديما و حديثا.

قال أبو حاتم الرازى: حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال: قال لى محمد بن إدريس الشافعى: الأصل قرآن أو سنه، فإن لم يكن فقياس عليهما، و إذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و صح الإسناد فهو المنتهى، و الإجماع أكبر من الخبر الفرد، و الحديث على ظاهره، و إذا احتمل المعانى فما أشبه منها ظاهره أولاها به، فإذا تكافأت الأحاديث.

فأصحها إسنادا أولاها، و ليس المنقطع بشىء، ما عدا منقطع سعيد بن المسيب، و لا يقاس أصل على أصل، و لا يقال لأصل: لم؟ و كيف؟ و إنما يقال للفرع: لم؟ فإذا صح قياسه على الأصل و قامت به الحججه، رواه الأصم عن ابن أبى حاتم.

ص: ٣٣٥

١- أعلام الموقعين (١٠٧/٤).

٢- بدائع الفوائد (١٥/١).

رأى الجوينى فى الكف عن التأويل

وقال أبو المعالى الجوينى فى «الرساله النظاميه، فى الأركان الإسلاميه»: ذهب أئمه السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردھا و تفويض معانيھا إلى الرب تعالى. و الذى نرتضيه رأياً، و ندين الله به عقد اتباع سلف الأمة: فالأولى: الاتباع، و ترك الابتداع، و الدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجه متبعه، و هو مستند معظم الشريعه، و قد درج صحب الرسول صلى الله عليه و سلم، و رضى عنهم على ترك التعرض لمعانيھا، و درك ما فيها، و هم صفوه الإسلام، و المستقلون بأعباء الشريعه، و كانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد المله و التواصى بحفظھا، و تعليم الناس ما يحتاجون إليه منها. و لو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعه، و إذا انصرم عصرهم و عصر التابعين لهم على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع.

فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين، و لا يخوض فى تأويل المشكلات، و يكل معناها إلى الرب تعالى. و عند إمام القراء و سيدهم الوقوف على قوله تعالى: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران: ٧]** من العزائم، ثم الابتداء بقوله: **وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [آل عمران: ٧]**.

و مما استحسّن من كلام مالك أنه سئل عن قوله تعالى: **أَلَرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه: ٥]** كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، و كيف مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعه، فلتجر آيه الاستواء و المجيء، و قوله: **لِما خَلَقْتُ يَدَيَّ [ص: ٧٥]**، و قوله: **وَ يَبْقَى وَجْهٌ رَبِّكَ [الرحمن: ٢٧]**، و قوله: **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا [القمر: ١٤]** و ما صح من أخبار الرسول كخبر النزول و غيره على ما ذكرنا، انتهى كلامه.

رأى الغزالى فى التأويل

وقال أبو حامد الغزالى: الصواب للخلف سلوكك مسلك السلف فى الإيمان المرسل و التصديق المجمل، و ما قاله الله و رسوله، بلا بحث و تفتيش.

وقال فى كتاب «التفرقه»: الحق: الاتباع و الكف عن تغيير الظاهر رأساً، و الحذر عن اتباع تأويلات لم يصرح بها الصحابه، و حسم باب السؤال رأساً، و الزجر عن الخوض فى الكلام و البحث...

إلى أن قال: و من الناس من يبادر إلى التأويل ظنا لا قطعا، فإن كان فتح هذا الباب و التصريح به يؤدي إلى تشويش قلوب العوام بدع صاحبه، و كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، و ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان قاطع.

و قال أيضا: كل ما يحتمل التأويل في نفسه، و تواتر نقله، و لم يتصور أن يقوم على خلافه برهان، فمخالفته تكذيب محض، و ما تطرق إليه احتمال تأويل و لو بمجاز بعيد، فإن كان برهانه قاطعا و جب القول به، و إن كان البرهان يفيد ظنا غالبا، و لا يعظم ضرره في الدين فهو بدعه، و إن عظم ضرره في الدين فهو كفر.

قال: و لم تجر عادة السلف بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام، و يشتغل بالبحث و السؤال.

و قال أيضا: الإيمان المستفاد من الكلام ضعيف. و الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، و بعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها.

قال: و قال شيخنا أبو المعالي: يحرض الإمام ما أمكنه على جمع عامه الخلق على سلوك سبيل السلف في ذلك. انتهى.

و قال بعض أهل العلم: كيف لا- يخشى الكذب على الله و رسوله، من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة و المجازات المستكرهه التي هي بالألغاز و الأحاجي أولى منها بالبيان و الهداية؟ و هل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم: وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ [الأنبياء: ١٨].

قال الحسن: هي و الله لكل و اصف كذبا إلى يوم القيامة، هل يأمن أن يتناول قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [الأعراف: ١٥٢].

قال ابن عيينه: هي لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة، و قد نزه سبحانه نفسه عن كل ما يصفه به خلقه إلا المرسلين فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به؛ فقال تعالى: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) [الصافات]، و قال تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) [الصافات].

و يكفي المتأولين كلام الله و رسوله بالتأويلات التي لم يردّها، و لم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله، و قدموا آراءهم على نصوص الوحي، و جعلوها عيارا على كلام الله و رسوله، و لو علموا أي باب شر فتحو على الأئمة بالتأويلات الفاسده. و أي بناء للإسلام هدموا بها، و أي معاقل و حصون استباحوها؛ لكان أحدهم أن يختر من السماء إلى

الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك.

فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو، وقال: ما الذى حرم على التأويل و أباحه لكم؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد، و كان تأويلهم من جنس تأويل منكرى الصفات، بل أقوى منه لوجه عديده يعرفها من وازن بين التأويلين، و قالوا: كيف نحن نعاقب على تأويلنا. و تؤجرون أنتم على تأويلكم؟

قالوا: و نصوص الوحي بالصفات أظهر و أكثر من نصوصه بالمعاد، و دلالة النصوص عليها أبين فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها و لا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد؟

و كذلك فعلت الرافضة فى أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين و غيرهم من الصحابه (رضى الله عنهم)، و كذلك فعلت المعتزله فى تأويل أحاديث الرؤية و الشفاعة، و كذلك القدرية فى نصوص القدر، و كذلك الحرورية و غيرهم من الخوارج فى النصوص التى تخالف مذاهبهم، و كذلك القرامطه و الباطنيه طردت الباب، و طمت الوادى على القرى (1)، و تأولت الدين كله.

فأصل خراب الدين و الدنيا إنما هو من التأويل الذى لم يردده الله و رسوله بكلامه، و لا دلّ عليه أنه مراده، و هل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلاّ- بالتأويل؟ و هل وقعت فى الأمتة فتنة كبيره أو صغيره إلاّ- بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، و هل أريقت دماء المسلمين فى الفتن إلاّ بالتأويل؟

التأويل عدوّ كل الأديان

و ليس هذا مختصا بدين الإسلام فقط، بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامه و السداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلاّ رب العباد.

و قد تواترت البشارات بصحة نبوه محمد صلى الله عليه و سلم فى الكتب المتقدمه، و لكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها، كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف و التبديل و الكتمان. فالتحريف تحريف المعانى بالتأويلات التى لم يردّها المتكلم بها، و التبديل تبديل لفظ بلفظ آخر، و الكتمان جحده. و هذه الأدواء الثلاثه منها غيّرت الأديان و الملل، و إذا تأملت دين المسيح وجدت النصرى إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله فى شىء من

ص: ٣٣٨

١- طم الماء: غمر، و طم الإناء: ملاءه، و القرى كغنى: ميل من التلاع، أو موقعه من الربو فى الروضه. (مصدر).

الأديان، ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل. وكذلك زنادقه الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل-صلوات الله و سلامه عليهم-بالتأويل، و من بابه دخلوا، و على أساسه بنوا، و على نقطه خطوا.

أصناف المتأوله

و المتأولون أصناف عديده، بحسب الباعث لهم على التأويل، و بحسب قصور أفهامهم و وفورها. و أعظمهم توغلا فى التأويل الباطل من فسد قصده و فهمه، فكلما ساء قصده و قصر فهمه كان تأويله أشد انحرافا.

فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهه، بل يكون على بصيره من الحق.

و منهم من يكون تأويله لنوع شبهه عرضت له أخفت عليه الحق.

و منهم من يكون تأويله لنوع هدى من غير شبهه، بل يكون على بصيره من الحق.

و منهم من يجتمع له الأمران: الهوى فى القصد، و الشبهه فى العلم.

فتنه التأويل و بعض ما أحدثت

و بالجملة فافتراق أهل الكتابين، و افتراق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقه إنما أوجه التأويل، و إنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل و صفين و الحره و فتنه ابن الزبير، و هلم جرا بالتأويل. و إنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفه و القرامطه و الباطنيه و الإسماعيليه و النصيريه من باب التأويل. فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا و سببها التأويل. فإن محنته إما من المتأولين، و إما أن يسלט عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، و خالفوا ظاهر التنزيل و تعلقوا بالأباطيل.

فما الذى أراق دماء بنى جذيمه و قد أسلموا غير التأويل! حتى رفع رسول الله صلى الله عليه و سلم يديه و تبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم و أخذ أموالهم؟

و ما الذى أوجب تأخر الصحابه رضى الله عنهم يوم الحديبيه عن موافقه رسول الله صلى الله عليه و سلم غير التأويل، حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل؟

و ما الذى سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلما و عدوانا، و أوقع الأمة فيما وقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟

و ما الذى سفك دم على رضى الله عنه، و ابنه الحسين، و أهل بيته رضى الله تعالى عنهم غير التأويل؟

و ما الذى أراق دم عمار بن ياسر و أصحابه غير التأويل؟

و ما الذى أراق دم ابن الزبير، و حجر بن عدى، و سعيد بن جبير و غيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟

و ما الذى أريقت عليه دماء العرب فى فتنه أبى مسلم غير التأويل؟

و ما الذى جرد الإمام أحمد بين العقابين، و ضرب السياط حتى عجت الخليقة إلى ربها تعالى غير التأويل؟

و ما الذى قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعى، و خلد خلقا من العلماء فى السجون حتى ماتوا غير التأويل؟

و ما الذى سلط سيوف التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل؟

و هل دخلت طائفه الإلحاد من أهل الحلول و الاتحاد إلا من باب التأويل؟

و هل فتح باب التأويل إلا- مضاده و مناقضه لحكم الله فى تعليمه عباده البيان الذى امتن الله فى كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؛ فالتأويل بالألغاز و الأحاجى و الأغلوطات أولى منه بالبيان و التبيين. و هل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله و أمرت به بالتأويلات الباطله المخالفه له و بين رده و عدم قبوله، و لكن هذا رد جحود و معانده، و ذاك رد خداع و مصانعه.

رأى ابن رشد فى التأويل

قال أبو الوليد بن رشد المالكي فى كتابه المسمى ب«الكشف عن مناهج الأدله». و قد ذكر التأويل و جنائته على الشريعة، إلى أن قال: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ [آل عمران: ٧]، و هؤلاء أهل الجدل و الكلام، و أشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره، و قالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، و إنما أمر الله به فى صورته المتشابهه ابتلاء لعباده و اختبارا لهم، و نعوذ بالله من سوء الظن بالله بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزا من جهة الوضوح و البيان.

فما أبعد من مقصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابهه: إنه متشابهه، ثم أول ذلك المتشابهه بزعمه، و قال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه فى آيه الاستواء على العرش و غير ذلك مما قالوا: إن ظاهره متشابهه، ثم قال: و بالجمله فأكثر التأويلات التى زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجدت ليس يقوم عليها برهان.

إلى أن قال: ومثال من أول شيئا من الشرع و زعم أن ما أوله هو الذى قصده الشرع:

مثال من أتى إلى دواء قد ركب طيب ماهر ليحفظ صحه جميع الناس أو أكثرهم، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءه مزاج كان به، ليس يعرض إلا- للأقل من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التى صرح باسمها الطيب الأول فى ذلك الدواء العام المنفعه لم يرد به ذلك الدواء العام الذى جرت العاده فى اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر، مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعاره بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذى ظن أنه قصده الطيب، وقال للناس: هذا هو الذى قصده الطيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذى تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجه كثير من الناس.

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجه الناس من ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول.

فجاء ثالث فتأول فى أدويه ذلك المركب غير التأويل الأول و الثانى؛ فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين.

فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمه فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمه، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، و سلط الناس التأويل على أدويته، و غيرها و بدلوها عرض منه للناس أمراض شتى، حتى فسدت المنفعه المقصوده بذلك الدواء المركب فى حق أكثر الناس و هذه هى حاله الفرق الحادثه فى هذه الشريعه مع الشريعه، و ذلك أن كل فرقه منهم تأولت غير التأويل الذى تأولته الفرقة الأخرى، و زعمت أنه هو الذى قصده صاحب الشرع حتى تمزق الشرع كل ممزق، و بعد جدا عن موضوعه الأول، و لما علم صاحب الشرع صلوات الله و سلامه عليه و على آله أن مثل هذا يعرض- و لا بد- فى شريعته قال صلى الله عليه و سلم: «ستفترق أمتى على ثلاث و سبعين فرقه، كلها فى النار إلا واحده» [\(1\)](#) يعنى بالواحد: التى سلكت ظاهر الشرع و لم تؤوله.

ص: ٣٤١

١- أبو داود (٤٥٩٧) فى السنه، باب: شرح السنه، و الترمذى (٢٦٤١) فى الإيمان، باب: ما جاء فى افتراق هذه الأمه، و قال: «هذا حديث غريب... إلخ»، و ابن ماجه (٣٩٩٢) فى الفتن، باب: افتراق

و أنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح.

و أول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعريه، ثم الصوفيه، ثم جاء أبو حامد (1) فطم الوادى على القرى. هذا كلامه بلفظه.

و لو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا و الدين، و ما نال الأمم قديما و حديثا بسببه من الفساد؛ لاستدعى ذلك عده أسفار، و الله المستعان (2).

و أيضا إن بلاء الإسلام و محنته عظمت من هاتين الطائفتين: أهل المكر و المخادعة، و الاحتيال فى العمليات، و أهل التحريف و السفسطه و القرمطه فى العمليات، و كل فساد فى الدين-بل و الدنيا- فمنشؤه من هاتين الطائفتين. فبالأويل الباطل قتل عثمان رضى الله عنه و عاثت الأمه فى دمائها، و كفر بعضها بعضا، و تفرقت على بضع و سبعين فرقه، فجرى على الإسلام من تأويل هؤلاء، و خداع هؤلاء و مكرهم ما جرى، و استولت الطائفتان، و قويت شوكتهما، و عاقبوا من لم يوافقهم و أنكر عليهم، و يأبى الله إلا أن يقيم لدينه من يذب عنه، و يبين أعلامه و حقائقه، لكيلا تبطل حجج الله و بيناته على عباده (3).

أمثله للتأويل الفاسد

[1] من هذا إخباره-سبحانه- بأنه طبع على قلوب الكافرين، و ختم عليها و أنه أصمها عن الحق و أعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ [البقره] و الوقف التام هنا ثم قال: وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ [البقره: ٧] كقوله: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً [الجاثية: ٢٣].

و قال تعالى: وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥].

ص: ٣٤٢

١- الأمم، و فى الزوائد: «إسناد حديث عوف بن مالك فيه مقال.... إلخ»، و أحمد (٣/١٤٥).

٢- إعلام الموقعين (٤/٣٠٥-٣١٥).

٣- إغاثة اللهفان (١٢١، ٢/١٢٠).

و قال تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: ١٠١]، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ [يونس: ٧٤]، وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [الأعراف: ١٠٠].

و أخبر- سبحانه- أن على بعض القلوب أفعالا تمنعها من أن تفتح لدخول الهدى إليها، و قال: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءً وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصلت: ٤٤].

فهذا الوقر و العمى حال بينهم و بين أن يكون لهم هدى و شفاء.

و قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الكهف: ٥٧].

و قال تعالى: وَ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ صَدَّ عَنِ السَّبِيلِ [غافر: ٣٧] قرأها الكوفيون «و صد» بضم الصاد، حملا على (زين). و قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ كَذَّابٌ [غافر].

و قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الأحقاف: ١٠]، و معلوم أنه لم ينف هدى البيان و الدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده.

و القدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، و تجعله من متشابه القرآن، و تتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه و عدم إرادته المتكلم له، كقول بعضهم: «المراد من ذلك تسميه العبد مهتديا و ضالا» فجعلوا هداه و إضلاله مجرد تسميه العبد بذلك، و هذا مما يعلم قطعا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه، و أنت تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكره البته.

و ليس فى لغه أمه من الأمم، فضلا عن أفصح اللغات و أكملها، «هداه» بمعنى سماه مهتديا، «و أضله» سماه ضالا، و هل يصح أن يقال: «علمه» إذا سماه عالما، و «فهمه» إذا سماه فهما؟!!

و كيف يصح هذا فى مثل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقره: ٢٧٢]. فهل فهم أحد غير القدرية المحرفه للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، و لكن الله يسمى من يشاء مهتديا.

و هل فهم أحد قط من قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [القصص: ٥٦] لا تسميه مهتديا و لكن الله يسميه بهذا الاسم؟!!

و هل فهم أحد من قول الداعى: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) [الفتاحه] و قوله: «اللهم اهدنى من عندك» و نحوه، اللهم: سمنى مهتديا؟

و هذا من جنايه القدرية على القرآن، و معناه نظير جنايه إخوانهم من الجهميه (١) على نصوص الصفات و تحريفها عن مواضعها، و فتحوا للزنادقه و الملاحده جنائتهم على نصوص المعاد و تأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، و فتحوا للقرامطه و الباطنيه تأويل نصوص الأمر و النهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذى سلسلته هذه الطوائف أصل فساد الدين و خراب العالم، و سنفرد إن شاء الله كتابا نذكر فيه جنايه المتأولين على الدنيا و الدين.

و أنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية و الجهميه و الرفضه لم تجد بينها و بين تأويلات الملاحده و الزنادقه من القرامطه و الباطنيه و أمثالهم كبير فرق.

و التأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول، و الكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى، فنضمن إبطال الحق و تحقيق الباطل، و نسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس و الإلغاز مع القول عليه بلا علم: إنه أراد هذا المعنى.

فالتأويل عليه أن يبين صلاحية اللفظ للمعنى الذى ذكره أولا، و استعمال المتكلم له فى ذلك المعنى فى أكثر المواضع حتى إذا استعمله فيما يحتمل غيره حمل على ما عهد منه استعماله فيه.

و عليه أن يقيم دليلا سالما عن المعارض على الموجب لفظ عن ظاهره و حقيقته إلى مجازه و استعارته، و إلا كان ذلك مجرد دعوى منه فلا تقبل.

و تأويل بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هدايه البيان و التعريف لا خلق الهدى فى القلب، فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة، و هذا التأويل من أبطل الباطل (٢).

[٢] الذى عليه أهل الحديث و السنه قاطبه، و الفقهاء كلهم، و جمهور المتكلمين، و الصوفيه - أنه سبحانه - يكره بعض الأعيان و الأفعال و الصفات، و إن كانت واقعه بمشيئته، فهو يبغضها و يمتقتها كما يبغض ذات إبليس و ذوات جنوده، و يبغض أعمالهم، و لا يحب ذلك).

ص: ٣٤٤

١- الجهميه: هم أصحاب جهنم بن صفوان الذى أظهر نفى الصفات و التعطيل آخذا ذلك عن الجعد بن درهم الذى قتله خالد القسرى يوم الأضحى، و مما انفرد به جهنم قوله: إن الجنة و النار تفنيان و إن الإيمان المعرفه فقط، و إن الإنسان مجبور، و إن ما تنسب إليه الأفعال على سبيل المجاز فقط، قتله سالم بن أحوز بمرو فى آخر ملك بنى أميه.

٢- شفاء العليل (١/٢١٦-٢١٩).

و إن وجد بمشيتته.

قال تعالى: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ [البقره: ٢٠٥]، وقال: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: ٥٧]، وقال: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [لقمان: ١٨]، وقال: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ [النساء: ١٤٨]، وقال: وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [المائدة: ٨٧]، وقال: إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [الزمر: ٧].

فهذا إخبار عن عدم محبته لهذه الأمور و رضاه بها بعد وقوعها. فهذا صريح في إبطال قول من تأول النصوص على أنه لا يحبها ممن لم تقع منه، و يحبها إذا وقعت، فهو يحبها ممن وقعت منه، و لا يحبها ممن لم تقع منه. و هذا من أعظم الباطل و الكذب على الله، بل هو -سبحانه- يكرهها و يبغضها قبل وقوعها، و حال وقوعها، و بعد وقوعها؛ فإنها قبائح و خباثت، و الله منزه عن محبه القبيح و الخبيث، بل أكره شيء إليه.

قال الله تعالى: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا [الإسراء: ٣٨].

و قد أخبر -سبحانه أنه يكره طاعات المنافقين، و لأجل ذلك يبطنهم عنها، فكيف يحب نفاقهم و يرضاه و يكون أهله محبوبين له مصطفين عنده مرضيين؟

و من هذا الأصل الباطل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب -سبحانه- و أنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن و قبيح، فلا فرق بالنسبة إليه -سبحانه- بين الشكر و الكفر، و لذلك قالوا: لا يجب شكره على نعمه عقلا.

فمن هذا الأصل قالوا: إن مشيئته هي عين محبته، و إن كل ما شاء فهو محبوب له و مرضى له و مصطفى و مختار. فلم يمكنهم بعد تأصل هذا الأصل أن يقولوا: إنه يبغض الأعيان و الأفعال التي خلقها و يحب بعضها، بل كل ما فعله و خلقه فهو محبوب له، و المكروه المبعوض ما لم يشأه و لم يخلقه.

و إنما أصلوا هذا الأصل محافظه منهم على القدر، فحثوا به على الشرع و القدر، و التزموا لأجله لوازم شوشوا بها القدر و الحكمة، و كبروا لأجلها صريح العقل، و سوا بين أقبح القبائح و أحسن الحسنات في نفس الأمر، و قالوا هما سواء لا فرق بينهما إلا بمجرد الأمر و النهي، فالكذب عندهم و الظلم و البغى و العدوان مسار للصدق و العدل و الإحسان في نفس الأمر. ليس في هذا ما يقتضى حسنه، و لا في هذا ما يقتضى قبحه، و جعلوا هذا المذهب شعار لأهل السنه، و القول بخلاف قول أهل البدع من المعتزله و غيرهم.

و لعمر الله إنه لمن أبطل الأقوال و أشدها منافاه للعقل و الشرع، و لفظه الله التي فطر عليها خلقه، و قد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجها في كتاب المفتاح (1).

و المقصود أنه لما انضم القول به إلى القول بأنه سبحانه لا يحب شيئا و يبغض شيئا بل كل موجود فهو محبوب له، و كل معدوم فهو مكروه له، و انضم إلى هذين الآخرين إنكار الحكم و الغايات المطلوبه في أفعاله-سبحانه-و أنه لا يفعل شيئا لمعنى البتة، و انضم إلى ذلك إنكار الأسباب، و أنه لا- يفعل شيئا بشيء و إنكار القوى و الطبائع و الغرائز، و أن تكون أسبابا أو يكون لها أثر، انسد عليهم باب الصواب في مسائل القدر و الترموا هذه الأصول الباطله لوازم هي أظهر بطلانا و فسادا، و هي من أدل شيء على فساد هذه الأصول و بطلانها، فإن فساد اللازم من فساد ملزومه.

فإن قيل: الكراهه و المحبه ترجع إلى المنافره و الملاءمه للطبع، و ذلك محال في حق من لا يوصف بطبع و لا منافره و لا ملاءمه.

قيل: قد دلت النصوص التي لا تدفع على وصفه تعالى بالمحبه و الكراهه، فتبينكم حقائق ما دلت عليه بالتعبير عنها بملاءمه الطبع و منافرته باطل، و هو كنفى كل مبطل حقائق أسمائه و صفاته بالتعبير عنها بعبارات اصطلاحيه توصل بها إلى نفى وصف به نفسه، كتسميه الجهميه المعطله صفاته إعراضا، ثم توصلوا بهذه التسميه إلى نفياها.

و سموا أفعاله القائم به حوادث، ثم توصلوا بهذه التسميه إلى نفية، و قالوا: لا- تحله الحوادث، كما قالت المعطله و لا تقوم به الأعراض.

و سموا علوه على خلقه، و استواءه على عرشه، و كونه قاهرا فوق عباده، تحيزا و تجسما، ثم توصلوا بنفى ذلك إلى نفى علوه عن خلقه و استوائه على عرشه.

و سموا ما أخبر به عن نفسه من الوجه و اليدين و الإصبع جوارح و أعضاء، ثم نفوا ما أثبتته لنفسه بتسميتهم له بغير تلك الأسماء، **إِنَّ هِيَ إِلَّا- أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣)[النجم].**

فتوصلوا بالتشبيه و التجسيم و التركيب و الحوادث و الأعراض و التحيز إلى تعطيل صفات كماله و نعوت جلاله و أفعاله، و أدخلوا تلك الأسماء من معانيها و عطلوها من حقائقها.

فيقال لمن نفى محبته و كراهته لاستلزامهما ميل الطبع و نفرتة: ما الفرق بينك و بين منه.

ص: ٣٤٦

نفى كونه مريدا لاستلزام الإرادة حركة النفس إلى جلب ما ينفعها بالمسموع و المبصر، و انطباع صورته المرئى فى الرائى و حمل الهواء الصوت المسموع إلى أذن السامع (١).

[٣] ظن كثير من الجهال أن الفاحشه بالمملوك كالمباحه، أو مباحه، أو أنهما أيسر من ارتكابها من الحر، و تأولت هذه الفرقه القرآن على ذلك، و أدخلت المملوك فى قوله: **إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ** أو **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٤) [المؤمنون: ٣٠]، حتى إن بعض النساء لتمكن بعدها من نفسها، و تتأول القرآن على ذلك، كما رفع إلى عمر بن الخطاب امرأه تزوجت بعدها، و تأولت هذه الآيه، ففرق عمر رضى الله عنه بينهما، و أدبها، و قال: ويحك، إنما هذا للرجال لا للنساء.

و من تأول هذه الآيه على و طء الذكران من المماليك فهو كافر باتفاق الأمة.

قال شيخنا: و من هؤلاء من يتأول قوله تعالى: **وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ** وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ [البقره: ٢٢١] على ذلك، قال: و قد سألتنى بعض الناس عن هذه الآيه، و كان ممن يقرأ القرآن، فظن أن معناها فى إباحه ذكران العبيد المؤمنين (٢).

[٤] إن إثبات الصفات دل عليها الوحي الذى جاء من عند الله على لسان رسوله، و الحس الذى شاهد به البصير آثار الصنعه؛ فاستدل بها على صفات صانعها، و العقل الذى طابت حياته بزرع الفكر، و القلب الذى حيى بحسن النظر بين التعظيم و الاعتبار.

فأما الرساله: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتا على وجه أزال الشبهه، و كشف الغطاء، و حصل العلم اليقيني، و رفع الشك و الريب، فثلجت له الصدور، و اطمأنت به القلوب، و استقر به الإيمان فى نصابه، ففصلت الرساله الصفات و النعوت و الأفعال أعظم من تفصيل الأمر و النهى، و قررت إثباتها أكمل تقرير فى أبلغ لفظ، و أبعد من الإجمال و الاحتمال، و أمنعه من قبول التأويل. و كذلك كان تأويل آيات الصفات و أحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد و أخباره، بل أبعد منه لوجوه كثيره، ذكرتها فى كتاب «الصواعق المرسله على الجهميه و المعطله»، بل تأويل آيات الصفات بما).

ص: ٣٤٧

١- شفاء العليل (١/٣٢٣-٣٢٥).

٢- إغاثة اللهفان (٢/١٤٥).

يخرجها عن حقائقها، كتأويل آيات الأمر و النهى سواء، فالباب كله باب واحد، و مصدره واحد، و مقصوده واحد، و هو إثبات حقائقه و الإيمان بها.

و كذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، و قالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين فى آيات الصفات، بل نحن أعذر، فإن اشتمال الكتب الإلهيه على الصفات و العلو و قيام الأفعال أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير؛ فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

و كذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر و النهى، و قالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك فى آيات الصفات، مع كثرتها و تنوعها، و آيات الأحكام لا تبلغ زياده على خمسمائه آيه.

قالوا: و ما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات، فعندنا معارض عقلى لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

و قال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها و ظواهرها: الذى سوغ لنا هذا التأويل القواعد التى اصططلحتموها لنا، و جعلتموها أصلا نرجع إليه، فلما طردناها كان أن الله ما تكلم بشيء قط و لا يتكلم، و لا يأمر و لا ينهى، و لا له صفه تقوم به، و لا يفعل شيئا، و طرد هذا الأصل لزوم تأويل آيات الأمر و النهى، و الوعد و الوعيد، و الثواب و العقاب.

و قد ذكرنا فى كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات و أخبارها- بما يخرجها عن حقائقها- هو أصل فساد الدنيا و الدين، و زوال الممالك، و تسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل، و يعرف هذا من له اطلاع و خبره بما جرى فى العالم؛ و لهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته؛ لأنه سبب لفساد العالم، و تعطيل الشرائع.

و من تأمل كيفية ورود آيات الصفات فى القرآن و السنه علم قطعا بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها، فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [الأنعام: ١٥٨] هل يحتمل هذا التقسيم و التنوع تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ و هل يبقى مع هذا السياق شبهه أصلا أنه إتيانه بنفسه؟ و كذلك قوله: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٣] ١٦٤] ففرق بين الإيحاء العام، و التكليم الخاص، و جعلهما نوعين، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرفع لتوهم ما يقوله المحرفون، و كذلك قوله: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا [الشورى: ٥١]، فنوع تكليمه إلى: تكليم

بواسطه، و تكليم بغير واسطه، و كذلك قوله لموسى عليه السلام إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَ بِكَلَامِي [الأعراف: ١٤٤] ففرق بين الرساله و الكلام، و الرساله إنما هي بكلامه. و كذلك قول النبي صلى الله عليه و سلم: «إنكم ترون ربكم عيانا كما ترون القمر ليله البدر فى الصحو، ليس دونه سحاب، و كما ترون الشمس فى الظهيره صحوا ليس دونها سحاب» (١)، و معلوم أن هذا البيان و الكشف و الاحتراز ينافى إرادته التأويل قطعاً، و لا يرتاب فى هذا من له عقل و دين (٢).

ص: ٣٤٩

١- البخارى (٦، ٨) فى الأذان، باب: فضل السجود، و الترمذى (٢٥٥٤) فى صفه الجنه، باب: رقم (١٧) و قال: «حسن صحيح غريب.. إلخ».

٢- مدارج السالكين (٣/٣٥٢-٣٥٤).

الرأى فى الأصل مصدر، رأى الشىء يراه رأياً، ثم غلب استعماله على المرئى نفسه من باب استعمال المصدر فى المفعول. كالهوى فى الأصل مصدر هويه يهواه هوى، ثم استعمال فى الشىء الذى يهوى، فيقال: هذا هوى فلان، والعرب تفرق بين مصادر فعل الرؤيه بحسب محالها، فتقول: رأى كذا فى النوم رؤياً، و رآه فى اليقظه رؤيه، و رأى كذا لما يعلم بالقلب، و لا يرى بالعين رأياً، و لكنهم خصوه بما يراه القلب، بعد فكر و تأمل و طلب لمعرفة وجه الصواب، مما تتعارض فيه الأمارات، فلا يقال لمن رأى أمراً غائباً عنه مما يحس به أنه رأيه، و لا- يقال أيضاً للأمر المعقول الذى لا تختلف فيه العقول، و لا تتعارض فيه الأمارات أنه رأى، و إن احتاج إلى فكر و تأمل كدقائق الحساب و نحوها.

أقسام الرأى

و إذا عرف هذا فالرأى ثلاثة أقسام:

رأى باطل بلا ريب، و رأى صحيح، و رأى هو موضع الاشتباه.

و الأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأى الصحيح، و عملوا به، و أفتوا به، و سوغوا القول به. و ذموا الباطل، و منعوا من العمل و الفتيا و القضاء به، و أطلقوا ألسنتهم بدمه و ذم أهله.

و القسم الثالث سوغوا العمل و الفتيا و القضاء به عند الاضطرار إليه، حيث لا يوجد منه بد و لم يلزموا أحداً العمل به، و لم يحرموا مخالفته، و لا جعلوا مخالفه مخالفاً للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله و رده، فهو بمنزله ما أبيض للمضطر من الطعام و الشراب الذى يحرم عند عدم الضروره إليه. كما قال الإمام أحمد: سألت الشافعى عن القياس فقال لى:

عند الضروره.

و كان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضروره لم يفرطوا فيه و يفرعوه و يولدوه و يوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص و الآثار، و كان أسهل عليهم من حفظها.

كما يوجد كثير من الناس يضبط قواعد الإفتاء لصعوبه النقل عليه، و تعسر حفظه، فلم

يتعدوا في استعماله قدر الضروره، و لم يبغيوا بالعدل إليه مع تمكنهم من النصوص والآثار، كما قال الله تعالى في المضطر إلى الطعام المحرم: فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) [البقره]؛ فالباغى الذى يبتغى الميته مع قدرته على التوصل إلى المذكى، و العادى الذى يتعدى قدر الحاجه بأكلها.

فالرأى الباطل أنواع:

أحدها: الرأى المخالف للنص. و هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده و بطلانه، و لا تحل الفتيا به، و لا القضاء و إن وقع فيه من وقع بنوع تأويل و تقليد.

النوع الثانى: هو الكلام فى الدين بالخرص و الظن مع التفريط و التقصير فى معرفه النصوص و فهمها، و استنباط الأحكام منها. فإن من جهلها و قاس برأيه، فما سئل عنه بغير علم، بل لمجرد قدر جامع بين الشيين ألحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما، يفرق بينهما فى الحكم من غير نظر إلى النصوص و الآثار، فقد وقع فى الرأى المذموم الباطل.

فصل و أصل النوع الثالث: الرأى المتضمن تعطيل أسماء الرب و صفاته و أفعاله بالمقاييس الباطله، التى وضعها أهل البدع و الضلال من الجهميه و المعتزله و القدرية، و من ضاهاهم.

حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسده، و آراءهم الباطله، و شبههم الداحضه فى رد النصوص الصحيحه الصريحه، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التى وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها، و تخطتتهم، و معانى النصوص التى لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، و النوع الثانى بالتحريف و التأويل.

فأنكروا لذلك رؤيه المؤمنين لربهم فى الآخرة، و أنكروا كلامه و تكليمه لعباده، و أنكروا مباينته للعالم، و استواءه على عرشه، و علوه على المخلوقات و عموم قدرته على كل شىء، بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكه و الأنبياء و الجن و الإنس عن تعلق قدرته و مشيئته و تكوينه لها. و نفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه و أخبر به رسوله من صفات كماله و نعوت جلاله، و حرفوا لأجلها النصوص عن مواضعها، و أخرجوها عن معانيها و حقائقها بالرأى المجرد الذى حقيقته: أنه ذباله الأذهان، و نخاله الأفكار، و عفاره الآراء، و وساوس الصدور، فملئوا به الأوراق سوادا، و القلوب شكوكا و العالم فسادا.

و كل من له مسكه من عقل يعلم أن فساد العالم و خرابه إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى، و الهوى على العقل. و ما استحکم هذان الأصلان الفاسدان فى قلب إلا استحکم هلاكه، و فى أمه إلا و فسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله! كما نفى بهذه الآراء من حق، و أثبت بها من باطل، و أميت بها من هدى، و أحيى بها من ضلاله، و كم هدم بها من معقل الإيمان، و عمر بها من دين الشيطان.

و أكثر أصحاب الجحيم. هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم، و لا عقل بل هم شر من الحر، و هم الذين يقولون يوم القيامة: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: ١٠].

النوع الرابع: الرأى الذى أحدثت به البدع، و غيرت به السنن، و عم به البلاء و تربي عليه الصغير، و هرم فيه الكبير، فهذه الأنواع الأربعة من الرأى الذى اتفق سلف الأمة و أئمتها، على ذمه و إخراجه من الدين.

النوع الخامس: ما ذكره أبو عمر بن عبد البر عن جمهور أهل العلم أن الرأى المذموم فى هذه الآثار عن النبى صلى الله عليه و سلم، و عن أصحابه و التابعين رضى الله عنهم، أنه القول فى أحكام شرائع الدين بالاستحسان و الظنون، و الاشتغال بحفظ المعضلات و الأغلوطات، و رد الفروع بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها، و النظر فى عللها و اعتبارها، فاستعمل فيها الرأى قبل أن ينزل، و فرعت و شقت قبل أن تقع، و تكلم فيها قبل أن يكون بالرأى المضارع للظن، قالوا:

و فى الاشتغال بهذا و الاستغراق فيه تعطيل السنن و البعث على جهلها، و ترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها، و من كتاب الله عز و جلّ و معانيه، احتجوا على ما ذهبوا إليه بأشياء.

ثم ذكر من طريق أسد بن موسى: ثنا شريك عن ليث عن طاوس عن ابن عمر قال: لا تسألوا عما لم يكن؛ فإنى سمعت عمر يلعن من يسأل عما لم يكن.

ثم ذكر من طريق أبى داود، ثنا إبراهيم بن موسى الرازى، ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن عبد الله بن سعد عن الصنابحى عن معاوية أن النبى صلى الله عليه و سلم نهى عن الأغلوطات.

و قال أبو بكر بن أبى شيبه: ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى بإسناده مثله، و قال: فسرره الأوزاعى: يعنى صعاب المسائل.

و قال الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن عبد الله بن سعد عن عبادة بن قيس الصنابحى عن معاوية بن أبى سفيان أنهم ذكروا المسائل عنده، فقال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى عن عضل المسائل؟

قال أبو عمر: و احتجوا أيضا بحديث سهل و غيره: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كره المسائل

و عابها، و بأنه صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله يكره لكم قيل و قال: و كثره السؤال...» (١).

و قال ابن أبي خيثمه. ثنا أبي، ثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا مالك عن الزهري عن سهل بن سعد قال: لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم المسائل و عابها، قال أبو بكر: هكذا ذكره أحمد بن زهير بهذا الإسناد، و هو خلاف لفظ «الموطأ». قال أبو عمر: و في سماع أشهب سئل مالك عن قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أنهاكم عن قيل و قال، و كثره السؤال».

فقال: أما كثره السؤال، فلا- أدرى أ هو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثره المسائل فقد كره رسول الله صلى الله عليه و سلم المسائل و عابها.

و قال الله عز و جل: لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْئَلُكُمْ [المائدة: ١٠١] فلا- أدرى أ هو هذا أم السؤال في مسأله الناس في الاستعطاء.

و قال الأوزاعي عن عبده بي أبي لبابه: ووددت أن حظي من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شيء، و لا يسألوني، و يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثرون أهل الدراهم بالدراهم.

قال: و احتجوا أيضا بما رواه ابن شهاب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألته» (٢).

و روى ابن وهب أيضا قال: حدثني ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: «ذروني مما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، و إذا أمرتكم بشيء، فخذوا منه ما استطعتم» (٣).

و قال سفيان بن عيينه، عن عمرو، عن طاوس قال: قال عمر بن الخطاب و هو على المنبر: «أخرج بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن فإن الله قد بين ما هو كائن».

و قال أبو عمر: و روى جرير بن عبد الحميد، و محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشره مسأله، حتى قبض صلى الله عليه و سلم كلهن في القرآن: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ).

ص: ٣٥٣

١- البخارى (٢٤٠٨) في كتاب الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعه المال، و أحمد (٣٢٧/٢)،

٢- البخارى (٧٢٨٩) في الاعتصام، باب: ما يكره من كثره السؤال... إلخ، و مسلم (١٣٢/٢٣٥٨) في الفضائل، باب: توقيره صلى الله عليه و سلم و ترك إكثار سؤاله... إلخ

٣- مسلم (٤١٢/٣٢٤٤) في الحج، باب: فرض الحج مره في العمر، و الترمذى (٢٦٧٩) في العلم، باب: الانتهاء عما نهى عنه رسول الله

صلى الله عليه و سلم، و أحمد (٢٤٧/٢).

[البقره: ٢٢٢]، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ [البقره: ٢١٧]، وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى [البقره:

٢٢٠] (١) ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم.

قال أبو عمر: ليس في الحديث من الثلاث عشره مسأله إلا ثلاث.

قلت: و مراد ابن عباس بقوله ما سأله إلا عن ثلاث عشره مسأله، المسائل حكاها الله في القرآن عنهم، و إلا فالمسائل التي سأله عنها، و بين لهم أحكامها بالسنة لا تكاد تحصى، و لكن إنما كانوا يسألون عما ينفعهم من الواقعات، و لم يكونوا يسألونه عن المقدرات و الأغلوطات، و عضل المسائل، و لم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل و توليدها، بل كانت همهم مقصوره على تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه، فأجابهم.

و قد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَ إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) [المائدة].

و قد اختلف في هذه الأشياء المسئول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين، فقيل: إنها أحكام شرعية، عفا الله عنها، أى: سكت على تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها، و لو لم يسألوا، لكانت عفوا. و منه قوله صلى الله عليه و سلم و قد سئل عن الحج: أ في كل عام؟ فقال: «لو قلت نعم لوجب، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم، و اختلفهم على أنبيائهم» (٢).

و يدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبه المذكور: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما» الحديث (٣)، و منه الحديث الآخر: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، و حد حدودا فلا تعتدوها، و حرم أشياء فلا تنتهكوها، و سكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها» (٤)، و فسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية، كقول عبد الله ابن حذافه: من أبى يا رسول الله؟ (٥) و قول آخر: أين أبى يا رسول الله؟ قال: «في النار» (٦). خ.

ص: ٣٥٤

١- الطبرانى فى الكبير (١٢٢٨٨)، و قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٦٤/١): «فيه عطاء بن السائب، و هو ثقة و لكنه اختلط، و بقيه رجاله ثقات».

٢- سبق تخريجهما فى الصفحة السابقه، هامش (٢،٣).

٣- سبق تخريجهما فى الصفحة السابقه، هامش (٢،٣).

٤- البيهقى فى السنن الكبرى (١٢/١٠)، و الحاكم فى المستدرک (١١٥/٤) و سكت عنه هو و الذهبى.

٥- البخارى (٩٢) فى العلم، باب: الغضب فى الموعظه و التعليم إذا رأى ما يكره، و مسلم (١٣٨/٦٠٧٨) فى الفضائل، باب: توقيره صلى الله عليه و سلم و ترك إكثار سؤاله... إلخ.

٦- مسلم (٣٤٧/٢٠٣) فى الإيمان، باب: بيان أن من مات على الكفر فهو فى النار... إلخ.

والتحقيق أن الآيه تعم النهى عن النوعين، و على هذا فقوله تعالى: **إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ** [المائدة: ١٠١] أما فى أحكام الخلق و القدر فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يكرهونه، مما يسألون عنه، و أما فى أحكام التكليف، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه.

و قوله تعالى: **وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ فِيهِ قَوْلَان:**

أحدهما: أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال، فسألتم عن تفصيلها و علمها، أبدى لكم، و بين لكم، و المراد بحين النزول: زمنه المتصل به لا- الوقت المقارن للنزول، و كأن فى هذا إذنا لهم فى السؤال عن تفصيل المنزل و معرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقا.

و القول الثانى: أنه من باب التهديد و التحذير، أى ما سألتم عنها فى وقت نزول الوحي جاءكم ما سألتم عنه بما يسوؤكم، و المعنى: لا تتعرضوا للسؤال عما يسوؤكم بيانه، و إن تعرضتم له فى زمن الوحي أبدى لكم. و قوله: **عَفَا اللَّهُ عَنْهَا** أى عن بيانها خبرا و أمرا، بل طوى بيانها عنكم رحمه و مغفره و حلما و الله غفور رحيم، فعلى القول الأول: عفا الله عن التكليف بها توسعه عليكم، و على القول الثانى عفا الله عن بيانها؛ لئلا يسوؤكم بيانها.

و قوله: **قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** (١٠٢) [المائدة] أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها، أى قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل، فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابعتهم، و التعرض لما تعرضوا له، و لم ينقطع حكم هذه الآيه بل لا- ينبغى للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفى ما أمكنه و يأخذ بعفو الله؛ و من هاهنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا صاحب الميزاب، لا تخبرنا، لما سأله رفيقه عن مائه أ طاهر، أم لا؟

و كذلك لا ينبغى للعبد أن يسأل ربه أن يبدى له من أحواله و عاقبته ما طواه عنه و ستره، فلعله يسوؤه، إن أبدى له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله؛ فإنه- سبحانه- يكره إبداءها، و لذلك سكت عنها، و الله أعلم.

الآثار عن التابعين فى ذم الرأى

قالوا: و من تدبر الآثار المرويه فى ذم الرأى وجدها لا تخرج عن هذه الأنواع المذمومه، و نحن نذكر آثار التابعين، و من بعدهم بذلك؛ ليتبين مرادهم، قال الخشنى: ثنا

محمد بن بشار، ثنا يحيى بن سعيد القطان، عن مجالد، عن الشعبي. قال: لعن الله أ رأيت، قال: يحيى بن سعيد: و ثنا صالح بن مسلم، قال: سألت الشعبي عن مسأله من النكاح، فقال إن أخبرتك برأى فبل عليه.

قالوا: فهذا قول الشعبي فى رأيه، و هو من كبار التابعين، و قد لقى مائه و عشرين من الصحابه، و أخذ عن جمهورهم.

و قال الطحاوى: ثنا سليمان بن شعيب، ثنا عبد الرحمن بن خالد، ثنا مالك بن مغول، عن الشعبي قال: ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فخذوه، و ما كان رأيهم، فاطرحوه فى الحش (1).

و قال البخارى: حدثنا سنيد بن داود، ثنا حماد بن زيد، عن زيد، عن عمرو بن دينار قال: قيل لجابر بن زيد إنهم يكتبون ما يسمعون منكم، قال: إنا لله و إنا إليه راجعون، يكتبونه و أنا أرجع عنه غدا!

قال إسحاق بن راهويه: قال سفيان بن عيينه: اجتهاد الرأى هو مشاوره أهل العلم، لا أن يقول هو برأيه.

و قال ابن أبى خيثمه: ثنا الحوطى، ثنا إسماعيل بن عياش، عن سواده بن زياد و عمرو بن المهاجر، عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إلى الناس أنه لا رأى لأحد مع سنه سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم.

قال أبو بصيره: سمعت أبا سلمه بن عبد الرحمن يقول للحسن البصرى: بلغنى أنك تفتى برأيك، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنه عن رسول الله.

و قال البخارى: حدثنى محمد بن محبوب، ثنا عبد الواحد، ثنا ابن الزبرقان بن عبد الله الأسيدى أن أبا وائل شقيق بن سلمه قال: إياك و مجالسه من يقول: أ رأيت أ رأيت.

و قال أبان بن عيسى بن دينار، عن أبيه، عن ابن القاسم، عن مالك عن ابن شهاب، قال: دعوا السنه تمضى لا تعرضوا لها بالرأى.

و قال يونس عن أبى الأسود، و هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل سمعت عروه بن الزبير يقول: ما زال أمر بنى إسرائيل معتدلاً، حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم، ن.

ص: ٣٥٦

١- الحش بضم الحاء و فتحها و كسرهما: البستان و المخرج أيضاً؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين.

فأخذوا فيهم بالرأى، فأصلوهم.

و ذكر ابن وهب عن ابن شهاب أنه قال و هو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى، و تركهم السنن، فقال: إن اليهود و النصارى إنما انسلخوا من العلم الذى بأيديهم حين اتبعوا الرأى، و أخذوا فيه. و قال ابن وهب: حدثنى ابن لهيعة أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شىء فقال: لم أسمع فى هذا شىئا، فقال له الرجل: فأخبرنى أصلحك الله برأىك، فقال: لا، ثم أعاد عليه: إنى أرى برأىك، فقال سالم: إنى لعلى إن أخبرتك برأىى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره، فلا أجدك.

و قال البخارى: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسى، ثنا مالك بن أنس، قال: كان ربيعه يقول لابن شهاب: إن حالى ليس يشبه حالك أنا أقول برأىى، من شاء أخذه و عمل به، و من شاء تركه.

و قال الفريانى: ثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى، قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: سمعت حماد بن زيد يقول: قيل لأيوب السخيتانى: مالك لا تنظر فى الرأى؟ فقال:

أيوب: قيل للحمار: مالك لا تجتر؟ قال: أكره مضغ الباطل!

و قال الفريانى: ثنا العباس بن الوليد بن مزيد: أخبرنى أبى، قال سمعت الأوزاعى يقول:

عليك بآثار من سلف، و إن رفضك الناس، و إياك و آراء الرجال و إن زخرفوا لك القول.

و قال أبو زرعه: ثنا أبو مسهر، قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول: لا حول و لا قوه إلا بالله، هذا الرأى، و الرأى يخطئ و يصيب.

و قد روى أبو يوسف، و الحسن بن زياد، كلاهما عن أبى حنيفة أنه قال: علمنا هذا رأى، و هو أحسن ما قدرنا عليه، و من جاءنا بأحسن منه قبلناه منه.

و قال الطحاوى: ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ثنا أشهب بن عبد العزيز، قال:

كنت عند مالك، فسئل عن البته (1). فأخذت ألواحى، لأكتب ما قال، فقال لى مالك: لا تفعل، فعسى فى العشى أقول: إنها واحده. و قال معن بن عيسى القزاز: سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى قولى، فكل ما وافق الكتاب و السنه فخذوا به، و ما لم يوافق الكتاب و السنه، فاتركوه. فرضى الله عن أئمة الإسلام، و جزاهم عن نصيحتهم خيرا، و لقد امتثل وصيتهم، و سلك سبيلهم أهل العلم و الدين من أتباعهم. ه.

ص: ٣٥٧

موقف أهل الرأي من السنه

و أما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية و نظروا فى السنه فما وافق أقوالهم منها قبلوه، و ما خالفها تحيلوا فى رده أو رد دلالتة، و إذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا و دلالة، و كان يوافق قولهم قبلوه و لم يستجيزوا رده، و اعترضوا به على منازعيهم، و أشاحوا و قرروا الاحتجاج بذلك السند و دلالتة، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، و دلالتة كدلاله ذلك أو أقوى منه فى خلاف قولهم، دفعوه و لم يقبلوه، و سنذكر من هذا إن شاء الله طرفا عند ذكر غائله التقليد و فسادة، و الفرق بينه و بين الاتباع.

كلام أئمة الفقهاء عن الرأي

و قال بقى بن مخلد: ثنا سحنون و الحارث بن مسكين، عن القاسم، عن مالك، أنه كان يكثر أن يقول: **إِنْ نُظِنُ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِينَ** [الجائيه: ٣٢].

و قال القعنبي: دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست، فرأيتة يبكى، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، ما الذى يبكيك؟ فقال لى: يا ابن قعب، و ما لى لا أبكى، و من أحق بالبكاء منى؟ و الله لو ددت أنى ضربت بكل مساله أفيت فيها بالرأى سوطا، و قد كانت لى السعه فيما قد سبقت إليه، وليتنى لم أفت بالرأى.

و قال ابن أبى داود: ثنا أحمد بن سنان، قال: سمعت الشافعى يقول: مثل الذى ينظر فى الرأى، ثم يتوب منه مثل المجنون الذى عولج حتى برأ، فأعقل ما يكون قد هاج به.

و قال ابن أبى داود: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سمعت أبى يقول: لا- تكاد ترى أحدا نظر فى الرأى إلا و فى قلبه دغل. و قال عبد الله بن أحمد أيضا: سمعت أبى يقول: الحديث الضعيف أحب إلئى من الرأى، فقال عبد الله: سألت أبى عن الرجل يكون ببلد، لا يجد فيه إلا صاحب حديث، لا يعرف صحيحه من سقيمه، و أصحاب رأى، فتنزل به النازله، فقال أبى: يسأل أصحاب الحديث، و لا يسأل أصحاب الرأى، ضعيف الحديث أقوى من الرأى (١).

النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى

لا يجوز أن يحمل كلام الله عز و جلّ و يفسر بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى الذى يحتمله

ص: ٣٥٨

تركيب الكلام، و يكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن.

فإنهم يفسرون الآيه و يعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، و يفهم من ذلك التركيب أى معنى اتفق. و هذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره و إن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى فى سياق آخر و كلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن.

مثل قول بعضهم فى قراءه من قرأ: وَ الْأَرْحَامِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء] بالجبر أنه قسم.

و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: وَ صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقره: ٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور فى «به».

و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةِ [النساء: ١٦٢] أن المقيمين مجرور بواو القسم، و نظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا و أوهى بكثير.

بل للقرآن عرف خاص و معان معهوده لا يناسبه تفسيره بغيرها و لا يجوز تفسيره بغير عرفه و المعهود من معانيه، فإن نسبه معانيه إلى المعانى كنسبه ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ و أجلها و أفصحها و لها من الفصاحة أعلى مراتبها التى يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعانى و أعظمها و أفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التى لا تليق به، بل غيرها أعظم منها و أجل و أفخم، فلا يجوز حمله على المعانى القاصره بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى.

فتدبر هذه القاعده، و لتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها فى معرفه ضعف كثير من أقوال المفسرين و زيفها، و تقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه. و سنزيد هذا إن شاء الله تعالى بيانا و بسطا فى الكلام على أصول التفسير، فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله (١). (٨)

ص: ٣٥٩

إشاره

إخبار الرب-تبارك و تعالى عن المحسوس الواقع له عدده فوائد،منها:

أن يكون توطئه و تقدمه لإبطال ما بعده.

و منها: أن يكون موعظه و تذكيرا.

و منها: أن يكون شاهدا على ما أخبر به من توحيده و صدق رسوله و إحياء الموتى.

و منها: أن يذكر في معرض الامتنان.

و منها: أن يذكر في معرض اللوم و التوبيخ.

و منها: أن يذكر في معرض المدح و الذم.

و منها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه، و غير ذلك من الفوائد (١).

«عسى» من الله واجب

في حديث أبا (٢) لبابه لما بلغ النبي صلى الله عليه و سلم ارتباطه، قال: «لو أتاني لاستغفرت له، و إذا فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله» (٣)؛ فأنزل الله تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ [التوبه]:

١٠٢] إلى قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ [التوبه: ١٠٢]، فأطلقه النبي صلى الله عليه و سلم حينئذ.

و في هذا ما يدل على صحه قول المفسرين: إن عسى من الله واجب، و فيه أن فاطمه جاءت تحله فقال: لا، إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «فاطمه بضعه مني» (٤) فإن قيل: فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق اليوم؟ قيل: لا، إما لأنه مختص بالنبي صلى الله عليه و سلم، و إما لأن فاطمه بضعه منه قطعاً، و الله أعلم (٥).

ص: ٣٦٠

١- بدائع الفوائد (١٠/٤).

٢- هذا على لغة القصر، و على لغة التمام (أبى).

٣- دلائل النبوه للبيهقى (٢٧٢، ٢٧١/٥).

٤- البخارى (٣٧١٤) في فضائل الصحابه ن باب: مناقب قرابه رسول الله صلى الله عليه و سلم

٥- بدائع الفوائد (٢١٢/٣).

تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد

استدل على تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، بتخصيص آية الميراث بقوله: «لا نورث، ما تركناه صدقه» (١)، و الصديق أول من خصه. قال ابن عقيل: و هذه بلاهه من هذا المستدل؛ فإن الصديق لم يخصصه إلا بما سمعه شفاها من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو قطعي و ليس النزاع فيه (٢).

هل نقل من القرآن آحادا؟

الكلام فيما نقل من القرآن آحادا في فصلين: أحدهما: كونه من القرآن، و الثاني:

وجوب العمل به، و لا ريب أنهما حكمان متغايران؛ فإن الأول يوجب انعقاد الصلاة به و تحريم مسه على المحدث، و قراءته على الجنب، و غير ذلك من أحكام القرآن؛ فإذا انتفت هذه الأحكام لعدم التواتر لم يلزم انتفاء العمل به، فإنه يكفي فيه الظن.

و قد احتج كل واحد من الأئمة الأربعة به في موضع، فاحتج به الشافعي و أحمد في هذا الموضع، و احتج به أبو حنيفة في وجوب التتابع في صيام الكفاره بقراءه ابن مسعود:

«فصيام ثلاثه أيام متتابعات».

و احتج به مالك و الصحابه قبله في فرض الواحد من ولد الأم، أنه السدس بقراءه أبي:

وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَ لَمْ يَأْخُذْ بِأَخِيهِ أَوْ أُخْتٍ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ [النساء: ١٢]، فالناس كلهم احتجوا بهذه القراءه، و لا مستند للإجماع سواها.

قالوا: و أما قولكم إما أن يكون نقله قرآنا أو خبرا، قلنا: بل قرآنا صريحا. قولكم:

فكان يجب نقله متواترا، قلنا: حتى إذا نسخ لفظه، أو بقى، أما الأول: فممنوع، و الثاني:

مسلم، و غايه ما في الأمر أنه قرآن نسخ لفظه و بقى حكمه؛ فيكون له حكم قوله: «الشيخ و الشيخه إذا زنيا فارجموهما» (٣)، مما اكتفى بنقله آحادا، و حكمه ثابت، و هذا مما لا جواب عنه (٤).

ص: ٣٦١

١- البخارى (٦٧٢٦) في الفرائض، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نورث ما تركناه صدقه»، و مسلم (٤٩٥٥٢/٤٩) في الجهاد و السير، باب: حكم الفيء، و أحمد (٤/١).

٢- بدائع الفوائد (٤٤/٤).

٣- ابن ماجه (٢٥٥٣) في الحدود، باب: الرجم، و أحمد (١٨٣/٥).

٤- زاد المعاد (٥٧٣/٥).

و سنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مفسره للقرآن و مترجمه عنه، و على هذا أكثر الأحكام، كقوله: «لا- وصيه لوارث» (١)، و «الرجم على المحصن» (٢)، و «النهي عن نكاح المرأة على عمتها و خالتها» (٣)، و «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (٤)، و «قطع الموارثه بين أهل الإسلام و أهل الكفر» (٥)، و «إيجابه على المطلقة ثلاثا: مسيس الزوج الآخر» (٦) في شرائع كثيره، لا يوجد لفظها في ظاهر الكتاب، و لكنها سنن شرعها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. فعلى الأمة اتباعها، كاتباع الكتاب. و كذلك الشاهد و اليمين لما قضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بهما. و إنما في الكتاب:

فَرَجُلٌ وَ أَمْرَأَتَانِ [البقره: ٢٨٢] علم أن ذلك إذا وجدتا، فإذا عدمتا قامت اليمين مقامهما، كما علم حين مسح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ على الخفين أن قوله تعالى: وَ أَرْجُلُكُمْ [المائده: ٦] معناه:

أن تكون الأقدام بادية.

و كذلك لما رجم المحصن في الزنا: علم أن قوله: فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: ٢] للبكرين.

و كذلك كل ما ذكرنا من السنن على هذا فما بال الشاهد و اليمين ترد من بينهما، و إنما هي ثلاث منازل في شهادات الأموال اثنتان بظاهر الكتاب و واحده بتفسير السنه له.

فالمنزله الأولى: الرجلان.

ص: ٣٦٢

١- البخارى (٢٧٤٧) في الوصايا، باب: لا وصيه لوارث و أبو داود (٣٥٦٥) في البيوع، باب: في تضمين العاربه، و الترمذى (٢١٢٠) في الوصايا، باب: ما جاء لا وصيه لوارث.

٢- البخارى (٦٨٢٥) في الحدود، باب: سؤال الإمام المقر: هل أحصنت؟ و مسلم (١٥/٤٣٩٤) في الحدود، باب: رجم الثيب في الزنا.

٣- البخارى (٥١٠٩) في النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، و مسلم (٣٣/٣٤٢٢) في النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة و عمتها أو خالتها في النكاح.

٤- البخارى (٢٦٤٥) في الشهادات، باب: الشهاده على الأنساب... إلخ، و مسلم (٩/١٤٤٥) في الرضاع، باب: تحريم الرضاعه من ماء الفحل.

٥- أبو داود (٢٩٠٩) في الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر؟ و الترمذى (٢١٠٧) في الفرائض، باب: ما جاء في إبطال الميراث بين المسلم و الكافر، و قال «حسن صحيح»، و أحمد (١٧٨/٢).

٦- البخارى (٥٢٦٥) في الطلاق، باب: من قال لامرأته: أنت على حرام، و أحمد (٢١٤/١).

و الثانيه:الرجل و المرأتان.

و الثالثه:الرجل و اليمين.فمن أنكر هذه لزمه إنكار كل شيء ذكرناه لا يجد من ذلك بدا حتى يخرج من قول العلماء.

قال أبو عبيده:و يقال لمن أنكر الشاهد و اليمين،و ذكر أنه خلاف القرآن:ما تقول فى الخصم يشهد له الرجل و المرأتان،و هو واجد لرجلين يشهدان له؟

فإن قالوا:الشهاده جائزه.قيل:ليس هذا أولى بالخلاف،و قد اشترط القرآن فيه ألا- يكون للمرأتين شهاده إلا- مع فقد أحد الرجلين.فإنه سبحانه قال: فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ [البقره:٢٨٢]،و لم يقل:و استشهدوا شهيدين من رجالكم أو رجلا و امرأتين:

فيكون فيه الخيار،كما جعله فى الفديه كما قال تعالى: فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ [البقره:١٩٦]،و مثل ما جعله فى كفاره اليمين بإطعام عشره مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبه،فهذه أحكام الخيار.و لم يقل ذلك فى آيه الدين.و لكنه قال فيها كما قال فى آيه الفرائض: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَةٌ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ [النساء:١١].

و كذلك الآيه التى بعدها فقوله هاهنا:«إن لم يكن» كقوله فى آيه الشهاده:«فإن لم يكونا» كذلك قال فى آيه الطهور: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا [المائده:٦]و فى آيه الظهار: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ [المجادله:٤]و كذلك فى متعه الحج و كفاره اليمين:أن الصوم لا يجزى الواحد:فأى الحكمين أولى بالخلاف:هذا أم الشاهد و اليمين،الذى ليس فيه من الله اشترط منع،إنما سكت عنه،ثم فسرتة السنه؟.

قال أبو عبيده:و قد وجدنا فى حكمهم ما هو أعجب من هذا،و هو قولهم فى رضاع اليتيم الذى لا مال له،و له خال و ابن عم موسران:إن الخال يجبر على رضاعه،لأنه محرم و إنما اشترط التنزيل غيره.فقال: وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ [البقره:٢٣٣]،و قد أجمع المسلمون أن لا ميراث للخال مع ابن العم.ثم لم نجد هذا الحكم فى السنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم،و لا عن أحد من سلف العلماء.و قد وجدنا الشاهد و اليمين فى آثار متواتره عن النبى صلى الله عليه و سلم،و عن غير واحد من الصحابه و من التابعين.

و قال الربيع:قال الشافعى:قال بعض الناس فى اليمين مع الشاهد قولاً أسرف فيه على نفسه،قال:أرد حكم من حكم بها،لأنه خالف القرآن.فقلت له:الله تعالى أمر بشاهدين أو شاهد و امرأتين؟قال:نعم.فقلت:أ حتم من الله ألا- يجوز أقل من شاهدين؟قال:فإن قلته؟قلت:فقله،قال:قد قلته،قلت:و تحدد فى الشاهدين اللذين أمر الله بهما حدا؟قال:

نعم، حران مسلمان بالغان عدلان. قلت: و من حكم بدون ما قلت خالف حكم الله؟ قال:

نعم، قلت له: إن كان كما زعمت، خالفت حكم الله. قال: و أين؟ قلت: أجزت شهادته أهل الذمه، و هم غير الذين شرط الله أن تجوز شهادتهم و أجزت شهادته القابله وحدها على الولاده، و هذان وجهان أعطيت بهما من جهة الشهاده، ثم أعطيت بغير شهادته فى القسامه و غيرها. قلت: و القضاء باليمين مع الشاهد ليس يخالف حكم الله، بل هو موافق لحكم الله، إذ فرض الله تعالى طاعه رسوله، فإن اتبعت رسول الله صلى الله عليه و سلم فعن الله - سبحانه - قبلت، كما قبلت عن رسوله.

قال: أ فيوجد لهذا نظير فى القرآن؟ قلت: نعم، أمر الله - سبحانه - فى الوضوء بغسل القدمين، أو مسحهما فمسحنا على الخفين بالسنة.

و قال تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا يَهُ [الأنعام: ١٤٥] فحررنا نحن و أنت كل ذى ناب من السباع بالسنة.

و قال: وَ أَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤].

فحررنا نحن و أنت الجمع بين المرأه و عمتها، و بينها و بين خالتها.

و ذكر الرجم و نصاب السرقة، قال: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم المبين عن الله معنى ما أراد خاصا و عاما.

و قال شيخ الإسلام ابن تيميه: القرآن لم يذكر الشاهدين، و الرجل و المرأتين فى طرق الحكم التى يحكم بها الحاكم. و إنما ذكر النوعين من البيئات فى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه. فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِعَدِّينَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ وَ لِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لِيُمِلِّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسِيءُ تَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلِّ وَ لِيَهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ [البقره: ٢٨٢].

فأمرهم - سبحانه - بحفظ حقوقهم بالكتاب. و أمر من عليه الحق أن يملى الكاتب فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه وليه. ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه رجلين، فإن لم يجد فرجل و امرأتان. ثم نهى الشهاداء المحتملين للشهاده عن التخلف عن إقامتها إذا طلبوا لذلك.

ثم رخص لهم فى التجاره الحاضره: ألا يكتبوها. ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.

ثم أمرهم إذا كانوا على سفر -و لم يجدوا كتابا- أن يستوثقوا بالرهان المقبوضه.

كل هذا نصيحه لهم، و تعليم و إرشاد لما يحفظون به حقوقهم.

و ما تحفظ به الحقوق شىء و ما يحكم به الحاكم شىء.

فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين و المرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول و اليمين المردوده. و لا ذكر لهما فى القرآن. فإن كان الحكم بالشاهد الواحد و اليمين مخالفا لكتاب الله، فالحكم بالنكول، و الرد اشد مخالفه.

و أيضا، فإن الحاكم يحكم بالقرعه بكتاب الله و سنه رسوله الصريحه الصحيحه.

و يحكم بالقافه بالسنه الصريحه الصحيحه التى لا معارض لها.

و يحكم بالقسامه بالسنه الصحيحه الصريحه.

و يحكم بشاهد الحال إذا تداعى الزوجان أو الصانعان متاع البيت و الدكان.

و يحكم -عند من أنكر الحكم بالشاهد و اليمين- بوجود الآجر فى الحائط، فيجعله للمدعى إذا كانت إلى جهته.

و هذا كله ليس فى القرآن، و لا حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا أحد من أصحابه.

فكيف ساغ الحكم به، و لم يجعل مخالفا لكتاب الله، وورد ما حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم و خلفاؤه الراشدون و غيرهم من الصحابه، و يجعل مخالفا لكتاب الله؟ بل القول ما قاله أئمه الحديث: إن الحكم بالشاهد و اليمين: حكم بكتاب الله، فإنه حق، و الله -سبحانه- أمر بالحكم بالحق، فهاتان قضيتان ثابتتان بالنص.

أما الأولى: فلأن رسول الله صلى الله عليه و سلم و خلفاءه من بعده حكموا به و لا يحكمون بباطل.

و أما الثانية: فلقله تعالى: **وَ أَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ [المائدة: ٤٩].**

و قوله: **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ [النساء: ١٠٥]** فالحكم بالشاهد و اليمين مما أراد الله إياه قطعا.

و قوله: **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ [الشورى: ١٥].**

و هذا مما حكم به، فهو عدل مأمور به من الله و لا بد. و الذين ردوا هذه المسأله لهم طرق:

الطريق الأول: أنها خلاف كتاب الله، فلا تقبل. و قد بين الأئمه -كالشافعى و أحمد

و أبى عبيد و غيرهم-أن كتاب الله لا- يخالفها بوجه، و إنها لموافقه لكتاب الله. و أنكر الإمام أحمد و الشافعي على من رد أحاديث رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ، لزعمه أنها تخالف ظاهر القرآن، و للإمام أحمد في ذلك كتاب مفرد سماه: (كتاب طاعه الرسول).

و الذى يجب على كل مسلم اعتقاده: أنه ليس فى سنن رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ الصحيحه سنه واحده تخالف كتاب الله، بل السنن مع كتاب الله على ثلاث منازل:

المنزله الأولى: سنه موافقه شاهده بنفس ما شهد به الكتاب المنزل.

المنزله الثانيه: سنه تفسر الكتاب، و تبين مراد الله منه، و تقيده مطلقه.

المنزله الثالثه: سنه متضمنه لحكم سكت عنه الكتاب فتبينه بيانا مبتدأ.

و لا يجوز رد واحده من هذه الأقسام الثلاثه.

و ليس للسنه مع كتاب الله منزله رابعه.

و قد أنكر الإمام أحمد على من قال: «السنه تقضى على الكتاب» فقال: بل السنه تفسر الكتاب و تبينه.

و الذى يشهد الله و رسوله به: أنه لم تأت سنه صحيحه واحده عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ تناقض كتاب الله و تخالفه البته.

كيف و رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ هو المبين لكتاب الله، و عليه أنزل، و به هداه الله، و هو مأمور باتباعه، و هو أعلم الخلق بتأويله و مراده؟ و لو ساغ رد سنن رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب، لردت بذلك أكثر السنن، و بطلت بالكلية.

فما من أحد يحتج عليه بسنه صحيحه تخالف مذهبه و نحلته، إلا و يمكنه أن يتشبه بعموم آيه أو إطلاقها و يقول: هذه السنه مخالفه لهذا العموم و الإطلاق فلا تقبل.

حتى إن الرافضه-قبهم الله-سلكوا هذا المسلك بعينه فى رد السنن الثابته المتواتره، فردوا قوله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ: «لا نورث ما تركناه صدقه» (١)، و قالوا: هذا حديث يخالف كتاب الله، قال تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ [النساء: ١١].

وردت الجهميه ما شاء الله من الأحاديث الصحيحه فى إثبات الصفات بظاهر قوله:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١].

وردت الخوارج من الأحاديث الداله على الشفاعه و خروج أهل الكبائر من الموحدين ا.

ص: ٣٦٦

١- سبق تخريجه ص ٣٦١.

من النار، بما فهموه من ظاهر القرآن.

وردت الجهميه أحاديث الرؤيه-مع كثرتها و صحتها-بما فهموه من ظاهر القرآن فى قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣].

وردت القدرية أحاديث القدر الثابتة بما فهموه من ظاهر القرآن.

وردت كل طائفه ما ردت من السنه بما فهموه من ظاهر القرآن.

فإما أن يطرد الباب فى رد هذه السنن كلها، وإما أن يطرد الباب فى قبولها ولا يرد شىء منها لما يفهم من ظاهر القرآن.

أما أن يرد و يقبل بعضها-و نسبه المقبول إلى ظاهر القرآن كنسبه المردود-فتناقض ظاهر، و ما من أحد رد سنه بما فهمه من ظاهر القرآن إلا و قد قبل أضعافها مع كونها كذلك.

و قد أنكر الإمام أحمد و الشافعى و غيرهما على من رد أحاديث تحريم كل ذى ناب من السباع بظاهر قوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فى ما أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا آيَةً [الأنعام: ١٤٥].

و قد أنكر النبى صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ على من رد سنته التى لم تذكر فى القرآن و لم يدع معارضه القرآن لها، فكيف يكون إنكاره على من ادعى أن سنته تخالف القرآن و تعارضه؟ (١)

منزله السنه من القرآن

و السنه مع القرآن على ثلاثه أوجه:

أحدها: أن تكون موافقه له من كل وجه، فيكون توارد القرآن و السنه على الحكم الواحد من باب توارد الأدله و تضافرها.

الثانى: أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن، و تفسيراً له.

الثالث: أن تكون موجه لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمه لما سكت عن تحريمه، و لا تخرج عن هذه الأقسام.

فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن، فهو تشريع مبتدأ من النبى صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ تجب طاعته فيه، و لا تحل معصيته و ليس هذا تقدماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعه رسوله، و لو كان رسوله الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ لا يطاع فى هذا القسم، لم يكن لطاعته معنى،

ص: ٣٦٧

و سقطت طاعته المختصه به، و إنه إذا لم تجب إلا فيما وافق القرآن، لا فيما زاد عليه، لم يكن له طاعه خاصه تختص به، و قال الله تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ [النساء: ٨٠].

و كيف يمكن أحدا من أهل العلم ألا- يقبل حديثا زائدا على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها، و لا على خالتها، و لا حديث التحريم بالرضاعه لكل ما يحرم من النسب، و لا حديث خيار الشرط، و لا أحاديث الشفعه، و لا حديث الرهن فى الحضر مع أنه زائد على ما فى القرآن، و لا حدث ميراث الجده، و لا حديث تخيير الأمه إذا عتقت تحت زوجها، و لا حديث منع الحائض من الصوم و الصلاه، و لا حديث وجوب الكفاره على من جامع فى نهار رمضان، و لا أحاديث إحداد المتوفى عنها زوجها مع زيادتها على ما فى القرآن من العده.

فهلا قلتم: إنها نسخ للقرآن، و هو لا ينسخ بالسنة، و كيف أوجبتم الوتر، مع أنه زياده محضه على القرآن بخبر مختلف فيه، و كيف زدتم على كتاب الله فجوزتم الوضوء بنيذ التمر بخبر ضعيف؟ و كيف زدتم على كتاب الله، فشرطتم فى الصداق أن يكون أقله عشره دراهم بخبر لا يصح البتة، و هو زياده محضه على القرآن؟

و قد أخذ الناس بحديث: «لا يرث المسلم الكافر و لا الكافر المسلم» (١)، و هو زائد على القرآن و أخذوا بحديث توريثه صلى الله عليه و سلم بنت الابن السدس مع البنت، و هو زائد على ما فى القرآن، و أخذ الناس كلهم بحديث استبراء المسبيه بحيضه، و هو زائد على ما فى كتاب الله، و أخذوا بحديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه» (٢)، و هو زائد على ما فى القرآن من قسمه الغنائم، و أخذوا كلهم بقضائه صلى الله عليه و سلم الزائد على ما فى القرآن من أن أعيان بنى الأيوين يتوارثون دون بنى العلات (٣)، الرجل يرث أخاه لأبيه، و أمه دون أخيه لأبيه. و لو تتبعنا هذا لطال جدا.

فسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم أجل فى صدورنا، و أعظم، و أفرض علينا ألا نقبلها إذا كانت زائده على ما فى القرآن، بل على الرأس و العينين.

و كذلك فرض على الأمه الأخذ بحديث القضاء بالشاهد و اليمين، و إن كان زائدا على ما فى القرآن، و قد أخذ به أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و جمهور التابعين و الأئمه، و العجب ممند.

ص: ٣٤٨

١- سبق تخريجه (٣٤٢).

٢- أبو داود (٢٧١٧) فى الجهاد، باب: فى السلب يعطى القاتل، و أحمد (١١٤/٣).

٣- بنو العلات: بنو أمهات من رجل واحد.

يرده؛ لأنه زائد على ما فى كتاب الله. ثم يقضى بالنكول، و معاقد القمط، و وجوه الأجر (١) فى الحائط، و ليست فى كتاب الله، و لا سنه رسوله، و أخذتم أنتم و جمهور الأمة بحديث:

«لا يقاد الوالد بالولد» (٢) مع ضعفه، و هو زائد على ما فى القرآن، و أخذتم أنتم و الناس بحديث أخذ الجزية من المجوس، و هو زائد على ما فى القرآن، و أخذتم مع سائر الناس بقطع رجل السارق فى المره الثانيه، مع زيادته على ما فى القرآن، و أخذتم أنتم و الناس بحديث النهى عن الاقتصاص من الجرح قبل الاندمال، و هو زائد على ما فى القرآن، و أخذت الأمة بأحاديث الحضانه، و ليست فى القرآن، و أخذتم أنتم و الجمهور باعتداد المتوفى عنها فى منزلها، و هو زائد على ما فى القرآن و أخذتم مع الناس بأحاديث البلوغ بالسن و الإثبات، و هى زائده على ما فى القرآن إذ ليس فيه الاحتلام، و أخذتم مع الناس بحديث: «الخراج بالضمان» (٣) مع ضعفه، و هو زائد على القرآن، و بحديث النهى عن بيع الكالئى بالكالئى و هو زائد على ما فى القرآن، و أضعاف أضعاف ما ذكرنا.

بل أحكام السنه التى ليست فى القرآن إن لم تكن أكثر منها لم تنقص عنها فلو ساغ لنا رد كل سنه زائده كانت على نص القرآن، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه و سلم كلها إلا سنه دل عليها القرآن، و هذا هو الذى أخبر النبى صلى الله عليه و سلم بأنه سيقع، و لا بد من وقوع خبره.

فإن قيل: السنن الزائده على ما دل عليه القرآن تاره تكون بياناً له، و تاره تكون منشئه لحكم لم يتعرض القرآن له، و تاره تكون مغيره لحكمه، و ليس نزاعنا فى القسمين الأولين فإنهما حجه باتفاق، و لكن النزاع فى القسم الثالث و هو ترجمته بمسأله الزيادة على النص.

و قد ذهب الشيخ أبو الحسن الكرخى، و جماعه كثيره من أصحاب أبى حنيفه إلى أنها نسخ، و من هاهنا جعلوا إيجاب التغريب مع الجلد نسخاً، كما لو زاد عشرين سوطاً على الثمانين فى حد القذف.

و ذهب أبو بكر الرازى إلى أن الزيادة إن وردت بعد استقرار حكم النص منفرده عنه، كانت ناسخه، و إن وردت متصله بالنص قبل استقرار حكمه لم تكن ناسخه، و إن وردت و لا.

ص: ٣٦٩

١- اللبن المحرق المعد للبناء.

٢- الترمذى (١٤٠٠) فى السديات، باب: ما جاء فى الرجل يقتل ابنه يقاد منه أم لا، و ابن ماجه (٢٦٦٢) فى السديات، باب: لا يقتل الوالد بولده.

٣- الترمذى (١٢٨٥) فى البيوع، باب: ما جاء فى من يشتري العبد و يستغله... إلخ، و قال: «حسن صحيح»، و أبو داود (٣٣٦٥) فى البيوع، باب: فى من اشترى عبداً فاستعمله ثم وجد به عيباً.

يعلم تاريخها، فإن وردت من جهة يثبت النص بمثلها، فإن شهدت الأصول من عمل السلف أو النظر على ثبوتها معا أثبتناهما، وإن شهدت بالنص منفردا عنها أثبتناه دونها، وإن لم يكن في الأصول دلالة على أحدهما، فالواجب أن يحكم بورودهما معا، ويكونان بمنزلة الخاص و العام، وإذا لم يعلم تاريخها، ولم يكن في الأصول دلالة على وجوب القضاء بأحدهما على الآخر، فإنهما يستعملان معا، وإن كان ورود النص من جهة توجب العلم كالكتاب و الخبر المستفيض، و ورود الزيادة من جهة أخبار الآحاد لم يجز إلحاقها بالنص، و لا العمل بها.

و ذهب أصحابنا إلى أن الزيادة إن غيرت حكم المزيد عليه تغييرا شرعيا بحيث إنه لو فعل على حد ما كان يفعل قبلها لم يكن معتادا به بل يجب استثناؤه، كان نسخا نحو ضم ركعه إلى ركعتي الفجر، وإن لم يغير حكم المزيد عليه، بحيث لو فعل على حد ما كان يفعل قبلها كان معتادا به، و لا يجب استثناؤه، لم يكن نسخا، و لم يجعلوا إيجاب التغريب مع الجلد نسخا، و إيجاب عشرين جلده مع الثمانين نسخا، و كذلك إيجاب شرط منفصل عن العباد، لا يكون نسخا كإيجاب الوضوء بعد فرض الصلاة، و لم يختلفوا أن إيجاب زيادة عباده على عباده كإيجاب الزكاه بعد إيجاب الصلاة لا يكون نسخا، و لم يختلفوا أيضا أن إيجاب صلاة سادسه على الصلوات الخمس لا يكون نسخا.

الكلام عن الزيادة المغيره لحكم شرعى

فالكلام معكم فى الزيادة المغيره فى ثلاثه مواضع: فى المعنى و الاسم و الحكم.

أما المعنى: فإنها تفيد معنى النسخ؛ لأنه الإزاله. و الزيادة تزيل حكم الاعتداد بالمزيد عليه، و توجب استثناؤه بدونها، و تخرجه عن كونه جميع الواجب، و تجعله بعضه، و توجب التأثيم على المقتصر عليه، بعد أن لم يكن إثما، و هذا معنى النسخ، و عليه يرتب الاسم، فإنه تابع للمعنى؛ فإن الكلام فى زيادة شرعيه مغيره للحكم الشرعى بدليل شرعى، متراخ عن المزيد عليه، فإن اختل وصف من هذه الأوصاف، لم يكن نسخا، فإن لم يغير حكما شرعيا، بل رفعت حكم البراءه الأصلية لم تكن نسخا، كإيجاب عباده بعد أخرى، و إن كانت الزيادة مقارنة للمزيد عليه، فإن اختل وصف من هذه الأوصاف، لم يكن نسخا، فإن لم يغير حكما شرعيا، بل رفعت حكم البراءه الأصلية لم تكن نسخا، كإيجاب عباده بعد أخرى، و إن كانت الزيادة مقارنة للمزيد عليه، لم تكن نسخا، و إن غيرته، بل تكون تقييدا، أو تخصيصا.

و أما الحكم فإن كان النص المزيد عليه ثابتا بالكتاب، أو السنه المتواتره لم يقبل خبر

الواحد بالزيادة عليه، وإن كان ثابتا بخبر الواحد قبلت الزيادة، فإن اتفقت الأمة على قبول خبر الواحد فى القسم الأول علمنا أنه ورد مقارنا للمزيد عليه، فيكون تخصيصا لا نسخا.

قالوا: وإنما لم يقبل خبر الواحد بالزيادة على النص؛ لأن الزيادة لو كانت موجودة معه لنقلها إلينا من نقل النص؛ إذ غير جائز أن يكون المراد إثبات النص معقودا بالزيادة، فيقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على إبلاغ النص منفردا عنها، فواجب إذا أن يذكرها معه، ولو ذكرها لنقلها إلينا من نقل النص، فإن كان النص مذكورا فى القرآن، والزيادة وارده من جهة السنه، فغير جائز أن يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على تلاوه الحكم المنزل فى القرآن، دون أن يعقبها بذكر الزيادة؛ لأن حصول الفراغ من النص الذى يمكننا استعماله بنفسه يلزمنا اعتقاد مقتضاه من حكمه، كقوله: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: ٢]** فإن كان الحد هو الجلد والتغريب، فغير جائز أن يتلو النبى صلى الله عليه وسلم الآية على الناس عاربه من ذكر النفي عقبها؛ لأن سكوته عن ذكر الزيادة معها يلزمنا اعتقاد موجبها، وأن الجلد هو كمال الحد، فلو كان معه تغريب لكان بعض الحد لا كماله، فإذا أخلى التلاوه من ذكر النفي عقبها، فقد أراد منا اعتقاد أن الجلد المذكور فى الآية هو تمام الحد و كماله، فغير جائز إلحاق الزيادة معه إلا على وجه النسخ. ولهذا كان قوله: «و اغد يا أنيس على امرأه هذا، فإن اعترفت فارجمها» (١) ناسخا لحديث عباده بن الصامت: «الثيب بالثيب؛ جلد مائه، والرجم» (٢)، وكذلك لما رجم ماعزا، ولم يجلد له كذلك يجب أن يكون قوله: **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: ٢]** ناسخا لحكم التغريب فى قوله: «البكر بالبكر جلد مائه و تغريب عام» (٣).

و المقصود أن هذه الزيادة لو كانت ثابتة مع النص لذكرها النبى صلى الله عليه وسلم عقب التلاوه، و لنقلها إلينا من نقل المزيد عليه؛ إذ غير جائز عليهم أن يعلموا أن الحد مجموع الأمرين، و ينقلوا بعضه دون بعض، و قد سمعوا الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الأمرين، فامتنع حينئذ العمل بالزيادة إلا من الجهة التى ورد منها الأصل، فإذا وردت من جهة الآحاد، فإن كانت قلب.

ص: ٣٧١

- ١- البخارى (٧٢٦٠) فى أول أخبار الآحاد، و مسلم (١٦٩٨/٢٥، ١٦٩٧) فى الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى.
- ٢- مسلم (١٢/١٦٩٠) فى الحدود، باب: حد الزنى، و أبو داود (٤٤١٦) فى الحدود، باب: فى الرجم، و الترمذى (١٤٣٤) فى الحدود، باب ما جاء فى الرجم على الثيب، و ابن ماجه (٢٥٥٠) فى الحدود، باب: حد الزنى.
- ٣- مسلم (١٣/١٦٩٠) فى الحدود، باب: حد الزنى، و أبو داود (٤٤١٥) فى الحدود، باب: فى الرجم، و الترمذى (١٤٣٤) فى الحدود، باب: ما جاء فى الرجم على الثيب.

النص فقد نسخها النص المطلق عاريا من ذكرها، وإن كانت بعده، فهذا يوجب نسخ الآية بخبر الواحد و هو ممتنع، فإن كان المزيد عليه ثابتا بخبر الواحد جاز إلحاق الزيادة بخبر الواحد على الوجه الذى يجوز نسخ به، فإن كانت وارده مع النص فى خطاب واحد لم تكن نسخا، وكانت بيانا.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنكم أول من نقض هذا الأصل الذى أصلمتموه، فإنكم قبلتم خبر الوضوء بنبيذ التمر، و هو زائد على ما فى كتاب الله، مغير لحكمه؛ فإن الله سبحانه جعل حكم عادم الماء التيمم، و الخبر يقتضى أن يكون حكمه الوضوء بالنبيذ، فهذه الزيادة بهذا الخبر الذى لا يثبت رافعه لحكم شرعى غير مقارنه له، و لا مقاومه بوجه.

و قبلتم خبر الأمر بالوتر مع رفعه لحكم شرعى، و هو اعتقاد كون الصلاه الخمس هى جميع الواجب، و رفع التأثيم بالاختصار عليها، و إجراء الإتيان فى التعبد بفريضه الصلاه، و الذى قال هذه الزيادة هو الذى قال سائر الأحاديث الزائده على ما فى القرآن، و الذى نقلها إلينا هو الذى نقل تلك بعينه، أو أوثق منه، أو نظيره، و الذى فرض علينا طاعه رسوله، و قبول قوله فى تلك الزيادة هو الذى فرض علينا طاعته، و قبول قوله فى هذه، و الذى قال لنا: وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ [الحشر: ٧] هو الذى شرع لنا هذه الزيادة على لسانه، و الله سبحانه و لاه منصب التشريع عنه ابتداء، كما و لاه منصب البيان لما أراد بكلامه، بل كلامه كله بيان عن الله، و الزيادة بجميع وجوهها لا- تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه، وجدوا تصديقه فى القرآن، و لم يقل أحد منهم قط فى حديث واحد أبدا: إن هذا زياده على القرآن، فلا نقبله، و لا نسمعه، و لا نعمل به.

و رسول الله صلى الله عليه و سلم أجل فى صدورهم، و سنته أعظم عندهم من ذلك و أكبر، و لا فرق أصلا بين مجيء السنه بعدد الطواف، و عدد ركعات الصلاه، و مجيئها بفرض الطمأنينه و تعيين الفاتحه و النيه؛ فإن الجميع بيان لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على الوجه هذا.

فهذا هو الوجه المراد، فجاءت السنه بيانا للمراد فى جميع وجوهها، حتى فى التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته و طاعه رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد، و بين المراد من الصلاه و الزكاه و الحج و الطواف و غيرها، بل هذا بيان المراد من شىء، و ذاك بيان المراد من أعم منه.

فالتغريب بيان محض للمراد من قوله: أَوْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا [النساء: ١٥]، و قد

صرح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن، معارض له.

و يقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن، و هل هذا إلا قلب للحقائق، فإن حكم القرآن العام و الخاص يوجب علينا قبوله فرضاً، لا يسعنا مخالفته، فلو خالفناه لخالفنا القرآن، و لخرجنا عن حكمه و لا بد، و لكان في ذلك مخالفه للقرآن و الحديث معا.

يوضحه الوجه الثاني: أن الله-سبحانه-نصّب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه و دينه، و لا- فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو، و من وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، و مخالفه هذا كمخالفه هذا.

يوضحه الوجه الثالث: أن الله-سبحانه-أمرنا بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة، و حج البيت، و صوم رمضان، و جاء البيان عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمقادير ذلك و صفاته و شروطه، فوجب على الأمة قبوله؛ إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل، و هكذا أمر الله-سبحانه-بطاعته و طاعه رسوله، فإذا أمر الرسول بأمر كان تفصيلاً، و بيانا للطاعة المأمور بها، و كان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، و لا فرق بينهما.

أنواع بيان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يوضحه الوجه الرابع: أن البيان من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً.

الثاني: بيان معناه و تفسيره لمن احتاج إلى ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله:

و لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، و أن الحساب اليسير هو العرض، و أن الخيط الأبيض و الأسود هما بياض النهار و سواد الليل، و أن الذي رآه نزله أخرى عند صدره المنتهى: هو جبريل.

كما فسر قوله: أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مغربها.

و كما فسر قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

و كما فسر قوله: يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ

[إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل من ربك، و ما دينك؟

و كما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب، و كما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله بأن ذلك باستحلال ما أحلوه من الحرام، و تحريم ما حرموه عليهم من الحلال، و كما فسر «القوه» التي أمر الله أن نعدّها لأعدائه بالرّمى، و كما فسر قوله مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزى به العبد في الدنيا من النصب و الهم و الخوف و اللأواء.

و كما فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم (١) و كما فسر «الدعاء» في قوله: وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة، و كما فسر «إدبار النجوم» بأنه الركعتان قبل الفجر، و «أدبار السجود» بالركعتين بعد المغرب، و نظائر ذلك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن، فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجه، فجاء القرآن باللعان و نظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي، و إن لم يكن قرآنا، كما سئل عن رجل أحرم في جبه

بعد ما تضحّخ بالخلوق (٢) فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبه، و يغسل أثر الخلق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنه ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر، و المتعه، و صيد المدينة، و نكاح المرأه على عمتها و خالتها، و أمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمور جواز الشيء بفعله هو له، و عدم نهيهم عن التأسى به.

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، و هو يشاهده، أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحه الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه، و إن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه، أو إباحته، و يكون لذلك الحكم شروط و موانع و قيود و أوقات مخصوصه، و أحوال و أوصاف، فيحيل الرب سبحانه و تعالى على رسوله في بيانها كقوله تعالى: وَ أَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤]، فالحل موقوف.

ص: ٣٧٤

١- يعنى التي وردت في قوله سبحانه و تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ و قد ذكر تفسيره بذلك في حديث رواه أحمد و مسلم و ابن جرير و ابن أبى حاتم.

٢- ضرب من الطيب.

على شروط النكاح، و انتفاء موانعه، و حضور وقته و أهليه المحل، فإذا جاءت السنه ببيان ذلك كله لم يكن شىء منه زائدا على النص، فيكون نسخا له، و إن كان رفعا لظاهر إطلاقه، فهكذا كل حكم منه صَلَّى الله عليه و سلم زائدا على القرآن هذا سبيله سواء بسواء؛ و قد قال تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ [النساء: ١١]**، ثم جاءت السنه بأن القاتل و الكافر و الرقيق لا يرث، و لم يكن نسخا للقرآن مع أنه زائد عليه قطعاً، أعنى في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجبه بالولاده وحدها، فزادت السنه مع وصف الولاده اتحاد الدين، و عدم الرق و القتل.

فهلا قلت: إن هذا زياده على النص، فيكون نسخا، و القرآن لا ينسخ بالسنه، كما قلت ذلك فى كل موضع تركتم فيه الحديث؛ لأنه زائد على القرآن.

و الوجه الخامس: أن تسميتكم للزياده المذكوره نسخا لا توجب، بل لا تجوز مخالفتها، فإن تسميه ذلك نسخا اصطلاح منكم، و الأسماء المتواضع عليها التابعه للاصطلاح منكم لا توجب رفع أحكام النصوص، فأين سمى الله و رسوله ذلك نسخا، و أين قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إذا جاءكم حديثى زائدا على ما فى كتاب الله فردوه، و لا تقبلوه، فإنه يكون نسخا لكتاب الله؟ و أين قال الله: إذا قال رسولى قولاً زائدا على القرآن، فلا تقبلوه، و لا تعملوا به، و ردوه؟ و كيف يسوغ رد سنن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بقواعد قعدتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؟!

الوجه السادس: أن يقال: ما تعنون بالنسخ الذى تضمنته الزيادة بزعمكم؟ أم تعنون أن حكم المزيد عليه من الإيجاب و التحريم و الإباحه بطل بالكلية؟ أم تعنون به تغير وصفه بزياده شىء عليه من شرط، أو قيد، أو حال أو مانع، أو ما هو أعم من ذلك؟

فإن عنيتم الأول، فلا- ريب أن الزيادة لا- تتضمن ذلك، فلا تكون ناسخه، و إن عنيتم الثانى، فهو حق، و لكن لا يلزم منها بطلان حكم المزيد عليه، و لا رفعه، و لا معارضته، بل غايتها مع المزيد عليه كالشرط و الموانع و القيود و المخصصات، و شىء من ذلك لا يكون نسخا يوجب إبطال الأول و رفعه رأسا.

و إذا كان نسخا بالمعنى الذى يسميه السلف نسخا، و هو رفع الظاهر بتخصيص، أو تقييد، أو شرط، أو مانع، فهذا كثير من السلف يسميه نسخا حتى سمى الاستثناء نسخا، فإن أردتم هذا المعنى، فلا- مشاحه (1) فى الاسم، و لكن ذلك لا- يسوغ رد السنن الناسخه.

ص: ٣٧٥

للقرآن بهذا المعنى، ولا ينكر أحد نسخ القرآن بالسنة بهذا المعنى، بل هو متفق عليه بين الناس، وإنما تنازعوا في جواز نسخه بالسنة النسخ الخاص الذى هو رفع أصل الحكم وجملة، بحيث يبقى بمنزلة ما لم يشرع البتة، وإن أردتم بالنسخ ما هو أعم من القسمين، وهو رفع الحكم بجملة تاره، و تقييد مطلقه، و تخصيص عامه، و زيادة شرط، أو مانع تاره كنتم قد أدرجتم فى كلامكم قسمين: مقبولا، و مردودا كما تبين، فليس الشأن فى الألفاظ فسموا الزيادة ما شئتم؛ فإبطال السنن بهذا الاسم مما لا سبيل إليه.

يوضحه الوجه السابع: أن الزيادة لو كانت ناسخة لما جاز اقترانها بالمزيد، لأن الناسخ لا يقارن المنسوخ، و قد جوزتم اقترانها به، و قلتم: تكون بيانا أو تخصيصا، فهلا- كان حكمها مع التأخير كذلك، و البيان لا يجب اقترانه بالمبين، بل يجوز تأخيره إلى وقت حضور العمل، و ما ذكرتموه من إيهام اعتقاد خلاف الحق، فهو منتقض بجواز، بل وجوب تأخير الناسخ، و عدم الإشعار بأنه سينسخه، و لا- محذور فى اعتقاد موجب النص، ما لم يأت ما يرفعه، أو يرفع ظاهره، فحينئذ يعتقد موجه كذلك، فكان كل من الاعتقادين فى وقته هو المأمور به؛ إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

يوضحه الوجه الثامن: أن المكلف إنما يعتقد على إطلاقه و عمومه مقيدا بعدم ورود ما يرفع ظاهره، كما يعتقد المنسوخ مؤيدا اعتقادا مقيدا بعدم ورود ما يبطله، و هذا هو الواجب عليه الذى لا يمكنه سواه.

الوجه التاسع: أن إيجاب الشرط الملحق بالعبادة بعدها لا يكون نسخا، و إن تضمن رفع الإجزاء بدونه، كما صرح بذلك بعض أصحابكم و هو الحق، فكذلك إيجاب كل زياده، بل أولى ألا تكون نسخا، فإن إيجاب الشرط يرفع إجزاء المشروط عن نفسه، و عن غيره، و إيجاب الزيادة إنما يرفع إجزاء المزيد عن نفسه خاصة.

الوجه العاشر: أن الناس متفقون على أن إيجاب عبادة مستقلة بعد الثانية لا- يكون نسخا، و ذلك أن الأحكام لم تشرع جملة واحده، و إنما شرعها أحكم الحاكمين شيئا بعد شىء، و كل منها زائد على ما قبله، و كان ما قبله جميع الواجب، و الإثم محطوط عن اقتصر عليه، و بالزيادة تغير هذان الحكمان، فلم يبق الأول جميع الواجب، و لم يحط الإثم عن اقتصر عليه، و مع ذلك فليس الزائد ناسخا للمزيد عليه؛ إذ حكمه من الوجوب و غيره باق. فهذه الزيادة المتعلقة بالمزيد، لا تكون نسخا له، حيث لم ترفع حكمه بل هو باق على حكمه و قد ضم إليه غيره.

يوضحه الوجه الحادى عشر: أن الزيادة إن رفعت حكما خطايا كانت نسخا، و زياده التغريب و شروط الحكم و موانعه و حراحق لا ترفع حكم الخطاب، و إن رفع حكم الاستصحاب.

يوضحه الوجه الثانى عشر: أن ما ذكره من كون الأول جميع الواجب، و كونه مجزئا وحده، و كون الإثم محطوطا عن اقتصر عليه، إنما هو من أحكام البراءة الأصلية، فهو حكم استصحابى لم نستفده من لفظ الأمر الأول، و لا أريد به، فإن معنى كون العباده مجزئه: أن الذمه بريئه بعد الإتيان بها، و حط الدم عن فاعلها معناه: أنه قد خرج من عهده الأمر، فلا يلحقه ذم، و الزيادة—و إن رفعت هذه الأحكام—لم ترفع حكما دل عليه لفظ المزيد.

هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟

يوضحه الوجه الثالث عشر: أن تخصيص القرآن بالسنة جائز كما أجمعت الأمة على تخصيص قوله تعالى: وَ أَجَلٌ لَّكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تنكح المرأة على عمتها و لا على خالتها» (١) و عموم قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ [النساء: ١١] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يرث المسلم الكافر» (٢)، و عموم قوله تعالى: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا [المائدة: ٣٨] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا قطع فى ثمر و لا كثر» (٣)، و نظائر ذلك كثيرة، فإذا جاز التخصيص و هو رفع بعض ما تناوله اللفظ، و هو نقصان من معناه، فلأن تجوز الزيادة التى لا تتضمن رفع شىء من مدلوله، و لا نقصانه بطريق الأولى و الأخرى.

عوده إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخا

الوجه الرابع عشر: أن الزيادة لا توجب رفع المزيد لغيره، و لا شرعا و لا عرفا و لا عقلا، و لا تقول العقلاء لمن ازداد خيره، أو ماله، أو جاهه، أو علمه، أو ولده إنه قد ارتفع شىء مما فى الكيس.

بل تقول فى الوجه الخامس عشر: أن الزيادة قررت حكم المزيد، و زادته بيانا و تأكيدا، فهى كزياده العلم و الهدى و الإيمان، قال تعالى وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) [طه]، و قال:

ص: ٣٧٧

١- سبق تخريجه ص (٣٦٢).

٢- سبق تخريجه ص (٣٦٢).

٣- الترمذى (١٤٤٩) فى الحدود، باب: ما جاء لا قطع فى الثمر و لا كثر، و ابن ماجه (٢٥٩٣) فى الحدود، باب: لا يقطع فى ثمر و لا كثر.

وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا- إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا [الأحزاب: ٢٢]، وقال: وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) [الكهف]، وقال: وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم: ٧٦]، فكذلك زياده الواجب على الواجب إنما يزيده قوه و تأكيداً و ثبوتاً، فإن كانت متصله به اتصال الجزاء و الشرط، كان ذلك أقوى له و أثبت و أكد، و لا- ريب أن هذا أقرب إلى المعقول و المنقول، و الفطره من جعل الزيادة مبطله للمزيد عليه ناسخه له.

الوجه السادس عشر: أن الزيادة لم تتضمن النهى عن المزيد، و لا المنع منه، و ذلك حقيقه النسخ، و إذا انتفت حقيقه النسخ استحال ثبوته.

الوجه السابع عشر: أنه لا- بد فى النسخ من تنافى النسخ و المنسوخ، و امتناع اجتماعهما، و الزيادة غير منافية للمزيد عليه، و لا اجتماعهما ممتنع.

الوجه الثامن عشر: أن الزيادة لو كانت نسخاً لكانت إما نسخاً بانفرادها عن المزيد، أو بانضمامها إليه، و القسمان محال، فلا يكون نسخاً، أما الأول فظاهر فلأنها لا حكم لها بمفردها البتة، فإنها تابعه للمزيد عليه فى حكمه.

و أما الثانى فكذلك أيضاً؛ لأنها إذا كانت ناسخه بانضمامها إلى المزيد، كان الشىء ناسخاً لنفسه، و مبطلاً لحقيقته، و هذا غير معقول.

و أجاب بعضهم عن هذا: بأن النسخ يقع على حكم الفعل دون نفسه و صورته، و هذا الجواب لا يجدى عليهم شيئاً، و الالتزام قائم بعينه، فإنه يوجب أن يكون المزيد عليه قد نسخ حكم نفسه، و جعل نفسه إذا انفرد عن الزيادة غير مجزئ بعد أن كان مجزئاً.

الوجه التاسع عشر: أن النقصان من العباده لا يكون نسخاً لما بقى منها، فكذلك الزيادة عليها لا تكون نسخاً لها، بل أولى لما تقدم.

الوجه العشرون: أن نسخ الزيادة للمزيد عليه، إما أن يكون نسخاً لوجوبه أو لإجزائه، أو لعدم وجوب غيره، أو لأمر رابع، و هذا كزياده التغريب مثلاً- على المائه جلده، لا- يجوز أن تكون ناسخه لوجوبها؛ فإن الوجوب بحاله، و لا- لإجزائها، لأنها مجزئه عن نفسها، و لا- لعدم وجوب الزائد، لأنه رفع حكم عقلى، و هو البراءه الأصلية، فلو كان رفعها نسخاً كان كلما أوجب الله شيئاً بعد الشهادتين، قد نسخ به ما قبله، و الأمر الرابع غير متصور و لا معقول، فلا يحكم عليه.

فإن قيل: بل هاهنا أمر رابع معقول، و هو الاقتصار على الأول؛ فإنه نسخ بالزيادة، و هذا غير الأقسام الثلاثه.

فالجواب: أنه لا- معنى للاقتصار غير عدم وجوب غيره، و كونه جميع الواجب، و هذا هو القسم الثالث بعينه غير تم التعبير عنه، و كسوته عباره أخرى.

الوجه الحادى و العشرون: أن الناسخ و المنسوخ لا- بد أن يتواردا على محل واحد يقتضى المنسوخ ثبوته، و الناسخ رفعه، أو بالعكس، و هذا غير متحقق فى الزيادة على النص.

الوجه الثانى و العشرون: أن كل واحد من الزائد و المزيد عليه دليل قائم بنفسه، مستقل بإفاده حكمه، و قد أمكن العمل بالدليلين، فلا يجوز إلغاء أحدهما و إبطاله، و إلقاء الحرب بينه و بين شقيقه و صاحبه، فإن كل ما جاء من عند الله فهو حق يجب اتباعه، و العمل به و لا- يجوز إلغاؤه، و إبطاله إلا- حيث أبطله الله و رسوله بنص آخر ناسخ له، لا- يمكن الجمع بينه و بين المنسوخ، و هذا بحمد الله منتف فى مسألتنا، فإن العمل بالدليلين ممكن، و لا تعارض بينهما، و لا تناقض بوجه، فلا يسوغ لنا إلغاء ما اعتبره الله و رسوله، كما لا يسوغ لنا اعتبار ما ألغاه. و بالله التوفيق.

الوجه الثالث و العشرون: أنه إن كان القضاء بالشاهد و اليمين ناسخا للقرآن و إثبات التغريب ناسخا للقرآن، فالوضوء بالنيذ أيضا ناسخ للقرآن و لا- فرق بينهما البتة، بل القضاء بالنكول و معاهد القمط يكون ناسخا للقرآن، و حينئذ فنسخ كتاب الله بالسنة الصحيحه الصريحه التى لا مطعن فيها أولى من نسخه بالرأى و القياس و الحديث الذى لا يثبت (1).

و إن لم يكن ناسخا للقرآن لم يكن هذا نسخا له، و أما أن يكون هذا نسخا و ذاك ليس بنسخ، فتحكم باطل، و تفريق بين متماثلين.

الوجه الرابع و العشرون: أن ما خالفتموه من الأحاديث التى زعمتم أنها زياده على نص القرآن إن كانت تستلزم نسخه، فقطع رجل السارق فى المره الثانيه نسخ؛ لأنه زياده على القرآن و إن لم يكن هذا نسخا فليس ذلك نسخا.

الوجه الخامس و العشرون: أنكم قلت: لا يكون المهر أقل من عشره دراهم (2)، و ذلك.

ص: ٣٧٩

١- لا ينسخ شىء من كتاب الله بهذا، و لا بذاك، فهو المهيمن على كل كتاب، و كل كلام.

٢- أخرج مسلم عن أبى الزبير قال: سمعت جابرا يقول: كنا نستمتع بالقبض من التمر و الدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال البيهقى و هذا و إن كان فى نكاح المتعه، و نكاح المتعه صار منسوخا وإنما نسخ منه شرط الأجل، فأما ما يجعلونه صداقا، فإنه لم يرد فيه نسخ. و فى حديث رواه الجماعة: «أن النبى صلى الله عليه و سلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفره، فقال: «ما هذا؟» قال: تزوجت امرأه على وزن نواه من ذهب. قال: «بارك الله لك، أو لم و لو بشاه»، و جزم الخطابى أنها كانت تساوى خمسه دراهم، و اختاره الأزهرى، و نقله عياض عن أكثر العلماء.

زياده على ما فى القرآن، فإن الله سبحانه أباح استحلال البضع بكل ما يسمى مالا، و ذلك يتناول القليل و الكثير، فزدم على القرآن بقياس فى غايه الضعف، و بخبر فى غايه البطلان، فإن جاز نسخ القرآن بذلك فلم لا يجوز نسخه بالسنة الصحيحه الصريحه؟ و إن كان هذا ليس بنسخ لم يكن الآخر نسخا.

الوجه السادس و العشرون: أنكم أوجبتم الطهاره للطواف بقوله: «الطواف بالبيت صلاه» و ذلك زياده على القرآن، فإن الله إنما أمر بالطواف، و لم يأمر بالطهاره، فكيف لم تجعلوا ذلك نسخا للقرآن، و جعلتم القضاء بالشاهد و اليمين و التغريب فى حد الزنا نسخا للقرآن.

الوجه السابع و العشرون: أنكم مع الناس أوجبتم الاستبراء فى جواز وطء المسيه بحديث ورد زائدا على كتاب الله، و لم تجعلوا ذلك نسخا له، و هو الصواب بلا شك، فهلا فعلتم ذلك فى سائر الأحاديث الزائده على القرآن.

الوجه الثامن و العشرون: أنكم وافقتم على تحريم الجمع بين المرأه و عمتها، و بينها و بين خالتها بخبر الواحد، و هو زائد على كتاب الله تعالى قطعا، و لم يكن ذلك نسخا، فهلا فعلتم ذلك فى خبر القضاء بالشاهد و اليمين و التغريب، و لم تعدوه نسخا، و كل ما تقولونه فى محل الوفاق يقوله لكم منازعوكم فى محل النزاع حرفا بحرف.

الوجه التاسع و العشرون: أنكم قلت: لا يفطر المسافر، و لا يقصر فى أقل من ثلاثه أيام، و الله تعالى قال: **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** [البقره]:

[١٨٤]، و هذا يتناول الثلاثه و ما دونها، فأخذتم بقياس ضعيف، أو أثر لا يثبت فى التحديد بالثلاث، و هو زياده على القرآن، و لم تجعلوا ذلك نسخا، فكذلك الباقي.

الوجه الثلاثون: أنكم منعتم قطع من سرق ما يسرع إليه الفساد من الأموال، مع أنه سارق حقيقه و لغه و شرعا، لقوله: «لا قطع فى ثمر و لا كثر» (١) و لم تجعلوا ذلك نسخا للقرآن و هو زائد عليه.

الوجه الحادى الثلاثون: أنكم رددتم السنن الثابته عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى المسح على العمامه، و قلت: إنها زائده على نص القرآن، فتكون ناسخه له، فلا تقبل، ثم ناقضتم فأخذتم بأحاديث المسح على الخفين و هى زائده على القرآن، و لا فرق بينهما، و اعتذرتن.

ص: ٣٨٠

١- أبو داود (٤٣٨٨) فى الحدود، باب: ما لا يقطع فيه، و الترمذى (١٤٤٩) فى الحدود، باب: ما جاء لا قطع فى ثمر و لا كثر.

بالفرق بأن أحاديث المسح على الخفين متواتره، بخلاف المسح على العمامه، وهو اعتذار فاسد؛ فإن من له اطلاع على الحديث لا يشك في شهره كل منهما، وتعدد طرقها، واختلاف مخارجها وثبوتها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولاً وفعلاً.

الوجه الثاني والثلاثون: أنكم قبلتم شهاده المرأه الواحده على الرضاع والولاده، و عيوب النساء مع أنه زائد على ما فى القرآن، ولم يصح الحديث به صحته بالشاهد واليمين، و رددتم هذا ونحوه بأنه زائد على القرآن.

الوجه الثالث والثلاثون: أنكم رددتم السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى أنه لا يحرم أقل من خمس رضعات، و لا- تحرم الرضعه و الرضعتان، و قلمتم: هى زائده على القرآن، ثم أخذتم بخبر لا- يصح بوجه ما فى أنه لا قطع فى أقل من عشره دراهم، أو ما يساويها، و لم تروه زياده على القرآن، و قلمتم: هذا بيان للفظ السارق، فإنه مجمل، و الرسول بينه بقوله:

«لا تقطع اليد فى أقل من عشره دراهم» (١)

فيا لله العجب كيف كان هذا بياناً، و لم يكن حديث التحريم بخمس رضعات بياناً لمجمل قوله: وَ أُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمُ [النساء: ٢٣] و لا تأتون بعذر فى آيه القطع إلا كان مثله، أو أولى منه فى آيه الرضاع سواء بسواء!

الوجه الرابع والثلاثون: أنكم رددتم السنه الثابته، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسح على الجوربين، و قلمتم: هى زائده على القرآن، و جوزتم الوضوء بالخمير المحرمه من نبيذ التمر المسكر بخبر لا يثبت، و هو بخلاف القرآن.

الوجه الخامس والثلاثون: أنكم رددتم السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى الصوم عن الميت و الحج عنه، و قلمتم هو زائد على قوله تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) [النجم: ٣٩]، ثم جوزتم أن تعمل أعمال الحج كلها عن المغمى عليه، و لا تروه زائداً على قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩)، و أخذتم بالسنه الصحيحه، و أصبتم فى حمل العاقله الديه عن القاتل خطأ، و لم تقولوا هو زائد على قوله: وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٢) وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا- عَلَيْهَا [الأنعام: ١٦٤] و اعتذاركم بأن الإجماع الجأكم إلى ذلك لا .

ص: ٣٨١

١- مسلم (٢/١٦٨٤) فى الحدود، باب: حد السرقة و نصابها، و النسائي (٤٩١٧) فى قطع السارق، باب: ذكر الاختلاف على الزهري، و ابن ماجه (٢٥٨٥) فى الحدود، باب: حد السارق، و أحمد (١٠٤/٦).

٢- فى الأنعام: ١٦٤، و الإسراء: ١٥، و فاطر: ١٨، و الزمر: ٧، أما فى النجم: وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

يفيد؛ لأن عثمان البتي، وهو من فقهاء التابعين يرى أن الديه على القاتل و ليس على العاقله منها شىء، ثم هذا حجه عليكم أن تجمع الأمه على الأخذ بالخبر، وإن كان زائدا على القرآن.

الوجه السادس و الثلاثون: أنكم رددتم السنه الثابته عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في اشتراط المحرم أن يحل حيث حبس، و قلت: هو زائد على القرآن، فإن الله أمر بإتمام الحج و العمرة، و الإحلال خلاف الإتمام، ثم أخذتم و أصبتم بحديث تحريم لبن الفحل، و هو على ما فى القرآن قطعا.

الوجه السابع و الثلاثون: رددكم السنه الثابته عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بالوضوء من مس الفرج، و أكل لحوم الإبل، و قلت: ذلك زياده على القرآن؛ لأن الله تعالى إنما ذكر الغائط، ثم أخذتم بحديث ضعيف فى إيجاب الوضوء من القهقهه، و خبر ضعيف فى إيجابه من القيء، و لم يكن إذ ذاك زائدا على ما فى القرآن، إذ هو قول متبوعكم.

فمن العجب، إذا قال من قلدتموه قولاً زائداً على ما فى القرآن قبلتموه، و قلت ما قاله لا بدليل، و سهل عليكم مخالفه ظاهر القرآن حينئذ، و إذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم قولاً زائداً على ما فى القرآن، قلت: هذا زياده على النص و هو نسخ، و القرآن لا ينسخ بالسنه، فلم تأخذوا به، و استعصيتم خلاف ظاهر القرآن، فهان خلافه إذا وافق قول من قلدتموه، و صعب خلافه إذا وافق قول رسول الله صلى الله عليه و سلم!

الوجه الثامن و الثلاثون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف لا يثبت فى إيجاب المضمضه و الاستنشاق فى الغسل من الجنابه، و لم تروه زائداً على القرآن، و رددتم السنه الصحيحه الصريحه فى أمر المتوضئ بالاستنشاق، و قلت: هو زائد على القرآن، فهاتوا لنا الفرق بين ما يقبل من السنن الصحيحه و ما يرد منها، فإما أن تقبلوها كلها، و إن زادت على القرآن، و إما أن تردوها كلها إذا كانت زائده على القرآن، و أما التحكم فى قبول ما شئتم منها، و رد ما شئتم منها، فما لم يأذن به الله و لا رسوله، و نحن نشهد الله شهاده يسألنا عنها يوم نلقاه أنا لا نرد لرسول الله صلى الله عليه و سلم سنه واحده صحيحه أبداً إلا بسنه صحيحه مثلها نعلم أنها ناسخه لها.

الوجه التاسع و الثلاثون: أنكم رددتم السنه الصحيحه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى القسم للبكر سبعا، يفضلها بها على من عنده من النساء، و للثيب ثلاثاً إذا أعرس بهما، و قلت: هذا زائد على العدل المأمور به فى القرآن، و مخالف له فلو قبلنا كنا قد نسخنا به القرآن، ثم أخذتم بقياس فاسد واه لا يصح فى جواز نكاح الأمه لواجد الطول غير خائف العنت، و إذا لم تكن تحته حره، و هو خلاف ظاهر القرآن، و زائد عليه قطعا.

الوجه الأربعون: ردكم السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم ياسقاط نفقه المبتوته و سكنائها، و قلتم: هو مخالف للقرآن، فلو قبلناه كان نسخا للقرآن به، ثم أخذتم بخبر ضعيف لا يصح أن عدّه الأمه قرءان، و طلاقها طلقتان مع كونه زائدا على ما فى القرآن قطعا.

الوجه الحادى و الأربعون: ردكم السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فى تخيير ولى الدم بين الديه، أو القود، أو العفو بقولكم: إنها زائده على ما فى القرآن، ثم أخذتم بقياس من أفسد القياس أنه لو ضربه بأعظم دبوس يوجد حتى ينثر دماغه على الأرض، فلا قود عليه و لم تروا ذلك مخالفا لظاهر القرآن، و الله تعالى يقول: **النَّفْسِ بِالنَّفْسِ [المائدة: ٤٥]**، و يقول:

فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقره: ١٩٤].

الوجه الثانى و الأربعون: أنكم رددتم السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بقوله: «لا- يقبل مسلم بكافر» (١) و قوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (٢) و قلتم: هذا خلاف ظاهر القرآن؛ لأن الله تعالى يقول: **النَّفْسِ بِالنَّفْسِ** و أخذتم بخبر لا يصح عن رسول الله بأنه: «لا قود إلا بالسيف» (٣) و هو مخالف لظاهر القرآن، فإنه سبحانه قال: **وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا [الشورى: ٤٠]**، و قال: **فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقره: ١٩٤].**

الوجه الثالث و الأربعون: و قال أنكم أخذتم بخبر لا يصح عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فى أنه:

«لا جمعه إلا فى مصر جامع»، و هو مخالف لظاهر القرآن قطعا، و زائد عليه، و رددتم الخبر الصحيح الذى لا شك فى صحته عند أحمد من أهل العلم فى أن كل بيعين، فلا بيع بينهما حتى يتفرقا و قلتم: هو خلاف ظاهر القرآن فى وجوب الوفاء بالعقد.

الوجه الرابع و الأربعون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف: «لا تقطع الأيدى فى الغزو»، و هو زائد على القرآن، و عدىتموه إلى سقوط الحدود على من فعل أسبابها فى دار الحرب، و تركتم الخبر الصحيح الذى لا ريب فى صحته فى المصره، و قلتم: هو خلاف ظاهر القرآن من عدّه أوجه.

الوجه الخامس و الأربعون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف بل باطل فى أنه لا يؤكل الطافى.

ص: ٣٨٣

١- البخارى (١١١) فى العلم، باب: كتابه العلم، و أحمد (٧٩/١).

٢- أبو داود (٢٧٥١) فى الجهاد، باب: فى السريه [ترد على أهل العسكر]، و ابن ماجه (٢٦٨٣) فى الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، و أحمد (١١٩/١).

٣- ابن ماجه (٢٦٦٧) فى الديات، باب: لا قود إلا بالسيف، و فى الزوائد: «فى إسناده جابر الجعفى، و هو كذاب» و ضعفه الألبانى.

من السمك، وهو خلاف القرآن، إذ يقول تعالى: أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ [المائدة]:

[٩٦]، فصيده ما صيد منه حيا و طعامه قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو ما مات فيه، صح ذلك عن الصديق و ابن عباس و غيرهما، ثم تركتم الخبر الصحيح المصرح بأن ميته حلال، مع موافقته لظاهر القرآن.

الوجه السادس و الأربعون: أنكم أخذتم و أصبتم بحديث تحريم كل ذى ناب من السباع، و مخلب من الطير، و هو زائد على ما فى القرآن، و لم تروه ناسخا، ثم تركتم حديث حل لحوم الخيل الصحيح الصريح، و قلتم: هو مخالف لما فى القرآن زائد عليه و ليس كذلك.

الوجه السابع و الأربعون: أنكم أخذتم بحديث المنع من توريث القاتل مع أنه زائد على القرآن، و حديث عدم القود على قاتل ولده، و هو زائد على ما فى القرآن مع أن الحديثين ليسا فى الصحة بذاك، و تركتم الأخذ بحديث إعتاق النبي صلى الله عليه و سلم لصفيه، و جعل عتقها صداقها، فصارت بذلك زوجة، و قلتم: هذا خلاف ظاهر القرآن، و الحديث فى غايه الصحة.

الوجه الثامن و الأربعون: أنكم أخذتم بالحديث الضعيف الزائد على ما فى القرآن، و هو: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» (١)، فقلتم: هذا يدل على وقوع طلاق المكره و السكران، و تركتم السنه الصحيحه التى لا ريب فى صحتها فيمن وجد متاعه بعينه عند رجل قد أفلس، فهو أحق به و قلتم: هو خلاف ظاهر القرآن بقوله: لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ [النساء: ٢٩] و العجب أن ظاهر القرآن مع الحديث متوافقان متطابقان، فإن منع البائع من الوصول إلى الثمن، و إلى عين ماله إطعام له بالباطل الغرماء، فخالقتم ظاهر القرآن من السنه الصحيحه الصريحه.

الوجه التاسع و الأربعون: أنكم أخذتم بالحديث الضعيف و هو: «من كان له إمام فقراءه الإمام قراءه له» (٢) و لم تقولوا: هو زائد على القرآن فى قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) [النجم] و تركتم الحديث الصحيح فى بقاء الإحرام بعد الموت، و أنه لا ينقطع به، و قلتم: هو خلاف ظاهر القرآن فى قوله: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [النمل: ٩٠].

ص: ٣٨٤

١- الترمذى (١١٩١) فى الطلاق، باب: ما جاء فى طلاق المعتوه، و قال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عطاء بن عجلان، و عطاء بن عجلان ضعيف، ذاهب الحديث».

٢- أحمد (٣٣٩/٣).

و خلاف ظاهر قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «إذا مات ابن آدم انقطع منه عمله إلا من ثلاث» (١).

الوجه الخمسون: رد السنه الثابته عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ في وجوب الموالاه حيث أمر الذي ترك لمعه (٢) من قدمه بأن يعيد الوضوء و الصلاه، و قالوا: هو زائد على كتاب الله، ثم أخذوا بالحديث الضعيف الزائد على كتاب الله في أن أقل الحيض ثلاثه أيام، و أكثره عشره.

الوجه الحادى و الخمسون: رد الحديث الثابت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ في: «أنه لا- نكاح إلا- بولى» (٣) و أن من أنكحت نفسها فنكاحها باطل، و قالوا: هو زائد على كتاب الله، فإن الله تعالى يقول: فَلَا تَغْضُؤْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ [البقره: ٢٣٢]، و قال فلا- جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ [البقره: ٢٣٤]، ثم أخذوا بالحديث الضعيف الزائد على القرآن قطعاً في اشتراط الشهاده في صحه النكاح، و العجب أنهم استدلوا على ذلك بقوله «لا نكاح إلا بولى مرشد، و شاهد عدل» (٤)، ثم قالوا: لا- يفتقر إلى حضور الولى، و لا- عداله الشاهدين، فهذا طرف من بيان تناقض من رد السنن بكونها زائده على القرآن، فتكون ناسخه فلا تقبل.

الوجه الثانى و الخمسون: أنكم تجوزون الزيادة على القرآن بالقياس الذى أحسن أحواله أن يكون للأمه فيه قولان: أحدهما: أنه باطل مناف للدين، و الثانى: أنه صحيح مؤخر على الكتاب و السنه، فهو في المرتبه الأخيره، و لا تختلفون في جواز إثبات حكم زائد على القرآن به، فهلا قلتم: إن ذلك يتضمن نسخ الكتاب بالقياس.

فإن قيل: قد دل القرآن على صحه القياس و اعتباره و إثبات الأحكام به، فما خرجنا عن موجب القرآن، و لا زدنا على ما فى القرآن إلا بما دلنا عليه القرآن.

قيل: فهل قلتم مثل هذا سواء فى السنه الزائده على القرآن، و كان قولكم ذلك فى السنه أسعد و أصلح من القياس الذى هو محل آراء المجتهدين، و عرضه للخطأ، بخلاف قول من ضمنت لنا العصمه فى أقواله، و فرض الله علينا اتباعه و طاعته. د.

ص: ٣٨٥

١- مسلم (١٤/١٦٣١) فى الوصيه، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، و أبو داود (٣٨٨٠) فى الوصايا، باب: فى الصدقه عن الميت، و الترمذى (١٣٧٦) فى الأحكام، باب: فى الوقف.

٢- بقره يسيره من جسده لن ينلها الماء.

٣- أبو داود (٢٠٨٥) فى النكاح، باب: فى الولى، و الترمذى (١١٠١) فى النكاح، باب: ما جاء لا نكاح إلا بولى، و ابن ماجه (١٨٨١) فى النكاح، باب: لا نكاح إلا بولى.

٤- موارد الظمان (١٢٤٧) فى النكاح، باب: ما جاء فى الولى و الشهود، بدون لفظ مرشد.

فإن قيل: القياس: بيان لمراد الله ورسوله من النصوص، وأنه أريد بها إثبات الحكم في المذكور في نظيره، وليس ذلك زائداً على القرآن، بل تفسير له و تبين.

قيل: فهلا قلتم أن السنه بيان لمراد الله من القرآن تفصيلاً لما أجمله، و تبيناً لما سكت عنه، و تفسيراً لما أبهمه؛ فإن الله سبحانه أمر بالعدل و الإحسان و البر و التقوى، و نهى عن الظلم و الفواحش و العدوان و الإثم، و أباح لنا الطيبات، و حرم علينا الخبائث، فكل ما جاءت به السنه، فإنها تفصيل لهذا المأمور به، و المنهى عنه، و الذى أحل لنا هو الذى حرم علينا.

و هكذا يتبين بالمثل التاسع عشر، و هو أن النبى صلى الله عليه و سلم أمر فى حديث النعمان بن بشير أن يعدل بين الأولاد فى العطيه، فقال: «اتقوا الله و اعدلوا بين أولادكم» (١). و فى حديث: «إني لا أشهد على جور» (٢) فسماه جوراً، و قال: «أشهد على هذا غيرى» (٣) تهديدا له، و إلا فمن الذى يطلب هذا من المسلمين أن يشهد على ما حكم النبى صلى الله عليه و سلم بأنه جور، و أنه لا يصلح، و أنه على خلاف تقوى الله، و أنه خلاف العدل؟ و هذا الحديث من تفاصيل العدل الذى أمر الله به فى كتابه، و قامت به السموات و الأرض و أسست عليه الشريعة، فهو أشد موافقه للقرآن من كل قياس عن وجه الأرض، و هو محكم الدلاله غايه الإحكام، فرد بالمتشابه من قوله: «كل أحد أحق بماله من ولده و والده و الناس أجمعين» (٤) فكونه أحق به يقتضى جواز تصرفه كما يشاء، و بقياس متشابه على إعطاء الأجنب. و من المعلوم بالضروره أن هذا المتشابه من العموم و القياس لا يقاوم هذا المحكم المبين غايه البيان (٥).

تخصيص القرآن بالسنه

عن أبى إسحاق -و هو السبيعي- قال: كنت فى المسجد الجامع مع الأسود، فقال:

أت فاطمه بنت قيس عمر بن الخطاب، فقال: ما كنا لندع كتاب ربنا و سنه نبينا صلى الله عليه و سلم لقول امرأه، لا ندرى أحفظت أم لا؟ (٦).

ص: ٣٨٦

- ١- البخارى (٢٥٨٧) فى الهبه، باب: الإشهاد فى الهبه، و مسلم (١٣/١٦٢٣) فى الهبات، باب: كراهه تفضيل بعض الأولاد فى الهبه.
- ٢- مسلم (١٤/١٦٢٣) فى الهبات، باب: كراهه تفضيل بعض الأولاد فى الهبه، و أحمد (٢٦٨/٤).
- ٣- مسلم (١٧/١٢٦٨) فى الهبات، باب: كراهه تفضيل بعض الأولاد فى الهبه، و أحمد (٢٦٩/٤).
- ٤- البيهقى فى الكبرى (٤٨١/٧)، و الدار قطنى (٢٣٦/٤).
- ٥- إعلام الموقعين (٣٢٣/٢-٣٤٨).
- ٦- البيهقى فى الكبرى (٤٧٥/٧)، و الدار قطنى (٢٧/٤).

قال أبو داود في «المسائل»: سمعت أحمد بن حنبل، و ذكر له قول عمر: لا ندع كتاب ربنا و سنه نبينا لقول امرأه. فلم يصح هذا عن عمر، و قال الدارقطني: هذا الكلام لا يثبت عن عمر، يعني قوله: سنه نبينا. ثم ذكر أحاديث الباب، ثم قال بعد انتهاء آخر الباب:

اختلف الناس في المبتوته، هل لها نفقه، أو سكنى؟ على ثلاثة مذاهب، و على ثلاث روايات عن أحمد:

أحدها: أنه لا - سكنى لها و لا - نفقه، و هو ظاهر مذهبه، و هذا قول علي بن أبي طالب، و عبد الله بن عباس، و جابر، و عطاء، و طاوس، و الحسن، و عكرمة، و ميمون ابن مهران، و إسحاق بن راهويه، و داود بن علي، و أكثر فقهاء الحديث، و هو مذهب صاحبه القصة فاطمه بنت قيس، و كانت تناظر عليه.

و الثاني: و يروى عن عمر و عبد الله بن مسعود: أن لها السكنى و النفقه. و هو قول أكثر أهل العراق، و قول ابن شبرمه، و ابن أبي ليلى، و سفیان الثوري، و الحسن بن صالح، و أبي حنيفة و أصحابه، و عثمان البتي، و العنبري، و حكاة أبو يعلى القاضى فى «مفرداته» روايه عن أحمد، و هى غريبه جدا.

و الثالث: أن لها السكنى دون النفقه، و هذا قول مالك و الشافعى و فقهاء المدينة السبعة، و هو مذهب عائشه أم المؤمنين رضى الله عنها.

و أسعد الناس بهذا الخبر من قال به، و أنه لا نفقه لها، و لا سكنى، و ليس مع من رده حجه تقاومه، و لا تقاربه.

قال ابن عبد البر: أما من طريق الحجة و ما يلزم منها، فقول أحمد بن حنبل و من تابعه أصح و أرجح؛ لأنه ثبت عن النبى صلى الله عليه و سلم نضا صريحا، فأى شىء يعارض هذا إلا مثله عن النبى صلى الله عليه و سلم، الذى هو المبين على الله مراده؟ و لا شىء يدفع ذلك، و معلوم أنه أعلم بتأويل قول الله تعالى: **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ [الطلاق: ٦]**.

و أما قول عمر و من وافقه، فقد خالفه على و ابن عباس و من وافقهما. و الحجة معهم، و لو لم يخالفهم أحد منهم لما قبل المخالف لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإن قول رسول الله صلى الله عليه و سلم حجه على عمر و على غيره. و لم يصح عن عمر أنه قال: لا - ندع كتاب ربه و سنه نبينا لقول امرأه، فإن أحمد أنكره، و قال: أما هذا فلا، و لكن قال: لا نقبل فى ديننا قول امرأه. و هذا أمر يردده الإجماع على قبول قول المرأه فى الروايه، فأى حجه فى شىء يخالفه الإجماع؛ و ترده السنه، و يخالفه فيه علماء الصحابه؟

وقال إسماعيل بن إسحاق: نحن نعلم أن عمر لا- يقول: «لا- ندع كتاب ربنا» إلا لما هو موجود في كتاب الله تعالى، والذي في الكتاب أن لها النفقة إذا كانت حاملا، لقوله تعالى:

وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٦] وأما غير ذوات الحمل فلا يدل الكتاب إلا على أنهن لا نفقه لهن، لا شرطه الحمل في الأمر بالإنفاق، آخر كلامه.

والذين ردوا كلام فاطمه هذا ظنوه معارضا للقرآن، فإن الله تعالى قال: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ [الطلاق: ٦] وقال: لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ [الطلاق: ١]، وهذا لو كان كما ظنوه لكان في السكنى خاصه، وأما إيجاب النفقة لها فليس في القرآن إلا ما يدل على أنه لا نفقه لهن، كما قال القاضي إسماعيل؛ لأن الله- سبحانه و تعالى- شرط في وجوب الإنفاق أن يكن من أولات الحمل، وهو يدل على أنها إذا كانت حائلا (١) فلا نفقه لها، كيف وإن القرآن لا يدل على وجوب السكنى للمتبوه بوجه ما؟ فإن السياق كله إنما هو في الرجعية.

و يبين ذلك قوله تعالى: لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) [الطلاق: ١] وقوله:

فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [الطلاق: ٢] وهذا في البائن مستحيل، ثم قال: أَسْكِنُوهُنَّ وَ اللاتي قال فيهن: فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [الطلاق: ٢] قال فيهن: أَسْكِنُوهُنَّ [الطلاق: ٦] ولا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ [الطلاق: ١]، وهذا ظاهر جدا.

و شبهه من ظن أن الآية في البائن قوله تعالى: وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٦].

قالوا: و معلوم أن الرجعية لها النفقة؛ حاملا كانت أم حائلا، وهذا لا حجه فيه، فإنه إذا أوجب نفقتها حاملا لم يدل ذلك على أنه لا نفقة لها إذا كانت حائلا، بل فائده التقييد بالحمل التنبيه على اختلاف جهه الإنفاق بسبب الحمل قبل الوضع و بعده، فقبل الوضع لها النفقة حتى تضعه، فإذا وضعته صارت النفقة بحكم الإجاره و رضاعه الولد، و هذه قد يقوم غيرها مقامها فيه فلا تستحقها، لقوله تعالى: وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسْتَزْعُ لَه أُخْرَى [الطلاق: ٦]، و أما نفقه حال الحمل فلا- يقوم غيرها مقامها فيه، بل هي مستمره حتى تضعه، فجهه الإنفاق مختلفه. و أما الحائل فنفتتها معلومه من نفقه الزوجات، فإنها زوجه ما دامت في العده، فلا حاجه إلى بيان وجوب نفقتها.».

ص: ٣٨٨

و أما الحامل فلما اختلفت جهه النفقه عليها قبل الوضع و بعده، ذكر سبحانه الجهتين و السبيين. و هذا من أسرار القرآن و معانيه التي يختص الله بفهمها من شاء.

و أيضا، فلو كان قوله تعالى: **وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِيلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** في البوائن لكان دليلا ظاهرا على أن الحائل البائن لا نفقه لها؛ لا اشتراط الحمل في وجوب الإنفاق، و الحكم المعلق بالشرط يعدم عند عدمه، و أما آيه السكنى، فلا يقول أحد: إنها مختصه بالبائن؛ لأن السياق يخالفه، و يبين أن الرجعيه مراده منها، فإما أن يقال: هي مختصه بالرجعيه كما يدل عليه سياق الكلام، و تتحد الضمائر، و لا تختلف مفسراتها، بل يكون مفسر قوله: **فَأَمْسِكُوهُنَّ** هو مفسر قوله: **أَسْكِنُوهُنَّ** و على هذا فلا حجه في سكنى البائن. و إما أن يقال: هي عامه للبائن و الرجعيه.

و على هذا فلا يكون حديث فاطمه منافيا للقرآن، بل غايته: أن يكون مخصصا لعمومه، و تخصيص القرآن بالسنة جائز واقع، هذا لو كان قوله: **أَسْكِنُوهُنَّ** عاما، فكيف لا يصح فيه العموم، لما ذكرناه؟

و قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نفقه لك و لا سكنى» (١) و قوله في اللفظ الآخر: «إنما النفقه و السكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعه» (٢) رواه الإمام أحمد و النسائي، و إسناده صحيح، و في لفظ لأحمد: «إنما النفقه و السكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعه، فإذا لم يكن له عليها رجعه فلا نفقه و لا سكنى» (٣)، و هذا يبطل كل ما تأولوا به حديث فاطمه، فإن هذا فتوى عامه، و قضاء عام في حق كل مطلقه، فلو لم يكن لشأن فاطمه ذكر في المبين لكان هذا اللفظ العام مستقلا بالحكم، لا معارض له بوجه من الوجوه. فقد تبين أن القرآن لا يدل على خلاف هذا الحديث، بل إنما يدل على موافقه، كما قالت فاطمه: بيني و بينكم القرآن.

و لما ذكر لأحمد قول عمر: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأ تبسم أحمد و قال: أي شيء في القرآن خلاف هذا (٤)؟.

ص: ٣٨٩

١- البخارى (٥٣٢٤، ٥٣٢٣) في الطلاق، باب: قصه فاطمه بنت قيس، و مسلم (٣٧/١٤٨٠) في الطلاق، باب: المطلقه ثلاثا لا نفقه لها.

٢- النسائي (٣٤٠٣) في الطلاق، باب: الرخصه في الطلاق الثلاث، و أحمد (٣٧٣/٦).

٣- أحمد (٤١٧/٦).

٤- تهذيب السنن (١٩٠/٣-١٩٣).

سئل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أُخْتُ هَارُونَ [مريم: ٢٨]، فَقَالَ: «كَانُوا يَسْمُونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ» (١).

و فِي التِّرْمِذِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) [الصفافات: ١٤٧]: كَمْ كَانَتِ الزِّيَادَةُ؟ قَالَ: «عَشْرَةَ أَلْفٍ» (٢).

و سَأَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو ثَعْلَبَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ [المائدة: ١٠٥] فَقَالَ: «اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مَطَاعًا، وَهُوَ مَتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعِ عَنكَ الْعَوَامِ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ» (٣). ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤).

بَاب: مِنْهُ قَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِدَّةَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تَطْلُقَ لَهَا النِّسَاءُ بِالْأَطْهَارِ، فَلَا التَّفَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ خَالَفَهُ، بَلْ كُلُّ تَفْسِيرٍ يَخَالَفُ هَذَا فَبَاطِلٌ (٥).

تفسير الصحابة للقرآن و الأقوال فى الاحتجاج به

و قد اختلف فى تفسير الصحابي، هل له حكم المرفوع، أو الموقوف، على قولين:

الأول: اختبار أبي عبد الله الحاكم، والثانى: هو الصواب، و لا نقول على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم نعلم أنه قاله (٦).

ص: ٣٩٠

١- مسلم (٩/٢١٣٥) فى الأدب، باب: النهى عن التكنى بأبى القاسم، و الترمذى (٣١٥٥) فى تفسير القرآن، باب: و من سوره مريم و قال: «صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس».

٢- الترمذى (٣٢٢٩) فى تفسير القرآن، باب: من سوره الصفافات، و قال: «حديث غريب»، و ضعفه الألبانى.

٣- أبو داود (٤٣٤١) فى الملاحم، باب: الأمر و النهى، و ضعفه الألبانى.

٤- إعلام الموقعين (٤/٤٩٦).

٥- زاد المعاد (٥/٦٢٠).

٦- طريق الهجرتين (٣٨٣).

لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع.

قال أبو عبد الله الحاكم في «مستدرکه»: «وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع».

و مراده أنه في حكمه في الاستدلال به و الاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولاً فلنا أن نقول: هذا القول قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و له وجه آخر، وهو أن يكون في حكم المرفوع بمعنى أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين لهم معاني القرآن، وفسره لهم كما وصفه تعالى بقوله: لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤]، فبين لهم القرآن بيانا شافيا كافيا.

و كان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له، و كما سأله الصديق عن قوله: مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] فبين له المراد، و كما سأله الصحابه عن قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: ٨٢]، فبين لهم معناها.

و كما سألته أم سلمه عن قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) [الانشقاق]، فبين لها أنه العرض، و كما سأله عمر عن الكلاله فأحاله على آية الصيف (١) التي في آخر السوره، و هذا كثير جدا.

فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتاره ينقلونه عنه بلفظه؛ و تاره بمعناه، فيكون ما فسروا بألفاظهم من باب الروايه بالمعنى، كما يروون عنه السنه تاره بلفظها و تاره بمعناها، و هذا أحسن الوجهين، و الله أعلم.

بعض تفسير الصحابه يخالف الأحاديث

فإن قيل: فنحن نجد لبعضهم أقوالا في التفسير تخالف الأحاديث المرفوعه الصحاح، و هذا كثير. كما فسر ابن مسعود الدخان بأنه الأثر الذي حصل عن الجوع الشديد و القحط، و قد صح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه دخان يأتي قبل يوم القيامة يكون من أشرط الساعه مع الدابه و الدجال، و طلوع الشمس من مغربها.

و فسر عن عمر بن الخطاب قوله تعالى: أَسْكِنُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ [الطلاق]:

[٦]، بأنها للبائنه و الرجعيه، حتى قال: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأه، مع أن السنه الصحيحه في البائنه تخالف هذا التفسير.

ص: ٣٩١

١- هي آية الكلاله التي في آخر النساء لأنها نزلت في الصيف، أما الأولى فنزلت في الشتاء.

و فسر على بن أبي طالب-كرم الله وجهه-قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤَفِّقُونَ مِنْكُمْ وَ يَدْرُونَ أَرْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا [البقره: ٢٣٤] أنها عامه فى الحامل و الحائل، فقال:

تعتد أبعد الأجلين، و السنه الصحيحه بخلافه.

و فسر ابن مسعود قوله: وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ [النساء: ٢٣]، بأن الصفه لنسائكم الأولى و الثانيه، فلا تحرم أم المرأه حتى يدخل بها. و الصحيح خلاف قوله، و أن أم المرأه تحرم بمجرد العقد على ابنتها و الصفه راجعه إلى قوله: وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، و هو قول جمهور الصحابه.

و فسر ابن عباس: «السجل» بأنه كتاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يسمى السجل، و ذلك وهم، و إنما السجل الصحيحه المكتوبه، و اللام مثلها فى قوله تعالى: وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصفاف: ١٠٣]، و فى قول الشاعر:

فخر صريعا للدين و للفم (١)

أى يطوى السماء كما يطوى السجل على ما فيه من الكتاب: و هذا كثير جدا. فكيف يكون تفسير الصحابى حجه فى حكم المرفوع؟

قيل: الكلام فى تفسيره كالكلام فى فتواه سواء، و صوره المسأله هنا كصورتها هناك سواء بسواء؛ و صورتها ألا يكون فى المسأله نص يخالفه، و يقول فى الآيه قولاً لا يخالفه فيه أحد من الصحابه، سواء علم استشهارة أو لم يعلم، و ما ذكر من هذه الأمثله فقد فقد فيه الأمران، و هو نظير ما روى عن بعضهم من الفتاوى التى تخالف النص و هم مختلفون فيها سواء.

فإن قيل: لو كان قوله حجه بنفسه لما أخطأ، و لكان معصوما؛ لتقوم الحجه بقوله، فإذا كان يفتى بالصواب تاره و بغيره أخرى، و كذلك تفسيره فمن أين لكم أن هذه الفتوى المعينه و التفسير المعين من قسم الصواب؟ إذ صوره المسأله أنه لم يقم على المسأله دليل غير قوله، و قوله ينقسم، فما الدليل على أن هذا القول المعين من القسمين و لا بد؟

قيل: الأدله المتقدمه تدل على انحصار الصواب فى قوله فى الصوره المفروضه الواقعه، و هو أن من الممتنع أن يقولوا فى كتاب الله الخطأ المحض، و يمسك الباقون عنن.

ص: ٣٩٢

١- هذا عجز بيت، و صدره: ضمنت إليه باللسان قميصه. مغنى اللبيب (١/٢٣٨) تحقيق: محى الدين.

الصواب فلا يتكلمون به، وهذه الصورة المذكورة و أمثالها قد تكلم فيها غيرهم بالصواب، و المحذور إنما هو خلو عصرهم عن ناطق بالصواب، و احتمالها على ناطق بغيره فقط، فهذا هو المحال؛ و بهذا خرج الجواب عن قولكم: لو كان قول الواحد منهم حجة لما جاز عليه الخطأ، فإن قوله لم يكن بمجرد حجة؛ بل بما انضاف إليه مما تقدم ذكره من القرائن (١).

ما أشكل على بعض الصحابة

و أنكر على عائشه إذ فهمت من قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) [الانشقاق] معارضته لقوله صلى الله عليه و سلم: «من نوقش الحساب عذب» (٢)، و بين لها أن الحساب اليسير، هو العرض، أى حساب العرض، لا حساب المناقشه.

و أنكر على من فهم من قوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] أن هذا الجزاء إنما هو فى الآخرة، و أنه لا يسلم أحد من عمل السوء، و بين أن هذا الجزاء قد يكون فى الدنيا بالهم و الحزن و المرض و النصب، و غير ذلك من مصائبها، و ليس فى اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة.

و أنكر على من فهم من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام] أنه ظلم النفس بالمعاصى، و بين أنه الشرك، و ذكر قول لقمان لابنه: إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) [لقمان] مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل، و لم يظلموا أنفسهم بل قال: وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، و لبس الشىء بالشىء: تغطيته به و إحاطته به من جميع جهاته، و لا يغطى الإيمان و يحيط به و يلبسه إلا الكفر.

و من هذا قوله تعالى: بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَ بِهَا خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) [البقره]، فإن الخطيئه لا تحيط بالمؤمن أبداً، فإن إيمانه يمنع من إحاطه الخطيئه به، و مع أن سياق قوله: وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) [الأنعام]، ثم حكم الله أعدل حكم و أصدقه أن من آمن، و لم يلبس إيمانه بظلم فهو أحق بالأمن و الهدى، فدل على أن الظلم: الشرك.

ص: ٣٩٣

١- إعلام الموقعين (١٩٥/٤-١٩٨).

٢- مسلم (٧٩/٢٨٧٦) فى الجنة و صفه نعيمها و أهلها، باب: إثبات الحساب.

و سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الكلاله و راجعه فيها مرارا، فقال «تكفيك آيه الصيف» (١): و اعترف عمر بأنه خفى عليه فهمها، و فهمها الصديق.

و قد نهى النبى صلى الله عليه و سلم عن لحوم الحمر الأهليه، ففهم بعض الصحابه من نهيه أنه لكونها لم تحمس، و فهم بعضهم أن النهى لكونها كانت حموله القوم و ظهرهم، و فهم بعضهم أنه لكونها كانت جوال القريه. و فهم على بن أبى طالب -كرم الله وجهه فى الجنه- و كبار الصحابه ما قصده رسول الله صلى الله عليه و سلم بالنهى، و صرح بعلته من كونها رجسا.

و فهمت المرأه من قوله تعالى: وَ آتَيْتُمُ إِخِيْدَاهُنَّ قِنطَاراً [النساء: ٢٠] جواز المغالاه فى الصداق، فذكرته لعمر، فاعترف به. و فهم ابن عباس من قوله تعالى: وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا [الأحقاف: ١٥] مع قوله: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ [البقره: ٢٣٣] أن المرأه قد تلد لسته أشهر، و لم يفهمه عثمان فهم برجم امرأه ولدت لها، حتى ذكره ابن عباس، فأقر به.

و لم يفهم عمر من قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا- إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم و أموالهم، إلا بحقها» (٢) قتال مانعى الزكاه، حتى بين له الصديق فأقر به.

و فهم قدامه بن مظعون من قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا [المائد: ٩٣] رفع الجناح عن الخمر، حتى بين له عمر أنه لا يتناول الخمر، و لو تأمل سياق الآيه لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه، و ذلك إنما يكون باجتناى ما حرمه من المطاعم، فالآيه لا تتناول المحرم بوجه ما. و قد فهم من قوله تعالى: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقره: ١٩٥] انغماس الرجل فى العذو، حتى بين له أبو أيوب الأنصارى أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكه، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاه الله، و أن الإلقاء بيده إلى التهلكه هو ترك الجهاد، و الإقبال على الدنيا و عمارتها.

و قال الصديق رضى الله عنه: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآيه، و تضعونها على غير مواضعها:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [المائد: ١٠٥]، و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أو شك أن يعمهم الله بالعقاب».

ص: ٣٩٤

١- مسلم (٩/١٦١٧) فى الفرائض، باب: ميراث الكلاله.

٢- البخارى (١٣٩٩) فى الزكاه، باب: وجوب الزكاه، و مسلم (٣٣/٢١) فى الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا- إله إلا الله... إلخ.

من عنده» (١) فأخبرهم أن يضعونها على غير مواضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

و أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكته التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا، حتى بين له مولاة عكرمه دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكتين: **وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا [الأعراف: ١٦٤]**، فأخبر أنهم أنكروا فعلهم، و غضبوا عليهم و إن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به من أذى الواجب عنهم، فإن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فرض كفايه، فلما قام به أولئك سقط عن الباقيين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

و أيضا، فإن الله -سبحانه- إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به، و عتوا عما نهوا عنه، و هذا لا يتناول الساكتين قطعاً، فلما بين عكرمه لابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين كسأه برده و فرح به.

و قد قال عمر بن الخطاب للصحابه: ما تقولون في: **إِذَا جَاءَ نَصِيرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (١) السورة؟** قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم.

و هذا من أدق الفهم و أطفه، و لا يدركه كل أحد، فإنه -سبحانه- لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو -سبحانه- من نعمه فتحه على رسوله، و دخول الناس في دينه، و هذا ليس بسبب للاستغفار. فعلم أن سبب الاستغفار غيره، و هو حضور الأجل الذى من تمام نعمه الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح و الاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهراً من كل ذنب، فيقدم عليه مسروراً راضياً عنه، و يدل عليه أيضاً قوله: **فَسَيَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرُهُ [النصر: ٣]**، و هو صلى الله عليه و سلم كان يسبح بحمده دائماً، فعلم أن الأمور به من ذلك التسييح بعد الفتح، و دخول الناس في الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، و ذلك مقدمه بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى، و أنه قد بقيت عليه من عبوديه التسييح و الاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقيه، فأمره بتوفيتها. و يدل عليه أيضاً أنه سبحانه شرع التوبة و الاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج و قيام الليل، و كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً، و شرع للمتوضى بعد كمال وضوئه أن يقول: **«اللهم اجعلنى من التوابين»**.

ص: ٣٩٥

١- أبو داود (٤٣٣٨) في الملاحم، باب: الأمر و النهي، و الترمذى (٢١٦٨) في الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، و أحمد (٥/١).

و اجعلنى من المتطهرين» (١)، فعلم أن التوبه مشروعه عقيب الأعمال الصالحه، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرساله و الجهاد فى سبيله حين دخل الناس فى دينه أفواجا، فكأن التبليغ عباده قد أكملها، و أداها، فشرع له الاستغفار عقيبها (٢).

ص: ٣٩٦

١- الترمذى (٥٥) فى الطهاره، باب: فيما يقال بعد الوضوء، و قال: «فى إسناده اضطراب و لا- يصح عن النبى صلى الله عليه و سلم... إلخ». و قال الشيخ أحمد شاكر: «و قد أخطأ الترمذى فيما زعم من اضطراب الإسناد فى هذا الحديث، و من أنه لا يصح فى الباب كبير شىء. و أصل الحديث صحيح مستقيم الإسناد، و إنما جاء الاضطراب فى الأسانيد التى نقلها الترمذى - منه أو ممن حدثه بها» و بعد أن ذكر عده روايات للحديث قال: كل الروايات التى ذكرنا ليس فيها قوله: «اللهم اجعلنى من التوابين و اجعلنى من المتطهرين» إلا فى روايه الترمذى وحدها. و لا يكفى ذلك فى صحتها، لما علمت من الاضطراب و الخطأ فيها، و إنما جاءت فى حديث بهذا المعنى عن ثوبان مرفوعا، نقله الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٣٩/١) و قال: «رواه الطبرانى فى الأوسط و الكبير باختصار، و قال فى الأوسط: تفرد به مسور بن مورع، و لم أجد من ترجمه، و فيه أحمد بن سهيل الوراق، ذكره ابن حبان فى الثقات. و فى إسناد الكبير: أبو سعيد البقال، و الأكثر على تضعيفه، و وثقه بعضهم». و انظر تخريج الحديث مفصلا فى الإرواء رقم (٩٦).

٢- إعلام الموقعين (١/٤٣٣-٤٣٧).

مكانه القرآن بين الكتب المنزله

إذا تأملت التوراه والإنجيل والكتب، وتأملت القرآن وجدته كالتفصيل لمجملها والتأويل لأمثالها والشرح لرموزها، وهذا حقيقه قول المسيح عليه السلام: «أجيئكم بالأمثال و يجيئكم بالتأويل، و يفسر لكم كل شيء» وإذا تأملت قوله: «و كل شيء عده الله لكم به» و تفاصيل ما أخبر به من الجنة و النار و الثواب و العقاب، تيقنت صدق الرسولين الكريمين، و مطابقه الأخبار المفصله من محمد صلى الله عليه و سلم للخبر المجمل من أخيه المسيح (١).

القرآن كثير الخير عظيم النفع

قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فوصفه بما يقتضى حسنه، و كثره خيره، و منافعه، و جلالته، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع، و هو من كل شيء أحسنه و أفضله، و الله - سبحانه - وصف نفسه بالكريم، و وصف به كلامه، و وصف به عرشه، و وصف به ما كثر خيره، و حسن منظره: من النبات، و غيره. و لذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)، أى حسن كريم على الله. و قال مقاتل: كرمه الله و أعزه، لأنه كلامه.

و قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، و الله كريم جميل الفعال، و إنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى و البيان و العلم و الحكمه. و بالجمله فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة و يسر (٢).

القرآن كفيل بمصالح العباد فى المعاش و المعاد

لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، و العمل الصالح، و هما الهدى و دين الحق، و بتكميله لغيره فى هذين الأمرين، كما قال تعالى: وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)

ص: ٣٩٧

١- هدايه الحيارى (١٠٨).

٢- التبيان (٢٢٥).

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) [سورة العصر] أقسم - سبحانه - أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلميه بالإيمان، وقوته العمليه بالعمل الصالح، و كمل غيره بالتوصيه بالحق و الصبر عليه، فالحق هو الإيمان و العمل، و لا يتمان إلا بالصبر عليهما، و التواصي بهما - كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالیه، و يخلص به من الخسران المبین، و ليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن و تفهمه و تدبره و استخراج كنوزه و إثارة دفائنه، و صرف العناية إليه، و العكوف بالهمه عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش و المعاد. و الموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقه و الطريقه، و الأذواق و المواجيد الصحیحه، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، و لا تستثمر إلا من شجراته (١).

القرآن باب الله الأعظم الذى منه الدخول

فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، و طريقه الموصله لسالكها إليه، و نوره المبین الذى أشرقت له الظلمات، و رحمته المهداه التى بها صلاح جميع المخلوقات، و السبب الواصل بينه و بين عبادته، إذا انقطعت الأسباب، و بابه الأعظم الذى منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب. و هو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الآراء، و الذكر الحكيم الذى لا تزيع به الأهواء، و النزول الكريم الذى لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، و لا تقلع سحائبه، و لا تنقض آياته، و لا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا و تفكرا زادها هدايه و تبصيرا، و كلما بّجست معينه فجر لها ينابيع الحكمه تفجيرا.

فهو نور البصائر من عماها، و شفاء الصدور من أدوائها و جواها، و حياه القلوب، و لذه النفوس، و رياض القلوب، و حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح، و المنادى بالمساء و الصباح: يا أهل الفلاح، حى على الفلاح. نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم: يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) [الأحقاف].

أسمع - و الله - لو صادف آذانا و اعيه، و بصر لو صادف قلوبا من الفساد خاليه.

لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها، و تمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها و أضاعت مفاتيحها، و ران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا، و تحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل.

ص: ٣٩٨

وا عجباً لها! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا- تسمن و لا- تغنى من جوع، و لم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين، و نصوص حيث نبيه المرفوع؟ أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ و الصواب، و خفى عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنه و الكتاب؟.

وا عجباً! كيف ميزت بين صحيح الآراء و سقيمها، و مقبولها و مردودها، و راجحها و مرجوحها، و أقرت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى و العلم من كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و هو الكفيل بإيضاح الحق مع غايه البيان؟ و كلام من أوتى جوامع الكلم، و استولى كلامه على الأقصى من البيان.

كلا، بل هي -و الله- فتنه أعمت القلوب عن مواقع رشدها، و حيرت العقول عن طرائق قصدها، يربى فيها الصغير، و يهرم فيها الكبير. و ظنت خفافيش البصائر أنها الغايه التي يتسابق إليها المتسابقون، و النهايه التي تنافس فيها المنافسون، و تراحموا عليها، و هيات، أين السهى من شمس الضحى؟، و أين الثرى من كواكب الجوزاء؟، و أين الكلام الذى لم تضمن لنا عصمه قائله بدليل معلوم، من النقل المصدق عن القائل المعصوم؟، و أين الأقوال التي أعلى درجاتها: أن تكون سائغه الاتباع، من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها و تحكيمها و التحاكم إليها فى محل النزاع؟ و أين الآراء التي نهى قائلها عن تقليده فيها و حذر، من النصوص التي فرض على كل عبد أن يهتدى بها و يتبصر؟، و أين المذاهب التي إذا مات أربابها (1)؛ فهي من جمله الأموات، من النصوص التي لا تزول إذا زالت الأرض و السموات؟

سبحان الله! ما ذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي، و اقتباس العلم من مشكاته من كنوز الذخائر؟!، و ما ذا فاتهم من حياه القلوب و استناره البصائر؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرا، و تقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرا، و أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورا.

درست معالم القرآن فى قلوبهم فليسوا يعرفونها. و دثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، و وقعت ألويته و أعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، و أفلت كواكبه النيره من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحبونها. و كسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم و عقدها فليسوا يبصرونها.).

ص: ٣٩٩

١- كذا فى الأصل، و لعل الصواب (أربابها).

خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة، و عزلوها عن ولايه اليقين. و شنوا عليها غارات التأويلات الباطله. فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لثام، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال و الإكرام، و تلقوها من بعيد، و لكن بالدفع في صدورهما و الأعجاز. و قالوا: مالك عندنا من عبور، و إن كان و لا- بد، فعلى سبيل الاجتياز: أنزلوا النصوص منزله الخليفه في هذا الزمان، له السكه و الخطبه و ما له حكم نافذ و لا- سلطان. المتمسك عندهم بالكتاب و السنه صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، و المقلد للآراء المتناقضه المتعارضه و الأفكار المتهافته لديهم هو الفاضل المقبول، و أهل الكتاب و السنه، المقدمون لنصوصها على غيرها، جهال لديهم منقوصون:

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (٣١) [البقره: ١٣].

حرموا- و الله- الوصول، و بعدولهم عن منهج الوحي و تضييعهم الأصول، و تمسكوا بأعجاز لا صدور لها فخانتهم أحرص ما كانوا عليها، و تقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بعثر ما في القبور، و حصل ما في الصدور، و تميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه، و انكشفت لهم حقيقه ما اعتقدوه، و قدموا على ما قدموه، و بدأ لهم من الله ما لم يكونوا يَحْتَسِبُونَ [الزمر: ٤٧]. و سقط في أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غله ما بذروه.

فيا شده الحسره عند ما يعاين المبطل سعيه و كده هباء منثورا!، و يا عظم المصيبه عند ما يتبين بوارق أمانيه خلبا و آماله كاذبه غرورا. فما ظن من انطوت سريره على البدعه و الهوى و التعصب للآراء بربه يوم تبلى السرائر؟، و ما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه و سنه رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث و الجدل، و ضروب الأقيسه و تنوع الأشكال؟، أو بالإشارات و الشطحات، و أنواع الخيال؟

هيهات و الله، لقد ظن أكذب الظن، و منته نفسه أبين المحال. و إنما ضمنت النجاه لمن حكم هدى الله على غيره، و تزود التقوى، و ائتم بالدليل، و سلك الصراط المستقيم، و استمسك من الوحي بالعره الوثقى التي لا انفصام لها و الله سميع عليم (١).

ص: ٤٠٠

و من شهادته أيضا: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، و اليقين الثابت، و الطمأنينه بكلامه و وحيه. فإن العاده تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، و الافتراء على رب العالمين، و الإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه و صفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب و الشك. و تدفعه الفطر و العقول السليمه، كما تدفع الفطر-التي فطر عليها الحيوان-الأغذيه الخبيثه الضاره التي لا تغذى. كالأبوال و الأنتان. فإن الله-سبحانه- فطر القلوب على قبول الحق و الانقياد له، و الطمأنينه به، و عدم السكون إليه. و لو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، و لما سكنت إلا إليه، و لا اطمأنت إلا به، و لا أحببت غيره.

و لهذا ندب الله عز و جل عباده إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علما ضروريا و يقينا جازما: أنه حق و صدق. بل أحق كل حق، و أصدق كل صدق. و أن الذي جاء به أصدق خلق الله، و أبرهم، و أكملهم علما و عملا، و معرفه. كما قال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)[النساء]، و قال تعالى:

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)[محمد] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لبشرتها حقائق القرآن، و استنارت فيها مصابيح الإيمان. و علمت علما ضروريا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانيه-من الفرح، و الألم، و الحب، و الخوف- أنه من عند الله، تكلم به حقا، و بلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد صلى الله عليه و سلم.

فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، و به احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: و كذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشه القلوب لا يسخطه أحد، و قد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ [العنكبوت: ٤٩]، و قوله:

وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ [الحج: ٥٤]، و قوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) [سبأ]، و قوله: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى [الرعد: ١٩]، و قوله:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) [الرعد] يعنى: أن الآيه التي يقترحونها لا توجب هدايه، بل الله هو الذى يهدى و يضل. ثم نبههم على أعظم آيه و أجلها، و هى: طمأنينه قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله، فقال: الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَى: بكتابه و كلامه، أَلَا بَدِّعَ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد: ٢٨] فطمأنينه القلوب الصحيحه، و الفطره السليمه به، و سكونها إليه: من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل فى العاده: أن تطمئن القلوب و تسكن إلى الكذب و الافتراء و الباطل (١).

القرآن ذكر الله الأكبر

و أما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شىء فكقوله تعالى: أُنزِلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) [العنكبوت] و فيها أربعة (٢) أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شىء. فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامه ذكره، فهو سر الطاعات و روحها.

الثانى: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، و على الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: و لذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشه و منكر، بل إذا تم الذكر:

محق كل خطيئه و معصيه، هذا ما ذكره المفسرون.

و سمعت شيخ الإسلام ابن تيميه -رحمه الله- يقول: معنى الآيه: أن فى الصلاه فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء و المنكر.

و الثانیه: اشتغالها على ذكر الله و تضمنها له، و لما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء (٣) و المنكر (٤).

ص: ٤٠٢

١- مدارج السالكين (٤٧٢، ٣/٤٧١).

٢- هكذا فى المطبوعه، و ذكر ثلاثه فقط.

٣- و لعل فى الآيه معنى آخر: أن الصلاه هى أكبر الذكر. فقد قال الله: وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ [طه: ١٤]. و هى أكبر و أقوى و أشد ناه عن الفحشاء و المنكر.

٤- مدارج السالكين (٢/٤٢٦).

القرآن فضل الله و رحمته

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)[يونس].

قال أبو سعيد الخدرى: (فضل الله): القرآن، و(رحمته): أن جعلكم من أهله. و قال هلال بن يساف: بالإسلام الذى هداكم إليه، و بالقرآن الذى علمكم إياه، و هو خير مما تجمعون من الذهب و الفضة، و كذلك قال: ابن عباس و الحسن و قتاده: فضله: الإسلام، و رحمته: القرآن، و قالت طائفة من السلف: فضله: القرآن، و رحمته: الإسلام (١).

باب منه و أغنانا بالفرح بفضلله و رحمته-هما القرآن و الإيمان-عن الفرحة بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع، و العقار، و الأثمان، فقال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)[يونس] (٢).

القرآن ذكر للعباد

أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، و فى موضع آخر تذكره للمتقين، و فى موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه و سلم و لقومه، و فى موضع آخر ذكر مطلق، و فى موضع آخر ذكر مبارك، و فى موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

و يجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما و خاصا، و كونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم فى معاشهم و معادهم، و يذكرهم بالمبدأ و المعاد، و يذكرهم بالرب تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله، و حقوقه على عباده، و يذكرهم بالخير ليقصدوه، و بالشر ليجتنبوه.

و يذكرهم بنفوسهم، و أحوالها و آفاتها، و ما تكمل به، و يذكرهم بعدوهم و ما يريد منهم، و بما ذا يحترزون من كيد، و من أى الأبواب و الطرق يأتى إليهم. و يذكرهم بفاقتهم و حاجتهم إليه، و أنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسا واحدا. و يذكرهم بنعمه عليهم، و يدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها و يذكرهم بأسه و شدة بطشه، و انتقامه ممن عصى أمره، و كذب رسله و يذكرهم بثوابه و عقابه.

ص: ٤٠٣

١- إغاثة اللفهان (٣١/١).

٢- إغاثة اللفهان (٧٠/٢).

ولهذا يأمر- سبحانه-عباده أن يذكر ما في كتابه، كما قال: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقره: ٤٣]، وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين و حيث خص به المتقين فلا أنهم الذين انتفعوا بذكره (١).

القرآن تبصره للعباد

قال تعالى عن أوليائه: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) [آل عمران]، وقال تعالى: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) [الأعراف]، وقال تعالى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) [الجاثية]، وقال تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَ لَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) [يوسف]، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) [يونس].

فقوله هذا بصائر من ربكم عام مطلق، وقوله: وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ خاص بأهل اليقين.

و نظير ذلك قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧).

و نظيره في الخصوص قوله تعالى: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، و قوله يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ [المائدة: ١٦].

و نظيره أيضا، قوله هذا بيان للناس وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) [آل عمران] و قد أخبر أنه هدى عام لجميع المكلفين. فقال: إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، و البصائر جمع بصيره، و هي فعلية بمعنى مفعلة، أى مبصره لمن تبصر، و منه قوله تعالى: وَ آتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً [الإسراء: ٥٩] أى مبيته موجه للتبصر. و فعل الإبصار يستعمل لازما و متعديا. يقال: أبصرته، بمعنى أريت، و أبصرت، بمعنى رأيت. فمبصره فى الآيه: بمعنى مرثيه لا بمعنى رائيه، و الذين ظنوها بمعنى رائيه غلطوا فى الآيه، و تحيروا فى معناها.

ص: ٤٠٤

فإنه يقال: بصر به، و أبصره، فيعدى بالباء تاره، و الهمزة تاره. ثم يقال: أبصرته كذا، أى أريته إياه، كما يقال بصرت به، و بصر هو به.

فها هنا بصيره، و تبصره، و مبصره. فالبصيره: التى تبصر، و التبصره مصدر، مثل التذكيره، و سمي بها ما يوجب التبصره، فيقال: هذا الآيه تبصره، لكونها آله التبصر، و موجه.

فالقرآن بصيره و تبصره، و هدى و شفاء، و رحمه، بمعنى عام، و بمعنى خاص. و لهذا يذكر الله - سبحانه - هذا و هذا، فهو هدى للعالمين، و موعظه للمتقين، و هدى للمتقين، و شفاء للعالمين، و شفاء للمؤمنين، و موعظه للعالمين، و موعظه للمتقين فهو فى نفسه هدى و رحمه، و شفاء و موعظه.

فمن اهتدى به و اتعظ و اشتفى، كان بمنزله من استعمل الدواء الذى يحصل به الشفاء فهو دواء له بالفعل، و إن لم يستعمله فهو دواء له بالقوه، و كذلك الهدى.

فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، و بالقوه لمن لم يهتد به، فإنما يهتدى به و يرحم و يتعظ المتقون الموقنون.

و الهدى فى الأصل: مصدر هدى يهدى هدى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما فى الأثر: «من ازداد علما و لم يزد هدى لم يزد من الله تعالى إلا بعدا» و لكن يسمى هدى، لأن من شأنه أن يهدى.

و هذا أحسن من قول من قال: إنه هدى، بمعنى هاد، فهو مصدر بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى العادل، و زور بمعنى الزائر، و رجل صوم أى بمعنى صائم، فإن الله - سبحانه - قد أخبر أنه يهدى به.

فالله الهادى، و كتابه الهدى الذى يهدى به على لسان رسوله صلى الله عليه و سلم.

فها هنا ثلاثه أشياء: فاعل، و قابل، و آله. فالفاعل: هو الله تعالى: و القابل: قلب العبد، و الآله: هو الذى يحصل به الهدى، و هو الكتاب المنزل، و الله سبحانه يهدى خلقه هدى، كما يقال: دلهم دلاله، و أرشدهم إرشادا، و بين لهم بيانا (1).

محتوى خطاب القرآن

تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله و له الحمد كله، أزقه الأمور كلها بيده

ص: ٤٠٥

و مصدرها منه و مردها إليه، مستويا على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية فى أقطار مملكته، عالما بما فى نفوس عبيده، مطالعا على أسرارهم و علانيتهم، منفردا بتدبير المملكة، يسمع و يرى، و يعطى و يمنع، و يثيب و يعاقب، و يكرم و يهين، و يخلق و يرزق، و يميت و يحيى، و يقدر و يقضى و يدبر. الأمور نازله من عنده دقيقتها و جليلها، و صاعده إليه لا تتحرك فى ذره إلا ياذنه و لا تسقط ورقه إلا بعلمه. فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه و يمجد نفسه و يحمد نفسه و ينصح عباده و يدلهم على ما فيه سعادتهم و فلاحهم و يرغبهم فيه، و يحذرهم مما فيه هلاكهم، و يتعرف إليهم بأسمائه و صفاته و يتحبب إليهم بنعمه و آلائه. فيذكرهم بنعمه عليهم و يأمرهم بما يستوجبون به تمامها، و يحذرهم من نقمه، و يذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، و ما أعلم لهم من العقوبة إن عصوه. و يخبرهم بصنعه فى أوليائه و أعدائه و كيف كانت عاقبه هؤلاء و هؤلاء.

و يثنى على أوليائه بصالح أعمالهم و أحسن أوصافهم، و يذم أعداءه بسيئ أعمالهم و قبيح صفاتهم. و يضرب الأمثال و ينوع الأدله و البراهين، و يجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، و يصدق الصادق و يكذب الكاذب، و يقول الحق و يهدى السبيل. و يدعو إلى دار السلام، و يذكر أوصافها و حسناتها و نعيمها، و يحذر من دار البوار و يذكر عذابها و قبحها و آلامها، و يذكر عباده فقرهم إليه و شده حاجتهم إليه من كل وجه و أنهم لا غنى لهم عنه طرفه عين، و يذكر غناه عنهم و عن جميع الموجودات، و أنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه، و كل ما سواه فقير إليه بنفسه و أنه لا ينال أحد ذره من الخير فما فوقها إلا بفضلته و رحمته، و لا ذره من الشر فما فوقها إلا - بعدله و حكمته. و يشهد من خطابه عتابه لأحبابه أطف عتاب، و أنه مع ذلك مقيم عثراتهم و غافر زلاتهم و مقيم أعدارهم و مصلح فسادهم و الدافع عنهم، و المحامى عنهم، و الناصر لهم، و الكفيل بمصالحهم، و المنجى لهم من كل كرب، و الموفى لهم بوعدته. و أنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه فهو مولاهم الحق و نصيرهم على عدوهم، فنعم المولى و نعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما رحيمًا جوادًا جميلًا، هذا شأنه، فكيف لا تحبه و تنافس فى القرب منه و تنفق أنفاسها فى التودد إليه و يكون أحب إليها من كل ما سواه، و رضاه أثر عندها من رضا كل ما سواه؟ و كيف لا تلهج بذكره و يصير حبه و الشوق إليه و الأنس به هو غذاؤها و قوتها و دواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت و هلكت و لم تنتفع بحياتها؟ (١).

ص: ٤٠٦

ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مِثْلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمِثْلِ الْأَتْرَجِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ» (١).

في الأترج منافع كثيرة، وهو مركب من أربعة أشياء: قشره، ولحمه، وحمضه، وبزره، ولكل واحد منها مزاج يخصه؛ فقشره حار يابس، ولحمه حار رطب، وحمضه بارد يابس، وبزره حار يابس.

ومن منافع قشره: أنه إذا جعل في الثياب منع السوس، ورائحته تصلح فساد الهواء والوباء، ويطيب النكهة إذا أمسكه في الفم، ويحلل الرياح. وإذا جعل في الطعام كالأبازير أعان على الهضم، قال صاحب «القانون»: وعصاره قشره تنفع من نهش الأفاعى شرباً، وقشره ضماداً، وحراره قشره طلاء جيد للبرص. انتهى.

و أما لحمه: فملطف لحراره المعده، نافع لأصحاب المره الصفراء، قامع للبخارات الحاره. وقال الغافقي: أكل لحمه ينفع البواسير. انتهى.

و أما حمضه: فقابض كاسر للصفراء، ومسكن للخفقان الحار، نافع من اليرقان شرباً و اكتحالاً. قاطع للقيء الصفراوي، مشه للطعام، عاقل للطبيعه، نافع من الإسهال الصفراوي، وعصاره حمضه يسكن غلظه النساء، وينفع طلاء من الكلف، ويذهب بالقوباء (٢) ويستدل على ذلك من فعله في الحبر إذا وقع في الثياب قلعه، وله قوه تطف و تقطع، وتبرد، وتطفئ حراره الكبد، وتقوى المعده، وتمنع حده المره الصفراء، وتزيل الغم العارض منها، وتسكن العطش.

و أما بزره: فله قوه محلله مجففه. وقال ابن ماسويه (٣): خاصيه حبه النفع من السموم القاتله إذا شرب منه وزن مثقال مقشراً بماء فاتر، و طلاء مطبوخ.

و إن دق و وضع على موضع اللسهه نفع، و هو ملين للطبيعه، مطيب للنكهه، و أكثر هذا

ص: ٤٠٧

١- البخارى (٥٠٢٠) في فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، و مسلم (٢٤٣/٧٩٧) في صلاه المسافرين و قصرها، باب: فضيله حافظ القرآن.

٢- القوباء: داء في الجسد يتقشر منه الجلد، و يعرف عند العامه بالحزاز.

٣- هو يوحنا بن ماسويه البغدادي، طبيب سرياني، نشأ في بغداد، و اتصل بهارون الرشيد، و عهد إليه بترجمه الكتب الطبيه، و كان طبيب البلاط العباسي من أيام الرشيد حتى المتوكل، توفي بسامراء (٢٤٣) هـ، تاريخ الحكماء (٣٨٠-٣٩١) للقفطي.

الفعل موجود فى قشره، وقال غيره: خاصيه حبه النفع من لسعات العقارب إذا شرب منه وزن مثقالين مقشرا بماء فاتر، وكذلك إذا دق و وضع على موضع اللدغه. وقال غيره: حبه يصلح للسموم كلها، و هو نافع من لدغ الهوام كلها.

و ذكر أن بعض الأكاسره غضب على قوم من الأطباء، فأمر بحبسهم، و خيرهم أدمًا لا يزيد لهم عليه، فاختاروا الأترج، فقيل لهم: لم اخترتموه على غيره؟ فقالوا: لأنه فى العاجل ريحان، و منظره مفرح، و قشره طيب الرائحه، و لحمه فاكهه، و حمضه أدم، و حبه ترياق، و فيه دهن.

و حقيق بشيء هذه منافعه أن يشبهه به خلاصه الوجود، و هو المؤمن الذى يقرأ القرآن، و كان بعض السلف يحب النظر إليه لما فى منظره من التفريح (١).

النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو

إنه صلى الله عليه و سلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو (٢)، فإنه ذريعه إلى أن تناله أيديهم (٣).

القرآن متضمن لأدويه القلب، و علاجه من جميع أمراضه

قال الله عز و جل: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ [يونس: ٥٧] و قال تعالى: وَ نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢].

و قد تقدم أن جماع أمراض القلب هى أمراض الشبهات و الشهوات. و القرآن شفاء للنوعين، ففيه من البراهين القطعيه ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسده للعلم و التصور و الإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه.

و ليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالیه: من التوحيد، و إثبات الصفات، و إثبات المعاد و النبوت، و رد النحل الباطله و الآراء الفاسده، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه و أحسنها، و أقربها إلى العقول و أفصحها بيانًا.

فهو الشفاء على الحقيقه من أدواء الشبه و الشكوك، و لكن ذلك موقوف على فهمه

ص: ٤٠٨

١- زاد المعاد (٢٨٣/٤-٢٨٥).

٢- البخارى (٢٩٩٠) فى الجهاد، باب: كراهيه السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، و مسلم (١٨٦٩) فى الإمارة، باب: النهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار... إلخ.

٣- إعلام الموقعين (٢٠١/٣).

و معرفه المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق و الباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل و النهار، و علم أن ما عداه من كتب الناس و آرائهم و معقولا-تهم: بين علوم لا- ثقه بها، و إنما هي آراء و تقليد، و بين ظنون كاذبه لا تغنى عن الحق شيئا، و بين أمر صحيحه لا- منفعه للقلب فيها؛ و بين علوم صحيحه قد و عروا الطريق إلى تحصيلها، و أطالوا الكلام في إثباتها، و مع قله نفعها. فهي: «لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، و لا سمين فينتقل» (١).

و أحسن ما عند المتكلمين و غيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً و أحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا- التكليف و التطويل و التعقيد، كما قيل:

لو لا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر، لا المغنى و لا العمد

يحللون بزعم منهم عقدا و بالذى وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه و الشكوك، و الفاضل الذكى يعلم أن الشبه و الشكوك زادت بذلك، و من المحال ألا- يحصل الشفاء و الهدى؛ و العلم و اليقين من كتاب الله تعالى و كلام رسوله، و يحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول:

نهايه إقدام العقول عقال و أكثر سعى العالمين ضلال

و أرواحنا في وحشه من جسوننا و حاصل دنيانا أذى و وبال

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل و قالوا

لقد تأملت الطرق الكلاميه، و المناهج الفلسفيه، فما رأيتها تشفى عيلا، و لا تروى غليلا. و رأيت أقرب الطرق طريقه القرآن، أقرأ في الإثبات: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) [طه]، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: ١٠]، و أقرأ في النفى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]، وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) [طه: ١١٠]. و من جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى، فهذا إنشاده و ألفاظه في آخر كتبه. و هو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام و الفلسفه، و كلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدا، قد ذكرنا في كتاب «الصواعق» و غيره. ل.

ص: ٤٠٩

١- من وصف المرأه الأولى لزوجها في حديث أم زرع الذى رواه البخارى (٥١٨٩) فى النكاح، باب: حسن المعاشره مع الأهل.

و ذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: آخر أمر المتكلمين الشك، و آخر أمر المتصوفين الشطح. و القرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، و لذلك أنزله من تكلم به، و جعله شفاء لما في الصدور، و هدى و رحمه للمؤمنين.

و أما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة و الموعظه الحسنه بالترغيب و الترهيب، و الترهيد في الدنيا، و الترغيب في الآخرة، و الأمثال و القصص التي فيها أنواع العبر و الاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه و معاده، و يرغب عما يضره، فيصير القلب محبا للرشد، مبغضا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهه للإرادات الفاسده، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، و يعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختياريه الكسبيه، كما يعود البدن بصحته و صلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

و عاد الفتى كالطفل ليس بقابل سوى المحض شيئا و استراحت عواذله (١).

فيتغذى القلب من الإيمان و القرآن بما يزيه و يقويه، و يؤيده، و يسره و ينشطه، و يثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينمي و يقويه. و كل من القلب و البدن محتاج إلى أن يتربى فينمو و يزيد، حتى يكمل و يصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحه له و الحميه عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، و منع ما يضره فكذلك القلب لا يزكو و لا ينمو، و لا يتم صلاحه إلا بذلك، و لا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، و إن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود، و كذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع و كمل (٢).

الآيات و السور التي يعتصم بها العبد من الشيطان

و يستدفع بها شره و يحترز بها منه

و ذلك عشره أسباب:

أحدها: الاستعاذه بالله من الشيطان، قال تعالى: **وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٣٦) [فصلت]، و في موضع آخر **إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [الأعراف]:

٢٠٠] و قد تقدم أن السمع المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. و تأمل سر

ص: ٤١٠

١- المحض: اللبن الخالص.

٢- إغاثه اللفهان (١/٤٤-٤٦).

القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغته «هو» الدال على تأكيد النسبه و اختصاصها، و عرف الوصف بالألف و اللام في سورة «حم»؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، و تركه في سورة الأعراف؛ لا استغناء المقام عنه.

فإن الأمر بالاستعاذه في سورة «حم» وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس و هو مقابله إساءه المسمى بالإحسان إليه، و هذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، و لا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى، و الشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل و عجز و يسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام و يزينه له فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، و ألا يسيء إليه، و لا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسمى إلا- من خالفه و آثر الله و ما عنده على حظ العاجل فكان المقام مقام تأكيد و تحريض فقال فيه: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) [فصلت]، و أما في سورة الأعراف، فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، و ليس فيها الأمر بمقابله إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض و هذا سهل على النفوس غير مستعص عليها، فليس حرص الشيطان و سعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابله بالإحسان فقال: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) [الأعراف]، و قد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين، و بين قوله في «حم» المؤمن فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [غافر: ٥٦]، و في صحيح البخارى عن عدى بن ثابت، عن سليمان بن صرد قال: كنت جالسا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و رجلان يستبان:

فأحدهما احمر وجهه، و انتفخت أوداجه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأعلم كلمه لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» (١).

الحرز الثاني: قراءه هاتين السورتين؛ فإن لهما تأثيرا عجيبا في الاستعاذه بالله من شره و دفعه و التحصن منه؛ و لهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» (٢)، و قد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليله عند النوم و أمر عقبه أن يقرأ بهما دبر كل صلاه، و تقدم قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثا حين يمسى و ثلاثا حين يصبح كفته من كل شىء» (٣).

ص: ٤١١

١- البخارى (٦١١٥) في الأدب، باب: الحذر من الغضب.

٢- أبو داود (١٤٦٣) في الصلاه، باب: في المعوذتين، و النسائي (٥٤٣١) في الاستعاذه.

٣- أبو داود (٥٠٨٢) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، و الترمذى (٣٥٧٥) في الدعوات، باب: (١١٧)، و قال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

الحرز الثالث:قراءة آية الكرسي،ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريره قال:وكنى رسول الله صلى الله عليه و سلم بحفظ زكاه رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت:لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم،فذكر الحديث فقال:إذا أويت إلى فراشك فقرأ آية الكرسي،فإنه لن يزال عليك من الله حافظ،و لا يقربك شيطان حتى تصبح.فقال النبي صلى الله عليه و سلم:

«صدقك و هو كذوب،ذاك الشيطان» (١)،و سنذكر-إن شاء الله-السر الذى لأجله كان لهذه الآية العظيمه هذا التأثير العظيم فى التحرز من الشيطان،و اعتصام قارئها بها فى كلام مفرد عليها و على أسرارها و كنوزها بعون الله و تأييده.

الحرز الرابع:قراءة سورة البقره،ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريره أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:«لا تجعلوا بيوتكم قبورا،و إن البيت الذى تقرأ فيه البقره لا يدخله الشيطان» (٢).

الحرز الخامس:خاتمه سورة البقره،فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى الأنصارى قال:قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقره فى ليله كفتاه» (٣)، و فى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:«إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام،أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقره فلا يقرءان فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان» (٤).

الحرز السادس:أول سورة حم المؤمن،إلى قوله:إِلَيْهِ الْمَصِيرُ مع آية الكرسي، ففى الترمذى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر عن ابن أبى مليكه عن زراره بن مصعب، عن أبى سلمه عن أبى هريره قال:قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:«من قرأ حم المؤمن،إلى إِلَيْهِ الْمَصِيرُ،و آية الكرسي حين يصبح،حفظ بهما حتى يمسى،و من قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح» (٥)،و عبد الرحمن المليكى و إن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه،فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسي،و هو محتمل على غرابته (٦).

ص: ٤١٢

- ١- البخارى(٢٣١١) فى الوكاله،باب:إذا وكل رجلا فترك الموكل شيئا فهو جائز.
- ٢- مسلم(٢١٢/٧٨٠) فى صلاه المسافرين و قصرها،باب:استحباب صلاه النافله فى بيته و جوازها فى المسجد.
- ٣- البخارى(٥٠٠٩) فى فضائل القرآن،باب:فضل سورة البقره،عن أبى مسعود.
- ٤- الترمذى(٢٨٨٢) فى فضائل القرآن،باب:ما جاء فى آخر سورة البقره،و قال:«حسن غريب».
- ٥- الترمذى(٢٨٧٩) فى فضائل القرآن،باب:ما جاء فى فضل سورة البقره و آية الكرسي،و قال:«غريب»،و ضعفه الألبانى.
- ٦- بدائع القوائد(٢٦٧/٢-٢٦٩).

باب: منه ليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن؛ فإنه شفاؤها التام الكامل الذى لا يغادر فيها سقما إلا أبرأه، و يحفظ عليها صحتها المطلقة، و يحميها الحميه التامه من كل مؤذ و مضر، و مع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه، و عدم اعتقادها الجازم الذى لا ريب فيه أنه كذلك، و عدم استعماله و العدول عنه إلى الأدوية التى ركبها بنو جنسها حال بينها و بين الشفاء به، و غلبت العوائد و اشتد الإعراض، و تمكنت العلل و الأدوية المزمنه من القلوب، و تربي المرضى و الأطباء على علاج بنى جنسهم و ما وضعه لهم شيوخهم، و من يعظمونه و يحسنون به ظنونهم، فعظم المصاب و استحکم الداء، و تركبت أمراض و علل أعيامهم علاجها، و كلما عالجوها بتلك العلاجات الحادته تفاقم أمرها، و قويت، و لسان الحال ينادى عليهم:

و من العجائب و العجائب جمه قرب الشفاء و ما إليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ و الماء فوق ظهورها محمول (١)

العلاج بالقرآن

و رأى جماعه من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن، ثم يشربها. قال مجاهد: لا- بأس أن يكتب القرآن، و يغسله، و يسقيه المريض، و مثله عن أبى قلابه. و يذكر عن ابن عباس: أنه أمر أن يكتب لامرأه تعسر عليها ولادها أثر من القرآن ثم يغسل و تسقى. و قال أيوب: رأيت أبا قلابه كتب كتابا من القرآن، ثم غسله بماء، و سقاه رجلا كان به وجع (٢).

هديه صلى الله عليه و سلم فى رقيه اللدين بالفاتحه

أخرجنا فى «الصحيحين» من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: انطلق نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم فى سفره سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شىء لا- ينفعه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، و سعينا له بكل شىء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شىء؟ فقال بعضهم:

ص: ٤١٣

١- زاد المعاد (١٠١/٤).

٢- زاد المعاد (١٧٠/٤).

نعم و الله و إني لأرقي، و لكن استصفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطع من الغنم فانطلق يتفل عليه، و يقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشى و ما به قلبه، قال: فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فذكروا له ذلك، فقال: «و ما يدريك أنها رقيه؟»، ثم قال: «قد أصبتم، اقسما و اضربوا لى معكم سهماً» (١).

و قد روى ابن ماجه فى «سننه» من حديث على قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «خير الدواء القرآن» (٢).

و من المعلوم أن بعض الكلام له خواص و منافع مجريه، فما الظن بكلام رب العالمين، الذى فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذى هو الشفاء التام، و العصمه النافعه، و النور الهادى، و الرحمه العامه، الذى لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته و جلالته. قال تعالى: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢] «و من» هاهنا لبيان الجنس لا للتبويض» هذا أصح القولين كقوله تعالى: وَ عِدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الفتح: ٢٩]، و كلهم من الذين آمنوا و عملوا الصالحات. فما الظن بفاتحه الكتاب التى لم ينزل فى القرآن، و لا فى التوراه، و لا فى الإنجيل، و لا فى الزبور مثلها، المتضمنه لجميع معانى كتب الله، المشتمله على ذكر أصول أسماء الرب- تعالى - و مجامعها، و هى: الله، و الرب، و الرحمن، و إثبات المعاد، و ذكر التوحيدين: توحيد الربوبيه، و توحيد الإلهيه، و ذكر الافتقار إلى الرب- سبحانه- فى طلب الإعانه و طلب الهدايه، و تخصيصه- سبحانه- بذلك، و ذكر أفضل الدعاء على الإطلاق و أنفعه و أفضله، و ما العباد أحوج شىء إليه، و هو الهدايه إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته و توحيده و عبادته بفعل ما أمر به، و اجتناب ما نهى عنه، و الاستقامه عليه إلى الممات، و يتضمن ذكر أصناف الخلائق و انقسامهم إلى: منعم عليه بمعرفه الحق و العمل به و محبته و إثارة، و مغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، و ضال بعدم معرفته له. و هؤلاء».

ص: ٤١٤

١- البخارى (٥٧٤٩) فى الطب، باب النفث فى الرقيه، و مسلم (٦٥/٢٢٠١) فى السلام، باب: جواز أخذ الأجر على الرقيه بالقرآن و الأذكار.

٢- ابن ماجه (٣٥٠١) فى الطب، باب: الاستشفاء بالقرآن، و فى الزوائد: «فى إسناد الحارث الأعور، و هو ضعيف».

أقسام الخليقه مع تضمينها لإثبات القدر، و الشرع، و الأسماء، و الصفات، و المعاد، و النبوات، و تركيه النفوس، و إصلاح القلوب، و ذكر عدل الله و إحسانه، و الرد على جميع أهل البدع و الباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدارج السالكين» فى شرحها. حقيق بسوره هذا بعض شأنها، أن يستشفى بها من الأدوية، و يرقى بها اللديغ.

و بالجمله، فما تضمنته الفاتحه من إخلاص العبوديه و الثناء على الله، و تفويض الأمر كله إليه، و الاستعانه به، و التوكل عليه، و سؤاله مجامع النعم كلها، و هى الهدايه التى تجلب النعم، و تدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافيه الكافيه.

و قد قيل: إن موضع الرقيه منها: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٥) [الفاتحه]، و لا- ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض و التوكل، و الالتجاء و الاستعانه، و الافتقار و الطلب، و الجمع بين أعلى الغايات، و هى عباده الرب و وحده، و أشرف الوسائل و هى الاستعانه به على عبادته ما ليس فى غيرها، و لقد مر بى وقت بمكه سقمت فيه، و فقدت الطبيب و الدواء، فكننت أتعالج بها، آخذ شربه من ماء زمزم، و أقرؤها عليه مرارا، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فانتفع بها غاية الانتفاع.

و فى تأثير الرقى بالفاتحه و غيرها فى علاج ذوات السموم سر بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثه و سلاحها حمايتها التى تلدغ بها، و هى لا- تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت، ثار فيها السم، فتقذفه بآلتها، و قد جعل الله- سبحانه- لكل داء دواء، و لكل شىء ضدا، و نفس الراقى تفعل فى نفس المرقى، فيقع بين نفسيهما فعل و انفعال، كما يقع بين الداء و الدواء، فتقوى نفس الراقى و قوته بالرقيه على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، و مدار تأثير الأدوية و الأدوية على الفاعل و الانفعال، و هو كما يقع بين الداء و الدواء الطبيعيين، يقع بين الداء و الدواء الروحانيين، و الروحاني، و الطبيعى، و فى النفث و التفل استعانه بتلك الرطوبه و الهواء، و النفس المباشر للرقيه، و الذكر و الدعاء، فإن الرقيه تخرج من قلب الراقى و فمه، فإذا صاحبها شىء من أجزاء باطنه من الريق و الهواء و النفس كانت أتم تأثيرا، و أقوى فعلا و نفوذا، و يحصل بالازدواج بينهما كيفيه مؤثره شبيهه بالكيفيه الحادثه عند تركيب الأدوية.

و بالجمله: فنفس الراقى تقابل تلك النفوس الخبيثه، و تزيد بكيفيه نفسه، و تستعين بالرقيه و بالنفث على إزالة ذلك الأثر، و كلما كانت كيفيه نفس الراقى أقوى، كانت الرقيه أتم، و استعانه بنفثه كاستعانه تلك النفوس الرديئه بلسعها.

و فى النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة و الخبيثة، و لهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان. قال تعالى: وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ [٤] الفلق؛ و ذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب و المحاربة، و ترسل أنفاسها سهاما لها، و تمدها بالنفث و التفل الذى معه شىء من الريق مصاحب لكيفية مؤثره، و السواحر تستعين بالنفث استعانه بينه، و إن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقده و تعقدها، و تتكلم بالسحر، فيعمل ذلك فى المسحور بتوسط الأرواح السفليه الخبيثه، فتقابلها الروح الزكيه الطيبه بكيفيه الدفع و التكلم بالرقيه، و تستعين بالنفث، فأيهما قوى كان الحكم له، و مقابله الأرواح بعضها لبعض، و محاربتها و آليتها من جنس مقابله الأجسام، و محاربتها و آلتها سواء، بل الأصل فى المحاربه و التقابل للأرواح و الأجسام آلتها و جندها، و لكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح و أفعالها و انفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه، و بعده من عالم الأرواح، و أحكامها، و أفعالها.

و المقصود أن الروح إذا كانت قويه و تكيفت بمعانى الفاتحه، و استعانت بالنفث و التفل، قابلت ذلك الأثر الذى حصل من النفوس الخبيثه، فأزالته، و الله أعلم (١).

هديه صلى الله عليه و سلم فى علاج لدغه العقرب بالرقيه

روى ابن أبى شيبه فى «مسنده»، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلى، إذ سجد فلدغته عقرب فى إصبغه، فأنصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: «لعن الله العقرب ما تدع نيبا و لا غيره»، قال: ثم دعا بإناء فيه ماء و ملح، فجعل يضع موضع اللدغه فى الماء و الملح، و يقرأ قل هو الله أحد (١)، و المعوذتين حتى سكنت (٢).

ففى هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين: الطبيعى و الإلهى، فإن فى سوره الإخلاص من كمال التوحيد العلمى الاعتقادى، و إثبات الأحديه لله، المستلزمه نفى كل شركه عنه، و إثبات الصمديه المستلزمه لإثبات كل كمال له مع كون الخلاق تصمد إليه فى حوائجها، أى تقصده الخليقه، و تتوجه إليه، علويها و سفليها، و نفى الوالد و الولد و الكفاء عنه، المتضمن لنفى الأصل و الفرع و النظير، و المائل مما اختصت به و صارت تعدل ثلث

ص: ٤١٦

١- زاد المعاد (٤/١٧٦-١٨٠).

٢- الأحكام النبويه فى الصناعه الطبيه للكحال (١/٦٥)، و بلفظ قريب السلسله الصحيحه للألبانى رقم (٥٤٧).

القرآن، ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، و في نفي الكفاء التنزيه عن الشبيه و المثال.

و في الأحد نفي كل شريك لدى الجلال، و هذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد.

و في المعوذتين الاستعاذه من كل مكروه جملة و تفصيلا فإن الاستعاذه من شر ما خلق نعم كل شر يستعاذ منه، سواء كان في الأجسام أو الأرواح، و الاستعاذه من شر الغاسق، و هو الليل، و آيته و هو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذه من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثه التي كان نور النهار يحول بينها و بين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها و غاب القمر، انتشرت و عاثت.

و الاستعاذه من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذه من شر السواحر و سحرهن.

و الاستعاذه من شر الحاسد تتضمن الاستعاذه من النفوس الخبيثه المؤذيه بحسدها نظرها.

و السوره الثانيه: تتضمن الاستعاذه من شر شياطين الإنس و الجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذه من كل شر، و لهما شأن عظيم في الاحتراس و التحصن من الشرور قبل وقوعها؛ و لهذا أوصى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عقبه بن عامر بقراءتهما عقب كل صلاه، ذكره الترمذى في «جامعه» (١) و في هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاه إلى الصلاه.

و قال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» (٢). و قد ذكر أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ سحر في إحدى عشره عقده، و أن جبريل نزل عليه بهما، ف جعل كلما قرأ آيه منهما انحلت عقده، حتى انحلت العقد كلها، و كأنما أنشط من عقال.

و أما العلاج الطبيعى فيه، فإن في الملح نفعا لكثير من السموم، و لا سيما لدغه العقرب، قال صاحب «القانون»: يضمده به مع بزر الكتان للسع العقرب، و ذكره غيره أيضا. و في الملح من القوه الجاذبه المحلله ما يجذب السموم و يحللها، و لما كان في لسعها قوه ناريه تحتاج إلى تبريد و جذب و إخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسهه، و الملح الذى فيه جذب و إخراج، و هذا أتم ما يكون من العلاج و أيسره و أسهله، و فيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد و الجذب و الإخراج، و الله أعلم.

و قد روى مسلم في «صحيحه» عن أبى هريره قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فقال:

يا رسول الله، ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحه فقال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ».

ص: ٤١٧

١- الترمذى (٢٩٠٣) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في المعوذتين، و قال: «حسن غريب».

٢- النسائى (٥٤٢٩) في الاستعاذه، باب: (١).

بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك» (١).

و اعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، و تمنع من وقوعه، و إن وقع لم يقع وقوعاً مضراً، و إن كان مؤذياً. و الأدوية الطبيعية إنما تنفع بعد حصول الداء، فالتعوذات و الأذكار، أما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، و إما أن تحول بينها و بين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ و قوته و ضعفه، فالرقى و العوذ تستعمل لحفظ الصحة، و لإزالة المرض.

أما الأول: فكما في «الصحيحين» من حديث عائشه كان رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) و المعوذتين، ثم يمسح بهما وجهه، و ما بلغت يده من جسده (٢).

و كما في حديث عوده أبي الدرداء المرفوع: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت و أنت رب العرش العظيم»، و فيه: «من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبه حتى يسمي، و من قالها آخر نهاره لم تصبه مصيبه حتى يصبح» (٣).

و كما في «الصحيحين»: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقره فى ليله كفتاه» (٤). و كما في «صحيح مسلم» عن النبى صَلَّى الله عليه و سلم: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (٥).

و كما في «سنن أبى داود» أن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم كان فى السفر يقول بالليل: «يا أرض، ربى و ربك الله، أعوذ بالله من شرك و شر ما فىك، و شر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد و أسود، و من الحيه و العقرب، و من ساكن البلد، و من والد و ما ولد» (٦).

و أما الثانى: فكما تقدم من الرقيه بالفاتحه، و الرقيه للعقرب و غيرها ل.

ص: ٤١٨

١- مسلم (٥٥/٢٧٠٩) فى الذكر و الدعاء، باب: فى التعوذ من سوء القضاء و درك الشقاء و غيره.

٢- البخارى (٦٣١٩) فى الدعوات، باب: التعوذ و القراءه عند المنام، و مسلم (٥٠/٢١٩٢) فى السلام، باب: رقيه المريض بالمعوذات و النفث.

٣- انظر: الأذكار للنووى ص (١٠٨، ١٠٩) رقم (٢٢١)، و عزاء لابن السنى.

٤- البخارى (٥٠٠٩) فى فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقره، و مسلم (٢٥٦/٨٠٨) فى صلاه المسافرين و قصرها، باب: فضل الفاتحه و خواتيم سورة البقره.

٥- مسلم (٥٤/٢٧٠٨) فى الذكر و الدعاء و التوبه و الاستغفار، باب: فى التعوذ من سوء القضاء و درك الشقاء و غيره.

٦- أبو داود (٢٦٠٣) فى الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا نزل المنزل.

هى فاتحه الكتاب، و أم القرآن، و السبع المثانى و الشفاء التام و الدواء النافع، و الرقيه التامه، و مفتاح الغنى و الفلاح، و حافظه القوه، و دافعه الهم و الغم و الخوف و الحزن لمن عرف مقدارها، و أعطائها حقها، و أحسن تنزيلها على دائه، و عرف وجه الاستشفاء و التداوى بها، و السر الذى لأجله كانت.

و لما وقع بعض الصحابه على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبى صلى الله عليه و سلم:

«و ما أدراك أنها رقيه؟» (١).

و من ساعده التوفيق، و أعين بنور البصيره حتى وقف على أسرار هذه السوره، و ما اشتملت عليه من التوحيد، و معرفه الذات و الأسماء و الصفات و الأفعال، و إثبات الشرع و القدر و المعاد، و تجريد توحيد الربوبيه و الإلهيه، و كمال التوكل و التفويض إلى من له الأمر كله، و له الحمد كله، و بيده الخير كله، و إليه يرجع الأمر كله، و الافتقار إليه فى طلب الهدايه التى هى أصل سعادته الدارين، و علم ارتباط معانيها بجلب مصالحها، و دفع مفسدها، و أن العافيه المطلقه التامه، و النعمه الكامله منوطه بها، موقوفه على التحقيق بها أغنته عن كثير من الأدوية و الرقى، و استفتح بها من الخير أبوابه، و دفع بها من الشر أسبابه.

و هذا أمر يحتاج استحداث فطره أخرى، و عقل آخر، و إيمان آخر، و تالله لا يجد مقاله فاسده، و لا بدعه باطله إلا و فاتحه الكتاب متضمنه لردّها و إبطالها بأقرب الطرق، و أصحابها و أوضاعها، و لا تجد بابا من أبواب المعارف الإلهيه، و أعمال القلوب و أدويتها من عللها و أسقامها إلا و فى فاتحه الكتاب مفتاحه و موضع الدلاله عليه، و لا منزلا من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا و بدايته و نهايته فيها.

و لعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك، و هى فوق ذلك، و ما تحقق عبد بها، و اعتصم بها، و عقل عمن تكلم بها، و أنزلها شفاء تاما، و عصمه بالغه، و نورا مبينا، و فهمها و فهم لوازمها كما ينبغى و وقع فى بدعه و لا- شرك، و لا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا

ص: ٤١٩

لماما، غير مستقر.

هذا، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة، و لكن ليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح، و لو أن طلاب الكنوز وقفوا على سر هذه السوره، و تحققوا بمعانيها، و ركبوا لهذا المفتاح أسنانا، و أحسنوا الفتح به، لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاق، و لا ممانع.

و لم نقل هذا مجازفه و لا استعاره، بل حقيقه، و لكن لله -تعالى- حكمه بالغه في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين، كما له حكمه بالغه في إخفاء كنوز الأرض عنهم.

و الكنوز المحجوبه قد استخدم عليها أرواح خبيثه شيطانيه تحول بين الإنس و بينها، و لا تقهرها إلا أرواح علويه شريفه غالبه لها بحالها الإيماني، معها منه أسلحه لا- تقوم لها الشياطين، و أكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابه، فلا- يقاوم تلك الأرواح و لا يقهرها، و لا ينال من سلبها شيئا، فإن «من قتل قتيلًا فله سلبه» (١)(٢).

ص: ٤٢٠

١- البخارى (٤٣٢١) فى المغازى، باب: قول الله تعالى وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ فَلَمَّ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا... و مسلم (٤١/١٧٥١) فى الجهاد و السير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل.

٢- زاد المعاد (٣٤٨، ٣٤٧/٤).

سئل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَكْبَرُ؟ فَقَالَ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة ٢٥٥]. ذكره أبو داود (١)(٢).

وقد ذكر النسائي في (السنن الكبير) من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» (٣)، وهذا الحديث تفرد به محمد بن حمير، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، ورواه النسائي عن الحسين بن بشر، عن محمد بن حمير. وهذا الحديث من الناس من يصححه، و يقول: الحسين بن بشر قد قال فيه النسائي: لا بأس به، وفي موضع آخر: ثق به. وأما المحمّدان، فاحتج بهما البخاري في «صحيحه» قالوا: فالحديث على رسمه، ومنهم من يقول: هو موضوع.

و أدخله أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «الموضوعات» وتعلق محمد بن حمير، وأن أبا حاتم الرازي قال: لا يحتج به، وقال يعقوب بن سفيان: ليس بقوي، وأنكر ذلك عليه بعض الحفاظ، ووثقوا محمداً، وقال: هو أجل من أن يكون له حديث موضوع، وقد احتج به أجل من صنف في الحديث الصحيح؛ وهو البخاري، ووثقه أشد الناس مقاله في الرجال:

يحيى ابن معين.

وقد رواه الطبراني في «مجمعه» أيضاً من حديث عبد الله بن حسن عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة، كان في ذمه الله إلى الصلاة الأخرى» (٤). وقد روى هذا الحديث من حديث أبي أمامة، وعلی بن أبی طالب، و عبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وفيها

ص: ٤٢١

١- أبو داود (١٤٦٠) في الصلاة، باب: ما جاء في آية الكرسي.

٢- إعلام الموقعين (٣٧٨/٤).

٣- النسائي في الكبرى (٩٩٢٨) في عمل اليوم والليله، باب: ثواب من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة.

٤- الطبراني في الكبير (٨٣/٣، ٨٤) رقم (٢٧٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٥١/٢): «إسناده حسن».

كلها ضعف، و لكن إذا انضم بعضها إلى بعض مع تباين طرقها و اختلاف مخرجها، دلت على أن الحديث له أصل، و ليس بموضوع. و بلغنى عن شيخنا أبى العباس ابن تيميه -قدس الله روحه- أنه قال: ما تركتها عقيب كل صلاه (١).

أجمع آيه لمكارم الأخلاق

قد جمع الله له صلى الله عليه و سلم مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: **تُحَدِّثُ الْعَقْفَ وَ أَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) [الأعراف] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه و سلم بمكارم الأخلاق، و ليس فى القرآن آيه أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآيه.

و قد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآيه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لجبريل: «ما هذا؟» قال: لا- أدرى حتى أسأل. ثم رجع إليه، فقال: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، و تعطى من حرمك، و تعفو عن ظلمك» (٢)(٣).

فضل سورة الملك

و سأله صلى الله عليه و سلم رجل فقال: ضربت خبائى على قبر، و أنا لا- أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك، حتى ختمها، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: «هى المانع هى المنجيه تنجيه من عذاب القبر» (٤). ذكره الترمذى، و قال ابن عبد البر: هو صحيح (٥).

فضل سورة الزلزله

و سأله صلى الله عليه و سلم رجل فقال: أقرئنى سورة جامعه، فأقرأه: **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ**، «أول الزلزله»، حتى فرغ منها، فقال الرجل: و الذى بعثك بالحق لا- أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبى صلى الله عليه و سلم «أفلح الرويجل»، مرتين، ذكره أبو داود (٦)(٧).

ص: ٤٢٢

١- زاد المعاد (٣٠٤، ٣٠٣/١).

٢- انظر: الدر المنثور (١٥٣/٣) و عزاه إلى ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ.

٣- مدارج السالكين (٣٠٤/٢).

٤- الترمذى (٢٨٩٠) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل سورة الملك، و قال: «حسن غريب من هذا الوجه».

٥- إعلام الموقعين (٣٧٨/٤).

٦- أبو داود (١٣٩٩) فى الصلاه، باب: تحزيب القرآن، و ضعفه الألبانى.

٧- إعلام الموقعين (٣٧٨/٤).

فضل المعوذتين

و في المسند و السنن، عن عقبه بن عامر قال: أمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة (١) و رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» (٢)، و الحاكم في «المستدرک» (٣)، و قال: صحيح على شرط مسلم. و لفظ الترمذی «بالمعوذتين» (٤).

و أيضا و قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عقبه بن عامر: أقرأ سورة هود، و سورة يوسف؟ فقال: «لن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)». ذكره النسائي (٥) (٦).

باب: منه عن عقبه بن عامر قال: كنت أقود برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ناقته، فقال لي: «ألا- أعلمك سورتين، لم يقرأ بمثلهما؟» قلت: بلى، فعلمني قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فلم يرني أعجب بهما، فلما نزل للصبح قرأ بهما، ثم قال: «كيف رأيت يا عقبه؟» (٧).

و في روايه: «ألا- أعلمك خير سورتين قرئتاه؟» قلت: بلى، قال: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فلما نزل صلى بهما الغداة، قال: «كيف ترى يا عقبه؟». رواه الإمام أحمد و أبو داود (٨).

فضل سورة الإخلاص

و في «معجم الطبراني»، و «مسند أبي يعلى الموصلي» من حديث عمر بن نبهان، و قد

ص: ٤٢٣

١- أحمد (١٥٥/٤)، و أبو داود (١٥٢٣) في الصلاة، باب: في الاستغفار، و الترمذی (٢٩٠٣) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في المعوذتين، و قال: «حسن صحيح»، و النسائي (١٣٣٦) في السهو، باب: الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة.

٢- ابن حبان (موارد) (٢٣٤٧) في الأذكار، باب: قراءة المعوذات دبر الصلاة.

٣- الحاكم في المستدرک (٢٥٣/١).

٤- زاد المعاد (٣٠٤/١).

٥- النسائي (٩٥٣) في الإمامه، باب: الفضل في قراءة المعوذتين.

٦- إعلام الموقعين (٣٠٤/٤).

٧- أحمد (١٤٤/٤)، و أبو داود (١٤٦٢) في الصلاة، باب: في المعوذتين.

٨- الصلاة (١٦٣).

تكلم فيه، عن جابر يرفعه: «ثلاث من جاء بهن مع الإيمان، دخل من أى أبواب الجنة شاء، وزوج من الحور العين حيث شاء، من عفا عن قاتله، وأدى ديناً خفياً، وقرأ فى دبر كل صلاه مكتوبه عشر مرات، قل هو الله أحد». فقال أبو بكر رضى الله عنه: أو إحداهن يا رسول الله؟ قال: «أو إحداهن» (١)(١).

و أيضا و سأله صلى الله عليه و سلم رجل فقال: إني أحب سورة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)، فقال: «حبك إياها أدخلك الجنة» (٢)(٣).

و أيضا فى صحيح ابن حبان عنه صلى الله تعالى عليه و سلم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» (٤).

و الآيه المتضمنه لها و لتفضيلها سيده آى القرآن، و السوره المختصه بتحقيقها تعدل ثلث القرآن (٥)(٦).

فضل سور: الإخلاص و الكافرون و الزلزله

سوره قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (٧): متضمنه لتوحيد الاعتقاد و المعرفه، و ما يجب إثباته للرب تعالى من الأحديه المنافيه لمطلق المشاركه بوجه من الوجوه، و الصمديه المثبتة له جميع صفات الكمال التى لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، و نفى الولد، و الوالد الذى هو من لوازم الصمديه، و غناه و أحديته، و نفى الكفاء المتضمن لنفى التشبيه، و التمثيل، و التنظير.

فتضمنت هذه السوره إثبات كل كمال له، و نفى كل نقص عنه، و نفى إثبات شبيه، أو مثيل له فى كماله، و نفى مطلق الشريك عنه. و هذه الأصول هى مجامع التوحيد العلمى

ص: ٤٢٤

- ١- إعلام الموقعين (٣٧٨/٤).
- ٢- البخارى (٧٧٤م) فى الأذان، باب: الجمع بين السورتين فى الركعه، و أحمد (١٤١/٣).
- ٣- زاد المعاد (٣٠٥، ٣٠٤/١).
- ٤- ابن حبان (٨٤٣).
- ٥- أحمد (٤١٨/٥)، و النسائى (٩٩٦) فى الافتتاح، باب: الفضل فى قراءه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .
- ٦- إغاثه اللهبان (١٣٤/٢).
- ٧- أبو يعلى (٧٩٤)، و الطبرانى فى الأوسط (٣٣٦١)، و قال الهيثمى فى المجمع (١٠٥/١٠): «فيه عمر ابن نبهان و هو متروك».

الاعتقادی الذی یباین صاحبه جمیع فرق الضلال، و الشریک؛ و لذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

فإن القرآن مداره علی الخبر و الإنشاء، و الإنشاء ثلاثه: أمر و نهی، و إباحه.

و الخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالی، و أسمائه و صفاته و أحكامه، و خبر عن خلقه.

فأخلصت سوره قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) الخبر عنه، و عن أسمائه، و صفاته، فعدلت ثلث القرآن، و خلصت قارئها المؤمن بها من الشریک العلمی، كما خلصت سوره قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) من الشریک العلمی الإرادی القصدی.

و لما كان العلم قبل العمل، و هو إمامه و قائده، و سائقه، و الحاكم علیه و منزله منزله، كانت سوره قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) تعدل ثلث القرآن. و الأحادیث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر.

و قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) تعدل ربع القرآن، و الحدیث بذلك فی الترمذی من روايه ابن عباس رضی الله عنه یرفعه: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون، تعدل ربع القرآن». رواه الحاكم فی «المستدرک» و قال: صحیح الإسناد (١).

و لما كان الشریک العلمی الإرادی أغلب علی النفوس لأجل متابعتها هواها، و كثير منها ترتكبه مع علمها بمضرتة و بطلانه، لما لها فيه من نیل الأغراض، و إزالته، و قلعه منها أصعب، و أشد من قلع الشریک العلمی، و إزالته؛ لأن هذا يزول بالعلم و الحجته، و لا يمكن صاحبه أن یعلم الشیء علی غیر ما هو علیه، بخلاف شریک الإراده و القصد، فإن صاحبه یرتكب ما یدله العلم علی بطلانه، و ضرره؛ لأجل غلبه هواه، و استیلاء سلطان الشهوه، و الغضب علی نفسه، فجاء من التأكيد و التكرار فی سوره قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) المتضمنه لإزاله الشریک العلمی، ما لم یجئ مثله فی سوره قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١).

لما كان القرآن شطرين: شطرا فی الدنيا و أحكامها، و متعلقاتها، و الأمور الواقعه فیها من أفعال المکلفین و غیرها، و شطرا فی الآخره، و ما یقع فیها، و كانت سوره إذا زُلزِلت قد أخلصت من أولها و آخرها لهذا الشطر، فلم یذكر فیها إلا الآخره.

ص: ٤٢٥

١- الترمذی (٢٨٩٤) فی فضائل القرآن، باب: ما جاء فی إذا زلزلت، و قال: «حدیث غریب»، و الحاكم فی المستدرک (٥٦٦/١).

و ما يكون فيها من أحوال الأرض و سكانها، كانت تعدل نصف القرآن، فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحا و الله أعلم.
و لهذا كان يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الطواف، و لأنهما سورتا الإخلاص و التوحيد، كان يفتح بهما عمل النهار، و يختمه بهما، و يقرأ بهما فى الحج الذى هو شعار التوحيد (١).

ما صح من أحاديث فى فضائل السور و الآيات

و الذى صح فى أحاديث السور: حديث فاتحه الكتاب، و أنه «لم ينزل فى التوراه، و لا فى الإنجيل، و لا فى الزبور مثلها» (٢).

و حديث البقره، و آل عمران: «أنهما «الزهران» (٣).

و حديث: آيه الكرسي و أنها «سيده آى القرآن» (٤).

و حديث الآيتين من آخر سورة البقره «من قرأهما فى ليله كفتاه» (٥).

و حديث سورة البقره: «لا تقرأ فى بيت فيقر به شيطان» (٦).

و حديث: العشر آيات من أول سورة الكهف «من قرأها عصم من فتنه الدجال» (٧).

و حديث: قل هو الله أحد، و أنها «تعدل ثلث القرآن» (٨). و لم يصح فى فضائل سورة ما صح فيها.

و حديث المعوذتين، و أنه «ما تعوذ المتعوذون بمثلها» (٩).

ص: ٤٢٦

١- زاد المعاد (٣١٦/١-٣١٨).

٢- الترمذى (٢٨٧٥) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل فاتحه الكتاب، و قال: «هذا حديث حسن صحيح»، و النسائى (٩١٤) فى الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز و جل: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، و أحمد (٣٥٧/٢).

٣- مسلم (٢٥٢/٨٠٤) فى صلاة المسافرين، باب فضل قراءه القرآن و سورة البقره.

٤- سبق تخريجه ص (٤٢١).

٥- سبق تخريجهما ص (٤١٢).

٦- سبق تخريجهما ص (٤١٢).

٧- مسلم (٢٥٧/٨٠٩) فى صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف و آيه الكرسي، و أبو داود (٤٣٢٣) فى الملاحم، باب: خروج الدجال.

٨- سبق تخريجه ص (٤٢٥).

٩- سبق تخريجه ص (٤١١).

و قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «أُنزِلَ عَلَى آيَاتٍ لَمْ يَرِ مِثْلَهُنَّ، ثُمَّ قَرَأَهُمَا» (١).

و يلى هذه الأحاديث و هو دونها فى الصحه: حديث: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن» (٢).

و حديث: «قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» (٣).

و حديث: «تبارك الذى بيده الملك، هى المنجيه من عذاب القبر» (٤)(٥).

ما وضع فى فضائل السور

«ذكر فضائل السور و ثواب من قرأ سوره كذا فله أجر كذا»، من أول القرآن إلى آخره، كما ذكر ذلك الثعلبى و الواحدى فى أول كل سوره، و الزمخشرى فى آخرها قال عبد الله بن المبارك: أظن الزنادقه وضعوها (٤).

ص: ٤٢٧

١- مسلم (٢٦٤/٨١٤) فى صلاه المسافرين، باب: فضل قراءه المعوذتين.

٢- الترمذى (٢٨٩٣) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى إذا زلزلت.

٣- سبق تخريجه ص (٤٢٥).

٤- سبق تخريجه ص (٤٢٢).

٥- المنار المنيف (١١٣، ١١٤).

٦- المنار المنيف (١١٣).

و من منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) [الفتح: ٥].

و هو اسم مصدر كالنبات. و قد أمر الله به في كتابه، و أثنى على أهله، و أخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمِعُوا [المائدة: ١٠٨] و قال: وَ اسْمِعُوا وَ أَطِيعُوا [التغابن: ١٦]

١٦] و قال وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اسْمَعْنَا وَ انظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَقْوَمَ [النساء: ٤٦] فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) [الزمر: ١٧-١٨] وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا [الأعراف: ٢٠٤] و قال وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ [المائدة: ٨٣].

و جعل الإسماع منه و السماع منهم دليلا على علم الخير فيهم، و عدم ذلك دليلا على عدم الخير فيهم. فقال وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: ٢٣].

و أخبر عن أعدائهم: أَنَّهُمْ هَجَرُوا السَّمْعَ وَ نَهَوُا عَنْهُ: فَقَالَ: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوَا فِيهِ [فصلت: ٢٢].

فالسَّمْعُ رسول الإيمان إلى القلب و داعيه و معلمه. و كم في القرآن من قوله أَ فَلَا يَسْمَعُونَ؟ [السجدة: ٢٦] و قال: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا [الحج: ٤٦] (١).

السمع المستحب

و أما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، و قراءة القرآن، و ذكر الله و استماع كل ما يحبه الله، و ليس بفرض.

و المكروه: عكسه. و هو استماع كل ما يكره و لا يعاقب عليه.

و المباح ظاهر (٢).

ص: ٤٢٨

١- مدارج السالكين (١/٤٨١).

٢- مدارج السالكين (١/١٧٧).

و أدبه فى استماع القراءه: أن يلقى السمع و هو شهيد (١).

فضل سماع القرآن من الغير

قال القائل: المحبون لا شىء أذ لهم و لقلوبهم من سماع كلام محبوبهم و فيه غايه مطلوبهم، و لهذا لم يكن شىء أذ لأهل المحبه من سماع القرآن.

و قد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اقرأ على»، قلت: اقرأ عليك و عليك أنزل؟ قال: «إنى أحب أن أسمع من غيرى»، فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١) [النساء] قال: «حسبك الآن»، فرفعت رأسى فإذا عيناه تذرطان (٢).
و كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ و هم يستمعون.

و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى و ربما بكى عمر.

و مر رسول الله صلى الله عليه و سلم بأبى موسى رضى الله عنه و هو يصلى من الليل فأعجبه قراءته فوقف و استمع لها، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «مررت بك البارحه و أنت تقرأ فوقفت و استمعت لقراءتك». فقال: لو أعلم أنك كنت تسمع لحبرته لك تحبيراً (٣).

و الله - سبحانه - و هو الذى تكلم بالقرآن يأذن و يستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال صلى الله عليه و سلم: «لله أشد أذناً إلى القارئ الحسن الصوت من صاحب القينه إلى قينته» (٤). و الأذن بفتح الهمزة و الذال، مصدر أذن يأذن: إذا استمع.

قال الشاعر:

أيها القلب تعلق بدين إن قلبى فى سماع و أذن

ص: ٤٢٩

١- مدارج السالكين (٣٨٧/٢).

٢- البخارى (٥٠٥٠) فى فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، و مسلم (٢٤٨/٨٠٠) فى صلاه المسافرين و قصرها، باب: فضل استماع القرآن.

٣- أبو يعلى (٧٢٧٩)، و قال الهيثمى فى المجمع (١٧٤/٧): «و فيه خالد بن نافع الأشعري و هو ضعيف».

٤- ابن ماجه (١٣٤٠) فى إقامه الصلاه و السنه فيها، باب: فى حسن الصوت بالقرآن، و فى الزوائد: «إسناده حسن»، و أحمد (١٩/٤)، و

الحاكم فى المستدرک (٥٧١/١) وقال: «هذا حدیث صحیح على شرط الشیخین و لم یخرجاه» و تعقبه الذهبی و قال: «بل هو منقطع»، و ضعفه الألبانی.

وقال صَلَّى اللهُ عليه و سلم: «زينوا القرآن بأصواتكم» (١) و غلط من قال: إن هذا من المقلوب و إن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن، فهذا و إن كان حقا فالمراد تحسين الصوت بالقرآن.

و صح عنه أنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٢) و وهم من فسره بالغنى الذى هو ضد الفقر من وجوه:

أحدها: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى.

الثانى: أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يجهر به، هذا لفظه، قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان و إنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع.

الثالث: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ و لو احتمله، فكيف و بنيه اللفظ لا تحتمله كما تقدم.

و بعد هذا فإذا كان من التغنى بالصوت ففيه معنيان: أحدهما: كجعله له مكان الغناء لأصحابه من محبته له و لهجه به كما يحب صاحب الغناء لغنائه، و الثانى: أنه يزينه بصوته و يحسنه ما استطاع كما يزين المتغنى غنائه بصوته، و كثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجى، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عشاق المردان و النسوان (٣).

المستمع للقرآن مستمع لله عز و جلّ

من قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه، كأنما يسمعه من الله يخاطبه به. فإذا حصل له -مع ذلك- السماع به و له و فيه؛ ازدحمت معانى المسموع و لطائفه و عجائبه على قلبه، و ازدلفت إليه بأيهما يبدأ، فما شئت من علم و حكمه، و تعرف و بصيره، و هدايه و غيره (٤).

سماع الناس القرآن يوم القيامة

حرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطاني: أن يجد شيئا من ذلك فى سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذه؛ فهن من قبل الصوت المشترك، لا من قبل المعنى الخاص.

ص: ٤٣٠

١- أبو داود (١٤٦٨) فى الصلاة، باب: استحباب الترتيل فى القراءة، و النسائي (١٠١٥) فى الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت.

٢- البخارى (٧٥٢٧) فى التوحيد، باب: قول الله تعالى: وَ أَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣).

٣- روضه المحبين (٢٥٢-٢٥٤).

٤- مدارج السالكين (١/٥٠٤).

و ليس فى نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم- سبحانه و تعالى- عيانا و سماع كلامه منه.

و ذكر عبد الله ابن الإمام أحمد فى كتاب السنه أثار- لا- يحضرنى الآن: هل هو موقوف أو مرفوع «إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرحمن- عز و جل- فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك» (١).

و أيضا قال النبى صلى الله عليه و سلم: «أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه» (٢)، و هذا إنما هو فى السماع القرآنى لا فى السماع الشعرى؛ فإنه دائم بدوام المتكلم به، تزول الدنيا بأهلها و هو دائم لا يزول. و إذا سمعه المؤمنون فى الجنة من الرحمن- عز و جل- فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك، و تنسيهم لذه سماعه ما هم فيه من النعيم حتى يستفرغ جميع ما هم فيه من النعيم كما ينسيهم ذلك لذه نظرهم إلى وجهه (٣).

الشهقه عند سماع القرآن

الشهقه التى تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها: أن يلوح له عند السماع درجه ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقه فهذه شهقه شوق.

و ثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهى خوفا و حزنا على نفسه، و هذه شهقه خشيه.

و ثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه فيحدث له ذلك حزنا فيشهى شهقه حزن.

و رابعها: أن يلوح له كمال محبوبه و يرى الطريق إليه مسدوده عنه فيحدث ذلك شهقه أسف و حزن.

و خامسها: أن يكون قد توارى عنه محبوبه و اشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه، و فلاح له جماله، و رأى الباب مفتوحا و الطريق ظاهره، فشهى فرحا و سرورا بما لاح له.

ص: ٤٣١

١- مدارج السالكين (٢/٤١٢).

٢- البخارى (٤٣) فى الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، و مسلم (٢٢١/٧٨٥) فى صلاه المسافرين باب: أمر من نسى فى صلاته... إلخ.

٣- حكم مسأله السماع (٢٨٦، ٢٨٧).

و بكل حال،فسبب الشهقه قوه الوارد و ضعف المحل عن الاحتمال.و القوه أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلا و لا يظهر عليه،و ذلك أقوى له و أدوم،فإنه إذا أظهره ضعف أثره و أوشك انقطاعه.هذا حكم الشهقه من الصادق،فإن الشاهق إما صادق و إما سارق و إما منافق (١).

عشق سماع القرآن

و العشق إذا تعلق بما يحبه الله و رسوله كان عشقا ممدوحا مثابا عليه،و ذلك أنواع:

أحدها:محبه القرآن بحيث يغنى بسماعه عن سماع غيره،و يهيم قلبه فى معانيه،و مراد المتكلم سبحانه منه،و على قدر محبه الله تكون محبه كلامه،فمن أحب محبوبا أحب حديثه،و الحديث عنه،كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي (٢)

سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان

و أغنانا عن سماع الآيات و قرآن الشيطان بسماع الآيات و كلام الرحمن (٣).

ص: ٤٣٢

١- الفوائد (١٩٢،١٩١).

٢- روضه المحبين (١٩٩).

٣- إغاثه اللهفان (٧٠/٢).

و رأس الأمر و عموده فى ذلك، إنما هو دوام التفكير و تدبر آيات الله، حيث تستولى على الفكر و تشغل القلب. فإذا صارت معانى القرآن مكان الخواطر من قلبه و جلس على كرسية، و صار له التصرف، و صار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، و يتضح له الطريق، و تراه ساكنا و هو يبارى الريح وَ تَرَى الْجِبَالَ تَخْضِبُ بِهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ [النمل: ٨٨].

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لى بابه، و اكشف لى حجابيه، و كيف تدبر القرآن و تفهمه و الإشراف على عجائبه و كنوزه؟ و هذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل فى البيان غير ما ذكرناه؟.

قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها، و تجعلها إماما لك فى هذا المقصد.

قال الله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إلى قوله تعالى أَلْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [الذاريات: ٣٠].

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية و تطلعت إلى معناها و تدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم فى صورته الأضياف يأكلون و يشربون، و بشروه بسلام عليم، و إنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك - و لم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما فى هذه الآيات من أنواع الأسرار. و كم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم عليه السلام.

و كيف جمعت الضيافة و حقوقها.

و ما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة و المعطلة.

و كيف تضمنت علما عظيما من أعلام النبوه.

و كيف تضمنت جميع صفات الكمال، التى ردها إلى العلم و الحكمة.

و كيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بالطف إشارة و أوضحها، ثم أفصحت وقوعه.

و كيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب و انتقامه من الأمم المكذبه.

و تضمنت ذكر الإسلام و الإيمان و الفرق بينهما.

و تضمنت بقاء آيات الرب الداله على توحيده و صدق رسله، و على اليوم الآخر.

و تضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من فى قلبه خوف من عذاب الآخرة، و هم المؤمنون بها.

و أما من لا يخاف الآخرة و لا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

*فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال الله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) [الذاريات].

افتتح - سبحانه - القصة بصيغه موضوعه للاستفهام، و ليس المراد بها حقيقه الاستفهام، و لهذا قال بعض الناس: إن «هل» فى مثل هذا الموضوع بمعنى «قد» التى تقتضى التحقيق؟ و لكن فى ورود الكلام فى مثل هذا بصيغه الاستفهام سر لطيف، و معنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغى الاعتناء به، و إحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداه الاستفهام، لتنبيه سمعه و ذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بالأو، و تارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت و كيت؟ إما مذكرا به، و إما واعظا له مخوفا، و إما منبها على عظمه ما يخبر به، و إما مقورا له.

فقوله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) [طه]، وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ [ص]:

[٢١]، وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) [الغاشية]، وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) [الذاريات]، متضمن لتعظيم هذه القصص و التنبيه على تدبرها و معرفه ما تضمنته.

ففيه أمر آخر:

و هو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوه، فإنه من الغيب الذى لا - تعلمه أنت و لا - قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا و إرسالنا و تعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغه الاستفهام، و تأمل عظم موقعه من جميع موارد، يشهد أنه من الفصاحه فى ذروتها العليا.

و قوله: ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [الذاريات: ٢٤] متضمن لثنائه على خليله إبراهيم. فإن فى الْمُكْرَمِينَ قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

و الثانى: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ [الأنبياء: ٢٦]، و هو متضمن أيضا لتعظيم خليله و مدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم عليه السلام.

و قوله: فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ [الذاريات: ٢٥] متضمن بمدح آخر لإبراهيم، حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجمله فعلية، تقديره:

سلمنا عليك سلاماً. و تحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجمله اسميه، تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستمر عليكم، ولا ريب أن الجمله اسميه، تقتضى الثبوت و اللزوم، و الفعلية تقتضى العدد و الحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل و أحسن.

ثم قال: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [الذاريات: ٢٥]، و فى هذا من حسن مخاطبه الضيف و التذمم منه و جهان فى المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ و التقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم و لم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش.

و كان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يواجه أحد بما يكرهه بل يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا و يفعلون كذا».

و الثانى: قوله: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فحذف فاعل الإنكار و هو الذى كان أنكرهم، كما قال فى موضع آخر: نَكِرَهُمْ [هود: ٧٠]. و لا ريب أن قوله: مُنْكَرُونَ أَلْطَفٌ مِنْ أَنْ يَقُولَ:

أنكرتم (١).

دعوه القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر

تدبر كلامه و ما تعرف به-سبحانه- إلى عباده على ألسنه رسله من أسمائه و صفاته و أفعاله و ما نزه نفسه عنه مما لا يسعى له و لا يليق به-سبحانه- و تدبر أيامه و أفعاله فى أوليائه و أعدائه التى قصها على عباده و أشهدهم إياها؛ ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين الذى لا تنبغى العباده إلا له و يستدلوا بها على أنه على كل شىء قدير و أنه بكل شىء عليم، و أنه شديد العقاب، و أنه غفور رحيم، و أنه العزيز الحكيم، و أنه الفعال لما يريد، و أنه الذى وسع كل شىء رحمه و علما، و أن أفعاله كلها دائره بين الحكمة و الرحمه و العدل و المصلحه، لا يخرج شىء عنها عن ذلك. و هذه الثمره لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه و النظر فى آثار أفعاله.

و إلى هذين الأصلين ندب عباده فى القرآن، فقال فى الأصل الأول: أَ فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ [النساء: ٨٢]، أَ فَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ [المؤمنون: ٦٨]، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ [ص: ٢٩]، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) [يوسف]، كِتَابٌ فَصَّلَتْ

ص: ٤٣٥

وقال في الأصل الثاني: قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [يونس: ١٠١]، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) [الجاثية]، أَو لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ [غافر: ٢١]، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ [الروم: ٤٢]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) إِلَى قَوْلِهِ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) [الروم: ٢٥].

و نوع-سبحانه-الآيات في هذه السور فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم، لا لا اشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالاته، وجعل خلق الأزواج التي يسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأه وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته، وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم-سبحانه-بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآيات إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه، واستدل بهذه الآيات عليه وجعل إراؤهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهد بالحواس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم كما أحيى هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآيات والعقل دل على ما

جعلت آية له فذكر- سبحانه- الآية المشهودة بالبصر و المدلول عليه المشهود بالعقل، فقال:

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبُرُوقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعِيدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)
[الروم] فبارك الذي جعل كلامه حياه للقلوب و شفاء لما في الصدور.

و بالجمله فلا- شىء أنفع للقلب من قراءه القرآن بالتدبر و التفكير، فإنه جامع لجميع منازل السائرين و أحوال العاملين و مقامات العارفين، و هو الذى يورث المحبه و الشوق و الخوف و الرجاء و الإنابه و التوكل و الرضا و التفويض و الشكر و الصبر، و سائر الأحوال التى بها حياه القلب و كماله، و كذلك يزجر عن جميع الصفات و الأفعال المذمومه التى بها فساد القلب و هلاكه، فلو علم الناس ما فى قراءه القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآيه و هو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها و لو مائه مره و لو ليله. فقراءه آيه بتفكر و تفهم خير من قراءه ختمه بغير تدبر و تفهم، و أنفع للقلب و أدعى إلى حصول الإيمان و ذوق حلاوه القرآن، و هذه كانت عاده السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، و قد ثبت عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قام بآيه يرددنها حتى الصباح و هى قوله: **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١١٨)[المائدة].

فقراءه القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب، و لهذا قال ابن مسعود، لا تهذوا القرآن هذ الشعر، و لا تنثروه نثر الدقل، و وقفوا عند عجائبه، و حركوا به القلوب، لا- يكن هم أحدكم آخر السوره. و روى أبو أيوب عن أبي جمره قال: قلت لابن عباس: إنى سريع القراءة، إنى أقرأ القرآن فى ثلاث. قال: لأن أقرأ سوره من القرآن فى ليله فأتدبرها و أرتلها، أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ.

و التفكير فى القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه و تفكر فى معانى ما دعا عباده إلى التفكير فيه فالأول تفكر فى الدليل القرآنى، و الثانى تفكر فى الدليل العيانى، الأول تفكر فى آياته المسموعه، و الثانى تفكر فى آياته المشهوده؛ و لهذا أنزل الله القرآن ليتدبر و يتفكر فيه و يعمل به لا- لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه. قال الحسن البصرى: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا.

و إذا تأملت ما دعى الله- سبحانه و تعالى- فى كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به - سبحانه و تعالى- بوحدانيتها و صفات كماله و نعوت جلاله من عموم قدرته و علمه و كمال حكمته و رحمته و إحسانه و بره و لطفه و عدله و رضاه و غضبه و ثوابه و عقابه، فبهذا تعرف إلى

عباده ندبهم إلى الفكر في آياته.

و نذكر لذلك أمثله مما ذكرها الله- سبحانه- في كتابه ليستدل بها على غيرها.

فمن ذلك: خلق الإنسان و قد ندب- سبحانه- إلى التفكير فيه و النظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)[الطارق] و قوله تعالى: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)[الذاريات] و قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُفِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَشَدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَ مِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا- يَعْلَمَ مَن بَعِيدٌ عِلْمَ شَيْئًا [الحج:٥] و قال تعالى: أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنَىٰ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكْ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَيُوتَ (٤٠)[القيامة:٣٦-٤٠]، و قال تعالى: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَصَدَرْنَا مِنْهُ الْفُؤَادَ وَ الْقَادِرُونَ (٢٣) [المرسلات:٢٠-٢٣]، و قال: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)[يس:٧٧]، و قال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)[المؤمنون:١٢-١٤].

و هذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر و الفكر في مبدأ خلقه و وسطه و آخره، إذ نفسه و خلقه من أعظم الدلائل على قدره خالقه و فاطره، و أقرب شيء إلى الإنسان نفسه. و فيه من العجائب الداله على عظمه الله ما تنقضى الأعمار في الوقوف على بعضه، و هو غافل عنه معرض عن التفكير فيه، و لو فكر في نفسه لجزه ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره.

قال الله تعالى: قَبَّلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِمَّنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِمَّنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)[عبس:١٧-٢٢] فلم يكرر سبحانه على أسماعنا و عقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفه و العلقه و المضغه و التراب، و لا- لتتكلم بها فقط و لا- لمجرد تعريفنا بذلك. بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب و إليه جرى ذلك الحديث.

فانظر الآن إلى النطفه بعين البصيره و هى قطره من ماء مهين ضعيف مستقدر، لو مرت بها ساعه من الزمان فسدت و أنتنت. كيف استخراجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب و الترائب، منقادته لقدرته مطيعه لمشيئته مدله الانقياد على ضيق طرقها، اختلاف

مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها وجمعها. وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى و ألقى المحبه بينهما و كيف قادهما بسلسله الشهوه و المحبه إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد و تكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه، و ساقهما من أعماق العروق و الأعضاء و جمعهما فى موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده، و لا برد يجمده و لا عارض يصل إليه و لا آفه تتسلط عليه. ثم قلب تلك النطفه البيضاء المشربه علقه حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغه لحم مخالفه للعلقه فى لونها و حقيقتها و شكلها، ثم جعله عظاما مجردة لا كسوه عليها مباينه للمضغه فى شكلها و حياتها و قدرها و ملمسها و لونها. و انظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهه المتساويه إلى الأعصاب و العظام و العروق و الأوتار، و اليايس و اللين، و بين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط و أشده و أبعد عن الانحلال. و كيف كساها لحما ركبه عليها و جعله وعاء لها و غشاء و حافظا و جعلها حامله له مقيم له، فاللحم قائم بها و هى محفوظه به و كيف صورها فأحسن صورها و شق لها السمع و البصر و الفم و الأنف و سائر المنافذ (١).

و لهذا كانت آيات الله المتلوه و المشهوره ذكرى كما قال فى المتلوه: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) [غافر]، و قال عن القرآن: وَ إِنَّهُ لَتِيَذْكُرُهُ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) [الحاقه: ٤٨]، و قال فى آياته المشهوره: أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مِمَّا دَرَأْنَاهَا وَ الْأَقْيَانُ فِيهَا رَاْسِي وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرَهُ وَ ذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) [ق: ٦-٨] فالتبصره آله البصر و «التذكره» آله الذكر، و قرن بينهما و جعلهما لأهل الإنابه. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات و العبر، فاستدل بها على ما هى آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابه، و العمى بالتبصره، و الغفله بالتذكره. لأن التبصره توجب له حصول صوره المدلول فى القلب بعد غفلته عنها، فترتب المنازل الثلاثه أحسن ترتيب ثم إن كلا منها يمد صاحبه و يقويه و يثمره.

و قال تعالى فى آياته المشهوره: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) [ق]:

[٣٦-٣٧]، و الناس ثلاثه: رجل قلبه ميت فذلك الذى لا قلب له فهذا ليست هذه الآيه ذكرى فى حقه. هـ.

ص: ٤٣٩

١- مفتاح دار السعاده (١/١٨٨-١٨٩). و قد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى فى ذلك فصلا ممتعا فانظره.

الثانى: رجل له قلب حىّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوه، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهوده: إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها غيرها فهو غائب القلب، ليس حاضرا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

و الثالث: رجل حى القلب مستعد، تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه و ألقى السمع و أحضر قلبه و لم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب ملق السمع، فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوه و المشهوده فالأول: بمنزله الأعمى الذى لا يبصر.

و الثانى بمنزله البصير الطامح ببصره إلى غير جهه المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

و الثالث بمنزله البصير الذى قد حذق إلى جهه المنظور، و أتبعه بصره، و قابله على توسط من البعد و القرب. فهذا هو الذى يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، و لسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهره النحاه.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب و قاد ملىء باستخراج العبر، و استنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر و الاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور. و هؤلاء أكمل خلق الله و أعظمهم إيمانا و بصيره حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله و أنواعه. حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبى صلى الله عليه و سلم. كمثل رجلين دخلا دارا. فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها و جزئياته. و الآخر: وقعت يده على ما فى الدار و لم ير تفاصيله و لا جزئياته. لكن علم أن فيها أمورا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا. فسأله عما رأى فى الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنا، من شواهد.

و هذه أعلى درجات الصدوقيه. و لا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان.

فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر و لا حساب.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات و فى قلبه نور من البصيره: ازداد بها نورا على نوره، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع و شهد قلبه و لم يغب حصل له التذكر أيضا فإن لم يُصَبِّبْهَا و ابْلُ فَطَلَّ [البقره: ٢٦٥]، و الوابل و الطل فى جميع الأعمال و آثارها، و موجباتها. و أهل الجنه سابقون مقربون، و أصحاب يمين، و بينهما فى درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن شراب أحد النوعين الصريف يطيب به شراب النوع الآخر و يمزج به مزجا، قال الله تعالى: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) [سبأ] فكل مؤمن يرى هذا. و لكن رؤيه أهل العلم له لون، و رؤيه غيرهم له لون آخر.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات و في قلبه نور من البصيره:ازداد بها نورا على نوره،فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع و شهد قلبه و لم يغب حصل له التذكر أيضا فإن لم يُصَِّبْهَا وَايْلُ فَطَلُّ [البقره:٢٦٥]،و الوابل و الطل في جميع الأعمال و آثارها، و موجباتها.و أهل الجنه سابقون مقربون،و أصحاب يمين،و بينهما في درجات التفصيل ما بينهما،حتى إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر و يمزج به مزجا، قال الله تعالى: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)[سبأ]فكل مؤمن يرى هذا.و لكن رؤيه أهل العلم له لون،و رؤيه غيرهم له لون آخر.

قال صاحب«المنازل»:«أبنيه التذكر ثلاثه:الانتفاع بالعظه،و الاستبصار بالعبره، و الظفر بثمره الفكره».

و الانتفاع بالعظه:هو أن يقدر في القلب قادح الخوف و الرجاء.فيتحرك للعمل،طلبا للخلاص من الخوف،و رغبه في حصول المرجو.

و«العظه»هى الأمر و النهى،المعروف بالترغيب و الترهيب.

و«العظه»نوعان:عظه بالمسموع،و عظه بالمشهود،فالعظه بالمسموع:الانتفاع بما يسمعه من الهدى و الرشد،و النصائح التى جاءت على لسان الرسل و ما أوحى إليهم و كذلك الانتفاع بالعظه من كل ناصح و مرشد فى مصالح الدين و الدنيا.

و«العظه»بالمشهود:الانتفاع بما يراه و يشهده فى العلم من مواقع العبر،و أحكام القدر،و مجاريه،و ما يشاهده من آيات الله الداله على صدق رسله.

و أما استبصار العبره:فهو زياده البصيره عما كانت عليه فى منزل التفكير بقوه الاستحضار؛لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت بالتفكر فى مواقع الآيات و العبر،فهو يظفر بها بالتفكر.و تنصقل له و تنجلي بالتذكر.فيقوى العزم على السير بحسب قوه الاستبصار؛لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور.فكلما قوى الشعور بالمحجوب اشتد سفر القلب إليه.و كلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به و البصيره فيه.و التذكر له.

و أما الظفر بثمره الفكره،فهذا موضع لطيف.

و للفكره ثمرتان:حصول المطلوب تاما بحسب الإمكان،و العمل بموجب رعايه لحقه، فإن القلب حال التفكير كان قد كلّ بأعماله فى تحصيل المطلوب.

فلما حصلت له المعانى و تخمرت فى القلب،و استراح العقل:عاد فتذكر ما كان حصله و طالعه،فابتهج به و فرح به.و صحح فى هذا المنزل ما كان فإنه فى منزل التفكير؛لأنه قد أشرف عليه فى مقام التذكر،الذى هو أعلى منه؛فأخذ حينئذ فى الثمره المقصوده و هى العمل بموجبه مراعاه لحقه،فإن العمل الصالح:هو ثمره العلم النافع،الذى هو ثمره التفكير.

و إذا أردت فهم هذا بمثال حسى؛فطالب المال ما دام جادا فى طلبه،فهو فى كلال

و تعب، حتى إذا ظفر به استراح من كد الطلب، و قدم من سفر التجاره. فطالع ما حصله و أبصره، و صحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب، فإذا صح له و بردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبه منه، و الله أعلم (١).

فوائد تدبر القرآن

التأمل في القرآن، هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، و جمع الفكر على تدبره و تعقله.

و هو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم، و لا تدبر. قال الله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) [ص]. و قال تعالى: أَمْ فَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) [محمد]. و قال تعالى: أَمْ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ [المؤمنون: ٦٨]. و قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) [الزخرف].

و قال الحسن: نزل القرآن ليتدبر و يعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً فليس شيء أنفع للعبد في معاشه و معاده، و أقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، و إطاله التأمل، و جمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير و الشر بحذافيرهما، و على طرقاتهما و أسبابهما و غايتهما و ثمراتهما، و مآل أهلها.

و تتل (٢) في يده مفاتيح كنوز السعاده و العلوم النافعه، و تثبت قواعد الإيمان في قلبه، و تشيد بنيانه، و توطد أركانه، و تريه صوره الدنيا و الآخرة، و الجنة و النار في قلبه، و تحضره بين الأمم، و تريه أيام الله فيهم، و تبصره مواقع العبر، و تشهدده عدل الله و فضله. و تعرفه ذاته، و أسماءه و صفاته و أفعاله، و ما يحبه و ما يبغضه، و صراطه الموصل إليه، و ما لسالكه بعد الوصول و القدوم عليه، و قواطع الطريق و آفاتها.

و تعرفه النفس و صفاتها، و مفسدات الأعمال مصححاتها، و تعرفه طريق أهل الجنة و أهل النار و أعمالهم، و أحوالهم و سيماهم، و مراتب أهل السعاده و أهل الشقاوه، و أقسام الخلق و اجتماعهم فيما يجتمعون فيه، و افتراقهم فيما يفترون فيه.

و بالجمله، تعرفه الرب المدعو إليه، و طريق الوصول إليه، و ما له من الكرامه إذا قدم عليه.

و تعرفه في مقابل ذلك ثلاثه أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، و الطريق الموصله إليه، و ما للمستجيب لدعوته من الإهانه و العذاب بعد الوصول إليه.

ص: ٤٤٢

١- مدارج السالكين (١/٤٤٠-٤٤٥).

٢- تل الشيء في يده، بالمشاهه الفوقيه المفتوحه: وضعه فيها (لسان العرب: تلل).

فهذه سته أمور، ضروري للعبد معرفتها، و مشاهدتها و مطالعتها؛ فتشاهده الآخره حتى كأنه فيها، و تغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. و تميز له بين الحق و الباطل في كل ما اختلف فيه العالم؛ فتريه الحق حقا، و الباطل باطلا، و تعطيه فرقانا و نورا يفرق به بين الهدى و الضلال، و الغي و الرشاد، و تعطيه قوه في قلبه، و حياه وسعه و انشراحا و بهجه و سرورا؛ فيصير في شأن و الناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائره على التوحيد و براهينه، و العلم بالله و ما له من أوصاف الكمال، و ما ينزه عنه من سمات النقص.

و على الإيمان بالرسول، و ذكر براهين صدقهم، و أدله صحه نبوتهم، و التعريف بحقوقهم، و حقوق مرسلهم.

و على الإيمان بملائكته، و هم رسله في خلقه و أمره، و تدبيرهم الأمور بإذنه و مشيئته، و ما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى و السفلى.

و ما يختص بالنوع الإنسانى منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافق ربه و يقدم عليه.

و على الإيمان باليوم الآخر، و ما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم و لا نكد و تنغيص، و ما أعد لأعدائه من دار العقاب الويل، التي لا يخالطها سرور و لا رضاء و لا راحه و لا فرح.

و تفاصيل ذلك أتم تفصيل و أبينه، و على تفاصيل الأمر و النهى، و الشرع و القدر، و الحلال و الحرام، و المواعظ و العبر، و القصص و الأمثال، و الأسباب و الحكم، و المبادئ و الغايات، في خلقه و أمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، و تحذره و تخوفه بوعيده من العذاب الويل، و تحثه على التضمر و التخفف للقاء اليوم الثقيل. و تهديه في ظلم الآراء و المذاهب إلى سواء السبيل، و تصده عن اقتحام طرق البدع و الأضاليل، و تبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، و تبصره بحدود الحلال و الحرام. و توقفه عليها؛ لئلا يتعدها فيقع في العناء الطويل. و تثبت قلبه عن الزيف و الميل عن الحق و التحويل، و تسهل عليه الأمور الصعاب، و العقبات الشاقه غايه التسهيل، و تناديه كلما فترت عزماته، و نى في سيره تقدم الركب و فاتك الدليل؛ فاللحاق اللحاق، و الرحيل الرحيل، و تحذو به و تسير أمامه سير الدليل، و كلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر

الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبى الله و نعم الوكيل.

و فى تأمل القرآن و تدبره و تفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم و الفوائد.

و بالجمله، فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

نزه فؤادك عن سوى روضاته فرياضه حلّ لكل منزّه

و الفهم طلّسم لكنز علومه فاقصد إلى الطلّسم تحظ بكنزّه

لا تخش من بدع لهم و حوادث ما دمت فى كنف الكتاب و حرزه

من كان حارسه الكتاب و درعه لم يخش من طعن العدو و وخزه

لا تخش من شبهاتهم و احمل إذا ما قابلتك بنصره و بعزه

و الله ما هاب امرؤ شبهاتهم إلا لضعف القلب منه و عجزه

يا ويح تيس ظالع يبغى مسا بقه الهزبر بعدوه و بجمزه

و دخان زبل يرتقى للشمس يس تر عينها لما سرى فى أزه

و جبان قلب أعزل، قد رام يأس ر فارسا شاكى السلاح بهزه (١)

باب: منه فهم القرآن و تدبره هو الذى يثمر الإيمان، و أما مجرد التلاوه من غير فهم و لا تدبر، فيفعلها البر و الفاجر، و المؤمن و

المنافق، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم: «و مثل المنافق الذى يقرأ القرآن، كمثل الريحان، ريحها طيب، و طعمها مر» (٢).

و الناس فى هذا أربع طبقات: أهل القرآن و الإيمان، و هم أفضل الناس.

و الثانیه: من عدم القرآن و الإيمان.

الثالثه: من أوتى قرآنا، و لم يؤت إيمانا.

الرابعه: من أوتى إيمانا و لم يؤت قرآنا.

قالوا: فكما أن من أوتى إيمانا بلا قرآن أفضل ممن أوتى قرآنا بلا إيمان، فكذلك من أوتى تدبرا، و فهما فى التلاوه أفضل ممن

أوتى كثره قراءه و سرعتها بلا تدبر. قالوا: و هذان.

١- مدارج السالكين (١/٤٥١-٤٥٣).

٢- البخارى (٧٥٦٠) فى التوحيد، باب: قراءه الفاجر المنافق، و مسلم (٧٩٧/٢٤٣) فى صلاه المسافرين، باب: فضيله حافظ القرآن.

هدى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآيه حتى الصباح.

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: كثرة القراء أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف». رواه الترمذي، و صححه (١).

قالوا: ولأن عثمان بن عفان قرأ القرآن في ركعه، وذكروا آثاراً عن كثير من السلف في كثرة القراءه.

و الصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدراً، و ثواب كثرة القراءه أكثر عدداً، فالأول: كمن تصدق بجوهره عظيمه، أو أعتق عبداً قيمته نفيسه جداً، والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصه، و في صحيح البخارى عن قتاده قال: سألت أنسا عن قراءة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: كان يمد مداً (٢).

وقال شعبه: حدثنا أبو جمره، قال: قلت لابن عباس: إنى رجل سريع القراءه، وربما قرأت القرآن فى ليله مره أو مرتين، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحده أعجب إلى من أن أفعل ذلك الذى تفعل، فإن كنت فاعلاً ولا بد، فأقرأ قراءه تسمع أذنيك، ويعيها قلبك.

وقال إبراهيم: قرأ علقمه على ابن مسعود، وكان حسن الصوت، فقال رتل فداك أبى و أمى، فإنه زين القرآن.

وقال ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، ووقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب و لا يكن هم أحدكم آخر السوره.

وقال عبد الله أيضاً: إذا سمعت الله يقول يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأصغ لها سمعك؛ فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه.

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى: دخلت على امرأه، وأنا أقرأ «سوره هود» فقالت ياه.

ص: ٤٤٥

١- الترمذى (٢٩١٠) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فىمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وقال: «حسن صحيح غريب».

٢- البخارى (٥٠٤٥) فى فضائل القرآن، باب: مد القراءه.

عبد الرحمن، هكذا تقرأ سورة هود؟! والله إنى فيها منذ ستة أشهر، وما فرغت من قراءتها (١).

علاج المدبر عن سماع القرآن

إذا لم يكن بد من المحاكمه إلى الذوق، فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن و لا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حاله حزن و أسف على مفقود، و حاله فرح و رضى بوجود، و له بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

و له بمقتضى حاله الأولى: عبوديه الرضاء، و هى للسابقين. و الصبر، و هى لأصحاب اليمين.

و له بمقتضى حاله الثانية: عبوديه الشكر، و الشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون و أصحاب يمين. فاقتطعت النفس و الشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين، هما للشيطان لا- للرحمن: صمت الندب و النياحه عند الحزن و فوات المحبوب، و صوت اللهو و المزمار و الغناء عند الفرح و حصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

و قد أشار النبى صلى الله عليه و سلم إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضى الله عنه: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت ويل عند مصيبيه، و صوت مزمار عند نعمه» (٢).

و وافق ذلك راحه من النفس و شهوه و لذه، و سرت فيها تلك الرقائق حتى تعبد بها من قل نصيبه من النور النبوى، و قل مشربه من العين المحمديه، و انضاف ذلك إلى صدق و طلب و إرادته مضاده لشهوات أهل الغى و أهل البطاله. و رأوا قساوه قلوب المنكرين لطريقتهم، و كثافه حجهم، و غلظه طباعهم، و ثقل أرواحهم. و صادف ذلك تحريكا لسواكنهم؛ و انقيادا للواعج الحب، و إزعاجا للنفوس إلى أوطانها الأولى (٣) و معاهدها التى سببت منها، و النفوس الطالبة المرتاضه السائره لا بد لها من محرك يحركها، و حاد يحدوها. و ليس لها من

ص: ٤٤٦

١- زاد المعاد (١/٣٣٧-٣٤٠).

٢- الترمذى (١٠٠٥) فى الجنائز، باب: ما جاء فى الرخصه فى البكاء على الميت، و قال: «هذا حديث حسن».

٣- إن الذى يتحرك عند سماع الغناء و الموسيقى، و يطرب و يستيقظ و يتلذذ: هو النفس البهيميه، لا النفس الإنسانيه. و لذلك استدلوا عليه بما تجده البهائم و الطيور و الوحوش عند سماعها للغناء و الموسيقى و الحداء، فهى تتحرك حركه بهيميه لا تجد من الإنسانيه الكريمه المفكره المميزه يقظه و رشدا تكبح به

حادى القرآن عوض عن حادى السماع.

فتركب من هذه الأمور: إيثار منهم للسماع. و محبه صادقه له. تزول الجبال عن أماكنها و لا تفارق قلوبهم، إذ هو مشير عزماتهم و محرك سواكنهم، و مزعج بواطنهم.

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدرىج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبه، مع الإمعان فى تفهم معانيه، و تدبر خطابه قليلا قليلا، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات، و يلبس محبه سماع الآيات، و يصير ذوقه و شربه و حاله و وجده فيه، فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شىء و يتمثل حينئذ بقول القائل:

و كنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غايه ما فوقها لى طلب

فلما تلاقينا و عاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب (١)

هل الأفضل قله القراءه مع التدبر أو الكثره بدونه؟

قد اختلف الناس فى الأفضل من الترتيل و قله القراءه أو السرعه مع كثره القراءه: أيهما أفضل؟ على قولين.

فذهب ابن مسعود و ابن عباس رضى الله عنهما و غيرهما إلى أن الترتيل و التدبر مع قله القراءه أفضل من سرعه القراءه مع كثرتها.

و احتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءه فهمه و تدبره، و الفقه فيه و العمل به، و تلاوته و حفظه و سيله إلى معانيه كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا، و لهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، و العاملون بما فيه، و إن لم يحفظوه عن ظهر قلب.

ص: ٤٤٧

و أما من حفظه و لم يفهمه، و لم يعمل بما فيه؛ فليس من أهله و إن أقام حروفه أقامه السهم (١).

و أيضا قراءه سورته بتدبر و معرفه و تفهم، و جمع القلب عليها، أحب إلى الله تعالى من قراءه ختمه سردا و هذًا، و إن كثر ثواب هذه القراءه (٢).

العلم بالقرآن أفضل العلوم

إن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ قدم بالفضائل العليه، في أعلى الولايات الدينيه و أشرفها و قدم بالعلم بالأفضل على غيره.

فروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدرى عن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءه سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنه سواء فأقدمهم إسلامًا أو سنًا» (٣) و ذكر الحديث، فقدم في الإمامه تفضيله على تقدم الإسلام و الهجره. و لما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنه، قدم العلم به، ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجره و فيه من زياده العمل ما هو متميز به، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل، و راعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره، و هذا يدل على شرف العلم و فضله و إن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينيه (٤).

تعلم قراءه القرآن

سأله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ رجل، فقال: ما يمنعني أن أتعلم القرآن إلا خشيه ألا أقوم به، فقال: «تعلم القرآن و اقرأه و ارقده، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقراءه و قال به، كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه على كل مكان، و من تعلمه و رقد و هو في جوفه كمثل جراب و كى على مسك» (٥) (٦).

ص: ٤٤٨

١- زاد المعاد (٣٣٨، ٣٣٧/١).

٢- المنار المنيف (٢٩).

٣- مسلم (٢٩٠/٦٧٣) في المساجد و مواضع الصلاه، باب: من أحق بالإمامه.

٤- مفتاح دار السعاده (٨٠).

٥- الترمذى (٢٨٧٦) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورته البقره و آيه الكرسي، و قال: «هذا حديث حسن»، و ابن ماجه (٢١٧) في المقدمة، باب: فضل من تعلم القرآن و علمه.

٦- إعلام الموقعين (٣٩٠/٤).

ثبت في صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«خيركم من تعلم القرآن و علمه» (١) و تعلم القرآن و تعليمه يتناول تعلم حروفه و تعليمها، و تعلم معانيه و تعليمها، و هو أشرف قسمى علمه و تعليمه.

فإن المعنى هو المقصود و اللفظ وسيله إليه، فتعلم المعنى و تعليمه تعلم الغايه و تعليمها، و تعلم اللفظ المجرد و تعليمه تعلم الوسائل و تعليمها، و بينهما كما بين الغايات و الوسائل (٢).

تحسين الصوت بالقرآن

قال صاحب الغناء: و ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحسين الصوت بالقرآن، فروى البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» (٣). و عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل شىء حليه و حليه القرآن الصوت الحسن» (٤).

و قد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٥).

و قد قال الإمام أحمد فى تفسيره: «يحسنه بصوته ما استطاع» و قال الشافعى: «نحن أعلم بهذا من سفيان» ينكر عليه قوله يستغنى به.

و إنما هو تحسين الصوت و قال صلى الله عليه وسلم: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينه إلى قينته» (٦) فإذا ندب إلى تحسين الصوت بالقرآن و التغنى به، جاز أن يحسن الصوت بالشعر و يتغنى به، و أى حرج فى تحسين الصوت بالشعر.

قال صاحب القرآن: هذه الأدله إنما تدل على فضل الصوت الحسن بكتاب الله لا على فضل الصوت الحسن بالغناء، الذى هو مزموه الشيطان، و من قاس هذا بهذا، و شبه أحدهما بالآخر فقد شبه الباطل بالحق، و قاس قرآن الشيطان على كتاب الرحمن. و هل هذا إلا نظير

ص: ٤٤٩

١- البخارى (٥٠٢٧) فى فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن و علمه.

٢- مفتاح دار السعاده (٨٠).

٣- الدارمى (٤٧٤/٢) فى فضائل القرآن، باب: التغنى بالقرآن.

٤- عبد الرزاق (٤١٧٣)، و الهيثمى فى المجمع (١٧٤/٧) و قال: «رواه البزار و فيه عبد الله بن محرز و هو متروك».

٥- سبق تخريجه ص (٤٣٠)

٦- سبق تخريجه ص (٤٢٩)

قول من يقول: إذا أمر الله بالقتال في سبيله بالسيف و الرمح و النشاب (١) دل ذلك على فضيله الطعن و الضرب و الرمي، ثم يحتج بذلك على جواز الضرب و الطعن و الرمي في غير سبيل الله، بل على استحبابه، و نظير من قال: إذا أمر الله بإنفاق المال في سبيله. دلّ على فضيله المال ثم يحتج بذلك على جواز إنفاق المال أو استحبابه في غير سبيله، و نظيره: قول من يقول: إذا أمر الله بالاستعفاف بالنكاح دل على فضيله النساء، ثم يحتج بذلك على جواز ما لم يأمر به من ذلك، و كذلك كل ما يعين على طاعه الله و محابه و مرضيه، و لا يدل ذلك على أنه في نفسه محمود على الإطلاق، حتى يحتج على أنه محمود حال كونه معيناً على غير طاعه الله من البدع و الفجور و المعاصي.

إذا ثبت هذا؛ فتحسين الصوت ندب إليه، و حمد الصوت الحسن لما تضمنه من الإعانه على ما يحبه الله من سماع القرآن، و يحصل به من تنفيذ معانيه إلى القلوب ما يزيد إيماناً، و يقربها إلى ربها، و يدنيها من محابه، فالصوت الحسن بالقرآن منفذ لحقائق الإيمان، معين على إيصالها إلى القلوب، فكيف يجعل نظير الصوت الحسن بالغناء الذي ينبت النفاق في القلب، و أخف أنواعه و أقلها شراً: «ما وضعته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن»، فالصوت الحسن من هذا ينفذ حقائق النفاق و الفجور و الفسوق إلى القلب؛ و لهذا يظهر في الأفعال و على اللسان، فالسمع الشيطاني الذي يتقرب به أهله إلى الله، ينفذ الصوت الحسن فيه حقائق النفاق إلى القلب، و السماع الآخر الذي يعده أهله لهوا و لعباً، ينفذ ما يكرهه الله من شهوات الفسوق إلى القلب فالاعتبار بحقائق المسموع، و الصوت الحسن آله و منفذ (٢).

باب: منه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٣). إما أن يريد به الحض على أصل الفعل، هو نفس التغنى به، أو على صفته و هو أن يكون تغنيه إذا تغنى به لا بغيره (٤)، و هذا نظير ما حمل عليه قوله تعالى: وَ أَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ [المائدة: ٤٩]، هل هو أمر بأصل).

ص: ٤٥٠

- ١- النشاب: السهام.
- ٢- الكلام على مسألة السماع (٣١٤-٣١٧).
- ٣- البخاري (٧٥٢٧) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: وَ اسْتَرْوَا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ..، و أبو داود (١٤٦٩) في الصلاة، باب: استحباب الترتيل في الصلاة، و أحمد (١٧٢/١).
- ٤- قال ابن الأعرابي: كانت العرب تتغنى بالركباني [غناء الركباني و هو النشيد بالمد و التمطيط] إذا ركب الإبل، و إذا جلست في الأفيه، و على أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون هجيراهم بالقرآن مكان التغنى بالركباني. (لسان العرب: غنا).

الحكم، أو بصفته إذا حكم؟ فيه قولان، ونظيره: أمره صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ بالدعاء في السجود، هل هو أمر بأصل الدعاء أو المعنى إذا دعوتهم فاجعلوا دعاءكم في السجود، فإنه «فمن أن يستجاب لكم» (١) فقولته: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، إن أريد به الحض على نفس الفعل كان ذما لمن ترك التغنى به، وإن أريد به المعنى الثاني، وهو أنه إذا تغنى فليتغن بالقرآن، كان ذما لمن تغنى بغيره لا- لمن ترك التغنى به، وبين المعنيين فرق ظاهر، وقد يصح أن يراد معا، وأنه ذم من ترك التغنى به، ومن تغنى بغيره، والله أعلم (٢).

و أيضا إن النبي صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ ندب إلى تحسين الصوت بالقرآن و تزيينه به، و استمعه هو و أصحابه فقال:

«زينوا القرآن بأصواتكم» (٣)، و قال: «ما أذن الله لشيء كما أذنه لنبي حسن الصوت يتغن بالقرآن» (٤)، و قال لأبي موسى: «لقد مررت بك البارحة و أنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك». فقال: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحييرا (٥) و قال: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينه إلى قينته» (٦)، و مع هذا فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء، و تقرن به من الألحان و آليات اللهو ما يقرن بالغناء حتى و لا عند من يقول بإباحه ذلك في الشعر بل المسلمون مجتمعون على تحريمه (٧).

مسأله قال صاحب السماع: إذا كان النبي صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ قد أخبر عن ربه أنه يستمع للصوت الحسن، و النبي صَلَّى اللهُ عليه و سَلَّمَ استمع صوت أبي موسى و أعجبه، و أثني عليه، و قال: «قد أوتى هذا زممارا من».

ص: ٤٥١

- ١- مسلم (٢٠٧/٤٧٩) في الصلاة، باب: النهي عن قراءة القرآن في الركوع و السجود، و أحمد (١/ ١٥٥)، و قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده ضعيف من أجل عبد الرحمن بن إسحاق».
- ٢- الكلام (٣١٤-٣١٨)، حكم سماع الغناء (٢٠٤: ٢٠١).
- ٣- أبو داود (١٤٦٨) في الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة، و ابن ماجه (١٣٤٢) في إقامة الصلاة، باب: حسن الصوت بالقرآن.
- ٤- البخاري (٥٠٢٤) في فضائل القرآن، باب الوصاه بكتاب الله عز و جلّ، و مسلم (٢٣٢/٧٩٢) في صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن.
- ٥- سبق تخريجه ص (٤٢٩).
- ٦- سبق تخريجه ص (٤٢٩).
- ٧- الكلام على مسأله السماع ص (٢٧١)، حكم سماع الغناء (٧١).

مزامير آل داود»، فقال له أبو موسى: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا (١). أى: زينته و حسنته، و منه البرد المحبر.

و قد روى أن داود كان يستمع لصوته الحسن الإنس و الجن و الطير و الوحوش، و كان يحمل من مجلسه أربعمائه جنازه ممن قد مات من قراءته (٢).

قال صاحب القرآن: عجباً لكم أيها السماعاءيه و لاستدلالكم، فلو أن المنكرين عليكم كرهوا حسن الصوت و عابوه و ذموه مطلقاً؛ لكان فى ذلك احتجاج عليهم، كيف و هم أخبر الناس فى الصوت الحسن؟ لكن الشأن فيما يؤدى بالصوت.

فهذه الآثار التى ذكرتموها، و أكثر منها إنما تدل على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، و من نازع فى هذا؟ فالاستدلال بها على تحسين الصوت بالغناء الذى هو قرآن الشيطان، و مادة النفاق و رقيه الفواحش أفسد من قياس الربا على البيع، فإن بين الغناء و القرآن من التباين أعظم مما بين البيع و الربا، و مما بين النكاح و السفاح، و مما بين الشراب الحلال و الشراب الحرام.

فأين سماع المكاء و التصديه الذى ذمه الله فى كتابه، و أخبر أنه سماع المشركين، من سماع أنبيائه و رسله و أوليائه و حزبه المفلحين؟.

و أين سماع المخانيث و القينات و الفساق و المغنين من سماع الخلفاء الراشدين و المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان، و اقتفوا طريقتهن المثلى، و سبيلهم الأقوم، و سلكوا منهاجهم الواضح؟ و كيف يقاس مؤذن الشيطان الداعى بحى على غير الفلاح، على مؤذن الرحمن الداعى إلى السعادة و النجاح، و قد تقدم ذكر الحديث الذى رواه الطبرانى الكبير فى معجمه عن النبى صلى الله عليه و سلم: «أن الشيطان قال: يا رب اجعل لى قرآنا قال قرآنك الشعر، قال: اجعل لى مؤذنا قال: مؤذنك المزمار» (٣).

فمن قاس قرآن الشيطان و مؤذنه على قرآن الرحمن و مؤذنه فالله حسيه و مجازيه، و سيعلم يوم الحشر أى بضاعه أضع، و عند الميزان أيثقل أم يخف بما قدم به من السماع، و هاهنا الناس أربعة أقسام..».

ص: ٤٥٢

١- سبق تخريجه ص (٤٢٩).

٢- انظر رساله القشيره (٢،٦).

٣- الطبرانى فى الكبير (٢٤٤/٨، ٢٤٥/٨) (٧٨٣٧)، و قال الهيثمى فى المجمع (١٢٢/٨): «و فيه على بن يزيد الألهانى و هو ضعيف، و قد تقدم لهذا طرق فى كتاب الإيمان».

أحدها: من يشتغل بسماع القرآن عن سماع الشيطان.

و الثاني: عكسه.

و الثالث: من له نصيب من هذا و هذا.

و الرابع: ليس له نصيب لا من هذا و لا من هذا.

فلاشتغال بسماع القرآن الرحمانى، حال السابقين الأولين و أتباعهم و من سلك سبيلهم.

و الثاني حال المشركين و المنافقين و الفجار و الفساق و المبطلين و من سلك سبيلهم.

و الثالث حال مؤمن له مادتان: ماده من القرآن، و ماده من الشيطان، و هو للغالب عليه منهما.

و الرابع حال الفارغ من ذوق هذا و هذا، فهو فى شأن، و أولئك فى شأن، فهذه الآثار التى تضمنت مدح الصوت الحسن بالقرآن، و ما يحبه الله، و من احتج بها على السماع الشيطانى فقد بخس حظه من العلم و المعرفة.

و أيضا، فإن العبد لو سمع كلام الله بلا واسطه، كما سمعه موسى بن عمران، لم يكن سماعه بعد الأصوات و الألحان و الغناء محركا لذلك مذكرا به، بل المأثور أن موسى مقت الأدميين و أصواتهم و كلامهم لما وقر فى مسامعه من كلام ربه جلّ جلاله [\(١\)\(٢\)](#).

هدية صلى الله عليه و سلم فى قراءة القرآن، و استماعه و خشوعه،

و بكائه عند قراءته، و استماعه و تحسين صوته به و توابع ذلك

كان له صلى الله عليه و سلم حزب يقرؤه، و لا يخل به، و كانت قراءته ترتيلا لا هذا و لا عجله، بل قراءه مفسره حرفا حرفا و كان يقطع قراءته آيه آيه. و كان يمد عند حروف المد، فيمد «الرحمن» و يمد «الرحيم»، و كان يستعيد بالله من الشيطان الرجيم فى أول قراءته، فيقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، و ربما كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه، و نفثه» [\(٣\)](#). و كان تعوده قبل القراءة.

ص: ٤٥٣

١- عزاه ابن كثير فى تفسيره (٥٨٩/١) لابن مردويه من طريق جوير عن الضحاک عن ابن عباس موقوفا عليه و قال ابن كثير: إسناد ضعيف، فإن جويرا ضعف، و الضحاک لم يدرك ابن عباس رضى الله عنه.

٢- الكلام على مسأله السماع (٣٨٣، ٣٧٦)، حكم سماع الغناء (٢٥١، ٢٤٦، ٢٤٥).

٣- أبو داود (٧٦٤) فى الصلاه، باب: ما يفتح به الصلاه من الدعاء، و ابن ماجه (٨٠٧) فى إقامة الصلاه و السنه فيها، باب: الاستعاذه فى الصلاه، و ضعفه الألبانى.

و كان يحب أن يسمع القرآن من غيره، و أمر عبد الله بن مسعود، فقرأ عليه و هو يسمع، و خشع صلى الله عليه و سلم لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه (١).

و كان يقرأ القرآن قائماً، و قاعداً، و مضطجعا و متوضئاً، و محدثاً، و لم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابه.

و كان صلى الله عليه و سلم يتغنى به، و يرجع صوته به أحيانا كما رجح يوم الفتح في قراءته: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** (١) [الفتح]. و حكى عبد الله بن مغفل ترجيعه، آآآ ثلاث مرات، ذكره البخارى (٢).

و إذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم» (٣)، و قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٤)، و قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم ليس منا من لم يتغن بالقرآن ما أذن الله لشيء كإذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن» (٥) علمت أن هذا الترجيع منه صلى الله عليه و سلم كان اختياراً لا اضطراراً لهز الناقه له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقه، لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه و يفعله اختياراً ليؤتسى به، و هو يرى هز الراحله له حتى ينقطع صوته، ثم يقول: كان يرجع في قراءته، فنسب الترجيع إلى فعله، و لو كان من هز الراحله، لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً.

و قد استمع ليله لقراءه أبى موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك، قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه؛ لحبرته لك تحبيراً (٦)، أى: حسنته و زينته بصوتى تزييناً، و روى أبو داود فى «سننه» عن عبد الجبار بن الورد، قال: سمعت ابن أبى مليكه يقول: قال عبد الله بن أبى يزيد: مر بنا أبو لبابه، فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئه، فسمعتة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبى مليكه: يا أبا محمد، أ رأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع.

قلت: لا بد من كشف هذه المسأله، و ذكر اختلاف الناس فيها، و احتجاج كل فريق، و ما).

ص: ٤٥٤

١- البخارى (٥٠٤٩) فى فضائل القرآن، باب: من أحب أن يستمع القرآن من غيره.

٢- البخارى (٤٨٣٥) فى التفسير، باب **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** (١).

٣- سبق تخريجه ص (٤٥١).

٤- سبق تخريجه ص (٤٥٠).

٥- سبق تخريجه ص (٤٥١).

٦- سبق تخريجه ص (٤٢٩).

لهم و عليهم فى احتجاجهم، و ذكر الصواب فى ذلك بحول الله-تبارك و تعالى- و معونته.

فقال طائفه: تكره قراءه الألحان، و ممن نص على ذلك أحمد و مالك و غيرهما، فقال أحمد فى روايه على بن سعيد فى قراءه الألحان: ما تعجبني و هو محدث.

و قال فى روايه المروزي القراءه بالألحان بدعه لا تسمع.

و قال فى روايه عبد الرحمن المتطبب قراءه الألحان بدعه.

و قال فى روايه ابن عبد الله، و يوسف بن موسى، و يعقوب بن بختان، و الأثرم، و إبراهيم بن الحارث: القراءه بالألحان لا تعجبني إلا أن يكون ذلك حزناً، فيقرأ بحزن مثل صوت أبى موسى.

و قال فى روايه صالح: «زينوا القرآن بأصواتكم»، معناه: أن يحسنه.

و قال فى روايه المروزي: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت أن يتغنى بالقرآن»، و فى روايه قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال: كان ابن عيينه يقول:

يستغنى به. و قال الشافعي: يرفع صوته، و ذكر له حديث معاويه بن قره فى قصه قراءه سورة الفتح و الترجيع فيها، فأنكر أبو عبد الله أن يكون على معنى الألحان، و أنكر الأحاديث التي يحتج بها فى الرخصه فى الألحان.

و روى ابن القاسم، عن مالك، أنه سئل عن الألحان فى الصلاه، فقال: لا- تعجبني، و قال: إنما هو غناء يتغنون به، ليأخذوا عليه الدراهم.

و ممن رويت عنه الكراهه، أنس بن مالك، و سعيد بن المسيب، و سعيد بن جبير، و القاسم بن محمد، و الحسن، و ابن سيرين، و إبراهيم النخعي.

و قال عبد الله بن يزيد العكبري: سمعت رجلاً- يسأل أحمد، و ما تقول فى القراءه بالألحان؟ فقال: ما اسمك؟ قال محمد: قال: أيسرك أن يقال لك: يا موحد ممدودا، قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغه فى الكراهيه.

و قال الحسن بن عبد العزيز الجروي: أوصى إلى رجل بوصيه، و كان فيما خلف جاريه تقرأ بالألحان، و كانت أكثر تركته أو عامتها، فسألت أحمد بن حنبل و الحارث بن مسكين، و أبا عبيد، كيف أبيعها؟ فقالوا: بعها ساذجه، فأخبرتهم بما فى بيعها من النقصان، فقالوا:

بعها ساذجه. قال القاضي و إنما قالوا ذلك؛ لأن سماع ذلك منها مكروه، فلا يجوز أن يعارض عليه كالغناء.

قال ابن بطال: وقالت طائفه:التغنى بالقرآن،هو تحسين الصوت به،و الترجيع بقراءته،قال:و التغنى بما شاء من الأصوات و اللحن هو قول ابن المبارك،و النضر بن شميل،قال:و ممن أجاز الألحان فى القرآن:ذكره الطبرى،عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه كان يقول لأبى موسى:ذكرنا ربنا؛فيقرأ أبو موسى و يتلاحن،و قال:من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبى موسى،فليفعل.و كان عقبه بن عامر من أحسن الناس صوتا بالقرآن، فقال له عمر:أعرض علىّ سورة كذا،فعرض عليه،فبكى عمر،و قال:ما كنت أظن أنها نزلت.قال:و أجازه ابن عباس،و ابن مسعود،و روى عن عطاء بن أبى رباح،قال:و كان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد،يتتبع الصوت الحسن فى المساجد فى شهر رمضان.و ذكر الطحاوى عن أبى حنيفة و أصحابه:أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان.و قال محمد بن عبد الحكم:رأيت أبى و الشافعى و يوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان،و هذا اختيار ابن جرير الطبرى.

قال المجوزون:-و اللفظ لابن جرير:الدليل على أن معنى الحديث تحسين الصوت، و الغناء المعقول الذى هو تحزين القارئ سامع قراءته، كما أن الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذى يطرب سامعه:ما روى سفيان،عن الزهرى،عن أبى سلمه،عن أبى هريره، أن النبى صلّى الله عليه و سلّم،قال:«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الترنم بالقرآن» (1)،و معقول عند ذوى الحجا،أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم و طرب به.و روى فى هذا الحديث:«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».قال الطبرى:«و هذا الحديث من أبين البيان أن ذلك كما قلنا،قال:و لو كان كما قال ابن عيينه،يعنى:يستغنى به عن غيره،لم يكن لذكر حسن الصوت و الجهر به معنى،و المعروف فى كلام العرب أن التغنى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع،قال الشاعر:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضممار

قال:و أما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فاش فى كلام العرب فلم نعلم أحدا قال به من أهل العلم بكلام العرب.

و أما احتجاجه لتصحيح قوله بقول الأعشى:

و كنت امرأ زمنا بالعراق عفيف المناخ طويل التغن).

ص: ٤٥٦

و زعم أنه أراد بقوله: طویل التغنى طویل الاستغناء، فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى بالتغنى فى هذا الموضوع: الإقامه من قول العرب: غنى بمكان كذا: إذا أقام به، و منه قوله تعالى: كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا [الأعراف: ٩٢]، و استشهاده بقول الآخر:

كلانا غنى عن أخيه حياته و نحن إذا متنا أشد تغانيا

فإنه إغفال منه، و ذلك لأن التغنى تفاعل من تغنى: إذا استغنى كل فلان منهما عن صاحبه، كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد صاحبه، و تشاتما، و تقاتلا.

و من قال: هذا فى فعل اثنين، لم يجز أن يقول مثله فى فعل الواحد، فيقول: تغانى زيد، و تضارب عمر، و ذلك غير جائز أن يقول تغنى زيد بمعنى استغنى، إلا أن يريد به قائله أنه أظهر الاستغناء، و هو غير مستغن، كما يقال: تجلد فلان: إذا أظهر جلدًا من نفسه، و هو غير جليد، و تشجع، و تكرم.

فإن وجه توجه التغنى بالقرآن إلى هذا المعنى على بعده من مفهوم كلام العرب، كانت المصيبة فى خطئه فى ذلك أعظم؛ لأنه يوجب على من تأوله أن يكون الله - تعالى ذكره - لم يأذن لنبه أن يستغنى بالقرآن، و إنما أذن له أن يظهر من نفسه لنفسه خلاف ما هو به من الحال، و هذا لا يخفى فساد. قال: و مما يبين فساد تأويل ابن عيينه أيضا أن الاستغناء عن الناس بالقرآن من المحال أن يوصف أحد به أنه يؤذن له فيه أو لا يؤذن، إلا أن يكون الأذن عند ابن عيينه بمعنى الإذن، الذى هو إطلاق و إباحه، و إن كان كذلك، فهو غلط من وجهين، أحدهما: من اللغة، و الثانى: من إحاله المعنى عن وجهه. أما اللغة، فإن الأذن مصدر قوله: أذن فلان لكلام فلان، فهو يأذن له: إذا استمع له و أنصت، كما قال تعالى:

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٢) [الانشقاق]، بمعنى سمعت لربها و حق لها ذلك، كما قال عدى بن زيد: إن همى فى سماع و أذن، بمعنى، فى سماع و استماع.

فمعنى قوله: ما أذن الله لشيء، إنما هو: ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لنبى يتغنى بالقرآن.

و أما الإحاله فى المعنى؛ فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز؛ و صفة بأنه مسموع و مأذون له، انتهى كلام الطبرى.

قال أبو الحسن بن بطال: و قد وقع الإشكال فى هذه المسألة أيضا بما رواه ابن أبى شيبه، حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثنى موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عقبه بن عامر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «تعلموا القرآن و تغنوا به، و اكتبوه، فوالذى نفسى بيده، لهو

قال: و ذكر عمر بن شبه، قال ذكر لأبى عاصم النبيل تأويل ابن عيينه فى قوله: «يتغنى بالقرآن» يستغنى به، فقال: لم يصنع ابن عيينه شيئا، حدثنا ابن جريح، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، قال: كانت لداود نبى الله صلى الله عليه و سلم معزفه يتغنى عليها يبكى و يبكى.

و قال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا، تكون فيهن، و يقرأ قراءه يطرب منها الجموع. و سئل الشافعى -رحمه الله- عن تأويل ابن عيينه فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد به الاستغناء؛ لقال: «من لم يستغن بالقرآن»، و لكن لما قال: «يتغنى بالقرآن»، علمنا أنه أراد به التغنى. قالوا: و لأن تزيينه، و تحسين الصوت به، و التطريب بقراءته أوقع فى النفوس، و أدعى إلى الاستماع و الإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع، و معانيه إلى القلوب، و ذلك عون على المقصود، و هو بمنزله الحلاوه التى تجعل فى الدواء لتنفذه إلى موضع الدواء، و بمنزله الأفاويه و الطيب الذى يجعل فى الطعام؛ لتكون الطبيعه أدعى له قبولاً، و بمنزله الطيب و التحلى، و تجمل المرأه لبعلمها؛ ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح. قالوا: و لا بد للنفس من طرب و اشتياق إلى الغناء، فعوضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عوضت عن كل محرم و مكروه بما هو خير لها منه، و كما عوضت عن الاستقسام بالأزلام بالاستخاره التى هى محض التوحيد و التوكل، و عن السفاح بالنكاح، و عن القمار بالمراهنه بالنصال و سباق الخيل، و عن السماع الشيطانى بالسماع الرحمانى القرآنى، و نظائره كثيره جدا.

قالوا: و المحرم، لا بد أن يشتمل على مفسده راجحه، أو خالصه، و قراءه التطريب و الألحان لا تتضمن شيئا من ذلك، فإنها لا تخرج الكلام عن وضعه، و لا -تحول بين السامع و بين فهمه، و لو كانت متضمنه لزياده الحروف كما ظن المانع منها: لأخرجت الكلمه عن موضعها، و حالت بين السامع و بين فهمها، و لم يدر ما معناها، و الواقع بخلاف ذلك.

قالوا: و هذا التطريب و التلحين، أمر راجع إلى كيفية الأداء، و تاره يكون سليقه و طبيعه، و تاره يكون تكلفا و تعملا، و كيفية الأداء لا تخرج الكلام عن وضع مفرداته، بل هى صفات لصوت المؤدى، جاربه مجرى ترقيقه و تفخيمه و إمالته، و جاربه مجرى مدود القراء الطويله و المتوسطه، لكن تلك الكيفيات متعلقه بالحروف، و كيفية الألحان و التطريب، متعلقه بالأصوات، و الآثار فى هذه الكيفيات، لا يمكن نقلها، بخلاف كيفية أداءه.

الحروف؛ فلماذا نقلت تلك بألفاظها، ولم يمكن نقل هذه بألفاظها، بل نقل منها ما أمكن نقله، كترجيع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة الفتح بقوله: «آآ». قالوا: والتطريب والتلحين راجع إلى أمرين: مد و ترجيع، وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه كان يمد صوته بالقراءة يمد «الرحمن» و يمد «الرحيم»، و ثبت عنه الترجيع كما تقدم.

قال المانعون من ذلك: الحجة لنا من وجوه، أحدها: ما رواه حذيفة بن اليمان، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب و أصواتها، و إياكم و لحون أهل الكتاب و الفسق، فإنه سيجيء من بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء و النوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونه قلوبهم، و قلوب الذين يعجبهم شأنهم» (١). رواه أبو الحسن رزين في «تجريد الصحاح» و رواه أبو عبد الله الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٢). و احتج به القاضي أبو يعلى في «الجامع»، و احتج معه بحديث آخر، أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر شرائط الساعة، و ذكر أشياء، منها: «أن يتخذ القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليس بأقربهم و لا أفضلهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم غناء» (٣).

قالوا: و قد جاء زياد النهدي إلى أنس رضي الله عنه مع القراء، فقبل له: اقرأ، فرفع صوته و طرب، و كان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، و كان على وجهه خرقة سوداء، و قال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون، و كان إذا رأى شيئاً ينكره، رفع الخرقة عن وجهه.

قالوا: و قد منع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤذن المطرب في أذانه من التطريب، كما روى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذن يطرب، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الأذان سهل سمح، فإن كان أذانك سهلاً سمحاً، و إلا فلا تؤذن». رواه الدارقطني (٤).

و روى عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث قتاده، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، قال: كانت قراءة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المد، ليس فيها ترجيع.

قالوا: و الترجيع و التطريب يتضمنن همز ما ليس بمهموز، و مد ما ليس بممدود، و ترجيع الألف الواحد ألفات، و الواو واوات، و الياء ياءات؛ فيؤدى ذلك إلى زياده في القرآن،.

ص: ٤٥٩

١- الطبراني في الأوسط (٧٢٢٣)، و قال الهيثمي في المجمع (١٧٢/٨): «فيه راو لم يسم، و بقيه أيضاً».

٢- نوادر الأصول في معرفه أحاديث الرسول (٣٩٤/٢) في الأصل الثالث و الخمسون و المائتان.

٣- أحمد (٤٩٤/٣)، و البزار (٢٤٢/٢، ٢٤١/٢)، (١٦١٠)، و الطبراني في الكبير (٣٦/١٨) (٦٠)، و قال الهيثمي في المجمع (٢٤٨/٥): «في إسناده أحمد عثمان بن عمير البجلي و هو ضعيف و أحد إسناده الكبير رجاله رجال الصحيح».

٤- الدارقطني (٢٣٩/١) (١١)، و الحديث ضعيف انظر: المجروحين (١٣٧/١) و قال: «ليس لهذا الحديث أصل من حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

و ذلك غير جائز.

قالوا: و لا- حد لما يجوز من ذلك، و ما لا يجوز منه، فإن حد بحد معين، كان تحكما فى كتاب الله- تعالى- و دينه، و إن لم يحد بحد، أفضى إلى أن يطلق لفاعله ترديد الأصوات، و كثره الترجمات، و التنوع فى أصناف الإيقاعات و الألحان المشبهه للغناء، كما يفعل أهل الغناء بالأبيات، و كما يفعله كثير من القراء أمام الجنائز، و يفعله كثير من قراء الأصوات، مما يتضمن تغيير كتاب الله، و الغناء به على نحو ألحان الشعر و الغناء، و يوقعون الإيقاعات عليه مثل الغناء سواء، اجترأ على الله و كتابه، و تلاعبا بالقرآن، و ركونا إلى تزيين الشيطان، و لا يجوز ذلك أحد من علماء الإسلام، و معلوم: أن التطريب و التلحين ذريعه مفضيه إلى هذا إفضاء قريبا، فالمنع منه، كالمنع من الذرائع الموصلة إلى الحرام، فهذا نهايه إقدام الفريقين، و منتهى احتجاج الطائفتين.

و فصل النزاع أن يقال: التطريب و التغنى على وجهين:

أحدهما: ما اقتضته طبيعته، و سمحت به من غير تكلف و لا- تمرين و لا- تعليم، بل إذا خلى و طبعه، و استرسلت طبيعته؛ جاءت بذلك التطريب و التلحين، فذلك جائز، إن أعان طبيعته بفضل تزيين و تحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي صلى الله عليه و سلم: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا» (1)، و الحزين و من هاجه الطرب، و الحب و الشوق لا- يملك من نفسه دفع التحزين و التطريب فى القراءه، و لكن النفوس تقبله و تستحليه لموافقته الطبع، و عدم التكلف و التصنع فيه؛ فهو مطبوع لا متطبع، و كلف لا- متكلف، فهذا هو الذى كان السلف يفعلونه و يستمعونه، و هو التغنى الممدوح المحمود، و هو الذى يتأثر به التالى و السامع، و على هذا الوجه تحمل أدله أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثانى: ما كان من ذلك صناعه من الصنائع، و ليس فى الطبع السماح به، بل لا يحصل إلا بتكلف و تصنع و تمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، و المركبه على إيقاعات مخصوصه، و أوزان مخترعه، لا- تحصل إلا- بالتعلم و التكلف، فهذه هى التى كرهها السلف و عابوها، و ذموها، و منعوا القراء بها، و أنكروا على من قرأ بها، و أدله أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، و بهذا التفصيل يزول الاشتباه، و يتبين الصواب من غيره، و كل من له علم بأحوال السلف؛ يعلم قطعا أنهم برآء من القراءه بألحان).

ص: ٤٦٠

١- سبق تخريجه ص (٤٢٩).

الموسيقى المتكلفه، التي هي إيقاعات و حركات موزونه معدوده محدوده، و أنهم أتقى لله من أن يقرأوا بها، و يسوغوها و يعلم قطعاً أنهم كانوا يقرأون بالتحزين و التطريب، و يحسنون أصواتهم بالقرآن، و يقرأونه بشجى تاره، و بطرب تاره، و بشوق تاره، و هذا أمر مركز في الطباع تقاضيه، و لم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضى الطباع له بل أرشد إليه و ندب إليه، و أخبر عن استماع الله لمن قرأ به، و قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (١). و فيه وجهان:

أحدهما: أنه أخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، و الثانى: أنه نفى لهدى من لم يفعله عن هديه صلى الله عليه و سلم و طريقته صلى الله عليه و سلم (٢).

البكاء عند سماع القرآن

و أما بكاؤه صلى الله عليه و سلم، فكان من جنس ضحكته، لم يكن بشهيق و رفع صوت، كما لم يكن ضحكته بقهقهه، و لكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، يسمع لصدرة أزيزه، و كان بكاؤه تاره -رحمه الله- للميت، و تاره خوفاً على أمته، و شفقه عليها، و تاره من خشية الله، و تاره عند سماع القرآن، و هو بكاء اشتياق، و محبه، و إجلال، مصاحب للخوف و الخشيه.

و لما مات ابنه إبراهيم دمت عيناه و بكى رحمه له، و قال: «تدمع العين، و يحزن القلب، و لا نقول إلا ما يرضى ربنا و إنا بك يا إبراهيم لمحزونون» (٣) و بكى لما شاهد إحدى بناته و نفسها تفيض، و بكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء و انتهى فيها إلى قوله تعالى:

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١) [النساء] (٤) (٥).

تلأوه القرآن

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ [فاطر: ٢٩]، و قوله الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ [البقره: ١٢١] المعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه، و قال تعالى: أُنزِلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ [العنكبوت: ٤٥]، و قال:

ص: ٤٦١

- ١- سبق تخريجه ص (٤٥٠).
- ٢- زاد المعاد (١/٤٨٢-٤٩٣).
- ٣- البخارى (١٣٠٣) فى الجنائز، باب: قول النبى صلى الله عليه و سلم: «إنا بك لمحزونون»، و مسلم (٦٢/٢٣١٥) فى الفضائل، باب: رحمته الصبيان و العيال.
- ٤- البخارى (٤٥٨٢) فى التفسير، باب: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً، و مسلم (٢٤٧/٨٠٠) فى صلاة المسافرين باب: فضل استماع القرآن.
- ٥- زاد المعاد (١/١٨٣).

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبِلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ [النمل: ٩٢، ٩١]. فحقيقه التلاوه فى هذه المواضع هى التلاوه المطلقه التامه، وهى تلاوه اللفظ و المعنى، فتلاوه اللفظ جزء مسمى التلاوه المطلقه، و حقيقه اللفظ إنما هى الاتباع، يقال: اتل أثر فلان و تلوت أثره و قفوتته و قصصته بمعنى: تبعته خلفه.

و منه قوله تعالى: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (١) وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) [الشمس]، أى تبعها فى الطلوع بعد غيبتها. و يقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضا، أى: يتبع. و سُمى تالى الكلام تاليا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضا لا يخرجها جملة واحده، بل يتبع بعضها بعضا مرتبه، كلما انقضى حرف أو كلمه أتبعه بحرف آخر و كلمه أخرى.

و هذه التلاوه وسيله و طريقه، و المقصود التلاوه الحقيقه و هى تلاوه المعنى و اتباعه، تصديقا بخبره، و ائتمارا بأمره، و انتهاء بنهيه، و ائتماما به، حيث ما قادت معه، فتلاوه القرآن تتناول تلاوه لفظه و معناه تلاوه المعنى أشرف من مجرد تلاوه اللفظ، و أهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء فى الدنيا و الآخرة، فإنهم أهل تلاوه و متابعه حقا (١).

شروط الانتفاع بالقرآن

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته و سماعه، و ألق سمعك، و احضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه (٢)، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) [ق]، و ذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض، و محل قابل، و شرط لحصول الأثر و انتفاء المانع الذى يمنع منه؛ تضمنت الآيه بيان ذلك كله بأوجز لفظ و أبينه و أدله على المراد.

فقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ، إشارة إلى ما تقدم من أول السوره إلى هاهنا، و هذا هو المؤثر، و قوله: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، فهذا هو المحل القابل، و المراد به القلب الحى الذى يعقل عن الله كما قال تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ، لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس ٦٩- ٧٠]، أى حى القلب. و قوله: أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ، أى وجه سمعه و أصغى حاسه سمعه إلى ما يقال له، و هذا شرط التأثير بالكلام.

و قوله: وَ هُوَ شَهِيدٌ، أى شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبه: استمع كتاب الله

ص: ٤٦٢

١- مفتاح دار السعاده (٤٦، ٤٥).

٢- الضمير فى لفظه «منه» يعود إلى الله عز و جل. و فى «إليه» يعود إلى المخاطب، بفتح الطاء.

و هو شاهد القلب و الفهم، ليس بغافل و لا- ساه، و هو إشاره إلى المانع من حصول التأثير، و هو سهو القلب و غيبته عن تعقل ما يقال له و النظر فيه و تأمله فإذا حصل المؤثر و هو القرآن، و المحل القابل و هو القلب الحى، و وجد الشرط و هو الإصغاء، و انتفى المانع و هو اشتغال القلب و ذهوله عن معنى الخطاب و انصرافه عنه إلى شىء آخر؛ حصل الأثر و هو الانتفاع و التذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداه «أو» فى قوله:

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ، و الموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التى هى لأحد الشئيين؟ قيل:

هذا سؤال جيد، و الجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حى القلب و اعيه تام الفطره، فإذا فكر بقلبه، و جال بفكره؛ دله قلبه و عقله على صحه القرآن، و أنه الحق، و شهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطره، و هذا وصف الذين قيل فيهم: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ [سبأ: ٦]

و قال فى حقهم: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ [النور: ٣٥].

فهذا نور الفطره على نور الوحي، و هذا حال صاحب القلب الحى الواعى (١).

قال إمام أهل هذا السماع عثمان بن عفان رضى الله عنه «لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله» (٢)، و فى وصفه القرآن: «لا تنقضى عجائبه و لا يشبع منه العلماء» (٣) فهو قوت القلوب و غذاؤها، و دواؤها من أسقامها و شفاؤها (٤).

ص: ٤٦٣

١- الفوائد (٦٠٥).

٢- أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٣/٢٣٢).

٣- هذا جزء من حديث على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم: «إنها ستكون فتنه...» أخرجه الترمذى فى جامعه (٥/٥١٩٨-١٩٩) برقم (٢٩٠٦) و قال: «هذا حديث لا- نعرفه إلا- من هذا الوجه، و إسناده مجهول. و فى الحارث مقال». و أحمد فى مسنده (٩١/١) بنحوه، و الدارمى فى سننه (٢/٤٣٥)، و أورده ابن كثير فى فضائل القرآن- ذيل تفسير ابن كثير- و قال: و الحديث مشهور من روايه الحارث الأعور، و قد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهه رأيه و اعتقاده أما أنه تعمد الكذب فى الحديث فلا، و قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه، و قد وهم بعضهم فى رفعه، و هو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم.

٤- حكم مسأله السماع (٢٧٥).

اعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صيغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء.

فمن خواصه: أنه يلهي القلب و يصدّه عن فهم القرآن و تدبره، و العمل بما فيه، فإن القرآن و الغناء لا يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، و يأمر بالعفة، و مجانبه شهوات النفس، و أسباب الغي، و ينهى عن اتباع خطوات الشيطان. و الغناء يأمر بضد ذلك كله، و يحسنه، و يهيج النفوس إلى شهوات الغي. فيشير كامنهما، و يزعج قاطنهما، و يحركها إلى كل قبيح، و يسوقها إلى وصل كل مליحه و مليح. فهو و الخمر رضيعا لبان، و في تهيجهما على القبائح فرسا رهان. فإنه صنور الخمر و رضيعه و نائبه و حليفه، و خدينه و صديقه. عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يفسخ، و أحكم بينهما شريعه الوفاء التي لا تنسخ، و هو جاسوس القلب. و سارق المروء، و سوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، و يطلع على سرائر الأفتده، و يدب إلى محل التخيل. فيشير ما فيه من الهوى و الشهوه و السخافه و الرقاعه و الرعونه و الحماقه. فينما ترى الرجل و عليه سمه الوقار و بهاء العقل، و بهجه الإيمان، و وقار الإسلام، و حلاوه القرآن، فإذا استمع الغناء و مال إليه نقص عقله، و قل حياؤه، و ذهبت مروءته، و فارقه بهاؤه، و تخلى عنه وقاره، و فرح به شيطانه، و شكّا إلى الله تعالى إيمانه، و ثقل عليه قرآنه، و قال: يا رب، لا تجمع بيني و بين قرآن عدوك في صدر واحد. فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، و أبدى من سره ما كان يكتمه و انتقل من الوقار و السكينه إلى كثره الكلام و الكذب، و الزهزه و الفرقة بالأصابع فيميل برأسه، و يهز منكبيه، و يضرب الأرض برجليه، و يدق على أم رأسه بيديه، و يثب و ثبات الدباب، و يدور دوران الحمار حول الدولاب، و يصفق بيديه تصفيق النسوان، و يخور من الوجد و لا كخوار الثيران، و تاره يتأوه تأوه الحزين، و تاره يزعق زعقات المجانين (1) و لقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول:

أتذكر ليله و قد اجتمعنا على طيب السماع إلى الصباح؟

و دارت بيننا كأس الأغاني فأسكر النفوس بغير راح

فلم تر فيهم إلا نشاوى سرورا، و السرور هناك صاحي

إذا نادى أخو اللذات فيه أجاب اللهو: حى على السماع

ص: ٤٤٤

و لم نملك سوى المهجات شيئا أرقناها لألحاظ الملاح

و قال بعض العارفين: السماع يورث النفاق فى قوم، و العناد فى قوم، و الكذب فى قوم، و الفجور فى قوم، و الرعونه فى قوم.

و أكثر ما يورث عشق الصور، و استحسان الفواحش، و إدمانه ينقل القرآن على القلب، و يكرهه إلى سماعه بالخاصيه، و إن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقه.

و سر المسأله: أنه قرآن الشيطان فلا يجتمع هو و قرآن الرحمن فى قلب أبدا.

و أيضا، فإن أساس النفاق: أن يخالف الظاهر الباطن، و صاحب الغناء بين أمرين، إما أن يتهتك فيكون فاجرا، أو يظهر النسك فيكون منافقا، و فإنه يظهر الرغبه فى اللّٰه و الدار الآخرة و قلبه يغلى بالشهوات، و محبه ما يكرهه اللّٰه و رسله: من أصوات المعازف، و آلات اللّٰه، و ما يدعو إليه الغناء و يهيجه، فقلبه بذلك معمور، و هو من محبه ما يحبه اللّٰه و رسوله و كراهه ما يكرهه قفر، و هذا محض النفاق.

و أيضا، فإن الإيمان قول و عمل: قول بالحق، و عمل بالطاعه. و هذا ينبت على الذكر، و تلاوه القرآن. و النفاق قول الباطل، و عمل البغى، و هذا ينبت على الغناء.

و أيضا، فمن علامات النفاق: قله ذكر اللّٰه، و الكسل عند القيام إلى الصلاه، و نقر الصلاه، و قل أن تجد مفتونا بالغناء إلا و هذا وصفه.

و أيضا، فإن النفاق مؤسس على الكذب، و الغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح و يزينه، و يأمر به، و يقبح الحسن و يزهده فيه، و ذلك عين النفاق.

و أيضا، فإن النفاق غش و مكر و خداع، و الغناء مؤسس على ذلك.

و أيضا، فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح، كما أخبر اللّٰه سبحانه بذلك عن المنافقين، و صاحب السماع يفسد قلبه و حاله من حيث يظن أنه يصلحه، و المغنى يدعو القلوب إلى فتنه الشهوات، و المنافق يدعوها إلى فتنه الشبهات. قال الضحاك: الغناء مفسده للقلب، مسخظه للرب.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى، التى بدؤها من الشيطان، عاقبتها سخط الرحمن. فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم: أن صوت المعازف، و استماع الأغانى، و اللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب على الماء. فالغناء يفسد القلب، و إذا فسد القلب هاج فيه النفاق.

و بالجمله، فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء، و حال أهل الذكر و القرآن، تبين له حذق الصحابه و معرفتهم بأدواء القلوب، و أدويتها، و بالله التوفيق (١).

باب: منه انظر وقت أخذك فى القراءه إذا أعرضت عن واجبها و تدبرها و تعقلها، و فهم ما أريد بكل آيه، و حظك من الخطاب بها، و تنزيلها على أدواء قلبك و التقيد بها، كيف تدرك الخدمه أو أكثرها، أو ما قرأت منها، بسهولة و خفه، مستكثرا من القراءه. فإذا ألزمت نفسك التدبر و معرفه المراد، و النظر إلى ما يخصك منه و التعبده به، و تنزيل دوائه على أدواء قلبك، و الاستشفاء به، لم تكذ تجوز السوره أو الآيه إلى غيرها (٢).

أسباب تفاوت الناس فى فهم القرآن

فى الصحيحين من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبه قبلت الماء فأنبتت الكلا و العشب الكثير، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها و سقوا و زرعوا، و أصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان، لا تمسك ماء و لا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله و نفعه ما بعثنى الله به فعلم و علم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (٣). شبه صلى الله عليه و سلم العلم و الهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكاء واحد منهما من الحياه و المنافع و الأغذيه و الأدوية و سائر مصالح العباد، فإنها بالعلم و المطر، و شبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر؛ لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها و يزكو و تظهر بركته و ثمرته.

ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم و استعدادهم لحفظه و فهم معانيه، و استنباط أحكامه و استخراج حكمه و فوائده:

أحدها: أهل الحفظ و الفهم الذين حفظوه و عقلوه، و فهموا معانيه، و استنبطوا وجوه

ص: ٤٤٤

١- إغاثه اللهفان (٢٤٨-٢٥١).

٢- مدارج السالكين (٢٥٨/١).

٣- البخارى (٧٩) فى العلم، باب: فضل من علم و علم، و مسلم (١٥/٢٢٨٢) فى الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبى صلى الله عليه و سلم من الهدى و العلم.

الأحكام والحكم والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء، وهذا بمنزلة للحفظ فأنبت الكلاً والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط، فإنه بمنزلة إنبات الكلاً والعشب بالماء، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية.

القسم الثانى: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه، ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه، ويراعى حروفه وإعرابه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله، كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه:

«إلا فهما يؤتیه الله عبدا فى كتابه».

والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين ويفهم منه الآخر مائه أو مائتين، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه، وهذا يسقى، وهذا يزرع، فهؤلاء القسمان هم السعداء، والأولون أرفع درجه وأعلى قدرا ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) [الحديد].

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا ولا فهما ولا روايه ولا درايه، بل هم بمنزلة الأرض التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء، وهؤلاء هم الأشقياء. والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ما قبله وصل إليه، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه، والقسم الثالث لا علم ولا تعليم، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه، وهؤلاء شر من الأنعام، وهو وقود النار.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله، وذكر أقسام بنى آدم بالنسبه فيه إلى شقيهم وسعيدهم، وتقسم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد، وفيه دلالة على أن حاجه العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث.

قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مره أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

وقد قال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ [الرعد: ١٧]. شبه-سبحانه- العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من

الحياه، و مصالح العباد فى معاشهم و معادهم، ثم شبه القلوب بالأوديه، فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا، و قلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا، فقال: فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطله فيطفوا على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء، و أخبر-سبحانه- أنه راب يطفو و يعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى، كذلك الشبهات الباطله إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب و طغت، فلا يستقر فيه، بل تجفى و ترمى، فيستقر فى القلب ما ينفع صاحبه و الناس من الهدى و دين الحق، كما يستقر فى الوادى الماء الصافى و يذهب الزبد جفاء، و ما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون.

ثم ضرب-سبحانه- لذلك مثلا آخر فقال: وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ [الرعد: ١٧] يعنى أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد يخرج منه خبثه، و هو الزبد الذى تلقىه النار و تخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يقذف و يلقي به، و يستقر الجوهر الخاص وحده. و ضرب-سبحانه- مثلا بالماء لما فيه من الحياه و التبريد و المنفعه، و مثلا بالنار لما فيها من الإضاءة و الإشراق و الإحراق. فأيات القرآن تحيى القلوب كما تحيا الأرض بالماء، و تحرق خبثها و شبهاتها و شهواتها و سخائمها كما تحرق النار ما تلقى فيها و تميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الخبث من الذهب و الفضة و النحاس و نحوه منه، فهذا بعض ما فى المثل العظيم من العبر و العلم. قال الله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) [العنكبوت] (١).

كيفية تلاوه القرآن

كان صلى الله عليه و سلم يقطع قراءته، و يقف عند كل آيه فيقول: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)، و يقف اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ، و يقف: مَا لِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) (٢).

و ذكر الزهرى: أن قراءه رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت آيه آيه، و هذا هو الأفضل. الوقوف على رءوس الآيات و إن تعلقت بما بعدها، و ذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض و المقاصد،

ص: ٤٦٨

١- مفتاح دار السعاده (١٥-١٧).

٢- أبو داود (٤٠٠١) فى الحروف و القراءات، و الترمذى (٢٩٢٧) فى القراءات، باب: فى فاتحه الكتاب، و قال: «غريب».

و الوقوف عند انتهائها، و اتباع هدى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ سنته أولى. و ممن ذكر ذلك البيهقي في «شعب الإيمان» و غيره، و رجح الوقوف على رءوس الآي و إن تعلق بما بعدها.

و كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يرتل السوره حتى تكون أطول من أطول منها، و قام بآيه يرددها حتى الصباح (١).

حكم قراءة الجماعة بصوت واحد

و هذه مسأله اختلف فيها أهل العلم، و هي قراءة الجماعة بصوت واحد فكرهها طائفه، و استحبوها قراءه الإداره، و هي [أن] (٢) يقرأ هذا، ثم يسكت فيقرأ الآخر حتى ينتهوا، و استحبتها طائفه، و قالوا: تعاون الأصوات يكسو القراءة طيبا و تجلاله (٣) و تأثيرا في القلوب، و تأمل هذا في تعاون الحركات بالآلات المطربه كيف يحدث لها كيفيه أخرى؟ فإن الهيئه الاجتماعيه لها من الحكم ما ليس لأفرادها، و فضلت طائفه و قالوا: كان أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ و الباقيون يستمعون فلم يكونوا يقرءون جمله، و لم يكونوا يديرون القراءة بل القارئ واحد، و الباقيون مستمعون، و لا ريب أن هذا أكمل الأمور الثلاثه، و الله أعلم (٤).

في كم يختم القرآن؟

سأله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عبد الله بن عمرو بن العاص، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في شهر»، فقال:

أطيق أفضل من ذلك، فقال: «في عشرين»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، فقال: «في خمس عشر»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، قال: «في عشره»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، قال:

«في خمس»، قال: أطيق أفضل من ذلك، قال: «لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث». ذكره أحمد (٥) (٤).

ص: ٤٦٩

١- زاد المعاد (١/٣٣٧).

٢- ساقطه من المطبوعه، للسياق.

٣- تجلاله: مبالغه من الجلاله.

٤- حكم مسأله السماع (٢٩٢، ٢٩١).

٥- أحمد (١٦٣/٢) و قال الشيخ أحمد شاكر (٦٥١٦): «إسناده صحيح».

٦- إعلام الموقعين (٤/٣٨٠).

نص الإمام أحمد-رحمه الله-على الدعاء عقيب الختمه فقال فى روايه أبى الحارث:«كان أنس إذا ختم القرآن جمع أهله و ولده».و قال فى روايه يوسف بن موسى،و قد سئل عن الرجل يختم القرآن فيجتمع إليه قوم فيدعون،قال:نعم رأيت معمرا يفعله إذا ختم.

و قال فى روايه حرب:«استحب إذا ختم الرجل القرآن أن يجمع أهله و يدعو».و روى ابن أبى داود فى فضائل القرآن عن الحكم قال:«أرسل إلى مجاهد و عنده ابن أبى لبابه:

أرسلنا إليك أنا نريد أن نختم القرآن،و كان يقول:إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن ثم يدعو بدعوات».

و روى أيضا فى كتابه عن ابن مسعود أنه قال:«من ختم القرآن فله دعوه مستجاب».

و عن مجاهد قال:«تنزل الرحمه عند ختم القرآن».

و روى أبو عبيد فى كتاب«فضائل القرآن»عن قتاده قال:«كان بالمدينه رجل يقرأ القرآن من أوله إلى آخره على أصحاب له،فكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يضع عليه الرقباء فإذا كان عند الختم جاء ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فشده.

و نص أحمد-رحمه الله تعالى-على استحباب ذلك فى صلاه التراويح،قال حنبل:

سمعت أحمد يقول فى ختم القرآن:«إذا فرغت من قراءتك قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فارفع يديك فى الدعاء قبل الركوع،قلت:إلى أى شىء تذهب فى هذا؟قال:رأيت أهل مكه يفعلونه»،و كان سفيان بن عيينه يفعله معهم بمكه.

قال عباس بن عبد العظيم:و كذلك أدركت الناس بالبصره و بمكه،و يروى أهل المدينه فى هذا أشياء،و ذكر عن عثمان بن عفان.

و قال الفضل بن زياد:سألت أبا عبد الله فقلت:«أختم القرآن أجعله فى التراويح و فى الوتر؟قال اجعله فى التراويح،حتى يكون لنا دعاء بين اثنين،قلت:كيف أصنع؟قال:إذا فرغت من آخر القرآن فارفع يديك قبل أن تركع و ادع بنا،و نحن فى الصلاه،و أطل القيام،قلت:بم أدعو؟قال:بما شئت،قال:ففعلت كما أمرنى و هو خلفى يدعو قائما و يرفع يديه».

و إذا كان هذا من أكد مواطن الدعاء و أحقها بالإجابة فهو من أكد مواطن الصلاه على النبى صلى الله عليه و سلم (١).

و في الترمذى عنه أنه سئل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الحال المرتحل» (١)، و فهم بعضهم من هذا أنه إذا فرغ من ختم القرآن قرأ فاتحه الكتاب، و ثلاث آيات من سورة البقره؛ لأنه حل بالفراغ و ارتحل بالشروع. و هذا لم يفعله أحد من الصحابه و لا التابعين، و لا استحبه أحد من الأئمه.

و المراد بالحديث الذى كلما حل من غزاه ارتحل فى أخرى، أو كلما حل من عمل ارتحل إلى غيره تكميلا له كما كمل الأول، و أما هذا الذى يفعله بعض القراء فليس مراد الحديث قطعا، و بالله التوفيق.

و قد جاء تفسير الحديث متصلا به أن يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل، و هذا له معنيان: أحدهما: أنه كلما حل من سورة أو جزء ارتحل فى غيره، و الثانى: أنه كلما حل من ختمه ارتحل فى أخرى (٢).

حكم قراءة القرآن بالفارسيه

و من العجب: تجويز قراءة القرآن بالفارسيه (٣).

النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو

إن الله تعالى منع رسوله حيث كان بمكه من الجهر بالقرآن، حيث كان المشركون يسمعونه فيسبون القرآن، و من أنزله و من جاء به، و من أنزل عليه (٤).

و أيضا نهيه سبحانه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو، لما كان ذريعه إلى سيهم للقرآن و من أنزله (٥).

حكم الوضوء لقراءة القرآن

قالوا (٦): الوضوء هو من جنس ذكر الله، و قراءه القرآن و الدعاء؛ و لهذا شرع فى

ص: ٤٧١

١- الترمذى (٢٩٤٨) فى القراءات، باب: (١٣)، و قال: «غريب».

٢- إعلام الموقعين (٣٧٩/٤).

٣- إعلام الموقعين (٤٠٨/٣).

٤- إعلام الموقعين (١٩٠/٣).

٥- إعلام الموقعين (٣٦٧/١).

٦- أى: المانعون من الوضوء.

الصلاه و خارجها، فكما لا يشترط الوضوء لهذه الأمور - وإن كانت من أجزاء الصلاه - فكذا لا يشترط للسجود، و كونه جزءا من أجزائها لا يوجب ألا يفعل إلا بوضوء.

و احتج البخارى بحديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سجد بالنجم، و سجد معه المسلمون، و المشركون و الجن و الإنس (1) و معلوم أن الكافر لا وضوء له.

قالوا: و أيضا، فالمسلمون الذين سجدوا معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينقل أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالطهاره، و لا سألهم: هل كنتم متطهرين أم لا؟ و لو كانت الطهاره شرطا فيه للزم أحد الأمرين: إما أن يتقدم أمره لهم بالطهاره، و إما أن يسألهم بعد السجود، ليبين لهم الاشتراط، و لم ينقل مسلم واحدا منهما.

فإن قيل: فلعل الوضوء تأخرت مشروعته عن ذلك، و هذا جواب بعض الموجبين.

قيل: الطهاره شرعت للصلاه من حين المبعث، و لم يصل قط إلا بطهاره، أتاه جبريل عليه السّلام فعلمه الطهاره و الصلاه. و فى حديث إسلام عمر أنه لم يمكن من مس القرآن إلا بعد تطهره (2)، فكيف تظن أنهم كانوا يصلون بلا وضوء؟

قالوا: و أيضا فيبعد جدا أن يكون المسلمون كلهم إذ ذاك على وضوء!

قالوا: و أيضا، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ القرآن، فيقرأ السوره فيها السجده فيسجد، و نسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته (3).

قالوا: و قد كان يقرأ القرآن عليهم فى المجمع كلها، و من البعيد جدا أن يكون كلهم إذ ذاك على وضوء، و كانوا يسجدون حتى لا يجد بعضهم مكانا لجبهته، و معلوم أن مجامع الناس تجمع المتوضى و غيره.

قالوا: و أيضا، فقد أخبر - الله تعالى - فى غير موضع من القرآن: أن السحره سجدوا لله سجده، فقبلها الله منهم و مدحهم عليها، و لم يكونوا متطهرين قطعاً، و منازعونا يقولون مثل هذا السجود حرام، فكيف يمدحهم و يثنى عليهم بما لا يجوز؟ فإن قيل: شرع من قبلنا ليس بشرع لنا. قيل: قد احتج الأئمه الأربعة بشرع من قبلنا، و ذلك منصوص عنهم أنفسهم فى غير موضع. هـ.

ص: ٤٧٢

١- البخارى (٤٨٦٢) فى التفسير، باب: فاسجدوا لله و اعبدوا.

٢- ابن هشام (٣٧٢، ٣٧١/١).

٣- البخارى (١٠٧٥) فى سجود القرآن، باب: من سجد سجود القارئ، و مسلم (١٠٣/٥٧٥) فى المساجد و مواضع الصلاه، باب: سجود التلاوه.

قالوا:سلمنا،لكن ما لم يرد شرعنا بخلافه.

قال المجوزون:فأين ورد في شرعنا خلافه؟

قالوا:و أيضا فأفضل أجزاء الصلاة و أقوالها هو القراءه،و يفعل بلا وضوء،فالسجود أولى.

قالوا:و أيضا فالله-سبحانه و تعالى-أثنى على كل من سجد عن التلاوه،فقال تعالى:

قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (الإسراء:١٠٧).و هذا يدل على أنهم سجدوا عقب تلاوته بلا- فصل،سواء كانوا بوضوء أو بغيره؛ لأنه أثنى عليهم بمجرد السجود عقب التلاوه،و لم يشترط وضوء،و كذلك قوله تعالى: إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا [مريم:٥٨] (١).

حكم قراءه الحائض القرآن و إعلال حديث المنع

جواز قراءه القرآن لها،و هي حائض؛ إذ لا يمكنها التعويض عنها زمن الطهر؛ لأن الحيض،قد يمتد بها غالبه أو أكثره،فلو منعت من القراءه لفاتت عليها مصلحتها،و ربما نسيت ما حفظته زمن طهرها،و هذا مذهب مالك،و إحدى الروايتين عن أحمد،و أحد قولي الشافعي.

و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لم يمنع الحائض من قراءه القرآن،و حديث:«لا- تقرأ الحائض و الجنب شيئا من القرآن» (٢).لم يصح فإنه حديث معلول باتفاق أهل العلم بالحديث (٣).

حكم مس المصحف للجنب و غيره

قال تعالى: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)[الواقعه]،اختلف المفسرون في هذا فقيل:هو اللوح المحفوظ،و الصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكه،و هو المذكور في قوله: فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)[عبس]،و يدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكه قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)[الواقعه]،فهذا يدل على

ص: ٤٧٣

١- تهذيب السنن (٥٥،١/٥٤).

٢- الترمذي(١٣١) في الطهاره،باب:ما جاء في الجنب و الحائض،و قال:«حديث ابن عمر حديث لا نعرفه إلا من حديث إسماعيل بن عياش....،و ابن ماجه(٥٩٦) في الطهاره و سننها،باب:ما جاء في قراءه القرآن من غير طهاره،و قال الألباني:«منكر».

٣- إعلال الموقعين (٣/٣٠).

أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح فى معنى الآية، و من المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

و الأول أرجح لوجه:

أحدهما: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، و أن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله، و أنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه، كما قال تعالى: وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) كِرَامٍ بَرَزِهِ (١٦) [الشعراء]، فنفى الفعل و تأتية منهم، و قدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك و لا يليق بهم، و لا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفى عمن يحسن منه، و قد يليق بمن لا- يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة، و كذلك قوله فى سورة عبس: فِي ضِعْفٍ مُّكْرَمٍ (١٣) مَرْفُوعِهِ مُطَهَّرِهِ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرِهِ (١٥) كِرَامٍ بَرَزِهِ (١٦) [عبس]، فوصف محله بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به، و تقرير هذا المعنى أهم و أجل و أنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثانى: أن السورة مكيهه، و الاعتناء فى السور المكيهه إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد و المعاد و النبوه؛ و أما تقرير الأحكام و الشرائع فمظنه السور المدنيه.

الوجه الثالث: أن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية، و لا فى حياه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و إنما جمع فى المصحف فى خلافه أبى بكر، و هذا إن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الأخبار، يوضحه:

الرابع: و هو قوله: فى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)، و المكنون: المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر، كما قال تعالى: كَأَنَّهُنَّ يَتِيضُ مَّكْنُونٌ (٤٩) [الصفافات]، و هكذا قال السلف. قال الكلبي: مكنون من الشياطين، و قال مقاتل: مستور، و قال مجاهد: لا يصيبه تراب و لا غبار. و قال أبو إسحاق: مصون فى السماء يوضحه.

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظا فقوله: فى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) كقوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) [البروج] يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين، و أبلغ فى تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) بالرفع، فهذا خبر لفظا و معنى، و لو كان نهيا لكان مفتوحا، و من حمل الآية على النهى احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهى، و الأصل فى الخبر و النهى حمل كل منهما على حقيقته، و ليس هاهنا

موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال **إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** و لم يقل **إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**. و لو أراد به منع المحدث من مسه لقال: **إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**، كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** (٢٢٢)[البقره]، و فى الحديث «اللهم اجعلنى من التوابين و اجعلنى من المتطهرين» (١)، فالمتطهر فاعل التطهير، و المطهر الذى طهره غيره، فالمتوضىى متطهر و الملائكه مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائده، إذ مجرد كون الكلام مكنونا فى كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا فى كتاب، و هذا أمر مشترك، و الآيه إنما سقت لبيان مدحه و تشريفه، و ما اختص به من الخصائص التى تدل على أنه منزل من عند الله، و أنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، و لا يمس محله إلا المطهرون، و هم السفرة الكرام البرره.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور فى سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك فى قوله: **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** (٧٩) قال: المطهرون الملائكه.. و هذا عند طائفه من أهل الحديث فى حكم المرفوع، قال الحاكم: تفسير الصحابه عندنا فى حكم المرفوع، و من لم يجعله مرفوعا فلا- ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابه، و الصحابه أعلم الأسمه بتفسير القرآن، و يجب الرجوع إلى تفسيرهم.

و قال حرب فى مسائله: سمعت إسحاق فى قوله: **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** (٧٩) قال:

النسخه التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال: الملائكه.

و سمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآيه على أن المصحف لا يمسسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه و الإشاره، إذ كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر، و الحديث مشتق من هذه الآيه..».

ص: ٤٧٥

١- رواه الترمذى (٥٥) فى أبواب الطهاره، باب: فيما يقال بعد الوضوء، عن أبى إدريس الخولانى عن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، اللهم اجعلنى من التوابين و اجعلنى من المتطهرين. فتحت له ثمانيه أبواب الجنه يدخل من أيها شاء» قال الترمذى: «و هذا حديث فى إسناده اضطراب. و لا يصح عن النبى صلى الله عليه و سلم فى هذا الباب كثير شىء. قال البخارى: أبو إدريس لم يسمع من عمر شىئا».

وقوله: «لا- تمس القرآن إلا و أنت طاهر» (١) رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، أن في الكتاب الذي كتبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والدييات: «أن لا- يمس القرآن إلا طاهر»، قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحا، وقال أيضا: لا أشك أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبه.

وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم، معرفه يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقى الناس له بالقبول و المعرفه، ثم قال: هو كتاب معروف عند العلماء، و ما فيه فمتفق عليه إلا قليلا، و قد رواه ابن حبان في صحيحه، و مالك في موطئه، و في المسألة آثار آخر مذكوره في غير هذا الموضع (٢).

باب: منه قوله تعالى: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) [الواقعه]: الصحيح في الآية أن المراد به:

الصحف التي بأيدي الملائكة، لوجوه عديده:

منها: أنه وصفه بأنه «مكنون»، و «المكنون» المستور عن العيون. و هذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

و منها: أنه قال: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) و هم الملائكة. و لو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون. كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقره: ٢٢٢] فالملائكة مطهرون، و المؤمنون متطهرون.

و منها: أن هذا إخبار، و لو كان نهيا لقال: لا يمسه بالجزم. و الأصل في الخبر: أن يكون خبرا صوره و معنى.

و منها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالى أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين. و لا وصول لها إليه، كما قال تعالى في آيه الشعراء وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مَا يَشَاءُ تَطِيْعُونَ [الشعراء] و إنما تناله الأرواح المطهره:

و هم الملائكة.).

ص: ٤٧٦

١- مالك في الموطأ (١/١٩٩) في القرآن، باب: الأمر بالوضوء من مس القرآن، قال ابن عبد البر: «لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، و قد روى مسندا من وجه صالح». انظر: الحاكم في المستدرک (٣/٤٨٥) في معرفه الصحابه، باب: مناقب حكيم بن حزام، و قال: «حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه» و وافقه الذهبي.

٢- التبيان (٢٢٦-٢٣٠).

و منها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عبس].

قال مالك في موطنه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٩٧) أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس.

و منها أن الآية مكيه من سورة مكيه، تتضمن تقرير التوحيد و النبوه و المعاد، و إثبات الصانع، و الرد على الكفار. و هذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي. و هو حكم مس المحدث المصحف.

و منها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائده؛ إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقا أو باطلا. بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطان، و لا ينال منه، و لا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية. فهذا المعنى أليق و أجل و أخلق بالآيه و أولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيميه -قدس الله روحه- يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون، لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى ألا يمسها إلا طاهر (١).

النهى عن المراء في القرآن

عن أبي هريره رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «المراء في القرآن كفر» (٢).

و في الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم عنه فقوموا» (٣).

و في الصحيحين عن عائشه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (٤).

ص: ٤٧٧

١- مدارج السالكين (٢/٤١٦-٤١٨).

٢- أبو داود (٤٦٠٣) في السنه، باب: النهى عن الجدل في القرآن.

٣- البخارى (٥٠٦٠) في فضائل القرآن، باب: اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، و مسلم (٤/٢٦٦٧) في العلم، باب: النهى عن اتباع متشابه القرآن.

٤- البخارى (٧١٨٨) في الأحكام، باب: الألد الخصم.... إلخ، و مسلم (٥/٢٦٦٨) في العلم، باب: الألد الخصم.

و فى سنن ابن ماجه من حديث أبى أمامه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (١)، ثم تلا تلك الآية: ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون [الزخرف: ٥٨] (٢).

حكم التسميه بأسماء القرآن

و مما يمنع منه: التسميه بأسماء القرآن، و سوره مثل: طه، و يس، و حم.

و قد نص مالك على كراهه التسميه بيس. ذكره السهيلي، و أما ما يذكره العوام: أن «يس»، و «طه» من أسماء النبي -عليه الصلاة و السلام- فغير صحيح، ليس ذلك فى حديث صحيح و لا حسن و لا مرسل و لا أثر عن صحابى، و إنما هذه الحروف مثل: «الم»، و «حم»، و «الر»، و نحوها (٣).

حكم قراءة القرآن للميت

و قد ذكر عن جماعه من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن، قال عبد الحق: يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سوره البقره. و ممن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن، و كان الإمام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع عن ذلك.

و قال الخلال فى الجامع، كتاب القراءه عند القبور: أخبرنا العباس بن محمد الدورى، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا مبشر الحلبي، حدثنى عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال: قال أبى: إذا أنا مت فضعنى فى اللحد، و قل: بسم الله، و على سنه رسول الله، و سن على التراب سناً، و اقرأ عند رأسى بفاتحه البقره فإنى سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك، قال عباس الدورى: سألت أحمد بن حنبل قلت: تحفظ فى القراءه شيئاً؟ فقال: لا و سألت يحيى بن معين فحدثنى بهذا الحديث.

قال الخلال و أخبرنى الحسين بن أحمد الوراق، حدثنى على بن موسى الحداد، و كان صدوقاً، قال: كنت مع أحمد بن حنبل، و محمد بن قدامه الجوهري فى جنازه، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا، إن القراءه عند القبر بدعه،

ص: ٤٧٨

١- ابن ماجه (٤٨) فى المقدمة، باب: اجتناب البدع و الجدل.

٢- تهذيب السنن (٧٢٦/٧).

٣- تحفه المودود (١١٧، ١١٦).

فلما خرجنا من المقابر، قال محمد بن قدامه لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال: ثقه، قال: كتبت عنه شيئاً، قال: نعم فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن ابن العلاء بن اللجلاج عن أبيه: أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقره و خاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر يوصى بذلك، فقال له أحمد: فارجع، و قل للرجل يقرأ.

و قال الحسن بن الصباح الزعفراني سألت الشافعي عن القراءه على القبر قال: لا بأس بها.

و ذكر الخلال عن الشعبي قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن.

قال: و أخبرني أبو يحيى الناقد سمعت الحسن بن الجروي يقول: مررت على قبر أخت لى فقراءت عندها «تبارك»؛ لما يذكر فيها، فجاءني رجل فقال: إني رأيت أختك في المنام تقول: جزى الله أبا على خيراً فقد انتفعت بما قرأ. أخبرني الحسن بن الهيثم قال: سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبي نصر بن التمار يقول: كان رجل يجيء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس، فجاء في بعض أيامه فقرأ سورة يس ثم قال: اللهم إن كنت قسمت لهذه السوره ثواباً فاجعله في أهل هذه المقابر، فلما كان يوم الجمعة التي تليها جاءت امرأه فقالت: أنت فلان بن فلانه؟ قال: نعم، قالت: إن بنتا لى ماتت فرأيتها في النوم جالسه على شفير قبرها فقلت: ما أجلسك هاهنا؟ فقالت: إن فلان بن فلانه جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس و جعل ثوابها لأهل المقابر، فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك.

و في النسائي و غيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أنه قال: «اقرأوا «يس» عند موتاكم» (1). و هذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله:

«لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» (2). و يحتمل أن يراد به القراءه عند القبر، و الأول أظهر لوجه:

الأول: أنه نظير قوله: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله».

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السوره لما فيها من التوحيد و المعاد و البشرى بالجنه لأهل التوحيد و غبطه من مات عليه بقوله: يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِّنْ.

ص: ٤٧٩

١- أبو داود (٣١٢١) في الجنائز، باب: القراءه عند الميت، و النسائي في الكبرى (١٠٩١٣) في عمل اليوم و الليله، باب: ما يقرأ على الميت، و انظر تخريجه مفصلاً في: إرواد العليل (٤٨٨).

٢- مسلم (١/٩١٦) في الجنائز، باب: تلقين الموتى لا إله إلا الله، و أبو داود (٣١١٧) في الجنائز، باب: في التلقين.

الْمُكْرَمِينَ (٢٧) [يس] فتستبشر الروح فتحب لقاء الله، فيحب الله لقاءها، فإن هذه السورة قلب القرآن و لها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي قال: كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول و هو في السياق، و كان آخر عهدنا به أن نظر إلى السماء و ضحك و قال: يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) [يس] و قضى.

الثالث: أن هذا عمل الناس و عاداتهم قديما و حديثا يقرءون «يس» عند المحتضر.

الرابع: أن الصحابة لو فهموا من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «اقرأوا «يس» عند موتاكم» (١) قراءتها عند القبر؛ لما أدخلوا به و كان ذلك أمرا معتادا مشهورا بينهم.

الخامس: أن انتفاعه باستماعها و حضور قلبه و ذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، و أما قراءتها عند قبره، فإنه لا يثاب على ذلك؛ لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع و هو عمل، و قد انقطع من الميت (٢).

و أيضا و بالجملة، فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق و الصدقة و الاستغفار له و الدعاء له و الحج عنه.

و أما قراءه القرآن و إهداؤها له تطوعا بغير أجره، فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم و الحج.

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف و لا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، و لا أرشدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إليه، و قد أرشدهم إلى الدعاء و الاستغفار و الصدقة و الحج و الصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدتهم إليه و لكانوا يفعلونه.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج و الصيام و الدعاء و الاستغفار.

قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن و اقتضت وصول ثواب القرآن و اقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ و هل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، و إن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوب بالكتاب و السنه و الإجماع و قواعد الشرع.

و أما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على (٢)

ص: ٤٨٠

١- سبق تخريجه في رقم ١.

٢- الروح (١٠-١٢)

من يقرأ و يهدى إلى الموتى، و لا كانوا يعرفون ذلك البتة، و لا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، و لا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت، بل و لا ثواب هذه الصدقه و الصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم.

فإن قيل: فرسول الله صلى الله عليه و سلم أرشدهم إلى الصوم و الصدقه و الحج دون القراءة؟

قيل: هو صلى الله عليه و سلم لم يتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له، و هذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، و هذا سأله عن الصدقه فأذن له، و لم يمنعهم مما سوى ذلك.

و أى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية و إمساك و بين وصول ثواب القراءة و الذكر؟

و القائل: إن أحدا من السلف لم يفعل ذلك، قائل ما لا علم له به، فإن هذه شهاده على نفي ما لم يعلمه، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك و لا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفى اطلاع علام الغيوب على نياتهم و مقاصدهم لا سيما و التلطف بنيه الإهداء لا يشترط.

و سر المسأله: أن الثواب ملك للعامل، فإذا تبرع به و أهده إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذى خص من هذا ثواب قراءة القرآن و حجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، و هذا عمل سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعصار و الأمصار من غير تكبير من العلماء (١).

شرط الواقف قراءة قرآن عند قبر

و من ذلك (٢): أن يشترط القراءة عند قبره دون البيوت التى أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الأصال، و الناس لهم قولان:

أحدهما: أن القراءة لا تصل إلى الميت، فلا فرق بين أن يقرأ عند القبر أو بعيدا منه عند هؤلاء.

ص: ٤٨١

١- الروح (١٤٢-١٤٣).

٢- أى: من شروط الواقفين المخالفه للشرع.

و الثاني: أنها تصل، و وصولها فرع حصول الثواب للقارئ، ثم ينتقل منه إلى الميت، فإذا كانت قراءه القارئ و مجيئه إلى القبر إنما هو لأجل الجعل و لم يقصد به التقرب إلى الله لم يحصل له ثواب، فكيف ينتقل عنه إلى الميت و هو فرعه؟ فما زاد بمجيئه إلى التربه إلا- العناء و التعب، بخلاف ما إذا قرأ لله في المسجد أو غيره في مكان يكون أسهل عليه و أعظم لإخلاصه، ثم جعل ثواب ذلك للميت وصل إليه.

و ذاكرت مره بهذا المعنى بعض الفضلاء، فاعترف به، و قال: لكن بقى شىء آخر، و هو أن الواقف قد يكون قصد انتفاعه بسماع القرآن على قبره و وصول بركه ذلك إليه، فقلت له:

انتفاعه بسماع القرآن مشروط بحياته، فلما مات انقطع عمله كله و استماع القرآن من أفضل الأعمال الصالحه، و قد انقطع بموته، و لو كان ممكنا لكان السلف الطيب من الصحابه و التابعين و من بعدهم أولى بهذا الحظ العظيم لمسارعتهم إلى الخير و حرصهم عليه. و لو كان خيرا لسبقونا إليه، فالذى لا شك فيه أنه لا يجب حضور التربه و لا تتعين القراءه عند القبر (١).

و أيضا فإذا شرط الواقف القراءه على القبر، كانت القراءه فى المسجد أولى، و أحب إلى الله و رسوله، و أنفع للميت (٢)، فلا يجوز تعطيل الأحب إلى الله الأنفع لبعده، و اعتبار ضده.

و قد رام بعضهم الانفصال عن هذا، بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر له باستماعه للقرآن فى قبره، و هذا غلط، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياه، فإنه عمل اختياري، و قد انقطع بموته (٣).

النهى عن قراءه القرآن فى الركوع و السجود

و سمعته يقول (٤) فى نهيه صلى الله عليه و سلم عن قراءه القرآن فى الركوع و السجود: «إن القرآن هو أشرف الكلام، و هو كلام الله، و حالتا الركوع و السجود حالتا ذل، و انخفاض من العبد».

فمن الأدب مع كلام الله: ألا يقرأ فى هاتين الحالتين، و يكون حال القيام و الانتصاب

ص: ٤٨٢

١- إعلام الموقعين (٢٣١، ٢٣٠/٤).

٢- ليس القراءه للميت من هدى النبوه. المسأله فيها تفصيل كما فى زاد المعاد!

٣- إعلام الموقعين (٣/١٣٠).

٤- أى شيخ الإسلام ابن تيميه.

أولى به» (١)(١).

سجدة القرآن

كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا مَرَّ بِسَجْدِهِ، كَبَّرَ وَسَجَدَ، وَرَبَّمَا قَالَ فِي سَجُودِهِ: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ» (٢).

وَرَبَّمَا قَالَ: «اللَّهُمَّ احْطِطْ عَنِّي بِهَا وَزَرِّهَا، وَارْتَبِهَا لِي عِنْدَكَ ذَخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ» (٣). ذَكَرَهُمَا أَهْلُ السُّنَنِ.

وَلَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَكْبُرُ لِلرَّفْعِ مِنْ هَذَا السُّجُودِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْهُ الْخُرَقِيُّ وَتَقَدَّمُوا الْأَصْحَابُ، وَلا نَقَلَ فِيهِ عَنْهُ تَشْهَدُ، وَلا سَلَامَ الْبَتَّةِ. وَانْكَرَ أَحْمَدُ وَالشَّافِعِيُّ السَّلَامَ فِيهِ، فَالْمَنْصُوصُ عَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّهُ لا تَشْهَدُ فِيهِ وَلا تَسْلِيمٌ، وَقَالَ أَحْمَدُ: أَمَّا التَّسْلِيمُ، فَلا أَدْرِي مَا هُوَ؟

وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لا يَنْبَغِي غَيْرُهُ.

وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ سَجَدَ فِي الْمِائَةِ تَنْزِيلًا، وَفِي ص، وَفِي النَّجْمِ وَفِي إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (٤) [الانشقاق: ١]، وَفِي سُورَةِ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) [العلق].

وَذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَجْدَةً؛ مِنْهَا ثَلَاثٌ فِي الْمَفْصَلِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ (٥).

ص: ٤٨٣

١- مدارج السالكين (٣٨٦، ٢/٣٨٥).

٢- أبو داود (١٤١٤) في الصلاة، باب: ما يقول إذا سجد، و الترمذی (٥٨٠) في الصلاة، باب: ما يقول في سجود القرآن، و قال: «حسن صحيح».

٣- الترمذی (٥٧٩) في الصلاة، باب: ما يقول في سجود القرآن، و ابن ماجه (١٠٥٣) في إقامة الصلاة و السنه فيها، باب: سجود القرآن. ٤- في هذا نظر، فإنها حاله عز و رفعه؛ لأنها ذل لله الأكبر، و انخفاض من العبوديه لعظمه الربوبيه و جلالها شرف و رفعه، و لعل السر في ذلك: أن المصلي حين قرأ قائما، تجلى للمتدبر الفقيه في كتاب ربه: ما لله عليه من النعم العظيمه المتتاليه، و بالأخص، و قد شرف بالنعمه العظمى، نعمه مناجاه ربه؛ فإنه يحسن عندئذ أنه يحمل من النعم ما ينوء به ظهره؛ فيخر راعيا؛ فيناسب ذلك أن يسبح بحمد ربه العظيم، الذي تجلت له عظمته في هذه النعم، ثم يشعر أن ربه سمع تسيبته بحمد ربه و يتذكر نعمه، فيرفع من الركوع شاكرًا لربه، قائلا: «سمع الله لمن حمده... إلخ» فيحس إحساسا آخر أنه من الحمادين الشكارين، فيجد أن النعم قد زادت زياده عظيمه؛ فينوء ظهره أكثر من قبل؛ فيخر ساجدا. و الله أعلم. و هو الموفق.

٥- أبو داود (١٤٠١) في الصلاة، باب: تفريع أبواب السجود، و ابن ماجه (١٠٥٧) في إقامة الصلاة و السنه فيها، باب: عدد سجود

القرآن، و ضعفه الألباني.

و أما حديث أبي الدرداء، سجدت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدى عشرة سجده، ليس فيها من المفصل شيء: (الأعراف)، و(الرعد) و(النحل)، و(بنى إسرائيل)، و(مريم)، و(الحج)، و(سجده الفرقان)، و(النمل)، و(السجده)، و(ص)، و(سجده الحواميم). فقال أبو داود:

روى أبو الدرداء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدى عشرة سجده، و إسناده واه (١).

و أما حديث ابن عباس رضى الله عنه: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسجد فى المفصل منذ تحول إلى المدينة. رواه أبو داود (١)، فهو حديث ضعيف، فى إسناده أبو قدامه الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه. قال الإمام أحمد: أبو قدامه مضطرب الحديث. و قال يحيى بن معين:

ضعيف. و قال النسائي: صدوق عنده مناكير. و قال أبو حاتم البستي: كان شيخا صالحا ممن كثر و همه. و عبد الله ابن القطان بمطر الوراق، و قال: كان يشبهه فى سوء الحفظ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، و عيب على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه.

و لا- عيب على مسلم فى إخراج حديثه؛ لأنه ينتقى من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، فغلط فى هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة، و من ضعف جميع حديث سيئ الحفظ، فالأولى: طريقه الحاكم و أمثاله. و الثانية: طريقه أبى محمد بن حزم و أشكاله. و طريقه مسلم هى طريقه أئمة هذا الشأن، و الله المستعان.

و قد صح عن أبى هريره أنه سجد مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) [العلق]، و فى إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) [الانشقاق] (٢)، و هو إنما أسلم بعد مقدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة بست سنين أو سبع، فلو تعارض الحديثان من كل وجه، و تقاوما فى الصحه؛ لتعين تقديم حديث أبى هريره؛ لأنه مشبته معه زياده علم خفيت على ابن عباس، فكيف و حديث أبى هريره فى غايه الصحه متفق على صحته، و حديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه. و الله أعلم (٣).

سجود التلاوه فى الانشقاق

عمل أهل المدينة الذى كأنه رأى عين فى سجودهم فى: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (٤) أول

ص: ٤٨٤

- ١- أبو داود (١٤٠٣) فى الصلاة، باب: من لم ير السجود فى المفصل، و ضعفه الألبانى.
- ٢- مسلم (١٠٩/٥٧٨) فى المساجد و مواضع الصلاة، باب: سجود التلاوه.
- ٣- زاد المعاد (٣٦٢/١-٣٦٤).
- ٤- الترمذى (٥٦٨) فى الصلاة، باب: ما جاء فى سجود القرآن، و ابن ماجه (١٠٥٦) فى إقامة الصلاة و السنه فيها، باب: عدد سجود القرآن، و فى الزوائد: «فى إسناده عثمان بن فائد، و هو ضعيف».

كانت مراده، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مراده لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدون في صدورهم. ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته. فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء (١).

جزاء المعرض عن القرآن

قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا [طه: ١٢٤] أي عن الذكر الذي أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل، كقيامي وقراءاتي، لا إلى المفعول. وليس المعنى: من أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف لإضافه الأسماء لا إضافه المصادر إلى معمولاتها. والمعنى: من أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكرا قال تعالى:

وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) [آل عمران]، وقال تعالى: وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) [القلم]، وقال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) [فصلت]، وقال تعالى: إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ [يس: ١١]، وعلى هذا فإضافته كإضافه الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافه العامل إلى معموله، ونظيره في إضافه اسم الفاعل: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [غافر: ٣]، فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافا على أعرف المعارف، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوعِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) [غافر].

وقوله تعالى: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا فسرنا غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الداله على عذاب القبر، ولهذا قال: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) [طه]، أي تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ و عذاب دار البوار.

و نظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا فهذا البرزخ، وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر: ٤٦] فهذا في يوم القيامة الكبرى.

ص: ٤٨٥

و نظيره قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)[الأنعام]فقول الملائكة:اليوم تجزون عذاب الهون،المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض و الموت.و نظيره قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أذْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)[الأنفال]،فهذه الإذاقه هى فى البرزخ، و أولها حين الوفاه فإنه معطوف على قوله: يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أذْبَارَهُمْ وَ هو فى القول المحذوف مقوله لدلاله الكلام عليه كظائره و كلاهما واقع وقت الوفاه.

و فى «الصحيح»عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم:٢٧]قال:نزل فى عذاب القبر (١).

و الأحاديث فى عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر.

و المقصود:أن الله-سبحانه-أخبر أن من أعرض عن ذكره و هو الهدى الذى من اتبعه،لا يضل و لا يشقى،فإن له معيشه ضنكا،و تكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياه طيبه و يجزيه أجره فى الآخره،فقال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)[النحل]فأخبر-سبحانه-عن فلاح ما تمسك بعهده علما و عملا فى العاجله بالحياه الطيبه،و فى الآخره بأحسن الجزاء، و هذا بعكس من له المعيشه الضنك فى الدنيا و البرزخ،و نسيانه فى العذاب بالآخره و قال سبحانه: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ مِنَ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧)[الزخرف]،فأخبر-سبحانه-أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين و ضلاله به،إنما كان بسبب إعراضه و عشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله، فكان عقوبه هذا الإعراض أن قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه و طريق فلاحه و هو يحسب أنه مهتد،حتى إذا وافى ربه يوم القيامه مع قرينه و عاين هلاكه و إفلاسه قال: يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨)[الزخرف]،و كل من أعرض عن الاهتداء بالوحى الذى هو ذكر الله،فلا بد أن يقول هذا يوم القيامه.

فإن قيل:فهله لهذا عذر فى ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى،كما قال تعالى:

وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الأعراف:٣٠].قيل:لا عذر لهذا و أمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم،و لو ظن أنه مهتد فإنه مفرط.

ص: ٤٨٦

بإعراضه عن اتباع داعى الهدى فإذا ضل فإنما أتى من تفریطه و إعراضه، و هذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرساله و عجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر. و الوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول، و أما الثانى فإن الله لا يعذب أحدا إلا بعد إقامه الحججه عليه، كما قال تعالى: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: ١٥]، و قال تعالى: رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء: ١٦٥]، و قال تعالى فى أهل النار:

وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ [الزخرف: ٧٦]، و قال تعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَوَّطْتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بلى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) [الزمر] و هذا كثير من القرآن.

و قوله تعالى: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) [طه]: اختلف فيه: هل هو من عمى البصيره أو من عمى البصر. و الذين قالوا: هو من عمى البصيره، إنما حملهم على ذلك قوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ ابْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا [مريم: ٣٨].

و قوله: لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) [ق]، و قوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) [الفرقان]، و قوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) [التكاثر] و نظائر هذا مما يثبت لهم الرؤيه فى الآخرة، كقوله تعالى: وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: ٤٥]، و قوله: يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) [الطور]، و قوله: وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) [الكهف]، و الذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا:

السياق لا يدل إلا عليه؛ لقوله: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) [طه]، و هو لم يكن بصيرا فى كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان فى الدنيا فى عمى عن الحق، فكيف يقول: و قد كنت بصيرا؟ و كيف يجاب بقوله: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى [طه: ١٢٦]، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، و أنه جوزى من جنس عمله؛ فإنه لما أعرض عن الذكر الذى بعث الله به رسوله، و عميت عنه بصيرته، أعمى الله بصره يوم القيامة، و تركه فى العذاب كما ترك الذكر فى الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره فى الآخرة، و على تركه ذكره تركه فى العذاب (١).

ص: ٤٨٧

و أيضا قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) [طه]، أي: تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها و لم تعمل بها. و إعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، و هو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، و هو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه، و أسمائه و صفاته و أوامره و آلائه، و نعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآيه إما مصدر مضاف إلى الفاعل، أو مضاف لإضافه الأسماء المحضه، أي: من أعرض عن كتابي و لم يتلها، و لم يتدبره، و لم يعمل به، و لا فهمه، فإن حياته و معيشتها لا تكون إلا مضيقة عليه منكده معذبا فيها.

و الضنك: الضيق و الشده و البلاء. و وصف المعيشه نفسها بالضنك مبالغه، و فسرت هذه المعيشه بعذاب البرزخ، و الصحيح: أنها تتناول معيشتها في الدنيا و حاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين، و هو شده و جهد و ضيق. و في الآخره ينسى في العذاب. و هذا عكس أهل السعاده و الفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياه، و لهم في البرزخ و في الآخره أفضل الثواب (١).

سلط الله تعالى عليهم (٢) من أزال ملكهم، و شردهم من أوطانهم، و سبي ذراريهم، كما هي عادته -سبحانه- و سنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، و تعوضوا عنه بكلام الملاحده و المعطله من الفلاسفه و غيرهم، كما سلط النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفه و المنطق، و اشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، و أصاروهم رعيه لهم. و كذلك لما ظهر ذلك ببلاد الشرق، سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقيه، و استولوا عليها. و كذلك في أواخر المائه الثالثه، و أول الرابعه، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفه و علوم أهل الإلحاد، سلط عليهم القرامطه الباطنيه، فكسروا عسكر الخليفه عدّه مرات، و استولوا على الحاج، و استعرضوهم قتلا. و أسرا، و اشتدت شوكتهم، و اتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء و الكتاب، و الأدباء و غيرهم، و استولى أهل دعوتهم على بلاد المغرب، و استقرت دار مملكتهم بمصر (٣)، و بنيت في أيامهم.

ص: ٤٨٨

١- الوابل الصيب (٥٩).

٢- أي: بنو إسرائيل.

٣- هم العبيديون المدعون كذبا و زورا أنهم فاطميون. و جددهم الذي دخل إلى المغرب، و أظهر دعوته هو المدعو: عبيد الله المهدي. قال القاضي عبد الجبار المصري: اسم جد الخلفاء المصريين: سعيد، و يلقب بالمهدي. و كان أبوه يهوديا حدادا بسلميه، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح و قال القاضي أبو بكر الباقلاني: القداح -جد عبيد الله- كان مجوسيا. و دخل عبيد الله المغرب. و ادعى أنه علوي. و لم يعرفه أحد من علماء النسب. و كان باطنيا خبيثا، حريصا على إزاله مله الإسلام. أعدم الفقه و العلم ليتمكن من إغراء الخلق. و جاء أولاده على أسلوبه، فأباحوا الخمر و الفروج و أشاعوا الرفض و بثوا دعواتهم فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنصيري، و الدرزي، و كان القداح كذابا ممخرقا. و هو أصل دعاه القرامطه. ١. ه من النجوم الزاهره (ج ٤ ص ٧٥، ٧٦).

القاهرة، واستولوا على الشام و الحجاز و اليمن و المغرب، و خطب لهم على منبر بغداد (١).

ص: ٤٨٩

١- إغاثة اللفهان (٢٦٠، ٢٦٩).

المحتويات

إهداء ٥

مقدمه ٧

فصل: علوم القرآن و الرد على الشبهات ٢٧

(١) نزول القرآن الكريم ٢٨

فصل: فى منهج ابن القيم فى التفسير ٣٤

فى بيان معنى تيسير القرآن للذكر و بيان معنى التفسير ٣٤

أهم قواعد منهج ابن القيم ٣٨

عرف القرآن ٤٢

فصل: موقف ابن القيم من الإسرائيليات: ٤٨

بيان تعظيمه للقرآن الكريم ٥٠

ابن القيم و التفسير العلمى ٥٤

فصل: فى ترجمه الإمام ابن القيم ٥٧

فصل: مكتبه ابن القيم ٦١

فصل: مؤلفات ابن القيم مرتبه على الحروف ٦٤

فصل: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ٧٢

أولاً: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»: ٧٣

ثانياً: إن وسائل إثبات صحه نسبه الكتاب لمؤلفه، هى عديده نذكر منها: ٧٣

ثالثاً: محاوله تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»: ٧٤

ضروره الوحى ٨١

مكانه الوحي ٨١

مراتب الوحي ٨١

مراتب الهدايه الخاصه و العامه و الفرق بين الإلهام و الوحي و التحديث ٨٢

مسأله ٩٤

قلم تعبير الرؤيا ٩٥

نزول القرآن الكريم ٩٧

وقت نزول القرآن ٩٧

أول ما نزل من القرآن ٩٧

مثال لأوقات النزول وقت نزول فرض الحج ٩٩

ص: ٤٩٠

وقت نزول سورة براءه ٩٩

أسباب النزول ١٠٠

أمثله من أسباب النزول من سورة البقره ١٠٠

من سورة آل عمران ١٠٠

من سورة النساء ١٠٠

من سورة المائده ١٠٠

من سورة المائده ١٠٤

من سورة الأنعام ١٠٤

من سورة إبراهيم ١٠٥

من سورة الأحزاب ١٠٧

المعوذتين ١٠٨

المكى و المدنى ١١٠

مثال المكى ١١٠

مثال المدنى ١١١

جمع القرآن الكريم ١١٣

كتاب الوحى ١١٣

جمع عثمان رضى الله عنه الناس على مصحف واحد ١١٣

المصاحف و جمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعيه ١١٣

القراءات ١١٥

القراءه بالأحرف السبعه و غيرها ١١٥

الجمع بين القراءات ١١٥

النهي عن التنطع و الغلو فى النطق بالحرف ١١٦

مثال للقراءات ١١٧

فواتح السور ١٢١

بيان دلالات فواتح السور و عظم شأنها ١٢١

مقاصد السور و الآيات ١٢٣

بيان بعض ما تشير إليه دلالة الآيات و السور ١٢٤

دلالة السور و الآيات على الغزوات ١٢٤

بعض الحكم و الغايات فى وقعه أحد ١٢٤

الأمثال فى القرآن الكريم ١٤١

قيمه المثل فى القرآن ١٤١

حكمه ضرب المثل فى القرآن ١٤١

أصول و قواعد من أمثال القرآن الكريم لعلم التعبير ١٤١

ص: ٤٩١

فصل تدبر الأمثال التي وقعت في القرآن ١٤٣

مثل المقلّدين ١٤٤

مثل المنفقين في سبيل الله ١٤٥

مثل من أنفق ماله في غير طاعه الله عز و جلّ ١٤٧

مثل فيمن انسلخ من آيات الله ١٤٨

مثل الحياه الدنيا ١٥٢

مثل المؤمنين و الكافرين ١٥٣

المثال المائي و النارى في حق المؤمنين ١٥٣

مثل في بطلان أعمار الكفار ١٥٤

مثل في الكلمه الطيبه ١٥٥

مثل الكلمه الخبيثه ١٥٨

مثل في تثبيت المؤمن ١٥٩

التمثيل بالعبد المملوك ١٦٢

في تشبيه من أعرض عن مثل الشرك ١٦٦

قدره الذين يدعوههم المشركون من دون الله ١٦٦

تمثيل أعمال الكافرين بالسراب ١٦٧

مثل في بيان حال الكفار ١٧٠

مثل في الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى ١٧١

مثل في ضلال المشركين ١٧٢

مثل الموحد و المشرك ١٧٢

مثل المغتاب ١٧٣

مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به ١٧٤

مثل للكفار و مثلان للمؤمنين ١٧٤

مثل فى تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره ١٧٦

فصل فى الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال ١٧٧

الخلاصه ١٧٨

المحكم و المتشابه ١٧٩

المتشابه و أنواع الأحكام ١٧٩

فى النسخ و المنسوخ ١٩٣

حكمه النسخ فى القرآن ١٩٣

أمثله على النسخ ١٩٥

الاستدلال فى القرآن الكريم ٢٠٦

ص: ٤٩٢

الاستدلال على الله تعالى بالآيات الأفقيه و النفسيه ٢٠٦

الاستدلال بأسماء الله و صفاته ٢٠٨

الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم ٢٠٩

من أساليب القرآن الكريم ٢١١

التحدى ٢١١

القرآن الكريم محكم جامع ٢١٣

بيان فساد إضافه الشر إلى الله تعالى ٢١٤

التدرج فى التكليف ٢١٥

العطف فى القرآن الكريم ٢١٧

تقديم بعض الكلام على بعض ٢٢٣

دخول الشرط على الشرط ٢٤٣

الروابط بين الجملتين ٢٤٦

القسم فى القرآن ٢٦٢

من أحكام القسم ٢٦٢

أمثله من قسم القرآن ٢٦٣

ألفاظ القرآن و مقاصدها ٢٦٨

بيان الوجوه التى تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن ٢٦٨

من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ ٢٦٩

خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله ٢٧٠

من الألفاظ المكروهه ٢٧٢

بعض ألفاظ القرآن الكريم و مقاصدها كالطبع و الختم و الغشاوه و الغطاء و غيرها ٢٧٣

السلطان فى القرآن ٣١٧

السمع فى القرآن ٣٢١

الصبر فى القرآن ٣٢٢

صلاه الله عز و جلّ على عباده فى القرآن ٣٢٦

الفاجر فى عرف القرآن ٣٢٧

القضاء و الحكم و الإراده و الكتابه و الأمر و الإذن ٣٢٧

تفسير القرآن و تأويله ٣٣٤

حقيقه التأويل ٣٣٤

درجات التأويل ٣٣٤

ما يدخل فيه التأويل و المجاز ٣٣٥

الأقوال فى التأويل و بيان خطورته ٣٣٥

ص: ٤٩٣

رأى الجوينى فى الكف عن التأويل ٣٣٦

رأى الغزالى فى التأويل ٣٣٦

التأويل عدو كل الأديان ٣٣٨

أصناف المتأوله ٣٣٩

فتنه التأويل و بعض ما أحدثت ٣٣٩

رأى ابن رشد فى التأويل ٣٤٠

مثل من أول شيئا من القرآن ٣٤١

أمثله للتأويل الفاسد ٣٤٢

التفسير بالرأى ٣٥٠

أقسام الرأى ٣٥٠

الآثار عن التابعين فى ذم الرأى ٣٥٥

موقف أهل الرأى من السنه ٣٥٨

كلام أئمه الفقهاء عن الرأى ٣٥٨

النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى ٣٥٨

من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع ٣٦٠

«عسى» من الله واجب ٣٦٠

هل نقل من القرآن آحادا؟ ٣٦١

تفسير القرآن بالسنه ٣٦٢

منزله السنه من القرآن ٣٦٧

الكلام عن زياده المغيره لحكم شرعى ٣٧٠

أنواع بيان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٧٣

هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟ ٣٧٧

عوده إلى حجج أن زيادته لا توجب نسخا ٣٧٧

تخصيص القرآن بالسنة ٣٨٦

من تفسيرات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن ٣٩٠

تفسير الصحابة للقرآن والأقوال في الاحتجاج به ٣٩٠

بعض تفسير الصحابة يخالف الأحاديث ٣٩١

ما أشكل على بعض الصحابة ٣٩٣

فضائل القرآن ٣٩٧

مكانه القرآن بين الكتب المنزلة ٣٩٧

القرآن كثير الخير عظيم النفع ٣٩٧

القرآن كفيل بمصالح العباد في المعاش و المعاد ٣٩٧

القرآن باب الله الأعظم الذي منه الدخول ٣٩٨

ص: ٤٩٤

القرآن حق و صدق ٤٠١

القرآن ذكر الله الأكبر ٤٠٢

القرآن فضل الله و رحمته ٤٠٣

القرآن ذكر للعباد ٤٠٣

القرآن تبصره للعباد ٤٠٤

محتوى خطاب القرآن ٤٠٥

فضل قارئ القرآن ٤٠٧

النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ٤٠٨

القرآن متضمن لأدوية القلب، و علاجه من جميع أمراضه ٤٠٨

الآيات و السور التي يعتصم بها العبد من الشيطان و يستدفع بها شره و يحترز بها منه ٤١٠

العلاج بالقرآن ٤١٣

هديه صلى الله عليه و سلم في رقيه اللديغ بالفاتحه ٤١٣

هديه صلى الله عليه و سلم في علاج لدغه العقرب بالرقيه ٤١٦

فضل سورة الفاتحه ٤١٩

فضل آيه الكرسي ٤٢١

أجمع آيه لمكارم الأخلاق ٤٢٢

فضل سورة الملك ٤٢٢

فضل سورة الزلزله ٤٢٢

فضل المعوذتين ٤٢٣

فضل سورة الإخلاص ٤٢٣

فضل سور:الإخلاص و الكافرون و الزلزله ٤٢٤

ما صح من أحاديث فى فضائل السور و الآيات ٤٢٦

ما وضع فى فضائل السور ٤٢٧

آداب القرآن الكريم ٤٢٨

سماع القرآن الكريم ٤٢٨

السمع المستحب ٤٢٨

أدب استماع القراءه ٤٢٩

فضل سماع القرآن من الغير ٤٢٩

المستمع للقرآن مستمع لله عز و جلّ ٤٣٠

سماع الناس القرآن يوم القيامه ٤٣٠

الشهقه عند سماع القرآن ٤٣١

عشق سماع القرآن ٤٣٢

سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان ٤٣٢

ص: ٤٩٥

تدبر القرآن و كيفية ذلك ٤٣٣

دعوه القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر ٤٣٥

فوائد تدبر القرآن ٤٤٢

علاج المدبر عن سماع القرآن ٤٤٦

هل الأفضل قلبه القراءه مع التدبر أو الكثره بدونه؟ ٤٤٧

العلم بالقرآن أفضل العلوم ٤٤٨

تعلم قراءه القرآن ٤٤٨

المقصود من تعلم القرآن ٤٤٩

تحسين الصوت بالقرآن ٤٤٩

مسأله ٤٥١

هديه صلى الله عليه و سلم في قراءه القرآن، و استماعه و خشوعه ٤٥٣

البكاء عند سماع القرآن ٤٦١

تلاوه القرآن ٤٦١

شروط الانتفاع بالقرآن ٤٦٢

موانع الانتفاع بالقرآن ٤٦٤

أسباب تفاوت الناس في فهم القرآن ٤٦٦

كيفية تلاوه القرآن ٤٦٨

حكم قراءه الجماعه بصوت واحد ٤٦٩

في كم يختم القرآن؟ ٤٦٩

دعاء ختم القرآن ٤٧٠

حكم قراءة القرآن بالفارسيه ٤٧١

النهى عن الجهر بالقرآن بحضره العدو ٤٧١

حكم الوضوء لقراءه القرآن ٤٧١

حكم قراءه الحائض القرآن و إعلال حديث المنع ٤٧٣

حكم مس المصحف للجنب و غيره ٤٧٣

النهى عن المرء فى القرآن ٤٧٧

حكم التسميه بأسماء القرآن ٤٧٨

حكم قراءه القرآن للميت ٤٧٩

شرط الواقف قراءه قرآن عند قبر ٤٨٢

النهى عن قراءه القرآن فى الركوع و السجود ٤٨٣

سجدات القرآن ٤٨٤

سجود التلاوه فى الانشقاق ٤٨٥

جزاء المعرض عن القرآن ٤٨٥

ص: ٤٩٦

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

